

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد

مُشْتَبِه النَّظْمِ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

بحث لنيل درجة العالمية « الدكتوراه »

إشراف

الأستاذ الدكتور
محمد عبد الرحمن بن محمد الدين الأندلسي
وكيل جامعة الأزهر

إعداد

محمد العزيز حسن عثمان خلكر
المدرس المساعد في الكلية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبارك و تعالیٰ ربنا ... لك الحمد على ما أنعمت به وأوليت
سجاناتي ... لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ حَوْلَ كَلَامِكَ مَا لَا يَرْضِيكَ
وَأُبرِّئُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ كَلِمَةٍ زَلَّ بِهَا الْقَلَمُ ، أَوْ غَفَلَ عَنْهَا الْقَلْبُ
أَوْ طَاشَ بِهَا الرَّأْيُ .
وَأَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِكُلِّ كَلِمَةٍ فَتَحَتْ لِقَارِئِهَا بَابًا مِنْ أَبْوَابِ
الْخَيْرِ ، وَسَّرَّ مِنْ أَسْرَارِ كِتَابِكَ الَّذِي لَا تَبْلَى جَدَّتُهُ ، وَلَا يَنْقُصُنِي
عَطَاؤُهُ ، وَلَا تَفْنِي عَجَائِبُهُ .
وَأُضْرِعُ إِلَيْكَ يَا رَحْمَنُ بِكَلِمَاتِكَ الَّتِي شَرَفْتَنِي بِدِرَاسَتِهَا
أَنْ تَجْعَلَ حَيَاتِي كُلَّهَا تَبْتَ لَا خَاشِعًا فِي مَحْرَابِ كِتَابِكَ الْعَظِيمِ
الَّذِي جَعَلْتَهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِكَ
إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ ؟

عبد العزيز حسن عثمان الخضر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين . . . " تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُثَابِرًا ثَانِي تَشَعَّرَ مِنْهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ " (١) .
والصلاة والسلام على من أوتى القرآن ومثله معه ، صلاة تنفعنا يوم لا ينفع نقمنا إيمانها لم تكن
آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا .

وبعد

فقد عشت مع تشبيهات الرسول (صلى الله عليه وسلم) في بحث سابق ، وكان من بين
ما لفت نظري وتعرفت عليه في دراستها ، عرضة (صلى الله عليه وسلم) المعنى في أكثر من حديث
بصيغ متعددة ، مستعينا في بعضها بالصورة التشبيهية .
وقد بينت في فصل عقدته للحديث عما تبين لي من صلات بين البيانين القرآني والنبوي في
إطار التشبيه ، أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) امتدى في هذه الظاهرة بالقرآن الكريم ،
الذي استقبله بقلبه ووعيه ووجدانه ، وانتفع بأسلوبه ، وبإحكام عبارته انتفاعاً لم يتح لبشر مثله .
فالقرآن الكريم كثيراً ما يردد المعنى في سياقات مختلفة من سور كثيرة ، مُقَلِّباً وجوهه ، مُرَكِّزاً في
كن سياق على ما يناسبه منه ، دالاً على ذلك بفروق في صياغة الكلمات والجمل .

من هنا بدأت فكرة هذا البحث تتكشف لي ، وتستولي على ، حتى أذن الله (تعالى)
باختيارها موضوعاً لدراستي في هذه الرحلة ، على ما به من مخاطر ، كنت أدركها بداية - ويدركها
مع كل باحث اقترب من القرآن الكريم في دراسته - لكنني مضيت ، مستعينا بمن بيده الحول
والسطول ، مستجيباً لنصيحة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " سَدِّدُوا وَقَارِبُوا " ، راغباً
في أن أخطو خطوة ، ولو قصيرة في طريق البحث حول لطائف القرآن وأسراره . . . هذا الطريق
المتد الفياح ، الذي لا ينتهي السير فيه ما بقيت عقول تفكره ونفوس تتدبره وأقلام تُسَطِّرُه
وقد اتجهت للمشتبهات - خاصة - وهي ما تكرر من أي القرآن بنوع اختلاف لأمره منها :
- ما أُثير حولها من شكوك وأباطيل ، إذا اتخذها الملحدون قديماً والمستشرقون حديثاً غبيرة
للضمن في بلاغة القرآن الكريم ، ورسمه بالركاكة والتفكك ، مع أنها احتوت على كثير من براهين
التحدي ، وعلامات الإعجاز ، من حيث ظنوا الركاكة والتفكك .

- ما تبين لي وشجعتني عليه الأساتذة الأجلاء في قسم البلاغة والنقد بالكلية، من أن دراسة هذه الآيات بلاغياً، تُعدُّ دراسة تطبيقية لنظرية النظم في أدقِّ جوانب التطبيق؛ إذ تتعرض للكلمات والجمل في أحوال متقابلة، أو متباينة في إطار الغرض الواحد لا ستظهِر — ما وراءها من أسرار، وفروق معنوية دقيقة . . . والتطبيق حياة البلاغة ونماؤها . . . وأجمل به إذا كان في القرآن الكريم، وفي آيات منه يحسبها ضعاف البصر متناكرة وهي عكس ما يظنون !
- رغبة قديمة — ترجع إلى عهد الصبا — في التعرف على الحكمة من اختلاف الصياغة في هذه الآيات، التي عانينا كثيراً من صعوبة حفظها، ووجه دلالتها بهذا الاختلاف على الإعجاز. ولكل بحث طبيعته التي تفرض منهجاً معيناً وخطة معينة، يتوقف وضوحه لقارئه على مدى ملاءمتها لموضوعه، ووفائهما بما يريد الباحث .
- وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أسير فيه — منهجاً وخطة — على النحو التالي :
- أتمت بعد هذه المقدمة على قسمين وخاتمة . أفردت القسم الأول لدراسة عامة — حول المشتبهات في ثلاثة فصول، رأيتها ضرورية قبل الدراسة التطبيقية التي خصصت لها القسم الثاني، وهو صلب البحث . وتأكدت ضرورتها منذ البداية في رحلة البحث عن المصادر المختلفة التي تعرضت لهذه الآيات .
- فقد وجدت أن بعض هذه المصادر بعنوان " المُشَابِه "، وأن أكثر الكتب الحاملة لهذا العنوان موضوعها التشابه المعنوي — المقابل للمحكم — وأن القليل منها بعنوان " المُشْتَبِه " . كما وجدت أن النظم له أكثر من تفسير عند من تحدَّثوا في الإعجاز القرآني من جهته، فعقدت لهذه الأمور الفصل الأول بعنوان : " مشتبه النظم مفهوماً وتحديدًا "، بيّنت في بحث أول منه أن اللغة تُجيز أن يأتي المشتبه والمُشَابِه بمعنى واحد، لكن بينهما فرق دقيق . فمن الدلالة، فأصل دلالة التشابه على المماثلة والمشاركة في بعض الصفات . وأصل دلالة المُشْتَبِه على اللبس الآتي من شدة التشابه . وأكدت في نهاية البحث على أن المُشْتَبِه هو اللفظ الأنسب في عنوان هذا البحث، لأن الآيات المشتبهات تكاد تتماثل لولا ما فيها من فروق، كثيراً ما تلتبس على الحافظين والتأليين لكتاب الله (تعالى) .
- وتتبع في بحث ثانٍ مصطلح " نظم " منذ تردد عند الحاجظ بغير مفهوم محدد، إلى أن استقر عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني علماً على نظرية واضحة المعالم في الإعجاز، على ضوءها حددت مسار الدراسة في هذا البحث .

ثم انتقلت إلى ما أثاره المحدثون والمستشرقون حولها من شكوك، ودفاع القداماء من لندن الجاحظ حتى ابن رشيق، مُرَكِّزاً فيما نقلته عنهم، على أثرها في بلاغة الكلام، والدواعى التى تتطلبها، والمقامات التى تحسن فيها وتُسْتَطَاب، مُبَيِّناً ما تتميز به - بوجه عام - فى القرآن الكريم كما تحدثت بإيجاز عن أنواع مختلفة من التكرار فى القرآن لتحديد موقع المشتبهات منها، وتعرضت للرأيين المتعارضين بالنسبة للقول بالتكرار فى القرآن الكريم، فبيّنت أن لكل وجهاً، وبذلك يفحس الخلاف الذى لا طائل وراءه، فالتكرار بالنظر إلى أصل المعنى والغرض العام، وعدم التكرار بالنظر إلى المعانى الجزئية التى تدل عليها الصياغات المختلفة للمعنى. ووجدت فى كلام البلاغيين ما يوضح هذا فذكرته فى موضعه.

ثم تحدثت عن مواقع التكرار فى القرآن فبيّنت أن التكرار ظاهرة واضحة فى كتاب الله، شائعة فى كثير من موضوعاته، وعلى ضوء ذلك ناقشت ما نقله أبو هلال العسكري عن الجاحظ، وردّه الرافعى مُتَحَسِّساً له، من القول بارتباط هذه الظاهرة بطائفة المخاطب، فحيث كان الكلام مع اليهود أو عنهم لجأ القرآن إلى البسط والتكرار، وحيث كان الحديث موجهاً إلى العرب أخرجهم إليهم مخرج الإشارة والوحى. وانتهيت من المناقشة إلى أن أبا هلال اقتصر على جزء من كلام الجاحظ، وما ذكره من الأدلة عليه ضعيف، وأن الرافعى أبعد النجعة حين تحسّن لهذا رأى ودافع عنه بأدلة أخرى، وأن شيوخ هذه الظاهرة من مقتضيات وصفه (سبحانه) للقرآن بقوله: " اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي " كما جاء فى تفسير الزمخشري لهذه الآية. ثم تحدثت بإيجاز عن أغراض التكرار فى القرآن، فبيّنت أن وراء كل جملة أو آية كررت فى القرآن سرّاً دقيقاً يمكن التعرف عليه من السياق، وهذا من صميم عمل الدراسة التطبيقية فى القسم الثانى، ثم أشرت إلى الأغراض العمامة التى يمكن ملاحظتها فى مكررات القرآن - بوجه عام - كالتقرير والتأكيد، وتجديد العهد بالمعانى القرآنية، خاتماً الفصل بما جمعه الزركش من فوائد أخرى للتكرار، جمعها من كلام السابقين، وبالإشارة إلى بعض علامات الإعجاز من خلال هذه الظاهرة الأسلوبية فى كتابه الله.

...

أما القسم الثانى فجعله بعنوان: " المشتبهات فى ضوء نظرية النظم "، وقسمته إلى

تمهيد وثلاثة فصول:

فى التمهيد أشرت إلى أن فروق الصياغة فى المشتبهات التى يسعى البحث لجصرها والحديث عن المشتبهات من خلالها، كل فرق منها يتمثل فى حالين من أحوال الكلمة أو الجملة - أو الجمل - جاء عليها النظم فى موضعين أو أكثر من القرآن حسب الأمثلة.

ووجدت أن أكثر المصادر التي تعرّضت للمشتبهات بين مفقود لم يعلم الباحثون عنه شيئاً ، ومخطوط لم ير النور بعد ، ومطبوع حُقِّق تحت عنوان غير عنوانه الصحيح ، أو اختلف في نسبه إلى صاحبه ، فعقدت الفصل الثاني للتعريف بهذه المصادر ، وعنوانه " المشتبهات في دراسات السابقين " بيّنت فيه أقدم الكتب الموجودة التي عُتبت بجمع هذه الآيات ، وهو كتاب " مُشْتَبَهَات الْقُرْآن الْعَظِيمُ " لعلي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ ، وأقدم الكتب التي عُتبت بتحليل الفروق فيها ، وهو كتاب " درة التنزيل وغرة التأويل " للإسكافي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ .

كما بيّنت الاتجاهات المختلفة لهذه المؤلفات — جمعا أو جمعا وتوجيها — وذكرت ما بها من ملاحظات . ووضحت صلتها بعضها ببعض ، واعتماد اللاحق منها على السابق ، والنقل عنه بإشارة إليه أو بغير إشارة . . . وما أكّدت عليه في هذا أن ما ذكره الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٢ هـ في كتابه الكبير " بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز " من توجيهات للمشتبهات ، منقول بأكمله من كتاب " البرهان في مشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان " للكرمانى المتوفى بعد سنة ٥٠٠ هـ .

وناقشت كثيراً مما أثير حول بعضها من آراء مختلفة ، وانتهيت إلى ما اقتنعت به . . من ذلك كتاب لمقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، قيل : إنه في التشابه اللفظي ، وقيل إنه في التشابه المعنوي ، وأكّدت بالدليل على أنه في موضوع آخر غير التشابه بنوعيه . كما أكّدت على نسبة كتاب " درة التنزيل وغرة التأويل — المطبوع بهذا العنوان — إلى الإسكافي ، بأدلة ذكرتها في موضعها .

وأوجزت في نهاية الفصل الحديث عن مناهجها واتجاهاتها المختلفة ، وموقف هذا البحث منها وصلته بها .

والقون بالتكرار في القرآن الكريم لم يزل مثار جدل بين الباحثين ، فمنهم من تدفعه الغيرة على كتاب الله — وكلنا يغار عليه — لنفيه مطلقاً . ومنهم من يرى أنه سنة من سنن التعبير عند العرب جاراهم فيها القرآن الكريم ، كما جاراهم في غيرها من طرائق التعبير . . ولأن المشتبهات صورة من صور التكرار ، إذ هي تكرار بنوع اختلاف في أحوال الكلمات والجمال فقد اضطررت لعقد الفصل الثالث والأخير في هذا القسم بعنوان : " المشتبهات وظاهرة التكرار في القرآن الكريم " تحدث فيه عن قدم هذه العادة البيانية ، واهتمام الإنسان إليها بفطرتها ، وشيوعها عند العرب قبل مجئ الإسلام ، ومجارات القرآن لهم فيها ، وحسن استخدامها لها .

وأخيرا : فهذا هو البحث بعد أن بذلت فيه ما ألدّنى الله به من
طاقة، ورزقنى من فهم ... فإن يكن فيه من خير، فمن توفيقه
(سبحانه) وهديه، وما كان غير ذلك فمنى ؛

وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ نِيَّ بَشَرٌ أَسْهَرُواْ أُخْطِئُ مَا لَمْ يَحْصِنِ الْقَدَرُ

...

• رَبَّنَا لَا تُؤْخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا
وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْمِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * (١)

القاهرة - رمضان ١٤٠٤ هـ

يونيه ١٩٨٤ م

وأن هذه الأحوال تجاوزت المعروف في حديث البلاغيين المتأخرين، كالتعريف والتكبير، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، إلى غير ذلك كالأفراد والتثنية والجمع واختلاف مقاطع الجمل بالنسبة لما قبلها، واختلاف خواتيم الآيات بالنظر إلى أوائلها وأشارت فيه أيضا إلى أن الأمثلة على هذه الفروق تختلف من فرق لآخر، فمنها الكثير الذي يدل على الفرق الواحد في صور متعددة، ومنها القليل الذي يدل على الفرق، في صورة واحدة، كما أن المثال الواحد يتكون من آيتين فقط أو من آيات كثيرة، وقد راعيت ذلك فيما اخترت وعرضت من أمثلة .

وإلى ما التزمت به في دراسة الأمثلة المختلفة، من التعرض لكل ما يوجد من فروق في المثال الواحد، بالإضافة إلى الفرق موضع النظر أساسا .

وفي الفصل الأول تحدثت عن فروق الصياغة بالنظر إلى أحوال المقدرات في المشتبهات، كالاختلاف بالتعريف والتكبير، وبوسيلة التعريف، وبالإظهار والإضمار، وبالأفراد والجمع، وبالأفراد والتثنية والجمع، وبجمع القلة وجمع الكثرة، وبالتذكير والتأنيث، وباسم الفاعل واسم المفعول، وبالماضي والمضارع في الأفعال، وبالتذكير الفعل وتأنيثه، وبسجى الفعل على الأصل ومجيئه على صيغة الافتعال، وبالتعدية بالهمزة وبالتضعيف، وببناءه للفاعل وللمفعول، وببنائه للواحد وللجمع، وبسجيته على الأصل وتخفيفه، وبسجيته الحرف على أصله ومجيئه مخففا بحذف أحد أصوله .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن فروق الصياغة بالنظر إلى تركيب الجملة وأحوال أجزائها من جهة التركيب، كالاختلاف بالتقديم والتأخير في صور كثيرة، وبالحذف والذكر في صور كثيرة أيضا، والاختلاف في بعض الكلمات بحروف وأسماء وأفعال . والاختلاف في مقاطع الجمل، وفي جهات التعلق بين الألفاظ .

وفي الفصل الثالث تحدثت عن فروق الصياغة بالنظر إلى أحوال الجمل في الآيات المشتبهات، وعلاقاتها بعضها ببعض من جهة، وبما تقدم عليها أو تأخر عنها في الآيات غير المشتبهات من جهة أخرى، كالاختلاف بالفصل والوصل في صورة كثيرة، وبحروف العطف في صورة متعددة، وبالتقديم والتأخير، والاختلاف في خواتيم الآيات المتحدة أوائلها، وفي مبادئ الآيات المتحدة خواتيمها، والاختلاف بالزيادة والنقصان .

وقد استعنت في الحديث عن الأمثلة المختلفة لهذه الفروق بتوجيهات السابقين في كتب التشابه التي تعرضت لمشتبهات، وكتب التفسير، ولفظاً نصّب عيني مقولات البلاغيين، ناقلاً منها ما يقتضي السياق نقله دون إطالة، مسترشداً بكل ما يمكن الاسترشاد به من الدراسات القرآنية، ومعالجة اللغة، وعلوم القرآن .

ولم أكن فيما جمعت من توجيهات، مخاطب ليل، وإنما اخترت ما اقتنعت به، ووضّحت ما وجدت غامضاً، وناقشت ما يستحق المناقشة، وأضفت ما فتح الله عليّ به، والتزمت بالإشارة إلى مصدر كل توجيه في موضعه ليجهل الرجوع إليه في مظانّه .

ومن الصعوبة بمكان أن أستخلص هنا ما تعرّفت عليه الدراسة، من أسرار القرآن وعلامات إعجازه .

وفي الخاتمة أشرت إلى موضوعات جديدة بالدراصة المستقلة، تعرّفت عليها من خلال سيرتي في هذا البحث .

.....

ويعلم الله (عز وجل) كم عانيت في جمع شتات هذا البحث، والحرص على إخراجته في صورة مناسبة، فلقد كان من الممكن أن أعكف على مؤلف واحد من المؤلفات التي تعرضت للمشتبهات أستخرج منه الفروق، والحديث عن توجيهاتها، أو اكفني بالحديث عن الفروق التي اشتدت على الأحوال المعروفة في حديث البلاغيين كالذكر والحذف والتقديم والتأخير . . الخ . وهذا ماوافق عليه الأساتذة عند تسجيل هذا الموضوع، ولكنني أردتها دراسة شاملة لمعظم الفروق - إن لم تكن كلها - من خلال ما أتيح لي معرفته من مصادر مختلفة وهانت المعاناة، وتحولت إلى متعة ببركة القرآن الكريم . . وعند الصّباح يحمّدُ القوم السّرى . .

وإن أنسى لا أنسى في هذا المقام نعمة ساقها الله إليّ على يد شيخى الجليل فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الكردي، حيث قبل الإشراف على هذا العمل، فتعهّده بالرعاية فكان بذرة في البحث السابق إلى أن استوى على سوقه في هذا السفر . وكــــان لتوجيهاته وتصويباته الفضل فيما انتهى إليه البحث على هذه الصورة وكم له على الباحث وصاحبه من أياذ، أرجو الله أن يكافئه عليها خير مكافأة، وأن يجزيه عنّي وعن طلاب العلم أحسن الجزاء .

القسم الأول

دراسة عن المشتبهات في الفصول المتتالية

الأول: مشتبه النظم مع غيرها وما وقع به

الثاني: المشتبهات في دراستها السابقة

الثالث: المشتبهات وظاهرة التكرار

في القرآن الكريم

الفصل الأول

مشتركة بين الخطيبين

منهوماً وتحدثاً

أتحدث في هذا الفصل عن معنى المِثْبَةِ ومعنى النظم بالقدر السلفي
بوضحها ، ويحدد المراد بهما هذه الدراسة ، ذلك أن المِثْبَةَ والمِثْبَةَ
كثيرا ما يردان بمعنى واحد ، مع ما بينهما من فرق دقيق ، يجعل لكل منهما
دلالة مستقلة وإن جاز وقوع الآخر دال على معناه . كما أن للنظم تفسيرات متعددة
عند القدماء ، أدت إلى اختلافهم في تحديد معنى الإعجاز من جهته ، وتفصيل ذلك
فيما يلي : -

أولا : المِثْبَةُ والفرق بين المِثْبَةِ

إذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أنه استخدم لفظ "مِثْبَةُ" ست مرات (١) ،
ولفظ "مِثْبَةُ" مرة واحدة (٢) ، وقد اجتمعا في قوله (تعالى) من سورة الأنعام "وَالزَّيْتُونَ
وَالرُّمَّانَ مِثْبَاهًا وَغَيْرَ مِثْبَاهٍ" (٣) وأصلها واحد ، وهو مادة "شبه" التي يرد
معناها حول الماثلة والمِثْبَةُ والمِثْبَةُ . يقول ابن فارس (رحمه الله) : "المِثْبَةُ
والباء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونا وصفا" (٤) . تفرع
عن هذه المادة أبنية كثيرة منها الاشتباه والتشابه .

وصيغتا الافتعال والتفاعل تأتيان لإفادة معنى واحد في بعض الكلمات ، يصح
على أساسه - أن يستعمل الفعل لكل منهما مع الصيغة الأخرى في جملة واحدة ، فـ
جاء في "الكتاب" لسبويه (رحمه الله) "باب ما جاء المصدر فيه على غير الفعيل
لأن المعنى واحد ، وذلك كقولك : اجتوروا تجاورا ، وتجاوزوا اجتورا ، لأن معنى
اجتوروا وتجاوزوا واحد" (٥) . وهو كلام صريح في أن الصيغتين تأتيان لإفادة معنى
واحد - أخذا من هذا المثال ومن عنوان الباب - لكن يلاحظ فيه إطلاق الحكم بالاشتراك
في المعنى بينهما . ومننا على هذا الإطلاق ، وقبيلنا على المثال السابق يصح أن
يكون الاشتباه والتشابه بمعنى واحد ، فيكون المِثْبَةُ هو عين التشابه .

- (١) تراجع في البقرة / ٢٥ ، آل عمران / ٧ ، الأنعام / ٩٩ ، ١٤١ ، الزمر / ٢٣
بعض النظم عن تذكير اللفظ واختلاف إعرابه في الآيات .
(٢) الأنعام / ٩٩ (٣) الآية السابقة .
(٤) قاموس اللغة ، مادة (شبه) ج ٣ ص ٢٤٣ ط ١ عيسى الحلبي ١٣٨٦ هـ
(٥) الكتاب ج ٤ ص ٨١ بتحقيق الأستاذ / عبد السلام هارون : مطابع الهيئة
العامة المصرية للكتاب ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م وتراجع أمثلة أخرى في نفس
الصفحة .

وقد أشار الزمخشري (رحمه الله) إلى هذا في تعليقه على آية الأنعام
سألقة الذكر، لكنه قيد الحكم بالاشتراك ، فجعله مما يقع كثيرا ، لا مطلقا ، حيث يقول :
" اشتبه الشيطان وتشابهها ، كقولك : استويا وتساويا ، والافتعال والتفاعل يشتركان
كثيرا " (١)

وتابع في هذا التقييد بعض المفسرين كالرازي والنسفي ، اللذين نقس
نص كلامه في التطبيق على نفس الآية (٢) .

وأشار إلى هذا الاشتراك - أيضا - أبو حيان (رحمه الله) ، لكنه
تابع سيبويه في إطلاق الحكم ، حيث يقول في تعليقه على الآية السابقة : " قرأ
الجمهور مُشْتَبِهًا ، وقرأ شاذًا مُتَشَابِهًا ، وهما بمعنى واحد : كاختصاص
وتخاصم ، واشترك ، واستوى وتساوى ، ونحوهما ما اشترك فيه باب الافتعال
والتفاعل " (٣)

وعلى أي قول من هذه الأقوال فالنتيجة واحدة ، وهي أن المشتبه
والمتشابه يأتيان بمعنى واحد وخصوصا في هذه الآية عند أكثر المفسرين .

غير أن متابعة استعمالات القديان الكريم لهما ولغيرهما من الأبنية المشتقة
من مادتهما ، وكذلك استعمالات العرب القديما - فيما أخبرت به المعاجم - تدل
على أن لكل منهما دلالة أصلية يستقل بها ، وأخرى فرعية حيث يقع موقع الآخر .

فأصل دلالة التشابه على الاشتراك في بعض الصفات ، يقال : تشابه
الشيطان ، أي اشتركا في بعض الصفات ، والشئ المشتبه بالشئ أي المشترك معهما .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٠ ، تحقيق / محمد الصادق قمحاوي ،
ط . مصطفى الحلبي ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

(٢) يراجع تفسير ثقاتيح الغيب " ج ٤ ص ١٠٨ ، المطبعة الحسينية المصرية
وتفسير النسفي ج ٢ ص ٢٥ - ٢٦ ، مطبعة عيسى الحلبي .

(٣) تفسير البحر المحيط ، ج ٤ ص ١٩١ طبع ونشر مكتبة النصر الحديثة
بالرياض .

ففى صفة أو أكثر من صفاته . . . وقد يستعمل فى الدلالة على هذا - أيضا -
الاشتباه ، والمشتبه . ولذا نجد فى بعض نصوص المعاجم الجمع بين الفعلين
" تشابه واشتبه " فى الدلالة على هذا المعنى .

(١)
ففى لسان العرب " تشابه الشيطان واشتبهها : أشبه كل واحد منهما صاحبه " ^(١)
ويستشهد ابن منظور (رحمه الله) على هذا بآية الأنعام السابقة ، المتى فُصِّرَ المشتبه
فيها بمعنى المتشابه (٢) .

وفى أساس البلاغة يذكر الزمخشري فى الدلالة على التشبيه : " تشابه
الشيطان واشتبهها وشَبَّهته به ، وشبهته إياه " (٣)

وفى المنجد " تشابه الرجلان واشتبهها : أشبه كل منهما الآخر " (٤)

أما أصل دلالة الاشتباه فعلى اللبس أو الغموض الآتى من شدة الشبه بين
الشيئين أو الأشياء ، يقال : اشتبه الشيطان ، أى اشتد الشبه بينهما إلى درجة
يصعب معها التفريق والتمييز لكل منهما ، والشئ " المشتبه بالشئ " ، هو الملتبس
به لكثرة الأمور المشتركة بينهما .

وعلى هذا فالتشابه أصل فى الاشتباه ، فكل مشتبه متشابه ، ولا عكس .
كما أن المشتبه بهذا المعنى يلتقى بمعنى المِثْبَةِ - من الشُّبْهَةِ - وهى كالقال
الراغب لأصفهاني (رحمه الله) : " ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما
من التشابه عينا كان أو معنى " (٥) . كما يلتقى بمعنى المِشْكَل ، وهو الأمر الغموض

(١) ، (٢) لسان العرب ، مادة " شبه " ج ١٧ ص ٣٩٨ ، الدار
العصرية للتأليف والترجمة مطابع كوستا توماس .

(٣) أساس البلاغة ، مادة " شبه " ص ٢٢٨ ، تحقيق / عبد الرحيم فسيودة
دار المعرفه للطباعة والنشر ببيروت .

(٤) المنجد فى اللغة مادة " شبه " ص ٣٨٣ ظ ٥ المطبعة الكاثوليكية ببيروت

(٥) المفردات فى غريب القرآن ، مادة " شبه " ص ٢٥٤ تحقيق محمد سيد كيلانى
ط . مصطفى الحلبي ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ .

بالفهم والإيهام ، لأنه كما يقول ابن قتيبة (رحمه الله) : " أشكل أى تدخل نفس شكل غيره فأشبهه وشاكله " (١) ، وفي مختار الصحاح : " أشكل الأمر : التبس " (٢) ، وفي المنجد : " المّشكل والمشكلة : الأمر الصعب أو الملتبس " (٣)

والمعاجم في توضيحها هذا المعنى للمشتبه تربط في حديثها عنه بين لفظ " مشتبه " ولفظي " شبه ومشكل " فقد جاء في لسان العرب " والمشتبهات من الأمور : المشكلات . . . والشبهة : الالتباس ، وأمور مشتبهه ومشبّهة . . . يشبه بعضها بعضا " (٤) ، وفي القاموس المحيط " وأمور مُشْتَبِهَة ومُشَبَّهَة كعُظْمَاء : مشكلة " (٥)

وكما جاء المشتبه بمعنى المتشابه فيما تقدم ، فقد جاء المتشابه - أيضا - بمعنى المتشبه . وقد أشارت المعاجم إلى هذا في نصوص أخرى جمعت بين الفعلين : " اشتبه وتشابه " في هذه الدلالة

ففي أساس البلاغة " اشتبهت الأمور وتشابهت : التبت لإشياء بعضها بعضا " (٦)

وفي القاموس المحيط " تشابه واشتبها : أشبه كل منهما الآخر حتى التباسا " (٧)

وفي المصباح المنير " اشتبهت الأمور وتشابهت : التبت فلم تتميز ولم تظهر ، ومنه اشتبهت القيلة ، ونحيها ، والاشتباء : الالتباس " (٨)

-
- (١) تكملة مشكل القرآن ص ٧٥ تحقيق / السيد صفير ، ط . عيسى الحلبي .
(٢) مختار الصحاح مادة " شكل " المطبعة الأميرية ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م .
(٣) سادة شكل ص ٤١٠ .
(٤) مادة شبه " ج ١٧ ص ٣٩٨ .
(٥) القاموس المحيط ج ٤ ص ٢٨٦ ، مطبعة السعادة بمصر .
(٦) مادة " شبه " ص ٢٨٨ .
(٧) مادة " شبه " ج ٤ ص ٢٨٦ .
(٨) المصباح المنير ، مادة " شبه " ج ١ ص ٣٠٤ ، تحقيق الدكتور / عبد العظيم الشناوي - طبعة دار المعارف .

وجاء في القرآن الكريم - أيضا - ما يدل على هذا الاستعمال وذلك في قوله (تعالى) : " هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ " (١) حيث إن التشابه في هذه الآية - بنسبة على أوضح ما جاء في تفسيره - بمعنى المشكل الخفى الدلالة ، وسيرد تفصيل ذلك بعد .

ويؤكد على هذا الفرق الدقيق بين لفظي " مشتبّه " و " متشابه " - عا - الرغم من وقوع كل منهما موضع الآخر - ما جاء في استعمالات القرآن الكريم لهما ، فقد استعمل القرآن لفظ " متشابه " في خمسة من المواضع الستة المشار إليها فيما سبق بمعنى التوافق والاشتراك في بعض الصفات ، وهي الدلالة الأصلية لهذا اللفظ (٢) . واستعمله في موضع واحد فقط بمعنى الملبس أو المشكل ، كما جاء في آية آل عمران السابقة .

أما لفظ " مشتبّه " فقد جاء في موضع واحد من القرآن ، واتفق أكثر المفسرين على أنه في هذا الموضع بمعنى المتشابه (٣) . وخالفهم في ذلك البقاعي (رحمه الله) فجعل النظم في الآية الكريمة من الاحتباك ، وذلك بإثبات المشتبّه ونفى المتشابه للدلالة على نفي المشتبّه وإثبات المتشابه ، وتقدير الكلام : والزيتون والرمان مشتبّهان وغير مشتبّه ، ومتشابهان وغير متشابه . . . أي أن بعضه في غاية الشبه ببعضه حتى لا يكاد يتميز ، وبعضه مشارك لبعضه في اللون والقدر والطعم (٤) . وهذا التوجيه يؤكد البقاعي على الفرق في المعنى بين اللفظين . وقد نص صاحب تفسير المنار على أن هذا الفرق ، حيث يقول في تعليقه على هذه الآية : " والحق أن بين الصفتين فرقا ، فعنى اشتبهها : التبرأ أحدهما بالآخر من شدة الشبه بينهما . ومعنى تشابهها : أشبه أحدهما الآخر ولو في بعض الوجوه والصفات ، فهذا أعم

-
- (١) آل عمران / ٧ .
 (٢) تنظر هذه المواضع في : البقرة / ٢٥ ، الأنعام / ٩٩ ، ١٤١ ، الزمر / ٢٣ .
 (٣) المعنى الأعلى له والذي دعاهم إلى هذا الاتفاق - قراءة أخرى لهذه الآية بلفظ متشابه ، وفي حالتها النفي والإثبات ، كما في الآية الأخرى من نفس السورة - آية / ١٤١ . وأشار إلى هذه القراءة الزمخشري في الكشاف ج ٢ ص ٤٠ وأبو حيان في البحر المحيط ج ٤ ص ١٩١ .
 (٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢ ص ٢٦ نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٣ تفسير .

ما قبله " (١)

ويؤكد على هذا الفرق - أيضا - ما جاء في لسان العرب من برهنة ابن منظور على أن الأمور المشتبه والمُشَبَّه هي المشكلة دون المتشابه ، بما رواه ابن العباس عن ابن الأعرابي " قال : وسألت عن قوله (تعالى) : " وَأَنْتَوَايِسُ مُتَشَابِهًا " فقال : ليس الاشتباه المشكل ، وإنما هو من المتشابه بمعمول الاستواء " . (٢)

وما جاء في مقاييس اللغة عند ابن فارس من تخصيصه المشتبهات والمُشَبَّهات فقط بالإشكال واللبس ، ولم يتعرض للمتشابهات ، وذلك في قوله : " والمُشَبَّهات من الأمور : المشكلات ، واشتبه الأمان : إذا أشكلا " . (٣)

وما جاء في مختار الصحاح من العقابلة بين اللفظين عند تفسيرهما هكذا : " والمُشَبَّهات من الأمور : المشكلات ، والمتشابهات : المتماثلات " (٤)

وما جاء عند الراغب الأصفهاني في تعليقه على لفظ " مُشَابِه " في قوله (تعالى) : " وَأَنْتَوَايِسُ مُتَشَابِهًا " (٥) بقوله : " يشبه بعضه بعضا لونا لا طعما وحقيقة ، وقيل : متماثلا في الكمال والجودة ، وقرئ قوله : " مُشَبَّهًا وغير متشابه " متشابهها جميعا ، ومعناها متقاربان " .

وما جاء عند ابن الزبير الأندلسي (رحمه الله) من تأكيد على هذا التقارب الدال على أنهما متغايران لا متماثلان ، حيث يقول معلقا على آية الأنعام : " ورد في هذه الآية " مُشَبَّهًا وغير متشابه " وفي الآية بعد ذلك : " متشابهها وغير متشابه " والجواب عن ذلك أن مُشَبَّهًا ومتشابهها لا يفرق بينهما إلا ما لا يُعَدُّ فارقا ، إذ الاتصال

(١) تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنارج ٧ ص ٦٤٣ تأليف السيد محمد

رشيد رضا ط . دار المنار ١٣٦٧ هـ .

(٢) مادة " شبه " ج ١٧ ص ٣٩٨ .

(٣) ج ٣ ص ٢٤٣ (٤) مادة " شبه " ص ٣٢٨ (٥) البقرة ٢٥٧

(٦) المفردات في غريب القرآن ، مادة " شبه " ص ٢٥٤ .

والتفاعل متقاربان ، أصولهما الشين والها ، والها من قولك : أشبه هذا هذا : إذا
قاربه ومائله (١) .

وما جاء في شرح الحديث الشريف * الحلال بَيْنَ والحرام بَيْنَ وبينهما
مُشْتَبِهَات من تأكيد على أَنَّ المشتبهات هي الأمور المشككة ، فقد ذكر
العيني (رحمه الله) في شرحه على صحيح البخاري الروايات المتعددة في
لفظ * مشتبهات * وهي : مُشْتَبِهَات - مُشْتَبِهَات - مُشْتَبِهَات - مُشْتَبِهَات -
مُشْتَبِهَات ، ثم ذكر أنها كلها من اشتبه الأمر إذا لم يتضح ، غير أن معني
الأولى : المشكلات من الأمور لما فيه من شبه الطرفين المتخالفين ، فيشبه مرة هذا
ومرة هذا ويشْتَبِه ، يفعتعمل أى يشكّل . (٢)

ويلتقى اللفظان مرة أخرى في مدلول واحد ، يستويان في تحقيقه ، وهو
الخفاء أو اللبس . كما يشاركهما في إفادته كل الأبنية المشتقة من نفس المادة ،
وذلك إذا ما قيّدت جميعها بحرف الجر * إلى أو على * والفرق بين التقييد بإلى
والتقييد بعلى أن الخفاء إذا كان آتيا من جهة الغير يفيد الفعل معه بإلى ،
وإذا كان آتيا من جهة المتكلم نفسه يفيد الفعل بعلى .

وما جاء في القرآن الكريم دالا على هذا قوله تعالى (حكاية عن بني إسرائيل)
* إِنَّ الْفَرْتَشَاءَ عَلَيْنَا * (٣) وفي سياق محاكاة المشركين : * أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ
خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ * (٤) وفي الحديث عن النصارى : * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا
قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ * (٥) .

-
- (١) في * ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ
من أي التنزيل * ج ٢ ص ٢٢٠ بتحقيق د / محمود كامل رسالة دكتوراه
مخطوطة بجامعة عين شمس تحت رقم ١١ / ٧ ام ك بالمكتبة المركزية .
- (٢) عدة القاري شرح صحيح البخاري ج ١ ص ٢٩٧ الطباعة المنورية لمحمد منير الدمشقي .
- (٣) البقرة / ٧٠ (٤) الرعد / ١٦
- (٥) النعام / ١٥٧ وينظر في توضيح معاني هذه الآيات : تفسير الطبري ج ٢ ص ٢١٠
ج ١ ص ٣٦٢ بتحقيق الأستاذين محمود شاكر ، أحمد شاكر ، ج ١٦ ص ٤٠٧

ومن حديث المعاجم : " شَبَّهَ عليه : خَلَطَ عليه الأمر حتى اشتبه بغيره " (١)
 مُشَبَّه عليه الأمر تشبيها : لَهَسَ عليه (٢) وإياك والمشبّهات (٣) أي عليه منك
 أولك ، وهى المشكلات ، " واشتبه عليه الشئ : التبس واختلط " (٤)

بقى الحديث فى هذا الصدد عن الآية السابعة من سورة آل عمران ، وهى
 التى ورد فيها اللفظان " تشابه ومتشابه " بالمعنى الأصلى للفظين " اشتبه ومُشْتَبِه
 جريا على الاستعمال الجائز ، الذى تقدم تفضيله . وما يهمنى فى الحديث عن
 ما يظن - فى الظاهر - من التعارض بين مدلولها الذى يصف بعض آيات القرآن الكريم
 بالتشابه ومعضها بالإحكام ، حيث يقول الحق (سبحانه) : " هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ
 الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ " وبين مدلول آية
 الزمر الذى يصف آيات القرآن كلها بالتشابه ، وذلك فى قوله (تعالى) : " اللَّهُ نَزَّلَ
 أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى " (٥) ومدلول آية هود الذى يصف آيات القرآن
 كلها بالإحكام ، وذلك فى قوله (تعالى) : " أَلَمْ يَكُنْ أَوْحَى الْكُتُبَ أَحْكَمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلَتْ مِنْ لَدُنْ
 حَكِيمٍ خَبِيرٍ " (٦) . فلقد كان هذا التعارض الظاهرى شارحاً لى وتناقش طويل بين علماء
 المسلمين فى محاولاتهم التوفيق بين هذه الآيات من جهة ، وللدرد من جهة أخرى
 على الطاعنين فى بلاغة القرآن الكريم ، الذين يتشبهون بأمثال هذه المواضع فى القرآن
 دونما نقه بأسرار اللغة ، ودراية باستعمال الكلمات فى محيطها الرحب ، وإنما ابتغوا
 الفتنة ، وابتغوا تحريفه وتشويهه !!!

ومما ذكر فى التوفيق بين هذه الآيات ، يتضح - بإيجاز - مايلى :
 المقصود بالتشابه فى آية الزمر : التشابه فى الفصاحة والبلاغة والإتقان والهداية

بتحقيق الأستاذ / محمود شاكر ، ط ٢ دار المعارف ، تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٨
 ج ٢ ص ٣٥٥ ، ج ١ ص ٥٨٠ ، تفسير القرطبي ص ٣٨٤ ، ٢٠٠٥ ، ٣٥٣٢
 ط دار الشعب .

- (١) لسان العرب ، " مادة " شبه " ج ١٢ ص ٣٩٨ .
- (٢) القاموس المحیط مادة " شبه " ج ٤ ص ٢٨٦ .
- (٣) أساس البلاغة " شبه " ص ٢٢٨ ، المنجد ص ٣٨٣ .
- (٤) مختار الصحاح " شبه " ص ٣٢٨ .
- (٥) الزمر / ٢٣ (٦) هود / ١

والحق والصدق والإعجاز ، وعدم التناقض والاختلاف ، كما أشارت الآية الكريمة " بَلَوْ
كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا " (١) وكذلك التشابه في مقاصد المسور
وأغراضها ، وما فيها من عظات وعبر ، وبشارة ونذارة ، فالقرآن كله من هذه الجبهات
يشبه بعضه بعضا .

والمقصود بالإحكام في آية هود (٢) : الإتيان في النظم والقصا والبيان
وعدم تطرق النقص والخلل إليه ، وعدم التفاوت في النسق والإعجاز ، فالقرآن كله من هذه
الجبهات - أيضا - على درجة واحدة : " لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ " (٣)

وعلى ضوء هذين التفسيرين للمشتابه والمحكم يمكن القول بأن القرآن كله متشابه
في إحكامه ، كما أنه محكم في تشابهه .

أما التشابه والإحكام الواردان في آية آل عمران ، فعلى الرغم من اتفاق المفسرين
على أن المراد بهما فيها يختلف عن المراد بهما في غيرها إلا أنهم اختلفوا في تحديد
هذا المراد ، فذكروا تفسيرات متعددة أبينها وأعما : أن المحكم ما كان ظاهر
الدلالة ، واضح المعنى ، محفوظا من الاحتمال والاشتباه ، والتشابه على العكس
منه ، فهو ما حفيت دلالة على مراد الله (عز وجل) منه ، واحتمل وجوها
مختلفة ، قد يظهر بعضها بالنظر الدقيق . (٤)

-
- (١) النساء / ٨٢ .
(٢) وفي غيرها ما يدل على وصف القرآن كله بالإحكام - على الرأي الذي يوجه هذا
الوصف للآيات - كما في يونس / ١ ، يس / ٢ .
(٣) فصلت / ٤٢ .
(٤) يراجع في هذا : تفسير الطبري ج ٦ ص ١٧٤ - ٨٢ ، الكشاف ج ١ ص ٤١٢ ،
ج ٢ ص ٢٥٧ ، ج ٣ ص ٢٩٥ ، تفسير القرطبي ص ١٢٥١ - ١٢٥٣ ، البحر
المحيط ج ٢ ص ٣٨١ - ٣٨٣ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١
ص ٣٤٥ - ٣٤٨ ط . عيسى الحلبي ، مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب
آي التنزيل / لمحمد بن عبد القادر الرازي ص ٢٧ - ٢٧ ، تحقيق
إبراهيم عطوة عوض ، ط . ونشر مصطفى الحلبي ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م

والمتشابه بهذا المعنى قسمه الراغب الأصفهاني - أخذ من آراء الفقهاء -
إلى : متشابه من جهة اللفظ ومتشابه من جهة المعنى ، ومتشابه من جهتي اللفظ
والمعنى . ثم قسم التشابه اللفظي إلى قسمين : ما يرجع إلى الألفاظ المفردة ، إما
من جهة الغرابة ، وإما من جهة الاشتراك . وما يرجع إلى جملة الكلام المركب ، إما لاختصاره
وإما لبسطه ، وإما لتنظيمه (١)

ومن هذه التقسيمات يتبين أن التشابه قد يكون من جهة النظم ، وليس
بالمعنى الذي تهدف إليه هذه الدراسة ، وإنما بمعنى الخفاء والغموض اللتين من جهة
نظم الكلام . وهذا من التوسع والجري وراء كل ما يشتتم فيه الغموض والخفاء لإطلاق لفظ
" التشابه " عليه وقد نبه ابن قتيبة قديماً إليه ، حين قال وهو يوضح معنى التشابه :
" وأصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر والمعنيان مختلفان " ثم يقال
لكل ما غص يدق : متشابه وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره " (٢)

من كل ما تقدم أخلص إلى تحديد معنى المشبهة الذي أريده في هذه الدراسة ،
فليس هو معنى التشابه الورد في آية آل عمران - بناءً على أن اللفظين يقع كل منهما
موقع الآخر - الذي ألفت فيه مؤلفات كثيرة ، والذي إذا أُطلق عليه لفظ التشابه تبادر هو
إلى الفهم ، وليس بالمعنى الورد في تقسيمات الراغب ، والتي ينصرف الوصف فيها كلها

البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي ج ٢ ص ٦٨ - ٧١
تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ط . عيسى الحلبي ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٢ م
تفسير روح المعاني للألمسي ج ٣ ص ٨١ - ٨٢ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت
الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي ج ٢ ص ٤٠٣ ط ٤ مصطفى الحلبي
١٣٩٨ - ١٩٧٨ م ، تفسير المنار ج ٣ ص ١٦٣ - ١٦٦ ، مناهل العرفان
في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ج ٢ ص ٧٠ - ٢٧٤ ط ٣ عيسى الحلبي ،
١٣٧٢ هـ متشابه القرآن - دراسة موضوعية د / عدنان زرزور ص ٥٢ - ٥٣ ط ١ نشر وتوزيع
مكتبة دار الفن بدمشق ، النظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدي
ص ٣٦ - ٣٧ ، المطبعة النموذجية ، نشر مكتبة الآداب بالجماميز .

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٧٥ .

إلى الخفاء والمعرض . وإنما الذي أريد ، وأكثر من أجله إضافة الكلمة إلى النظم " هو التراكيب التي اشتبهت في صياغاتها ، سواء كانت آيات كاملة أم أبعاض آيات ، وسواء لا حظنا أصل دلالة المشبه وهو الإلباس الآتى من شدة التشابه ، أم الدلالة الأخرى وهي إطلاق معنى المشابهة " ، وإن كانت الدلالة الأولى أقوى وأدل على المراد ، حيث إن هذه التراكيب تكاد تتماثل من شدة التشابه في صياغاتها لولا فروق فيها تتعلق بأحوال الكلمات والجمل ، كثيراً ما تلتبس على الحافظين والتأليين لكتاب الله (تعالى) .

وقد أثرت استخدام كلمة " مشبه " مع جواز استعمال الأخرى لهذا ، ومتابعة لأشهر المؤلفات القديمة التي عُنيت بالحديث عن المشبهات ، وهو كتاب " مشبهات القرآن العظيم " لمؤلفه علي بن حمزة المعروف بالكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ (١) ، وللتعريق في الإطلاقيين المشابه الذي ينصرف غالباً إلى التشابه بمعناه الوارد في آية آل عمران ، وبين التشابه اللفظي بالمعنى الذي أريد بالمشبه ، كما جاء في بعض المؤلفات القديمة التي عُنيت بدراسة التشابه (٢) ، لا بالمعنى الذي سار عليه الراغب في تقسيماته ، إذ كلما مندرجة تحت ما أشكل تفسيره وخفيت دلالة .

ومن الجائز أن يكون السير على قد نظر لهذه الأمور فتحدث عن أمثلة لهذه المشبهات في نوع مستقل تحت عنوان " في الآيات المشبهات " وخصص للحديث عن التشابه بالمعنى الآخر نوعاً مستقلاً تحت عنوان " في المحكم والمشابه " (٣) .

وقد سبق الزركشي بالفصل بين غذين النوبين ، لكن يبدو أنه راعى التبادل الاستعمالي بين اللفظين " مشابه ومشبه " فاكفى باستخدام التشابه في الموضعين

(١) الكتاب مخطوط ، ومنه نسخة مصورة بالليكنوفيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية تحت رقم ٢٤٠ تفسير ، وسيرد حديث مفصل عنه في الفصل الثاني .

(٢) سيرد الحديث بالتفصيل عن هذه المؤلفات في الفصل الثاني .

(٣) ينظر الإتيان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٤٦ ، ص ٣ .

حيث تحدث عن أمثلة لهذه المشتبهات تحت عنوان " علم المتشابه " وتحدث
عن المتشابه بالمعنى الآخر تحت عنوان " معرفة المحكم من المتشابه " (١)

وما فعله السيوطي أولى بالقبول ، ليكون اللقط - مشتبه - قاطعا
في دلالة على موضوع البحث واتجاهه من البداية ، يعاصده في ذلك إضافة
إلى لفظ " نظم " بمعناه " الذي يورد تحديده في البحث التالي .

■ ■ ■ ■

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١١ ، ج ٢ ص ٦٨ .

ثانيا : النظم

ترددت كلمة " النظم " قديما في محيط الدرامات القرآنية ، التي عنيت بقضية الإعجاز . وقضية الإعجاز من القصايا الكبرى التي شغلت فكر المسلمين ، وكانت - ولا تزال - محورا لدراسات كثيرة ومتنوعة ، لأنها تتعلق بالعقيدة ، وكتاب الإسلام الأول ، الذي يوجه إليه المسلمون كل همهم ، اذكارا المعانيه وتدبرا لأغراضه . ليستصيثوا بأنواره في الحياة ، ولتكون كلمتهم العليا ، وكلمة الذين كثرنا السنى .

وقد أجمعت هذه الدراسات على أن القرآن معجز ، لكن من أى جهة يتبسدى هذا الإعجاز ؟ أنى ألفاظه ؟ أم فى معانيه ؟ أم فى نظمه ؟ أم فى إخباره عن المغيبيات الماضية والمستقبله ؟ أم فى تشريعه الذى رسم صورة مثلى للحياة على وجه الأرض ؟ أم فيما اشتمل عليه من إشارات علميه ، يؤيدها كل جديد يكشف فى دنيا العلم التجريبي ؟ أم فى صرفه العرب عن معارضة ؟ أم فى كل هذه الأمور ، وغيرها ما تكلم عنه العلماء فى هذا الباب ؟ ؟ ؟

تباينت الآراء فى هذا ، وتعددت ، وأطال القدماء القول فيها . وحاول بعضهم الخروج عن كل هذه الوجوه المطروقة إلى وجوه جديدة ، كما فعل الخطابى حين أشار إلى وجه آخر ، ذهب عنه الناس - فى رأيه - فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من أحاديثهم ، يقول فيه :

" وذلك صنيعه فى القلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فإنك لاتسمع كلاما غير القرآن منظوما ، ولا منشورا ، إذا قرع السمع ، خلص له إلى القلب ، من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ، ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق وتفشأها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتترزع له القلوب ، يحول بين النفس ومضمراتها ومقائدها الراسخة فيها . . . " (١)

(١) تنظر رسالة " بيان إعجاز القرآن " ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٢٠

وكما فعل السكاكي ، حين قال - بعد أن أحياء التفكير في هذا الأمر - " واعلم
أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ، ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن ، تدرك ولا يمكن
وصفها ، والملاحظة ، وتدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا " (١)

والقول في الإعجاز لم ينته ولن ينتهي ما بقى عقل يفكر ونفس تتدبر ، وليس
من هي هنا مطبوعة هذه الآراء ، ومناقشة ما يستحق المناقشة منها ، فذلك - سئل
ضخم ، يحتاج إلى دراسة مستقلة ، وحينما منها أن القرآن معجز من أى جهة أتيناها ،
بيانا ، أو علما ، أو تشريعا " . الخ . ما أشار إليه أكثر المتحدثين في الإعجاز باتفاق .
وأن القول في الإعجاز من الناحية البَيانية - وهو الأصل لهذه الدراسة - سبق الأقوال
وأوضحها .

أما كونه أسبقها ، فهذا ما يؤيده الواقع التاريخي ، وسنة الله الجارية في خلقه .
فلقد خاطب القرآن الكريم - أول ما خاطب - قوما عرفوا باللسن والفصاحة ، ومنوا
في البيان منزلة شهد بها لهم ، حين دعا أدناهم وأقصاهم للإتيان بحثله على
سبيل التحدى لبناكه صدق الومول (صلى الله عليه وسلم) لديهم (٢) ، وهي دعوة
تشهد بأصالتهم في البيان ، ومقدرتهم على حوك الكلام ، وببصرهم بتمييز أقوال
الأقوال والمعاني ، وملاحة التعبير ، وإلا لمادعاهم إلى هذه المعارضة ليتبين عجزهم .

تحقيق / د محمد زغلول سلام ، محمد خلف الله أحد ، ط دار المعارف
سنة ١٩٧٦م ، ويدوان محمد فريد وجدى تأثر بهذا الرأي ، حين ذهب
إلى أن العلة في الإعجاز هي أن القرآن روح من عند الله ، فهو يؤثر به هذا
الاعتبار تأثير الروح في الأجساد ، فيحركها ويتسلط على أهوائها . ينظر
دائرة معارف القرن العشرين مادة " قرأ " المجلد السابع ص ٦٧٧ - ٦٨٠
دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - ط ٢ سنة ١٩٧١ .

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٦ ط ١ مصطفى الحلبي سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ .

(٢) تنظر الآيات الدالة على ذلك في البقرة / ٢٣ ، يونس / ٢٨ ، هود / ١٣

ويقفوا حيال بلاغته مهووسين !!!

هذا بالإضافة إلى ما تردد فيه من آيات كريمة ، تشير إلى هذه القدرة البيانية عندهم ،
كقوله (تعالى) : " وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعُ لِقَوْلِهِمْ " (١) ، " . . . فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ مَلَقُوكُمْ
بِالْإِسْنَةِ جِدَاد " (٢) ، " وَتُنذِرُهُ قَوْمًا لَدًّا " (٣) .

وقد جرت سنة الله في خلقه أن يؤيد رسله البعوثين لهدايتهم بمعجزات تكون
من قبيل ما استحكم في زمانهم وغلب على الأقوام الذين بُعثوا فيهم ، لتكون مفحة لأعجب
الأمور في أنظارهم كتأييده سيدنا موسى (عليه السلام) بخلق البحر ، وانقلاب العصا
حبة تسمى ، وانجاس الحجر الصلد بعيون الماء الرواء ، لأن السحر كان هو الغالب
في زمنه وتأييده سيدنا عيسى (عليه السلام) بإبراء الأكف ، والأبرص ، وخلق الطير
من الطين ، وإحيا الموتى بأذنه (سبحانه) لأن الغالب في عهده آنذاك هو الطب .

وجريا على هذه السنة أيد الله سيدنا محمدا (عليه الصلاة والسلام) بهذه
المعجزة البيانية الخالدة . . . القرآن الكريم ، لأنه جاء في زمن سما فيه شأن البيان ،
وصار صناعة القوم التي بها يتباهون ويتفاخرون . وجانب هذا الوجه في الإعجاز اشتمل
القرآن على وجوه أخرى تتناسب مع خلوقه ومجيئته بالدين الخاتم لوسائل السماء .
وأما كونه أوضحها فلأنه يستوعب أكثر وجوه الإعجاز الأخرى - إن لم تكن كلها - ويظهر
في كل آيات القرآن الكريم ، فالإخبار عن الغيبات ، والإشارات العلمية ، والحديث عن
الأحكام . . كل ذلك وغيره ، إنما تجرّه ، وصوّر في بيان معجز ، لا قبل للإنس
والجن بمعارضته ، ولو اجتمعوا ، وكان بعضهم لبعض ظهيرا . فضلا عن أن هــ
الوجوه - غير الوجه البياني - لا تطرد في كل آيات القرآن .

وعلى الرغم من أن القول في الإعجاز من ناحية البيان ، كان أمبق الأقوال
وأوضحها وأعمها ، إلا أنه لم يكن واضحا أول الأمر - إبان مجيء الإسلام ، وفي عصره
الأول - فقد كان المخاطبون الأول بالقرآن يشعرون بذلك في نفوسهم ، ويدركونه

بفطرتهم، سواء في ذلك من شرح الله صدره للإسلام ومن جعل على بصره عشاوة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يَتَيَّنُوا معناه في عبارة محددة ، فحينما علق الوليد بن المغيرة على بعض آيات سمعها من الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) لم يكن حديثه إلا حديثاً عاماً يدور حول أثر هذا القرآن في النفوس ، والإحساس بأنه نمط متميز ، يفوق كل كلام ، ويعملوا كل بيان ، إذ يقول : " والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لسفدق وإن فرعه لجناة " (١) فاعترف ضمناً بهذا الإعجاز البياني ، لكنه لم يحدد معناه . وحينما اهتز عربين خطاب (رضى الله عنه) لآيات سمعها من سورة طه ، تحول على أثرها من جوار عنيد يريد القضاء على الإسلام ، وأهله إلى إنسان وديع عرف الحق ، فاحتسبه وتغافى في نصرته ، وإعلائه ، لم يكن تعليقه على هذه الآيات إلا بقوله : " ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! ! " (٢) وهو ترجمة لإحساسه بهذا الإعجاز بغير تفصيل لمعناه أيضاً .

وظل الأمر هكذا ، فلم يتحدث المسلمون الأوائل عن شيء يتصل بهذا الإعجاز لأنهم كانوا يتخرجون من مجرد التفسير للقرآن ، ولم يضطلع بهذا التفسير إلا قلة من كبار الصحابة ، أبرزهم حمز الأمة وترجمان القرآن ، عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) . إلى أن دخل في الإسلام غير العرب ، والتقت الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات ، وأطلقت الشعوب برأسها ، واتسع نشاط الملاحظة ، وأخذوا يوجهون سهامهم نحو القرآن ، طعنوا في بلاغته ، وتحريفوا للكلم عن مواضعه ، وهنأ أدرك المسلمون الخطر الذي يحيط بهم وكتبهم ، فخف علماءهم للدفاع عنه ولستوهين مطاعن الملاحظة فيه ، وجدوا في كشف جوانب إعجازه والتسبب بآساره ، فكان هذا الحشد الضخم من المؤلفات التي دارت حول القرآن وتناولته مع جميع نواحيه .

وفي هذا الحشد الضخم من المؤلفات تنضت آراء العلماء في الإعجاز كما تناثرت في غيرها من المؤلفات التي لم تخصص لدراسة القرآن ، وإنما تعرضت لبعض

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٦٣ بتحقيق / أحمد حجازي السقا
طبع ونشر دار التراث العربي .

(٢) السيرة النبوية ج ١ ص ٢١٢ ، وينظر تعليق المرحوم سيد قطب على هذه الرواية السابقة في التصور الفني في القرآن " ص ٩ - ١٢ ط ، دار الشرق ببيروت

قضاياها ، مع غيرها من قضايا الفكر الإسلامي ، والأدب العربي ، واللغة العربية .
وكان مصطلح " نظم " من المصطلحات التي ترددت في هذه الآراء ، صدى فيهما
أول الأمر ثم أخذ يتضح إلى أن استقرارها على نظرية واضحة المعالم في الإعجاز .
وهذا ما سيتضح فيما يلي من التتبع - بإيجاز - لاستعمال هذا المصطلح عند من
تحدثوا في الإعجاز القرآني من خلاله .

عند الجاحظ (ت سنة ٢٥٥ هـ)

كان الجاحظ أول من تكلم عن الإعجاز القرآني من ناحية النظم (١)
وذلك في رده مع كثيرين من المعتزلة على شيخهم النظام ، الذي طلع على الناس
برأيه الغريب في الإعجاز ، وهو أن القرآن الكريم معجز بالصرف ، أي صرف هم العرب
عن معارضته ، وإن كان ذلك في مقدورهم (٢) .

(١) ينظر : البلاغة تطور وتاريخ للدكتور / شوقي ضيف ص ١٦١ ط ٥ دار
المعارف ، المعجزة الكبرى القرآن ، للشيخ محمد أبو زهرة ص ٦٦ ، ٦٩
نشر دار الفكر العربي ط دار وهذان وذكر الدكتور / شوقي - أيضاً - أن
الجاحظ أول من وضع هذا المصطلح ، وهو رأي يعوزه الدليل ، لأن هذا
المصطلح بمعناه البني بعيداً عن الإعجاز - عُرف عند ابن المقفع المتوفى
سنة ١٤٣ هـ كما أشار الدكتور / أحمد مطلوب مستنداً إلى نصوص ذكرها
لابن المقفع وذلك في كتابه : مجد القاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده ص ٥٢
نشر وكالة المطبوعات بالكويت توزيع دار العلم للملايين ، بيروت .
وعرف هذا المصطلح - أيضاً - عند سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ وبشعر
ابن المعتز المتوفى سنة ٢١٠ هـ والعتابي المتوفى سنة ٢١٢ هـ .
كما جاء بالدليل في كتاب " أثر النظم في البحث البلاغي " ص ٣٦١ - ٣٦٨
للدكتور عبد القادر حسين ط دار النهضة مصر .

(٢) النظام هو : أبو اسحق إبراهيم بن سيار النظام ، أحد رهوس المعتزلة
وشيوخ الجاحظ ، توفي سنة بضع وعشرين ومائتين من الهجرة ولم يكن أول
من صدع بهذا الرأي وفكر فيه ، فالأفكار لا يُعرف ابتداءها وهي تتكون
في خلایاها ، فقد جرى القول به على السنة قوم قبله من أشهرهم : عيسى
ابن صبيح المزمار ، المعتزلي البغدادي ، والجعد بن درهم ، - مؤيد مروان
ابن محمد آخر خلفاء بني أمية ، لكن النظام كان أول من جهربه ، ولا حتى عنه
فاشتهربه ، ونسب إليه .

وهو رأى **لسم** يلحق القبول لدى علماء الأمة الإسلامية فهبوا يدفعوه بالحجج الدامغة ،
مظهرين وجوه ضعفه ، ونواحي خطوئه ، وكان الجاحظ في طليعة هؤلاء العلماء ..

وحديث الجاحظ عن النظم جاء في كتاب خاص به بعنوان " نظم القرآن " لكن هذا الكتاب مقطوع من يد الزمن ، فلم يبق منه إلا اسمه ، ولم يعرف الباحثون شيئاً عنه إلا أن الجاحظ ألّفه في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ، من حديثه عنه في مؤلفاته الأخرى ، كتاباً للحيوان " الذي وردت في مقدمته هذه الإشارة (١) .

كما جاء حديثه عن النظم مفرقاً في بعض كتبه الأخرى ، بقوله في " الحيوان :
" وفي كتابنا المثل الذي يدل على أنه صدق ، نظم البديع ، الذي لا يقدر عليه
مثل العباد " (٢) .

وفي إحدى رسائله : " " وفتح ما بين نظم القرآن ونظم سائر الكلام ، وتأليفه
فليس يعرف فروق النظم ، واختلاف البحث إلا من عرف القصيد من الرجز ، والخمس
من الأسجاع ، والمزدوج من المنشور والخطب من الرسائل ، وحتى يعرف العجز العسائر
الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات ، فإذا عرف صنوف التأليف ، عرف

ينظر في نسبه هذا الرأي للنظام ، والرد عليه من مصادر كثيرة : الملل والنحل
للشهرستاني ج ١ ص ٨٠ ، ٨٥ على هامش كتاب الفیصل لابن جریر
ط . محمد علي صبيح ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م ، البرهان في علوم القرآن ج ٢
ص ٩٣ - ٩٤ ، الإتيان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٥١ ، إعجاز القرآن والبلاغة
النبوية لمصطفى صادق الرافعي ص ١٤٣ - ١٤٦ ، ١٥٠ ط ٩ -
١٣٩٣ / ١٩٧٣ م ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، دلائل الإعجاز لعبد القاهر
البرجاني بتحقيق الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي ، مقدمة التحقيق ص ٢٢ ط ١
١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م أثر القرآن في تطور النقد العربي ، للدكتور / محمد زغلول سلام
ص ٦٩ - ٧٢ ، ط ٣ دار المعارف ١٩٦٨ م ، أثر القرآن في تطور البلاغة للمرحوم
الدكتور كامل الخولي ص ٤٧ ط ١ دار الأنوار ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م ومن رآه على هذا
الرأي بإفانسة : الخطابي في رسالتين بإعجاز القرآن " ضمن ثلاث رسائل في
الإعجاز ، والهاقلا في كتابه " إعجاز القرآن " ، وعبد القاهر البرجاني في الرسالة
الشافية ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز .

(١) الحيوان ج ١ ص ٩ بتحقيق الأستاذ / عبد السلام هارون ط ١ مصطفى الحلبي ١٣٥٩ / ١٩٤٠

(٢) الرسائل ص ٤

مباينة نظم القرآن لسائر الكلام (١)

وفى البيان والتبيين : " وقد جعل الله (تعالى) قوم كل نبي هم
البلغين والحجة ، ألا ترى أنا نزع أن عجز العرب عن مثل نظم القرآن ، حجة على
عجز المعجم ، من جهة إعلام العرب المعجم أنهم كانوا على ذلك عجزه ؟ " (٢) .

ومن حديثه المتناثر هذا يتبين أن النظم الذى يريد غير محدود الدلالة ، فقد
يفهم على أنه الطريقة المغايرة لما سار عليه العرب من طرق البيان - أخذاً من كلامه
فى الرسالة - وهو رأى سنلتقى به عند الهاقلانى وغيره فيما بعد ، وقد يفهم على أنه
الطريقة الخاصة فى التأليف والصياغة - أخذاً من حديثه عنه فى " الحصان " - وقد
يخفى المراد منه ، فلا ندرى ماذا يقصد به ، كما يلاحظ على كلامه فى " البيان والتبيين " .
وقد أشار بعض الباحثين (٣) إلى أن هذا المصطلح تردد عند الجاحظ - أيضاً -
بمعنى البيان والإنشاء ، فأضاف معنى آخر استعمل له هذا المصطلح فى كلام الجاحظ .

لهذا اتجه كثير من الدارسين إلى إطالة النظر فى مؤلفاته لا متخيارها
والتنقيب فيها عن مدى هذا المصطلح فيما تعرض له من قضايا ، وذكره من آراء .

وبالتعرف على مذهب الأدبى الذى يعنى بالصياغة اللفظية ، ويفرد لها
القام الأول فى العمل الأدبى أخذاً من قوله : " المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها
المعنى ، والعرض ، والهدوى ، والقوى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ ،
وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك " (٤) .

(١) من مقالة العشمانية ، ضمن رسائل الجاحظ ج ٤ ص ٣١ بتحقيق / عبد السلام
هارون ط ١ ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م نشر مكتبة الخانجي .

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٩٥ بتحقيق / عبد السلام هارون ط ٢ نشر
مكتبة الخانجي .

(٣) د / سيد نوفل فى : " البلاغة العربية فى دور نشأتها " ص ١٢٠ . نشر مكتبة النهضة
المصرية سنة ١٩٤٨ م / درويش الجندى فى : " النظم القرآنى فى كشاف الزمخشري " ص ٨
دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٦٩ م .

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠ - ٢١ .

والنظر إلى مناقشات طريقة الاختيار المثلى لبعض الألفاظ على بعضها
الآخر، وكيف أن القرآن بلغ في ذلك درجة دقيقة، تلفت الأنظار وتستوقف العقول (١).
فلفظ المطر، ولفظ الغيث، معناهما واحد، لكن القرآن يستعمل أولهما في مواضع العتسب،
والثاني في مواضع الرحمة... وهناك كلمات متألفة في القرآن إذا ذكرت إحداها ذكرت
الثانية مثل: الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة
... الخ.

بالنظر إلى كل هذه الأمور، وإلى آرائه النقدية والبلاغية والأدبية المثبوتة
في مؤلفاته المختلفة اجتهد كثير من الباحثين في إقامة تصور عام عن النظم الذي يريده
الجاحظ، وجعل الإنجاز من جهته، فذكروا أنه يتشمل في: حسن الصوغ، وكمال
التركيب، ودقة التأليف وحسن اختيار الألفاظ في مواضعها، واختيار أيراعي سلامة
جرسها، وإيحائها، وتألفها مع جاراتها... (١).

وهو اجتهد موفق إلى حد ما، لكنه لا يمنع من تعليق القول الفصل في هذا
على كتابه المفقود "نظم القرآن" وحسبنا أنه للجاحظ، وأنه أُلْف في الاحتجاج لنظم القرآن
وغريب تأليفه وديع تركيبه (١).

وقد جاء في كلمات الجاحظ بعد هذه الآراء المتناثرة عن النظم ما يوهم القيل بالصرقة وذلك في موضع
من كتابه الحيوان، تعرض فيه لشبهة أن الله (مبحانة) قد أعطى لسليمان ملكاً لا ينهض
لأحد من بعده، فملكه على الجن، فضلاً عن الإنس، وعلمه منطق الطير، وسخر له الريح،
فكيف لا يعرف ملكاً سباً مع قريبدارها حتى دله عليها الهدد؟

وذكر أمثلة أخرى لهذا النوع من العجز غير المتوقع، ثم أجاب على ذلك (بأن
الله عز وجل) صرف أو هامهم (٢) ورفع ذلك القصد من صدورهم... .

(١) ينظر في ذلك: البلاغة تطور وتاريخ ص ٤٦ - ٥٨، البيان العبري
ص ٨١ - ١٠٣ للدكتور / بدوي طبانة طبع ونشر مكتبة الانجلو المصرية ط ٤،
التعبير الفني في القرآن الكريم للدكتور / بكري شيخ أمين ص ١٥٨ - ١٦٠
ط ٤ دار الشروق ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م إعجاز القرآن للاستاذ / عبد الكريم الخطيب
ج ١ ص ١٤١ وما بعدها - نشر دار الفكر العربي ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م، مناهج بلاغية،
د / أحمد مطلوب ص ١٦١ - ١٧٠ نشر وكالة المطبوعات بالكويت.

(٢) ضمير الجمع يعود على سيدنا سليمان وغيره ممن تحدث عنهم الجاحظ.

ثم أراد توضيح هذا المعنى فقال : " ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) . بنظمه ، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة ، لعظمت القصة على الأعراب ، وأشبه الأعراب ، والنساء ، وأشبه النساء ، ولكن القيل والقال . . . فكان لله ذلك التدبير الذى لا يغلبه العباد ، ولو اجتمعوا له " (١)

نفسه فهم بعض الباحثين من هذا النص أن الجاحظ يقول بالصرف - أيضا - مع أنها تتعارض مع القول بالنظم ، وحاولوا تأويله بما ينقضى هذا التعارض ، فأشار الراجح (رحمه الله) إلى أنه " قد يكون استرسل بهذه العبارة لما فى نفسه من أثر أستاذ ، وهو شئ ينزل على حكم الملابس " ويعترى أكثر الناس إلا من تنبه له . أو نه عليه ، أو قد يكون ناقلا ولا ندري " (٢)

وجه الأستاذ عبد الكريم الخطيب هذه الصرفة إلى معنى آخر غير ما عرفت به : عند النظام ، وهو صرف العرب عن محاولة المعارضة التى قد تشوش على القرآن ، وذلك من شأنه أن يقع فى نفوس الأغرار والجهلة اضطرابا ، فهى حماية خارجية له ، ولا تتعارض مع كونه معجزاً بنظمه . (٣)

والأمر جد بصر ، وليس فى حاجة إلى هذا التأويل ، فالنص لم يرد فيه شئ عن الإعجاز ولا ذكر لفظه حتى يفهم منه أن المراد بالصرف صرف عن الإتيان بمثل القرآن ، فيكون ذلك وجهها من وجوه الإعجاز . وقد تنبه لهذا ونبيه عليه الدكتور على العمارى ، فقال : " إن العرب ما كانوا يستطيعوا أن يقولوا شيئا فى مرتبة القرآن ، وإنما كان

- (١) الحيوان ج ٤ ص ٨٩ - ٨٦ .
 (٢) إعجاز القرآن ص ١٤٧ ، وينظر "حقائق وأباطيل حول إعجاز القرآن" ص ١٣٩ - ١٤٠ للدكتور / على الهدرى حصون ، نشر دار الكتاب الجامعى .
 (٣) إعجاز القرآن ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٤٢

في مقدورهم أن يقولوا كلاما يشبه فيه الأمر على الأعراب وأشياء الأعراب ، وأنهم عجزوا عن الأولى ، لأنها فوق طاقتهم ، وصرفوا عن الثانية ، لئلا يكون القرآن موضع جدل ومحاكاة وتراضى * (١) وعلى الثانية حصل الدكتور العماري كلام الجاحظ السابق ، ثم استثمر هذا التوجيه في مناقشاته لمذهب الصرفة ومحاولة إنصاف النظام ، الذي اتهم - في رأيه - بغير دليل قوي ، حيث نقل عنه هذا المذهب من كتب خصومه ، التي لم تبين ماذا يقصد به ؟؟

واختار أن تكون الصرفة عنده بنفس المعنى الذي فهمت به في كلمات الجاحظ السابقة (٢) .

لكن هذا التوجيه إن صح مع الجاحظ لقوله بالنظم ، وإن راد كتابا خاصا به ، ولعدم القطع بأنه يتحدث عن الصرفة من جهة الإعجاز - كما لاحظنا في توجيه كلامه السابق - فإنه في حاجة إلى دليل قوي بالنسبة للنظام ، الذي تواترت أقوال كـ من المؤلفين القدامى في نسبة هذا الرأي إليه ، والمعنى الذي يتعارض مع النظم .

عند ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)

لابن قتيبة (رحمه الله) مؤلفات كثيرة ، دافع فيها عن القرآن ، ورد فيها على الملحدين ، الذين لغوا فيه ، وهجروا ، وحرفوا الكلم عن مواضعه . من أبرز هذه المؤلفات كتابه الرائد " تأويل مشكل القرآن " الذي يعد ثمرة طيبة من ثمار هذا الدفاع .

في هذا الكتاب تعرض ابن قتيبة للنظم القرآني ، إذ يقول في مقدمته : " الحمد

(١) حول إعجاز القرآن ————— ٧٧ للدكتور / علي العماري ، سلسلة الثقافة الإسلامية

٤٤ ، دار الثقافة العربية للطباعة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

لله الذى نهج لنا سبيل الرشاد ، وهدانا بنور الكتاب ، وقطع منه بمعجز
التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بمعجزة النظم عن حيل المتكلمين ، وجعله مثلاً
لا يمل على طول التلاوة ، وسموعاً لاتجده الآذان ، ونغماً لا يخلق على كثرة السرد
وعجياً لا تنتفى عجائبه ، ومفيداً لا تنقطع فوائده . . . (١)

وهو كلام صريح فى أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه على نحو خاص ، لا قدرة
للإنس ، ولا للجن على الإتيان بمثله ، فضلاً عما يمكن استنباطه من وجوه
أخرى يشير إليها هذا الكلام ، لكنه لم يبين لنا تصور ابن قتيبة لهذا النظم المعجز
ولم يرد فى الكتاب حديث صريح عن معناه ، وإنما وردت فيه بعض الآراء التى تدل على
وضوح فكرته لديه بالمعنى الذى اتضح فيما بعد عند علماء القرن الرابع الهجرى ، وازداد
وضوحاً فى القرن الخامس الهجرى عند عبد القاهر الجرجاني . . . من ذلك رأي
المشهور فى ترجمة القرآن ، والمعمول به حتى اليوم ، حيث يقول : " وللعرب المجازات
فى الكلام ، ومعناها : طرق القول وما أخذت ففيتها الاستعارة والتشليل ، والقلب والتقديم
. . . إلى أن يقول : وكل هذه المذاهب عززها القرآن ، ولذلك لا يقدر أحد من التراجيم
على أن ينقله إلى شئ من الألسنة كما نُقل الإنجيل عن السريانية إلى الجشية والرومية ،
وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله بالعربية ، لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع
العرب " (٢) .

فرمى هذا الكلام أن ترجمة القرآن تذهب بخصائص نظمها ، الذى جرى على
أوجه كلام العرب ومنازعهم فى تشقق الكلام ، ثم ارتفعت به هذه الخصائص إلى الغاية
التي تنقطع دونها أطماع المعارضين . . . ولو حاول أحد هذه الترجمة لا نتقل إلى
المعنى دون أن يدرى فيكون حينئذ قد ترجم المعنى . . .

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٣٠

(٢) السابق ص ١٥ - ١٦

يقول ابن قتيبة في توضيح هذا : " ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله (تعالى) : " وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْهَؤْا إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ " (١) لستم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذى أودعته حتى تبسط مجموعها ، وتصل مقطوعها ، وتظهر مستورها ، فنقول : إن كان بينك وبين قوم هذنة وعيب فخفت منهم خيانة ونقضا ، فأعلمهم أنك قد نقضت بما شرطت لهم ، وأذنهم بالحرب لتكون أنت وهم نى العلم بالنقض على السواء .

وكذلك قوله (تعالى) : " فَفَرَّجْنَا عَلَى أَنفُسِهِمْ فِي الْكَهْفِ مِائِينَ عَدَدًا " (٢) إن أردت أن تنقله بلفظه ، لم يفهمه المنقول إليه ، فإن قلت : أنما هم مئتين عددًا لكتبت مترجما للمعنى دون اللفظ .

وكذلك قوله (تعالى) : " وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا " (٣) إن ترجمته بمثل لفظه استغلق ، وإن قلت لم يتفاقلوا أديت المعنى بلفظ آخر (٤) .

هذا يعنى - فى إيجاز - أن الكلمات تكسب فى التراكيب أوصافا لا تكون لها فى حالة الأفراد ، ومن هنا تستحيل الترجمة ، وهو لب النظم الذى بسطه الشيخ عبد القاهر فى " دلائل الإعجاز " . يقول الدكتور / محمد ناييل معلقا على هذا الكلام : " إنه فى صميم العلاقات ، وما تفيد الكلمات فى التركيب فوق لالتها اللغوية . إنه صريح فى أن الكلمة فى التركيب تصح مستودعا لمعان كثيرة غير معناها المعروف وأن هذه المعانى تجوئها عن طريق اجتماعها مع أخواتها على نظام خاص ، وأنك - لاجل أن ...

(١) الانفال / ٥٨

(٢) الكهف / ١١

(٣) الفرقان / ٧٣

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٦ - ١٧

- لأجل أن تبرز هذه المعاني - لابد أن تبسط المجموع ، وتصل المقطوع ، وتظهر المستودع ، كما فعل هو في تفسير الآيات الكريمة ، إنه بهذا يسبق إلى نظرية النقد الحديث في الألفاظ ، وأنها رموز إلى المعاني ، وأنها تحصل في التركيب أغراضا ، لا تدل عليها وهي مفردة ... (١)

من هذا يتبين أن ابن قتيبة لم يعد كثيرا عن فكر الجاحظ بالنسبة لمصطلح النظم ، فلا يزال مفهومه غامضا في حديثها عنه ، وإن كان واضحا في ذهنيهما وهما يتكلمان في مسائل البيان ، ويطبقان على بعض آي القرآن ، ويجعلان الإعجاز من جهته ، بالمعنى الذي اتضح فيما بعد عند عبد القاهر ، وكون منه نظرية متكاملة واضحة المعالم في تفسير الإعجاز .

علماء لهم كتب مفقودة تحدثت عن النظم في القرن الرابع الهجري :

خلف القرن الرابع الهجري بمؤلفات عديدة تخصصت في الحديث عن الإعجاز ، حفظ لنا الزمن أقلها وضاع أكثرها ضمن ما ضاع من المؤلفات القديمة .

وقد أشارت المراجع إلى مجموع من هذه المؤلفات المفقودة التي تحدثت عن النظم القرآني ، تأخذ موقعها هنا في إطار هذا التتبع التاريخي لمصطلح "نظم" عند المتحدثين في الإعجاز ، حيث أُلْفِئَ مطلع القرن الرابع ونصفه الأول وهي :

- إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه ... لأبي عبد الله محمد بن يزيد الراسطي . المتوفى سنة ٣٠٦ هـ (٢) وهو أشهر كتاب في هذه المجموعة وأول كتاب يشتمل عنوانه

(١) نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد الغربي الحديث ص ١٥ دار الطباعة المحمدية بالأزهر .

(٢) ينظر كشف الظنون لحاجي خليفة ج ١ ص ٢ ط ١ / معاد : سنة ١٣١٠ هـ .
الفهرست لابن النديم ص ٢٤٥ الطبعة الرحمانية بمصر .

على كلمة الإعجاز * (١) قال عنه المرحوم مصطفى صادق الرافعي : " ولا نظن
أن الواسطي بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ كما بنى عبد القاهر في دلائل الإعجاز
على الواسطي * (٢)

ويؤكد كثر من الباحثين تأثر عبد القاهر بهذا الكتاب في فكرة النظم ،
بدليل شرحه له في كتابين ، أحدهما : المعتضد ، وثانيهما : القنطرب . . . والكتابان
مفقودان . وهذا الشرح يؤكد أن كتاب الواسطي خلاص في خصائص النظم القرآني ، لوظهر
جوانب الإعجاز فيه (٣) .

- نظم القرآن لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني ، المتوفى
سنة ٣١٦ هـ (٤) .

- نظم القرآن لأحمد بن علي المعروف بابن الاخشيذ ، المتوفى
سنة ٣٢٦ هـ (٥) .

- نظم القرآن لأبي زيد البلخي أحمد بن سليمان ، المتوفى سنة
٣٣٢ هـ (٦) .

وهؤلاء العلماء قلدها الجاحظ في هذه التسمية فأطلقوا على مؤلفاتهم " نظم
القرآن " على غرار كتابا المفقود " نظم القرآن " (٧) .

(١) ينظر إعجاز القرآن للباقلاني بتحقيق السيد صقر ص ١٠ في مقدمة التحقيق
ط / دار المعارف سنة ١٩٦٣ .

(٢) إعجاز القرآن ص ١٥٢ .

(٣) ينظر كشف الظنون ج ١ ص ١٢٠ ، نظرية العلاقات ص ١٣ ، البيان العربي للدكتور
بدوي طبانة ص ٢١٩ ط ٤ مكتبة الانجلو المصرية ، مناهج بلاغة ص ٤٤ .

التعبير الفني في القرآن ص ١٦٤ ، أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ٢٣٤ ،
عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني للدكتور / البدر راوي زهران ص ٣٩
ط . دار المعارف .

(٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) كشف الظنون ج ١ ص ١٢٠ ، مقدمة تحقيق إعجاز القرآن للباقلاني ص ٩-١٠ ،
خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم للدكتور / محمد رجب الهيمى ص ١٢١ - ١٢٢
سلسلة البحوث الإسلامية الكتاب ٤٢ = ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م
الشركة المصرية للطباعة والنشر .

عند الرمانى (ت سنة ٣٨٦ هـ)

تحدث الرمانى عن الإعجاز فى رسالة مستقلة بعنوان " النكت فى إعجاز القرآن " فجعله من سبع جهات : ترك المعارضة مع توقر الدواعى ، وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرف ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ، ونقص العادة بمقاييسه بكل معجزة (١) .

وتصوره للنظم يؤخذ من حديثه عن البلاغة ، وهى الجهة التى توسع فى الحديث عنها ، فقد فرعها إلى طبقات ثلاث : عليا ، ودنيا ، ووسطى ، فأما العليا فهى طبقة المعجز ، وهى بلاغة القرآن الكريم ، وأما ما كان دونها فهو ممكن كإغسية البلغاء من الناس . (٢)

ثم قسم مسائلها إلى عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتخصيص ، والمبالغة ، والتلازم ، وحسن البيان . (٣) ثم تحدث عن كل قسم من هذه الأقسام على حدة ، واستشهد بالعديد من الآيات القرآنية .

وقد جاء فى حديثه عن بعض هذه الأقسام ما يدل على هذا التصور ، إذ يقول فى باب البيان : " وحسن البيان فى الكلام على مراتب ، فأعلاها مرتبة : ما جمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظم حتى يحسن السمع ، ويسهل على اللسان ، وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتى على مقدار الحاجة فيما هو حق من المرتبة " (٤) ويستمر فى حديثه " فيشير إلى تأليف الكلام ، واختلاف دلالة الأسماء والصفات ، ودلالة التأليف "

(١) رسالة النكت ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ص ٧٥ .

(٢) رسالة النكت ص ٧٥ .

(٣) السابق ص ٧٦ .

(٤) السابق ص ١٠٧ .

وأن الأولى متناهية، والثانية لانهاية لها، ولهذا صار النحوى فيها بالمعارضة، لتظهر المعجزة... إلى أن يقول : " والقرآن كله فى حسن البيان " (١)

فى هذا الكلام يحدد الرماني ملامح البيان العالى، وهو بيان القرآن بما يشتمل عليه من حسن الوقع فى السمع، والخفة على اللسان، والتأثير فى النفس مع حسن تقبلها له، والاقتصار على الغرض، فلا إطالة تمل ولا إيجاز يخل... وهى الأشياء التى يتأتى منها تعديل النظم، الجامع لأسباب الحسن فى العبارة، ثم إن حديثه عن الصفة الأخيرة (الاقتصار على الغرض) تابع من رأى له فى البلاغة بصفة عامة، لخص فيه فكرة النظم التى شرف فيها عبد القاهر بن فارس، وأطال وأعاد، حيث يقول فى مقدمة الرسالة : " وليست البلاغة إقحام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان، أحدهما بليغ والآخر عيبى ولا البلاغة - أيضا - بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى، وهو غث مستكبر، ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ " (٢)

كما أنه تحدث فى ثنايا هذا الكلام عن التأليف، فبين أن مجاله أرحب من أى مجال آخر، كمجال اللفظ - على سبيل المثال - لأن التصرف فى اللفظ محدود، أما التصرف فى التأليف فغير محدود. ومن هنا يتأتى الإعجاز فى القرآن، لأن دلالة التأليف فيه ليست لها نهاية، ولهذا صار التحدى فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة.

ويقول الرماني فى باب التلايم : " والفائدة فى التلايم حسن الكلام فى السمع، وسهولته فى اللفظ وتقبل المعنى له فى النفس، لما يرد عليها من حسن

(١) السابق ص ١٠٧.

(٢) السابق ص ٧٥ - ٧٦ وينظر فى التعليق على هذا النص " أثر القرآن فى

تطور البلاغة ص ٨٢ : وأثر القرآن فى تطور النقد العربى ص ٢٣٦.

الصورة وطريق الدلالة (١) " وهو كلام قريب من كلامه السابق ومتصل به ، يوضح فيه الرمانى سمات النظم القرآنى ، الذى هو فى الطبقة العليا من التلاوم ، ولذا يقول بعد ذلك : ... فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان ، فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ، ظهر الإعجاز للجيد الطباع ، البصير بجواهر الكلام ... " (٢)

ولا يقتصر الرمانى على هذا ، فدراسته للأقسام البلاغية الأخرى تنطلق من فكرة النظم التى تضمنها تعريفه السابق للبلاغة ، ولذا يهتم فيها بالحدث عن ناحية التأثير الوجدانى للصور البلاغية ، وبالعودة إلى المقارنة بين هذه الصور فى القرآن ، وبينها فى غيره من كلام العرب ، لاذ تعدى هذه المقارنة - حتما - إلى معرفة ما تتميز به هذه الصور فى القرآن من خصائص تضعها فى نظام فريد ، لا قبل للناس بمعارضته ... يقول فى باب المجاز : " وإذا عرفت الإعجاز وراتبه ، وتأملت ما جاء فى القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ... وعلوه على غيره من أنواع البيان " (٣)

من هذا كله يتضح أن الرمانى تقدم بفكرة النظم خطوة إلى الأمام ، فقد بدأت ملامحها تتضح بالمعنى الذى تكلم عنه عبد القاهر ، إلا أنه كأسلافه ، لم يتكلم عن ماهية المصطلح ، حتى يمكن الوقوف على معناه المحدد فى فكره .

وما يلتفت النظر فى هذه الرسالة أن الرمانى جمع فى حديثه عن جهات الإعجاز بين البلاغة والصرف ، وهما جهتان متعارضتان . وقد سبق التعرض لهذه المسألة فى هذا الجمع فى كلام الجاحظ ، وتوجيه بعض الباحثين كلامه بما ينفى هذا التعارض (٤)

(١) رسالة النكت ص ١٦٠

(٢) السابق ص ١٦٠ وينظر البلاغة تطور وتاريخ ، فقد جاء فيه تعليقا على هذا النص : " ولأننا يلتقى عنده حسن البيان بما سماه التلاوم ، ما يجمع فى أسلوبه بين جمال التأليف وإحكام التعبير ، وجودة اللفظ وصفائه واستواء تقاسيمه " ص ١٠٧

(٣) رسالة النكت ص ٨٠ (٤) ينظر ص ٢٢٢ من هذا البحث

وكذلك فعل أحد الباحثين (١) بكلام الرمانى فى الصرفة ، حيث وجهه بنفسه التوجيه السابق لكلام الجاحظ ، فهى صرفة عن محاولة المعارضة التى قد تشوش على القرآن . وعلى ذلك فلا تعارض بين القول بها على هذا المعنى - والقول بالبلاغة فى توضيح جهات الإعجاز ، بدليل أن الرمانى جمع بينهما وهذا ما لم يحدث عند النظام الذى رأى أن بلاغة القرآن ممكنة ، لولا الصرفة ، فلم يجمع بينهما ، لأنها عندنا بالمعنى الذى يتعارض مع الإعجاز البلاغى .

ويبدو لى أن الرمانى انتزع هذا رأى من قوله (تعالى) فى تحديده للعرب " فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا " (٢) إذ يقول معلقاً : " فقطع بأنهم لن يفعلوا " (٣) ومن قوله (تعالى) : " قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ " (٤) وكأنه يربط بين هذا الإخبار القرآنى الذى لا يتخلف ، وبين القول بالصرفة ، فحيث أخبر القرآن بأنهم لن يفعلوا ولن يأتوا بمثله ، فقد حكم بأن هذه المعارضة لن توجد البتة . وهذا معنى الصرفة فى كلامه التى يؤكد صدقها توالى الشهور والدهور من غير أن توجد هذه المعارضة التى يمكن أن ترتقى إلى مجال المقارنة بالقرآن .

وعلى هذا التوجيه - إن صح - يكون الإعجاز بالصرفة فى آية من باب الإعجاز بالأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ، بدليل قوله قبل الحديث عن الآيتين السابقتين : " وجاء على جهة الإخبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز " (٥) . ومنه عليه فالقول بالصرفة يرتد عندنا إلى القول بالأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية . وليس هذا غريباً . . . فبالأمل فى جهات الإعجاز التى ذكرها يلاحظ أن بعضها يرجع إلى جهة البلاغة ، فترك المعارضة مع توفرد واعبها ، والتحدى للكافة ، وتقضى العادة ، كل هذه الجهات تودى إلى معنى واحد ، وهو : بلاغة القرآن المتميزة ، التى لم يستطع أحد

(١) الدكتور / أحمد بدوى فى " عبد القاهر الجرجاني " ص ٣٢٩ ، الكتاب

الثامن من سلسلة أعلام العرب ط ٢ المؤسسة المصرية العامة .

(٢) البقرة / ٢٣ .

(٣) رسالة النكت ص ٩٧ .

(٤) الاسراء / ٨٨ .

(٥) رسالة النكت ص ٩٦ - ٩٧ .

معارضتها ، مع توفر الوسائل ومع الإلحاح في التحدى .

وما تحدث عنه في نفس العادة ، فسربه الجاحظ معنى "النظم" في بعض
كلماته (١) ، فهو وثيق الصلة بالوجه البلاغى .

عند الخطابى (ت سنة ٣٨٨ هـ)

أفرد الخطابى للحديث عن الإعجاز رسالة مستقلة بعنوان " بيان إعجاز
القرآن " ، كما فعل معاصره الرويانى ، لكن لم يحتد أحدهما الآخر فى شئ ، وإنما
صدر كلاهما عن ذات نفسه ، وعالج الموضوع بروح مستقلة .

بدأ الخطابى رسالته بمناقشة آراء السابقين فى الإعجاز ، وانتهى منها إلى
الوجه الذى ارتضاه ، وهو الوجه البلاغى ، ونسبه إلى الأكثرين من علماء أهل النظر ، لكنه
غاب عليهم التقليد فى التسليم به ، دون التحقيق له ، وإحاطة العلم به ، ما جعلهم
- فى رأيه - عاجزين عن بيان نفسه وتحديده بأمر ظاهر معلوم إلا بضرب من
التأول (٢)

وشرع فى الحديث عنه - من وجهة نظره - فتعرض للنظم بالمعنى الذى
جاء به عند عبد القاهر الجرجانى ، وبين كيف يتأتى منه الإعجاز (٣) . وقد مهد
لهذا بتقسيم الكلام الفاضل الممنوع إلى ثلاثة أقسام : البليغ الرصين الجزل ، والفصح
القريب السهل ، والجائز المطلق الرسل (٤) . ثم بنى على هذا التقسيم رأيا
دقيقا فى الإعجاز البلاغى للقرآن ، إذ يقول : " فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام
وأرفع ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت

(١) ينظر ص ٢ من هذا البحث

(٢) رسالة "بيان إعجاز القرآن" ، ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ص ٢١ - ٢٤ .

(٣) بيان إعجاز القرآن ص ٢٦ .

بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها -
شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة ،
وهما على الإنفراد فى نعمتهما كالمضادين ، لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة
والعتانة تعالجان نوعاً من المصحورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نهو كل واحد
منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطف قدرته من أمره ، ليكون
آية بينة لبيه ، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه * (١)

وقد لخص الزركشى هذا الكلام فقال وهو يوجز كلام الأئمة فى الإعجاز :
" ومنها جمعه بين صفتى الجزالة والعذوبة ، ومنها كالمضادين ، لا يجتمعان غالباً
فى كلام البشر . . . وذلك من أعظم وجوه البلاغة فى الإعجاز * (٢)

ثم انتقل الخطابى إلى حديثه المباشر عن النظم فقال : " وإنا يقسم
الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت
القرآن ، وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً
من الألفاظ أنصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، وأشد
تلاؤماً ، وتشاكلاً من نظمه . وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى
تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل - من
نعمتها وصفاتها . وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرقة فى أنواع الكلام ،
فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه ، فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير ،
الذى أحاط بكل شىء علماً وأحصى كل شىء عدداً * (٣)

هذا هو مكنون الإعجاز عند الخطابى ، والأمر الذى جعل البشر
عاجزين عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، لأن علمهم لا يحيط بجميع ألفاظ اللغة التى

(١) السابق ص ٢٦
(٢) البرهان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٠٧
(٣) بيان إعجاز القرآن ص ٢٦

هي ظروف المعاني ، ولا تحيط أفهامهم بجميع المعاني المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لا ستيفاء جميع وجوه النظم ، التي بها يكون اثلاثها . (١)
أما القرآن * إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف ، مضمنا أصح المعاني ، من توحيد له (عزت قدرته) وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته . .
ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله (٢)

ويتقدم الخطابي خطوة أخرى في توضيح هذا النظم الذي يتأتى منه الإعجاز ، بالإضافة إلى فصاحة الألفاظ وشرف المعاني ، فيقول : " ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضع الأخص ، الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني بحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبهل والشح والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها (٣)

ومضى الخطابي في بيان الفروق الدقيقة بين هذه الألفاظ فشغل حيزا كبيرا من الرسالة ، رد فيه على طعون الملحدين في القرآن من خلال الحديث عن هذه الفروق التي على أساسها جاءت الألفاظ القرآنية في أحسن نظم التأليف . (٤)

وهذا الكلام - بالتأمل - يدل على ما بسطه الشيخ عبد القاهر في دلائل

(١) ينظر السابق ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) السابق ص ٢٧ - ٢٨

(٣) السابق ص ٢٩

(٤) يراجع السابق ص ٢٩ - ٥٣ .

الإعجاز "، حيث يقول : " وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قواعده وأصوله " . وتعرف منا هجـم التي نهجت فلا تزيغ عنها . . . وذلك أنا لانعلم شيئاً يستغيه الناظم بنظمه ، غير أن ينظر في وجوه كل سبب وفروقه . . . إلى قوله بعد إشارته إلى الوجوه التي يرد عليها الخبر بالحال والشرط : فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويحيى به حيث ينهض له . . . الخ بما قال في هذا الموضع " (١) فالصلة واضحة بين كلام الخطابي السابق وبين هذا الكلام ، إذ يدوران حول الروابط بين الكلمات والجمال والتدقيق في اختيار الكلمات المناسبة للمقام ، ما يدل على وضوح فكرة النظم عند الخطابي ، وانتفاع عبد القاهر بما جاء فيها ، من طريق مباشر أو غير مباشر . . . وما قاله الخطابي في هذا أيضاً : " وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان " (٢) وهو " قول يحدد نظرية النظم كما أتى بها عبد القاهر في دلائل الإعجاز " ، تحديداً تتضح به المعالم المتفرقة في أشتات من قول الجاحظ ، ومن تلامه حتى كتب الخطابي رسالته " (٣) وفيه تلخيص دقيق لحديث عبد القاهر المتكرر عن إرجاع العزبة إلى النظم لا إلى اللفظ وحده ، ولا إلى المعنى وحده .

وعلى هذا يتضح أن مصطلح "نظم" أخذ طريقه إلى التحديد والوضوح عند الخطابي بنفس المعنى الذي أفترض في الحديث عنه الشيخ عبد القاهر ، بل إن الخطابي - كما وصفه المرحوم د / كامل الخولي - ملك أخص طريقاً إلى هدفه في هذه القضية ، حتى كان أكثر وضوحاً فيها من عبد القاهر الذي أرسل فيها القول شرقاً وغرباً ، طـوراً

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٢ - ١١٨ بتعليق د / محمد عبد المنعم خفاجي ط ١ ،

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، مطبعة الفجالة الجديدة .

(٢) بيان إعجاز القرآن ص ٣٦ .

(٣) ينظر خطوات التفسير البياني ص ١٣٣ ، وينظر أيضاً في توضيح الصلة بين النظم

عند الخطابي وعند عبد القاهر أثر القرآن في تطور البلاغة ص ١١٥ - ١١٦ ،

أثر القرآن في تطور النقد ص ٢٥٩ - ٢٩٥ ، البلاغة القرآنية في تفسير

الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية د / محمد أبو موسى ص ٨٩ - ٩٠ ،

١٨٧ ، طبع ونشر دار الفكر العربي .

ماد حسا لللفظ وطورا ماد حا للمعنى (١) .

وعلى الرغم من هذا النضج فى توضيح معنى الإعجاز البلاغى للقرآن — من جهة النظم عند الخطابى ، فإن هناك من الباحثين من رأى غير ذلك ، إذ يقول :
" والرسالة بعد ذلك لا توضح إعجاز القرآن البلاغى توضيحا كافيا ، وإنما الذى يوضح ذلك حقا أبحاث المتكلمين ، لدقة تفكيرهم ، وعمقهم من قديم فى مباحث البلاغة " (٢)
وهو قول يحتاج إلى مزاجهم ، استنادا لما تقدم تفصيله .

عند الباقلانى (ت سنة ٤٠٢ هـ)

تحدث الباقلانى عن الإعجاز فى كتب مختلفة ، أجمعها كتاب " إعجاز القرآن " الذى يمثل الدراسة الناصجة لأراء مجتمعة ، والذى وصف بأنه أوفى كتاب بحث قضية الإعجاز فى عصره (٣)

وأوجه الإعجاز فى هذا الكتاب ثلاثة ، أحدها : النظم الذى يقول عنه :
الباقلانى : " والوجه الثالث : أنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه " (٤) ثم يعقب على هذا الكلام بما يفهم منه أنه نقل هذا الوجه عن السابقين ، وأنه متصد لتفصيله ، لأنهم أجملوا

(١) أثر القرآن فى تطور البلاغة ص ١١٦ .

(٢) الدكتور / شوقى سيف فى " البلاغة تطور وتاريخ " ص ١٠٣ ، وتابعه

فى هذا الرأى د / فتحى أحمد عامر فى " فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم " ص ٦٤ ، من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مطابع الأهرام ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

(٣) ينظر إعجاز القرآن للراعى ص ٥٤ ، وينظر فى الحديث عن أراء الباقلانى فى كتبه الأخرى " التمهيد ، والانتصار لنقل القرآن ، والإرشاد " - أثر القرآن فى تطور

النقد ص ٢٦٧ - ٢٢٩

(٤) إعجاز القرآن ص ٣٥ .

في القول به ، إذ يقول : " والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نقضل ذلك بعض التفصيل ، ونكشف الجملة التي أطلقوها " (١) .

وشرع الباقلاني في تفصيل هذا الوجه وكشف إجماله فذكر أمورا عشرة ، منها ما يدل على تفسيره للنظم بمعنى الطريقة المغايرة لما ألف العرب من طرائق البيان ، وهذا بالنظر إلى جملة القرآن ، حيث يقول : " والذي يشتمل عليه بديع نظم المتضمن للإعجاز وجوه : منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، وتباين للمألف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز بقى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد إلى أن يقول بعد إشارته إلى الطرق التي يتقيد بها الكلام عندهم : فهذا إذا تأمله المتأمل ، تبين بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم ، أنه خارج عن العادة وأنه معجز . وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتتميز خاصية في جميعه " (٢) .

وتفسير النظم بهذا المعنى ، سبق عند الرماني ، وجعله أحد وجوه الإعجاز وسماه : نقص العادة (٣) كما سبق عند الجاحظ في أحد استعمالاته لمصطلح " نظم " (٤) ما يدل على تأثير الباقلاني بهما في هذا التفسير ، الذي يخالف التفسير الآخر الذي وجدت بذوره الأولى في كلمات الجاحظ (٥) وابن قتيبة ، وثبتت عند الرماني ، واستوت على سابقها عند الخطابي ، ثم آتت أكلها بعد حين عند عبد القاهر ،

(١) السابق ص ٣٥

(٢) إعجاز القرآن ص ٣٥ .

(٣) ينظر ص ٢٨ من هذا البحث ، يلاحظ تأثيره بالتسوية ، فقد سمي الرماني

هذا الوجه " نقص العادة " وذكر الباقلاني في حديثه هذا أن القرآن خارج عن العادة .

(٤) ينظر ص ٢٠ من هذا البحث .

إذ النظم به عند هؤلاء واحد • سواء كان في القرآن أو في غيره من طرائق القول عند العرب (١) هو - كما أوجز مضمونه عبد القاهر - توخي معاني النحو فيما بين الكلم حسب الأغراض المؤثرة • وهو بهذا المعنى في القرآن ليس خارجاً على العرف العربي في تأليف الكلم • وإنما تفرد بخصائص • انقطعت دونها أطماع المعارضين • هي سر إعجازه •

أما بقية الأمور العشرة • ففيها • كما في حديثه في مواطن أخرى من الكتاب ما يدل على تفسيره للنظم بالمعنى الذي ورد عند معاصريه • • • الرمانى والخطابى • ومن سبقهما • واتضح فيما بعد عند عبد القاهر • وإن ركز في حديثه على وصف خصائصه لا شرح فكره •

قد أشار في هذه الأمور إلى ما اجتمع لهذا النظم القرآنى - على طول - وعلى قدره وعلى تصرفه في مقاصد مختلفة - من الفصاحة والبلاغة • التى لا تتفاوت ولا تتباين • وليس العهد بذلك في كلام البشر • أما القرآن فقد جاء على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف • لا تفاوت ولا انحطاط عن المنزلة العليا • (٢)

والى تماسكه وائتلافه على نحو عجيب في مواطن الفصل والوصل • والعلى والنزال • والتقريب والتباعد • وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم • ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع • • • • • (٣)

والى تضمنه مسائل البلاغة المعروفة عند العرب • وتجاوزه بها حدود كلامهم المعتاد في الفصاحة والإبداع والبلاغة (٤) •

(١) ينظر في الحديث عن هذا بتوسع : النظم القرآنى في كشف الزمخشري ص ٨ للدكتور / د. ريش الحندى نشر دار نهضة مصر • مطبعة الرسالة سنة ١٩٦٩م وعالم اللفظة عبد القاهر الجرجاني ص ١٧٦ إعجاز القرآن ص ٣٥

(٢) إعجاز القرآن ص ٣٥ - ٣٦

(٣ ، ٤) إعجاز القرآن ص ٣٦ - ٤٧

والى قدرته على ابتكار الألفاظ للمعاني الجديدة التى جاء بها وبراعة تصرفه ،
واقتراده على ائتلافها ، وموافقة بعضها بعضا فى اللطف والبراعة ، كما يتعذر على البشر
مثله . (١)

والى ما يتصف به ، من أنه سهل سبيله ، خارج عن الوحش المستكبر ،
والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، قريب إلى الافهام ، يبادر معناه لفظه
إلى القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس ، وهو مع ذلك مستنق المطلب ، عسير
المتناول . (٢)

كما تحدث عن خصائص هذا النظم فى موطن آخر من الكتاب فقال :
فإن القرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ، ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وضرقه وأبوابه ، ومن
تعديل النظم وسلامته ، وحسنه ، وبهيجته ، وحسن موقعه فى السمع ، وسهولته على
اللسان ، ووقوعه فى النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهد ، وتشكله على جهته .
حتى يحل محل البرهان ، ودلالة التأليف ، ما لا ينحصر حسنا وسهجة وسنا ، ورفعة . (٣)

وفى موضع آخر من الكتاب يقول : " فأما الآية التى فيها ذكر التشبيه " ،
فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها ، فإنى لا أدفع ذلك ، وأصحح ، ولكن لأدعى
إعجازها لموضع التشبيه (٤) وهو كلام يفيد أن الإعجاز فى مسائل البيان
لا يتأتى من جهة مواضعها ، وإنما لارتباطها بسياقات جديدة ونظم فريد ، وهذا الذى جعله
يرد تفسير الإعجاز بوجوه البلاغة العشرة التى ذكرها الرمانى ، ما لم يلاحظ فى ذلك السياق
والنظم (٥) ، كان فى هذا الرد متحاما عليه ، للخلاف المذهبى الذى بينهما ، والذى كان
مسيطرًا على المناقشات العلمية آنذاك ، فقد أشار الرمانى إلى هذا المعنى وجاء فى
حديثه ما يدل عليه ، كما اتضح فيما سبق . (٦)

(١) ، (٢) إعجاز القرآن ص ٣٦ - ٤٧ .

(٣) السابق ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٤) السابق ص ٢٧٦ .

(٥) ينظر السابق ص ٢٨٣ .

(٦) ينظر ص ٣٤ من هذا البحث .

وعلى الرغم من هذا التحامل لم يسلم الباقلاني من التأثر به ، والنقل عنه ، وهذا ما يظهر بوضوح - بالنسبة لحديثه عن النظم فقط - في قوله المتقدم " مناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه ، فهذه فكرة تقسيم البلاغة إلى طبقات التي سبقَتْ عند الرمانى (١) ، وفي قوله السابق " فالقرآن أعلى منازل البيان . . . الخ " فأكثره مأخوذ من حديث الرمانى السابق في باب البيان : " وحسن البيان في الكلام على مراتب . . . الخ " (٢) .

وللباقلاني بعد هذا حديث في غير هذا الكتاب عن النظم بالمعنى الذى تكلم فيه الخطابى وبعد القاهر ، إذا يقول : " ليس الإعجاز في نفس الحروف وإنما هو في نظمها ، وإحكام وصفها ، وليس وصفها أكثر من وجودها متقدمة ، أو متأخرة ، ومرتبة في الوجود ، وليس لها نظم سواها ، وهو كتتابع الحركات ووجود بعضها قبل بعض ووجود بعضها بعد بعض " (٣)

من هذا كله يتبين أن الباقلاني تحدث عن النظم بمعنيين : بمعنى الطريقة المغايرة لما اعتاد العرب من طرائق البيان ، وبالمعنى الذى تكلم عنه معاصره الخطابى . وسقط الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز لكن حديثه عن المعنى الثانى لم يكن واضحاً ومحدداً كحديثه عن المعنى الأول ، ولذا وصفه أحد الدارسين بأنه " لم يستطع تفسير الإعجاز القرآنى من حيث نظمه تفسيراً مفصلاً ودقيقاً على الرغم من إطنابه وتطويله " (٤) كما وصف صنيعه في الكتاب جملة بقوله : " لم يزد الباقلاني في كتابه عن محاولة شرحه لما قاله الجاحظ ، من جمال النظم القرآنى ، وما قاله الرمانى من أنه - دون غيره من بلاغة البلغاء - في المرتبة الرفيعة من البلاغة والبيان " (٥)

(١) ينظر ص ٢٨ من هذا البحث .

(٢) ينظر ص ٢٨ من هذا البحث .

(٣) ينظر كتابه " التمهيد " ص ١٢٦ ط . مصر سنة ١٩٤٧ نشر أبو ريده

وينظر في التعليق عن النص : أثر القرآن في تطور النقد ص ٢٢٠

(٤) ، (٥) البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٤ ، ١٠٩

عند القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ)

أفرد القاضي للحديث عن الإعجاز جزءاً مستقلاً من كتابه المشهور "المغنى" في أبواب التوحيد والعدل، ناقش فيه أوجه الإعجاز الشائعة في عصره والتي تكلم فيها السابقون عليه في القرنين الثالث والرابع الهجريين. وفي إطار هذه المناقشة يحقّد للوجه البلاغي فصلين، ساق في الأول منهما رأى أستاذه أبي هاشم الجبائي (١) في الفصاحة التي يتفاضل في ضوئها الكلام، حيث يقول: "قال شيخنا أبو هاشم: إنما يكون الكلام نصيحاً لجزالة لفظه، وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين، لأنه لو كان جزلي اللفظ ركك المعنى، لم يُعَدّ نصيحاً، فإذا ن يجب أن يكون جامعاً للأمرين" (٢). وعلى أساس هذا الرأي يرفض الجبائي أن يكون النظم بمعنى الطريقة المخصصة، مفسراً لفصاحة الكلام، إذ يقول: "ولست فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأن الخطيب عندما قد يكون أنصح من الشاعر والنظم مختلف، إذا أريد بالنظم اختلات الطريقة، وقد يكون واحداً، وتقع العزبة في الفصاحة فالمعتبر ما ذكرناه، لأنه الذي يتبين في كل نظم وكل طريقة" (٣). ثم يسوق هذه الحجة القوية على رأيه، فيقول: "وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء، يسبق إليه، ثم يساويه في غيره من الفصحاء، فيساويه في ذلك النظم، ومن يفضل عليه يفضل في ذلك النظم" (٤).

من هذا الرأي يتبين أن النظم بمعنى الطريقة المغايرة للمألوف لا يصلح تفسيراً للفصاحة التي يتفاضل في ضوئها الكلام إلى أن يصل إلى حد الإعجاز، عند الجبائي. كما أن فيه تلميحاً إلى ردّ الإعجاز بهذا المعنى من جهة النظم عند من فسره به.

- (١) أبو هاشم هو: عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي، كان هو وأبوه من كبار المعتزلة، توفي سنة ٣٢١ هـ وقد انتهج طريقته المتأخرون من المعتزلة كالقاضي عبد الجبار - ينظر الملل والنحل على هاشم الفصل ج ١ ص ١١٥.
- (٢) المغنى ج ١٦ ص ١٩٧ نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- (٣) المغنى ج ١٦ ص ١٩٧.
- (٤) السابق نفس الصفحة.

كالهاقلاني (١) الذي يختلف مع القاضي وأستاذه في المذهب ، فالهاقلاني أشعري ،
والقاضي وأستاذه معتزليان .

وقد أكد القاضي هذا المعنى في تعليقه على كلام أستاذه بقوله : " إن العادة
لم تجرب أن يختص واحد بنظم دون غيره ، فصارت الطرق التي عليها يقع نظم الكلام الفصح
معتادة ، كما أن قدر الفصاحة معتادة ، فلا بد من مزية فيهما ، ولذلك لا يصح عندنا (يقصد
المعتزلة غي عصره) أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم ، دون الفصاحة التي
هي جزالة اللفظ وحسن المعنى . ومتى قال القائل : إني وإن اعتبرت طريقة النظم ، فلا بد
من اعتبار المزية في الفصاحة ، فقد عاد إلى ما أردناه " (٢)

أما الفصل الثاني فقد صور فيه رأيه في العلة التي يتفاضل بها الكلام من جهة فصاحته
بعد ما أدرك بحسه وبصورته أن في رأى أستاذه نقصا ، لأنه أغفل الصورة التركيبية للكلام
وهي أساسية في بلاغة العبارة وفصاحتها ، حيث يقول : " اعلم أن الفصاحة لا تظهر في
أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولا بد مع الضم أن يكون
لكل كلمة صفة ، وقد يجوز أن تكون هذه الصفة بالمواضع التي تتناول الضم ، وقد تكون
بالإعراب الذي له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، لأنه
إما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولا بد من الاعتبار في كل كلمة ، ثم
لا بد من الاعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يوجد لها عند الانضمام
صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها ، وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه
إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها " (٣)

وهذا الرأي بهذا التفصيل - يودع بين أيدينا أصول فكرة النظم التي شرحها

(١) ينظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٦ ، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار
وأثره في الدراسات البلاغية . للدكتور / عبد الفتاح لاشين ، ص ٤٦٩ ط . ونشر
دار الفكر العربي .

(٢) المصنف ج ١٦ ص ١٩٩ ، ٢١٧ .

(٣) السابق ص ١٩٩

عبد القاهر الجرجاني من بعده ، وإن أطلق الأول على ما يعنيه بهذه الفكرة " والضم " وأثر الثاني " النظم " وهو المصطلح الذي كان يسمع في بيئة الأشاعرة وكانوا يتمسكون به ، ولا مشاحة في هذا الإطلاق ، فالمعنى اللغوي يؤلف بين اللفظين كما أن كلمة الضم ترددت كثيراً عند عبد القاهر .

وخلاصة ما يهدف إليه القاضى في هذا الكلام ، أن المَعُول عليه في بلاغة الكلام هو النظم أو الضم - كما ساء - وأن هذا النظم يدور في مسجالات ثلاثة : اختيار الكلمة في ذاتها ووضعها في اللغة ، ثم اختيار المهمة التي تؤديها في مجتمع الكلمات التي ترتبط بها ، ثم اختيار المكان المناسب لها ، لتقوم فيه بأداء وظيفتها على أنتم وجه وأحسنه (١) . وهذا ما أفاض في شرحه عبد القاهر ، ولا يخرج عما أراد ، بتوخى معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يساق لها الكلام .

ولم تقتصر نقاط الالتقاء بين الرجلين على ما جاء في هذا النص ، وإنما يلتقيان في كثير من الأمور (٢) التي تقطع بأن عبد القاهر أحسن استغلال فكر القاضى عن النظم ، بالإضافة إلى فكر غيره من العلماء ، كالنطاشي ، وخروج من ذلك كله بوضع نظرية متكاملة في الإعجاز ، صار فيها مصطلح " نظم " واضح المعالم والحدود .

عند عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ)

وصلت الجهود السابقة إلى عبد القاهر الجرجاني ، فأدار فيها فكره وقلبه ، واستخرج

- (١) ينظر إعجاز القرآن للاستاذ عبد الكريم الخطيب ج ١ ص ٢٠٣ .
- (٢) تراجع نقاط الالتقاء بتوسع في : البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٢ - ١٢٠ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٩٢ ، عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني ص ١٨١ - ١٨٥ ، بلاغة القرآن في أنتم القاضى عبد الجبار ص ٥٠٨ - ٥٣١ .

منها أصولاً بنى عليها فكرته عن النظم ، التي حددت مفهومة ، ونظمت مسائله ،
وجعلت منه قياساً واضح المعالم ، لمعرفة وجه الإعجاز في القرآن الكريم على النحو
الذي يطرد في كل آياته ، ويشمل جميع سورته ، ولمعرفة مواطن الدقة والإسداد
في أي نعر أدبى .

ولم تكن هذه الأصول وحدها هي التي أعانت عبد القاهر على بناء نظريته ،
وإنما ساندته في ذلك ذوق مثقف وذهن لماح ، وإحساس دقيق بمواطن الجمال في
الكلام . وقد انعكست كل هذه الأمور على أسلوبه فطبعته بطابع فريد ، من بين من كتبوا
في الإعجاز .

وبينما من حديثه الطويل عن هذه النظرية في كتابيه الخالدين " دلائل
الإعجاز وأسرار البلاغة " (١) أن توقف على المعنى الواضح المحدد ، الذي انتهى إليه
مصطلح " نظم " عنده ، ووجه دلالة على الإعجاز .

وهذا ما يلقانا به الشيخ في مقدمة الدلائل حيث يقول : " معلوم أن ليس النظم
موى تعليق الكلام بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض . والكلم ثلاث : اسم
وفعل وحرف . وللتعلق فيما بينها طرق معلومة . وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم
باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما ومضى في شرح هذه الطرق المعلومة
إلى أن قال : فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلام بعضها ببعض ، وهي كما تراها
معاني النحو وأحكامه " (٢)

ثم بين اعتماد النظم على هذه المعاني والأحكام النحوية ، فقال في موطن

(١) تحدث عبد القاهر عن الإعجاز أيضاً في رسالة " الشافية " وقد خصصها لتقرير
حقيقة الإعجاز وإقامة الأدلة التاريخية على قوته ، وأكد فيها على أن القرآن
معجز من ناحية نظمه . انظر الرسالة ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز

آخر من الكتاب : " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ،
وتعمل على قواعده وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيع عنها ، وتحفظ الرسوم
التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يقتضيه الناظم بنظمه غير
أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فيعرف لكل من ذلك موضعه ويحسن به حيث ينبغي
له (١)

وهذا الكلام بشير - وبخاصة الفقرة الأخيرة - إلى الفرق بين دور كل من النحو
والنظم في صياغة الكلام ، فالنحو يبين على معرفة وجوه كل باب وفروقه ، لها في الكلام على
النظام الصحيح لقواعد اللغة ، أما النظم فيتمثل في حسن استغلال هذه المعرفة ، فلا
يختار المتكلم البين من هذه الوجوه - التى يصح أن تؤدى كلها أصل المعنى -
إلا ما يتواءم مع المرفق النفس ، ويناسب سبيل الحديث ، ويتفق مع شائر الملابس المتصلة
بال مقام . وهذا هو المقياس الذى يتفاضل في ضوءه الكلام والطريق لمعرفة الإعجاز .

ويوضح الشيخ هذا المعنى في موطنين آخرين - من مواطن كثيرة - حيث
يقول : " هذا وأمر النظم في أنه ليس شيئاً غير توخى معانى النحو فيما بين الكلام ،
وأنك ترتب المعانى أولاً في نفسك ، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك " . (٢)
وحيث يقول : " ثم اعلم أن ليست الغزبة بواجبة لها في أنفسها (يقصد معانى النحو)
ومن حيث هي على الإطلاق ، ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ، ثم
بحسب موقع بعضها من بعض ، وامتثال بعضها مع بعض " . (٢)

هذا هو مجمل ما يريده عبد القاهر بالنظم ، الذى يتأتى منه الإعجاز ، والذي
على أساسه رفض النقاش الهادى والحجة القوية ، أن يتأتى الإعجاز من الكلمات المفردة في
القرآن ، لأن الكلمات - وهى أوضاع اللغة - ملك مشاع لجميع الناس ، وقد ينطق

(١) السابق - ١١٢ - ١١٨ .

(٢) السابق - ٤٠٧ .

بها المنحوم فلا يمينون ، كما رفض أن يتأتى من معانى تلك الكلمات ، لأن معانيها لا تزيد ولا تنقص ، فلو كان شئ أبعد من المحال لكانت هذه الكلمات بمعانيها موضع السر لهذا الإعجاز ، كذلك رفض أن يتأتى من ناحية الحركات والسكنات ، ومن ناحية المقاطع والفواصل ، ومن ناحية المجاز والاستعارة بحجج قوية ذكرها ، وانتبهت إلى هذا المعنى المطرد في كل آيات القرآن وسوره ، والذي يجعل الحديث عن خصائصه ، والجديد فيه الذي أعجز العرب بقوله : " أعجزتهم مزايًا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، ودائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ومجاري ألفاظه ومواقعها ، وفي ضرب كل مثل ، ومساك كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام ، وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة رتبيان ، ويهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشرا عشرا ، وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظه ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك ، أو أشبه ، أو أخرى وأخلق بل وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاما والتشاما ، وإتقانًا وإحكاما ، لم يدع في نفس بليغ منهم - ولو حك بيا فوخه السماء - موضع طمع ، حتى خرس الألسن عن أن تدعى وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك أن تقول (٢)

وبعض عبد القاهر في تفصيل وتأكيده هذه الحقائق المختلفة إلى أن يقول في الفصول الأخيرة من دلائل الإعجاز ، مؤكداً على طلب الإعجاز من جهة النظر بالمعنى الذي آمن به ، وعبر عنه بـ "بجلاء" : فإذا ثبت الآن أن لاشك ولا مرية في أن ليس النظم شيئاً غير توخي معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلام ، ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه من معانى النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ، ولم يعلم أنها معدنه ومعانيه ، وموضعه ومكانه ، وأنه لا مستبطله سواها ، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها عثار نفسه بالكاذب من الطمع ، وسلم بها إلى الخدع ، وأنه إن أبى أن يكون فيها ، كان قد أبى أن يكون القرآن معجز بنظمه ولزمه أن يثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به ، وأن يلحق بأصحاب الصرفة ، فيدفع الإعجاز من أصله ، وهذا تقرير

لا يدفعه إلا معاند بعد الرجوع عن باطل قد اعتقد عجزا ، والثبات عليه من بعد لزوم الحجة جلدا ، ومن وضع نفسه في هذه المثلة كان قد باعدها من الإنسانية . ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق * (١) .

وبعد فالنظم بهذا المعنى الذى اسهبه عبد القاهر في تقريره واستشهاد له ، ارتضاه جمهور العلماء مفسرا للاعجاز من ناحية البلاغة ، وارتضته هذه الدراسة أساسا تنطلق منه للحديث عن الآيات المشتبهات في القرآن الكريم ، ساعية لكشف ما بيننا من فروق دقيقة في المعنى أشارت اليها الفروق اليسيرة في النظم .

وهذا المعنى لا يصادر نظرات أخرى — جدت أو تجد — يمكن أن تصيف تفسيراً آخر لهذا الوجه في الإعجاز ، فعطاء القرآن المتجدد على بوجه الإعجاز التى لا يستطيع الناس أن يحيطوا بهاد فعة واحدة ، وإنما يهذى الله (سبحانه) إلى الجديد منها ، كلما ظهر في حياة الناس ما يؤهلهم لاستيعاب هذا الجديد .
وصدق الله العظيم إذ يقول : " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ " (٢)

وما تجد الإشارة إليه أن الشيخ عبد القاهر على الرغم من أن نظريته في تفسير الإعجاز ، وأنه جعل أحد كتابيه بعنوان " دلائل الإعجاز " إلا أن الشواهد القرآنية التي طبق عليها فكرة النظم جاءت قليلة إذا ما قورنت بالشواهد الشعرية التي جذبتهم جذبا قويا إلى ميدانها الفسيح . كما أنهم لم يهتم اهتماما واضحا بالحديث عن الآيات المشتبهات وهي التي تبرهن بدقة على فكرة النظم وتوضح معنى الإعجاز من خلاله .

(١) الدلائل ص — ٤٥٨ — ٤٥٩

(٢) فصلت / ٥٣

نظسرا لما يطرأ على الكلمات والجمال فيها ، من أحوال مختلفة فى سياقات متعددة ،
استجابة لما تليه هذه السياقات من دواعٍ لا قدرة للنكر البشرى على مراعاتها .

ومن هنا يتحدد موقع هذا البحث فى حقل الدراسات البلاغية القرآنية ، إذ يهدف
إلى استظهار علامات الإعجاز من خلال الفروق اليسيرة فى نظم الآيات المشتبهات .

وببقدار إصابته لهذا الهدف بقدر ما يوضع نفسه فى مكان متواضع بين هـذـه
الدراسات الشامخة التى يتطلع إليها كل باحث ، ومتوق لأن يعقد بينه وبينها نسباً وصهراً !!

الفصل الثاني

الحسنة

في دراسات السابطين

تقدم فيما سبق أن القدماء قسموا التشابه إلى أنواع : لفظي ، ومعنوي ، ولفظي ومعنوي معا - كما جاء ملخصا عند الراغب الأصفهاني - وأن التشابه المعنوي بالنظر إلى المؤلفات في التشابه بأنواعه المختلفة قد حظى بالنصيب الأكبر من هذه المؤلفات ، حتى شاع انصراف اللفظ إليه منها ، ما لم تضم في عناوينها إشارة تقطع بأنها في غيره (١) .

وهذا راجع إلى الظروف التي نشأت فيها دراسة التشابه قديما ، فقد كان الخلاف بين الفرق الإسلامية من جهة ، وبين الملحدية ، الطاغية في كتاب الله من جهة أخرى ، يقوم معظمه حول التشابه المعنوي ، ومن ثم كثر التأليف فيه كثرة ملحوظة بالنسبة للتشابه اللفظي ، الذي نشأ الحديث فيه - أول الأمر - على أيدي القراء ، بجمع الآيات التي يتكرر حفظها لشدة اشتباهاها ، تذكيرا لهذه الصعوبة ، وبالنسبة للتشابه اللفظي والمعنوي ، الذي تدخل معظم مسائله في مباحث الفقه وأصوله (٢) .

وبهذا من هذه المؤلفات ما تعرض منها للتشابه اللفظي بالمعنى الذي تهدف إليه هذه الدراسة ، حيث يعد من المصادر الأساسية التي رجعت إليها ، واستعنت بها في توجيه الفروق بين الآيات المشابهات .

وقد أجمعت المراجع إلى كثير من هذه المؤلفات ، إلا أن بعضها لا يفرق في تصنيفه لها بين ما يختص بالتشابه اللفظي ، وما يختص بالتشابه المعنوي ، وهما النوعان الشائعان من أنواع التشابه وأقسامه المتعددة ، كما جاء - على سبيل المثال - في " الفهرست " حيث أشار مؤلفه - ابن النديم - إلى الكتب التي ألفت في التشابه عموما دون تحديد (٣) . وبعضها يعني بالتفريق والتخصيص ، كما جاء في كتابي " البرهان في علوم القرآن " و " الإعتان في علوم القرآن " حيث غنى المؤلفان بالحديث عن كل نوع من نوعي التشابه على حدة وبالتبعية على المؤلفات القديمة فيه (٤) .

وهذه المؤلفات تبين بعد طول البحث عنها أن بعضها سقط من يد الزمن ، وبعضها

(١) ينظر ص ١١-١٢ من هذا البحث .

(٢) يراجع تأويل مشكل القرآن ص ١٩-١٠١ في الحديث عن هذا الخلاف ، وتراجع أمثلة مختلفة لأنواع التشابه في المفردات في غريب القرآن مادة " شبه " ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ومناهل العرفان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٧٩ ، ٢٨١ ، " بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز " للقيروزي ج ٢ مادة " شبه " تحقيق / محمد علي النجار ، الكتاب ٤ من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٣٨٣ هـ .

ل حيس المخطوطات ، بعضها طبع مع الاختلاف في نسبه إلى مؤلفه ، بالإضافة
بعض الأمور التي صادفتني فيما توسر الاطلاع عليه منها ، ووجدته في حاجة إلى كشف
ن ، لصلته الوثيقة بهذه الدراسة .

لهذا أحببت أن أعرض في هذا الفصل تعريفا موجزا بهذه المؤلفات ، تتضح من
بجاءات المختلفة لدراسة الآيات المشبهات ، والمؤلفات التي تشك كل اتجاه ، ومنها هجها
ددة ، كما تتضح منه العلاقة بين الدراسة في هذه المؤلفات ، والدراسة في هذا
ث ، ثم الصلة الحميمة بين هذا النوع من الدراسات القرآنية والدراسات البلاغية لعل في
إغراء يحرك هم الباحثين إلى تحقيق ما يزال منها مخطوطا ، ونقله إلى ميدان الدراسات
لغة المتعلقة بالقرآن ، فهو ميدانها الرحب !

وهذه هي المؤلفات حسب الترتيب الزمني لمؤلفيها :-

باب القرآن ، أو الآيات المتشابهات . . . لمقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة ١٥٠ هـ (١) .

هذا الكتاب عدّه ابن النديم ضمن كتب التشابه التي ذكرها تحت عنوان الكتب المؤلفة
التشابه ، من غير غريق بينها فيما يختص باللفظي ، وما يختص بالمعنوي ، ولم يحدد
بينها (٢) .

وذكره أحد الباحثين بعنوان " الآيات المشبهات " ضمن مؤلفات مقاتل في التفسير
للم القرآن (٣) .

وهو من الكتب التي قام حولها الخلاف من ناحية موضوعه ، أهو في التشابه اللفظي ،
في التشابه المعنوي ؟

ولهذا الخلاف أثره في تحديد أقدم المؤلفات في التشابه اللفظي ، ذات الصلة

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي ، ذكرته بعض كتب التراجم بلقب كبير المفسرين ، وله
مؤلفات كثيرة في التفسير وعلوم القرآن والحديث وعلم الكلام - انظر ترجمة وافية له في مقدمة
كتاب " الأشباه والنظائر في القرآن الكريم " لمقاتل تحقيق د / عبد الله محمود شحانة
ج١ ص ١٢ - ٨٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

(٢) الفهرست ص ٥٥ .

(٣) كتاب الأشباه والنظائر ج١ ص ٨١ مقدمة المحقق .

بموضوع البحث . وهذا ما جعلنى أعرض له ، لأناقش بعض الآراء ، وأنتهى إلى ما أظننى
إليه .

فقد رجح أحد الباحثين أن هذا الكتاب كلامى ، يبحث فى آى الصفات ، وماشاكلها ،
أى أنه فى التشابه المعنوى ^(١) ، على حين رجح باحث آخر أنه فى التشابه اللفظى ،
وأنه أقدم مؤلف فى هذا النوع من التشابه ، بل يؤكد - بناءً على هذا - أن التشابه
اللفظى كان الأصل فى الخلاف حول متشابهات القرآن ^(٢) .

وقد استند فى رأيه هذا إلى ما ذكره بروكلمان عن هذا الكتاب الذى اطلع عليه ،
ولم ينقل شيئاً منه - كما يقول - ولكنه أعطى تصوراً عن منيع مقاتل فى هذا الكتاب
يدل على منهجه فى تناول المتشابهات ، وتخرج معانيها ، وهو منهج يتفضل فى البحث
عن المعانى المختلفة للكلمة - مفردة فى مواضعها المختلفة من القرآن ، ويخرب مثلاً على ذلك
بلفظى " هدى " و " نهر " اللذين اطلع عليهما فى كتاب مقاتل ^(٣) .

ومن هذا النور استنتج الباحث أن كتاب مقاتل يبحث فى التشابه اللفظى ، حيث
يقضى بالبحث عن المعانى المختلفة للألفاظ المفردة فى مواضعها المختلفة من القرآن .

وهو استنتاج بعيد ، لاصلة له بهذا النوع من البحث ، حتى يمكن القول بأن الكتاب
فى التشابه اللفظى ، وأنه أقدم المؤلفات فيه ، فالحديث عن ألفاظ القرآن الكريم من هذه
الجهة لا علاقة له بالتشابه ، وإنما هو نوع من البحوث المتعلقة بالقرآن الكريم ، يطلق عليه
" جمع الوجوه والنظائر " أو " معرفة الوجوه والنظائر " ، فالوجوه : اللفظ المشترك الذى
يستعمل فى عدة معان ، والنظائر : الألفاظ المتواظئة على معنى واحد ^(٤) .

وفى كلام بروكلمان ما يدل على التسمية الصحيحة لهذا النوع من البحث فى ألفاظ
القرآن ، إذ يقول فى حديثه عن مقاتل : " وطريقته فى استخدام المشترك اللفظى فى تفسير

(١) الدكتور / عدنان زرزور فى مقدمة تحقيق كتاب " متشابه القرآن " للقاضى عبد الجبار جابر ٥٥
دار التراث بالقاهرة .

(٢) الدكتور / محمود كامل فى مقدمة تحقيق كتاب ملاك التأويل ج ١ ص ٢٤ .

(٣) السابق نفس الصفحة .

(٤) ينظر البرهان فى علوم القرآن " ج ١ ص ١٠٢ وما بعدها ، والإبغان فى علوم القرآن
ج ١ ص ١٨٥ وما بعدها .

القرآن ، تابعه عليها الشافعى ^(١) .

غير أنه لم يذكر اللفظين " هدى " ، " كثر " مثالا لهذه الطريقة - كما ذكر الباحث - ولعل الباحث اطلع على تكملة لهذا رأى فى مصدرا آخر من مصادره !!

ثم إن بروكلمان أشار إلى مقاتل ضمن المؤلفين فى التفسير قديما ، ولم يذكر شيئا عن كتبه فى التفسير ، أو فى علوم القرآن ، خصوصا فى الموضع الذى رجع إليه الباحث من كتابه " تاريخ الأدب العربى " ، مما يدل على أن كلام بروكلمان عام فى سجع التفسير عند مقاتل ، وليس خاصا بكتاب " الآيات المتشبهات " .

وأيما ما كان الأمر ، فالبحث عن اللفظين بالطريقة التى أشار إليها الباحث يدل على أن الكتاب يعنى بالبحث فى بيان الوجوه والمعانى المتعددة للألفاظ التى وردت فى القرآن الكريم بأكثر من معنى ، وليس فى التشابه اللفظى - كما ذكر - ولا فى التشابه المعنوى - كما رجع الباحث السابق - وهذا يؤدى إلى احتمال كون الكتاب هو نفسه كتاب " الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم " لمقاتل ، المطبوع المتداول ، كما يقول محققه ^(٢) .

على أننا ننتقل بهذا الاحتمال إلى التأكيد ، بدليل أن الكلمتين اللتين أشار إليهما الباحث السابق فى تصوير منهج مقاتل - نقلا عن بروكلمان - هما الكلمتان الأوليان فى كتاب الأشباه والنظائر " الذى يتحدث عنهما بهذه الطريقة " يفسر كلمة " هدى " على سبعة عشر وجها ، وكلمة " كثر " على أربعة وجوه ، ثم يسير على هذه الطريقة مع مفردات القرآن الكريم إلى آخر الكتاب ^(٣) .

وربما بقوى هذا - أيضا - أن الزركشى والسيوطى اللذين غنيا بالإشارة إلى المؤلفات التى ألقت فى مباحث علوم القرآن ، لم يسمرا إلى شئ من مؤلفات مقاتل عند حديثهما عن التشابه ، وإنما أشارا إلى أنه صنف فى موضوع " الوجوه والنظائر " عند حديثهما عنه ، وإن لم يصرحا بعنوان الكتاب ^(٤) .

(١) تاريخ الأدب العربى / لكارل بروكلمان ج ٤ ص ٩ ، نقل د / السيد يعقوب بكر ، د /

رسان عهد التواب ط دار المعارف سنة ١٩٧٥ م .

(٢) الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم ، مقدمة التحقيق ج ١ ص ٨١ .

(٣) الأشباه والنظائر ج ١ ص ٨١ - ٩٧ .

(٤) انظر المهران للزركشى ج ١ ص ١٠٢ ، والاتقان للسيوطى ج ١ ص ١٨٥ .

وعلى هذا يتبين بالدلول - أن كتاب مقاتل ليس في التشابه اللفظي ، ولا في التشابه المعنوي ، ولا يتصل بأي شيء من أنواع التشابه التي ذكرها الراغب الأصفهاني ، حتى يمكن القول بأنه أقدم كتب التشابه ، وإنما الكتاب موضوع " الوجوه والنظائر " وهو المطبوع ، المحقق بعنوان : " الأشباه والنظائر في القرآن الكريم " .

متشابه القرآن . . حمزة بن حبيب القارئ المتوفى سنة ١٥٦ هـ ، وقيل سنة ١٥٨ هـ (١) .
متنبيه القرآن . . لنافع بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٦٩ هـ وقيل سنة ١٧٠ هـ (٢) .

أشار إلى هذين الكتابين ابن النديم في " الفهرست " ضمن المؤلفات في التشابه التي اكثف بذكر أسماء مؤلفيها ، ولم يبين أسماءها ، ولا نوع التشابه فيها (٣) ، ولم يرد لهما ذكر في كتابي " المهرمان والإيمان " وهما مفقودان ، غير أن حمزة ونافع من القراء ، والبحث في التشابه اللفظي وثيق الصلة بهم ، وقد نشأ على أيديهم - أول الأمر - لما فيه من تيسير الحفظ لكتاب الله ، ومن ثم كان اهتمامهم الأول بالجمع والحصر للآيات المشتهات ، ثم تلا ذلك اتجاه آخر هو محاولة توجيه ما بينها من فروق توجيهها بلاغيا ، كما سيتضح فيما بعد .

ولهذا فإن هذين الكتابين يُظنّ أنهما من الكتب المؤلفة قديما في التشابه اللفظي . وقد رجح ذلك أحد الباحثين بناءً على أن الذين كتبوا في تشابه العقائد كانوا في الغالب من أصحاب النحل ، ولأن الكتابة فيه لم تفرد إلا بعد احتدام الخلاف المذهبي ، بالإضافة إلى أنه قد وصلنا من كتب القراء في التشابه كتاب للكسائي الذي كان تلميذاً لأحد هؤلاء ، الذين ذكر لهم ابن النديم كتباً في التشابه ، وشيخاً لآخر، أسماء " مشتهات القرآن " ، جمع فيه الآيات المشتهات من حيث اللفظ بعضها مع بعض ، بحسب ترتيب السور (٤) .

-
- (١) أبو عمارة حمزة بن حبيب التميمي ، أحد السبعة ، قرأ على التابعين ، وتعدر للاقراء ، فقرأ عليه جل أهل الكوفة - شذرات الذهب . . لابن العماد الحنبلي ج١ ص ٢٤٠ مكتبة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .
(٢) نافع بن أبي نعم أبو عبد الرحمن ، قارئ أهل المدينة ، وأحد السبعة - شذرات الذهب ج١ ص ٢٢٠ .
(٣) الفهرست ص ٥٤ .
(٤) الدكتور / عدنان زيزور في مقدمة " متشابه القرآن " للقاضي عبد الجبار ج١ ص ٥٥ - ٥٦ .

مُشْتَبِهَاتُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ .. لعلی بن حمزة الکسائی المتوفى سنة ١٨٩ هـ^(١).

وهو الكتاب السابق الذى بقى من كتب القراء ، ويعد أشهر الكتب التى ألّفت فى القرن الثانى الهجرى ، فى المتشابه اللفظى ، وأقدم الكتب الموجودة التى تحدثت عن المشتبهات .

وقد أشار إليه السيوطى فى "الإتقان" ، وذكر أنه أول ما صُنّف فى المشتبهات فيما يحسب . كما أنه اقتدى به فى التسمية ، فلم يسم هذا النوع من البحث باسم المتشابه اللفظى مجازاة لما كان شائعاً ، وإنما أطلق عليه " فى الآيات المشتبهات " ^(٢).

والكتاب مخطوط، ومنه نسخة مصورة بالميكروفيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية تحت رقم ٢٤٠ تحسیر عن نسخة بمكتبة " عمومية بايزيد "

وهو يشل منهج القراء فى حديثهم عن المشتبهات ، ويعطى تصوراً عاماً عن كتبهم التى ألّفت فى القرن الثانى الهجرى ولم يعد لها وجود ، فهذه الكتب - - - - - مثلة فى كتاب الکسائی - - - - - تعتمد فى منهجها على جمع الآيات المشتبهات ، وتصنيفها مرتبة على سور القرآن ، من غير نظر إلى ما وراء فروق الصياغة ، من دلالات وأسرار .

ففى الكتاب المذكور جمع الکسائی الآيات المشتبهات ، ثم صنفها فى أبواب ، فبدأ بما أسماه باب الواحد ، ذكر فيه الآيات التى انفردت بصياغة واحدة عن سائر آى القرآن المشتبه بها ، ابتداءً من سورة البقرة إلى آخر سور القرآن الكريم ، مثل قوله (تعالى) فى سورة البقرة : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ " ^(٣) " وَسَائِرُ الْقُرْآنِ " اتَّقُوا رَبَّكُمُ " وقوله (تعالى) " وَتَكْفُرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ " ^(٤) " وَسَائِرُ الْقُرْآنِ " عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ " بغير من ، وفى - - - سورة آل عمران " إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ " ^(٥) " وَسَائِرُ الْقُرْآنِ " منهم " ... ^(٦) ... وهكذا إلى

(١) الکسائی هو : أبو الحسن على بن حمزة الأسدى الكوفى الکسائی ، أحد السبعة ، وقراً على حمزة ، وأدب الرشيد ، وولده الأمين ، وهو من تلامذة الخليل - - - - - شذرات الذهب ج ١ ص ٣٢١ - وفى الفهرست توفى سنة ١٧٩ هـ سنة ٤٤ المطبعة الرحمانية بمصر .

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٤٦ النوع الثالث والستون .

(٣) البقرة / ٢١١ .

(٤) البقرة / ٢٧١ .

(٥) آل عمران / ١٦٤ .

(٦) انظر المخطوط لوح ١ ، ٢ وبقيّة الأثلة : إلى لوحة ٢١ .

آخر الباب .

ثم ثنى بباب ما فى القرآن من حرفين ، فجمع فيه أجزاء الآيات المتماثلة التى تكررت مرتين فى سائر سور القرآن ، بدأ بسورة البقرة إلى آخر سور القرآن ، كما فعل فى الباب السابق ، مثل قوله (تعالى) فى سورة البقرة : " فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ " (١) وفيها " فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ " (٢) ، فالجزء المتماثل هنا " فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا " وتكرر مرتين فى هذه السورة الكريمة . . . وهكذا إلى آخر الباب (٣) .

واستمر الكسائى فى هذه الأبواب إلى باب ماجاء فى القرآن على عشرين حرفا (٤) ! ثم ختم الكتاب بأبواب ثلاثة ذكر فى أولها مواضع الآيات المتماثلة المتكررة فى سورة الشعراء (٥) وفى ثانيها عدد مالم يكرر أو يذكر فيه اسم الله (عز وجل) من سور القرآن وهى : الرحمن القمر ، الواقعة ، العرسلات ، عبس ، المطففين (٦) ، وفى ثالثها الآيات التى تحدثت عن جزاء المحسنين فى القرآن (٧) .

والكتاب بهذه الطريقة يهذى إلى مواضع المشتبهات فى القرآن الكريم ، ومعرفة الفروق فيها إذا عدنا النظرة من التماثلات التى ذكرها إلى ما يتصل بها فى الآيات الكريمة . ولكن لا يمكن القول بأنه جمع كل مواضع المشتبهات ، فهذا لا يوجد عنده ، ولا يوجد فى مؤلف آخر من المؤلفات فى المشتبهات ، بدليل اختلافها حول مواضع المشتبهات ، كما سيتضح بعد .

وقد تأثر الزركشى فى " البرهان " بهذه الطريقة حين عرض لهذا الموضوع ضمن مباحث علوم القرآن لإعطاء فكرة عامة عنه ، وللإشارة إلى مؤلفات القدماء فيه ، على الرغم من أنه لم يشر إلى كتاب الكسائى ضمن هذه المؤلفات (٨) .

- (١) البقرة / ١٨٤ .
- (٢) البقرة / ١٩٦ .
- (٣) انظر لوح ٢١ ، ٢٢ ، وثيقة الأثلة فى الباب إلى لوح ٣٥ .
- (٤) انظر الأثلة من لوح ٣٥ إلى لوح ٦٩ .
- (٥) انظر لوح ٧١ .
- (٦) انظر لوح ٧١ ، ٧٢ ، ولعله يقصد باسم الله عز وجل لفظ الجلالة " الله " !
- (٧) انظر لوح ٧٢ - ٧٦ ، واللوح صفحتان بالحجم الصغير .
- (٨) انظر البرهان فى علوم القرآن ج ١ ص ١١٢ - ١٥٤ .

متشابه القرآن . . لخلف بن هشام الأزدي المتوفى سنة ٢٢٩هـ (١)

وهو كتاب مفقود من الكتب التي ذكرها ابن النديم في الفهرست، وينطبق عليه ما ينطبق على كتابي نافع وحزوة السابقين ، لأن مؤلفه من القراء ، وكان تلميذاً للكسائي ، أي أن الكتاب في التشابه اللفظي (٢) ، الذي أعطى كتاب الكسائي السابق صورة للمؤلف فيه آنذاك .

درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز . . للخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢٠هـ (٣)

وهو أقدم كتب التشابه اللفظي التي غنيت بالحديث عن فروق الصياغة في الآيات المتشابهات ، واستظهار مناسباتها الدقيقة في نظم القرآن ، وذلك يشل اتجاهها تالفاً لانتجاء الجمع والتصنيف الذي اقتصر عليه عمل القراء في القرن الثاني ، ومطلع القرن الثالث الهجريين ، كما شاهدناه عند الكسائي في كتابه " مشتهات القرآن العظيم "

وقد كان هذا الانتجاء فتحاً لمؤلفات أخرى سارت على دربه بخطوات نسيئة ، سنشهد آثارها في مطلع القرن الثامن الهجري على يد ابن الزبير الأندلسي في كتابه " ملك التأويل "

وقد طبع كتاب الإسكافي طبعات متعددة ، منها طبعة بيروت الثالثة التي اعتمدت عليها (٤) ، وهو عبارة عن أمالي أملاها الخطيب الإسكافي (رحمه الله) ونقلها عنه تلميذه إبراهيم بن علي بن محمد ، المعروف بابن الفرج الأردستاني (٥) .

وفي مقدمة هذا الكتاب يحدثنا الخطيب عن أهمية هذه الدراسة التي شغله فيقول بعد حمد الله (تعالى) ، والصلاة على رسوله (صلى الله عليه وسلم) : " أما بعد : فاعلموا

(١) خلف : هو الإمام أبو محمد خلف بن هشام البزار شيخ القراء والمحدثين ببغداد - شذرات الذهب ج ٢ ص ٦٧ والفهرست ص ٥٥ .

(٢) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ، مقدمة التحقيق للدكتور / عدنان جاسم ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) الخطيب : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي عالم بالآداب ، واللغة ، من أهل أصبهان ، عاصر الوزير الأديب صاحب بن عباد ، وولى الخطابة بالرى - انظر ترجمة في صدر الكتاب ص ٥٥ ، ٦٤ .

(٤) منشورات دار الأفاق الحديثة ج ٣ سنة ١٩٧٩م بتصحيح الأستاذ / عادل نويهض .

(٥) انظر درة التنزيل ص ٧٠ .

كما أشار إليها ابن الزبير الأندلسي في كتابه " ملاك التأويل " لكنه لم يصرح باسم الخطيب ، وإنما صرح باسم الكتاب من غير نسبته إلى أحد ، مكتفياً بالإشارة إلى أنه لبعض المشاركة ، وذكر أنه ألف كتابه " ملاك التأويل " معارفاً به هذا الكتاب ، ومستدركاً في نفسه ما فاته ، ولذلك قام بوضعه أولاً قبل أن يطلع على كتاب " درة التنزيل وغرة التأويل " ، فلما فرغ من وضعه قابله عليه ، ثم وضع علامة مميزة على المواضع التي انفرد بها (١) .

وذكر الزركشي الكتاب بعنوان " درة التأويل " ونسبه إلى الرازي ، وعلق الأستاذ المحقق على هذا بأن اسم الكتاب في كشف الظنون " درة التنزيل وغرة التأويل " وهو للإمام فخر الدين الرازي (٢) .

وذكر السيوطي بعنوان " درة التنزيل وغرة التأويل " منسوبا لأبي عبد الله الرازي (٣) .

وأشار أحد الباحثين إلى أنهما كتابان مطبوعان ، أحدهما : " درة التنزيل وغرة التأويل " للإسكافي ، وقد وصفه بقوله : " وقد أطال القول فيه ، وغرض مقصده ، وأغفل كثيراً من مواضع التكرار " (٤) ، والثاني : " درة التنزيل " للرازي ، ووصفه بأنه مطبوع بمصر ، مختصر ، غرر واف بالفرض (٥) .

وفي فهرس الكتبخانة الخديوية بدار الكتب المصرية ، نسب الكتاب في نسخة إلى الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، وفي نسخة أخرى إلى الراغب الأصفهاني من علماء المائة الخامسة (٦) .

وهكذا اختلفت الآراء حول عنوان هذا الكتاب ونسبته إلى صاحبه ، ولم ترد الإشارة إلى هذا التضارب في مقدمة الكتاب المطبوع ، وإنما أغض المصحح عينيه عن هذا الخلاف ، ولم يصر إليه من قريب ، أو من بعيد ، وقد وافق الصواب حين نشر الكتاب منسوباً إلى الإسكافي ، بعنوانه الصحيح ..

-
- (١) انظر " ملاك التأويل " ج ٢ ص ٥٥ .
 (٢) انظر : البرهان في علوم القرآن " ج ١ ص ١١٢ والهامش للأستاذ / محمد أبو الفضل إبراهيم .
 (٣) انظر " الإعتقان في علوم القرآن " ج ٢ ص ١٤٦ .

- (٤) انظر " أسرار التكرار " للكرمانى مقدمة التحقيق ص ١٤ .
 (٥) السابق نفس الصفحة .
 (٦) انظر " الفهرس " ص ١٧٣ .

وأما ما كان الأمر فالذى انتهت إليه بعد المراجعة أن كتاب "درة التنزيل وغروره التأويل" المطبوع ، التداول وانما ، غير مختصر ، هو كتاب الخطيب الإسكافى ، وأن نسبته إليه أقوى نسبة ، بدليل أن ما أخذ الكرماني منه - عن طريق تفسير أبى مسلم - وجدته فيه ، غير أن الكرماني لم يصرح باسم الكتاب (١) . بدليل أن ابن الزبير أشار إليه بهذا العنوان ، كما أشار إلى بعض المواضع التى أطلقها الخطيب فيه وتكلم هو عنها فى "ملاك التأويل" ، وبالرجوع إلى الكتابين تأكدت من صحة ذلك إلا فى مواضع قليلة ، يظن أن ابن الزبير أشار إليها سهواً ، أو أن علامات الإقبال وضعت خطأ من النساخ ، حيث وجدت للإسكافى حديثاً عنها فى كتابه ، لكن فى غير مواضعها المظنونة ، كان يترك الحديث عن آية من الآيات المشتهيات فى أول موقع من مواقع ورودها فى سور القرآن الكريم إلى الوقف الثانى ، أو الثالث ، فيحكم ابن الزبير على الموقع الأول بأنه من مغفلات الدرة (٢) .

أما نسبته إلى الرازى فنسبه ضعيفة ، ربما أدى إليها اشتباه اسم الكتاب بكتاب آخر للرازى ، عنوانه "أسرار التنزيل وأنوار التأويل" أو التباس اسم الخطيب باسم الفخر الرازى . يقول الدكتور / محمد جلال الذهبى ، وهو يحدد حديثه عن مؤلفات الفخر الرازى ، وتعرض لما أثير حول هذا الكتاب من خلاف : "ولم أجد من المؤرخين - الذين طالعت كتبهم - من نسب هذا الكتاب إلى الرازى ، ولكن هذا الكتاب للإسكافى المتوفى سنة ٤٢١ هـ وربما كان سر هذا التباس تشابه اسم هذا الكتاب بكتاب آخر للرازى وهو "أسرار التنزيل وأنوار التأويل" - هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد يكون وراء هذا التباس ، ما ورد على لسان إبراهيم بن على بن محمد ، المعروف بأبى الفرج الأردستانى ، تلميذ الإسكافى من قوله : هذه المسائل أملاها على أبى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب (رحمه الله) . . . فهذا الاسم يلبس باسم الفخر الرازى من حيث كون الكنية فيه متحدة ، والاسم واحد ، ولكن الفخر هو محمد بن عمر ، وهذا محمد بن عبد الله" (٣) .

(١) ينظر على سبيل المثال "أسرار التكرار" ص ٢٦ ، ٤٣ ، ٩٤ ، درة التنزيل ص ١١ ، ٥٢ ، ٦٣ .

(٢) ينظر درة التنزيل ص ٣٩٠ ، ٤١٢ ، ٤٢٧ وملاك التأويل ج ٣ ص ٥٠٢ ، ج ٢ ص ٣٢٢ ، ج ٣ ص ٥٢٧ .

(٣) ينظر "الفخر الرازى والبلاغة العربية" ص ٤٤ رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة . سنة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

ثم إن ما ذكره الزركشى فى البرهان بعنوان " درة التأويل " للرازى ، وجدته فى " كشف الظنون " منسوبا إلى الراغب الأصفهاني ، وتكملة العنوان " درة التأويل فى متشابه التنزيل " وتبين من مقدمته التى ذكر صاحب " كشف الظنون " جزءا منها - على سبيل التعريف بموضوع الكتاب - أنه نفسه كتاب درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافى ، حيث إن المذكور فيها هو نفسه المذكور فى مقدمة " درة التنزيل وغرة التأويل " المطبوع (١) .

وما أشار إليه محقق كتاب " البرهان فى متشابه القرآن " وذكره السيوطى بعنوان " درة التنزيل وغرة التأويل " للرازى - وهو العنوان الصحيح لكتاب الإسكافى - وجدته فى " كشف الظنون " - أيضا - منسوبا إلى الرازى ، لكن تبين لى من مقدمته ، أنها مقدمة لنسخة أخرى من " درة التنزيل وغرة التأويل " أشار إليها مصحح النسخة المطبوعة فى الهامش ، وهى لا تختلف كثيرا عن الأولى (٢) .

وفى حومة هذا التحقيق لما أثير حول كتاب الإسكافى من خلافات ، وقعت على كتاب آخر بعنوان " أسرار التأويل وغرة التنزيل " منسوب إلى الراغب الأصفهاني ، وهو مخطوط بالمتحف البريطانى ، ومنه نسخة مصورة بالميكروفيلم فى معهد إحيا المخطوطات العربية ، بالقاهرة تحت رقم ٧ تفسير ، وقد تبين لى من مراجعته ، والمقارنة بينه وبين كتاب الإسكافى أنه هو نفسه كتاب " درة التنزيل وغرة التأويل " .

وعلى هذا يتأكد أن " درة التأويل " للرازى ، أو للراغب الأصفهاني ، و " درة التنزيل " للرازى ، و " أسرار التأويل وغرة التنزيل " للراغب الأصفهاني " كلها كتاب واحد ، عنوانه الصحيح " درة التنزيل وغرة التأويل " لمؤلفه الخطيب الإسكافى ، وأن نسبته إلى غيره

(١) ينظر كشف الظنون ج ١ ص ٤٨٣ .
والراغب الأصفهاني هو الحسن بن محط أبو الفضل أبو القاسم الأصفهاني ، أو الأصفهاني .
أديب لغوى ، مفسر ، من أهل أصفهان ، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام
الغزالي ، توفى سنة ٥٠٢ أو سنة ٥٠٣ هـ . ينظر الأعلام لخبر الدين الزركلى ج ٢ ص ٢٧٩

(٢) كشف الظنون ج ١ ص ٤٨٣ ، درة التنزيل ص ٧ .

نسبة خاطئة .

وما ذكره محقق كتاب " البرهان في مشابه القرآن " من أن هذا الكتاب كتابان ، أحدهما للرازي ، والآخر للإسكافي أمر يحتاج إلى دليل ، وكان عليه أن يذكر نماذج من كتاب الرازي - في رأيه - لتعرف الفرق بينه وبين كتاب الإسكافي ، أو يشير إلى دار طبعة أو نشره ، لكنه لم يفعل ، مع أنه رجع كثيرا في تحقيقه إلى كتاب الإسكافي ، وأشار إلى النسخة المطبوعة منه التي اعتمد عليها . ويبدو أنه اطلع على النسخة الأخرى لكتاب الإسكافي ، التي وردت في " كشف الظنون " منسوبة إلى الرازي ، فحكم بأنها كتاب مستقل للرازي - متابع للنسخة لما جاء في هذا المرجع - مع أن ما جاء في مقدمتها دل على أنها نسخة أخرى من كتاب الإسكافي ، المطبوع ، الوافي بالعرض ، كما سبق .

البرهان في مشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان . . . للكرواني المتوفى بعد سنة ٥٠٠ هـ تقريبا (١) .

وهو كتاب مطبوع محقق ، حققه الأستاذ / عبد القادر أحمد عطا تحت عنوان " أسرار التكرار في القرآن " واكتفى بوضع العنوان الحقيقي داخل الكتاب ، وقد فعل ذلك للشهرة ، كما يفعل بعض المحققين ، حينما يختارون العناوين الجذابة التي قد تكون بعيدة عن العناوين الأصلية للكتب التي يحققونها ، ضامنا لرواجها ، وانتشارها بين الداراسين ، وقد جاء في حديثه ما يدل على ذلك ، حيث يقول في المقدمة وهو يتحدث عن قيمة الكتاب : " . . . فالكتاب معروف إذن بين العلماء القدامى ، ولكنه لم يتداول في عصرنا ، ولم تنهض إليه يد لإخراجه لسبب واحد فيما نرى ، هو العنوان الذي اختاره للكتاب ، إذ سماه " البرهان في توجيه مشابه القرآن " لما فيه من الحجة والبيان ، فأغض المشتغلون بالنشر عنه عيونهم ، إذ ظنوه في التشابه بمعنى الوهم ، أو الفاض ، ولم يفتنوا إلى أنه في التشابه بمعنى التماثل ، وهو تكرار القرآن ، كما أوضح مؤلفه في مقدمته " (٢) .

وهذا من الخطورة بكان لما يترتب عليه من اللبس والاختلاط ، وهو ما نعانى منه بالنسبة للكتب المخطوطة ، وليس كتاب الدرة ، وما أثر حوله من خلاقات غنا بعيد .

- (١) الكرواني هو : تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرواني توفي في حدود الخمسة ، وهو غير الكرواني شارح صحيح البخاري ينظر أسرار التكرار مقدمة التحقيق ص ١١ .
- (٢) انظر مقدمة " أسرار التكرار " للمحقق ص ١٢ .

ملاحظ أنه لم يذكر الكتاب في الداخل بعنوانه الصحيح ، إذ ذكر أنه " البرهان في توجيه مشابه القرآن " لما فيه من الحجة والبيان " والصواب أنه " البرهان في مشابهة القرآن لما فيه من الحجة والبيان " بدون كلمة " توجيه " كما جاء بنصه في حديث الإسكافي عنه في المقدمة .

كما يلاحظ أنه ضبط " الكرمانى " بفتح الكاف والراء ، والصواب أنها بكسر الكاف أو فتحها مع تسكين الراء ، نسبة إلى " كَرَمَان " وهى - كما قال ياقوت - " بالفتح ثم السكون والفتح أشهر بالصحة ، ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان " (١) .

وقد حقق هذا الكتاب - أيضا - في نفس الفترة تقريبا ، أحد الباحثين في جامعة القاهرة ، تحت عنوانه الصحيح " البرهان في مشابهة القرآن لما فيه من الحجة والبيان " (٢) .

والكرمانى في هذا الكتاب يسير على نمط الإسكافى في الدرة ، إذ يحدد في المقدمة موضوع الكتاب ، وأهمية هذه الدراسة ، فيشير إلى أنه في الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن ، والفاظها متفقة ، ولكن وقع في بعضها زيادة ، أو نقصان ، أو تقديم ، أو تأخير ، أو ابدال حرف مكان آخر ، أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين ، أو الآيات ، يسمى هو لإزالته ، وبيان سببه ، وذكر وجوهه وعمله ، وأنه سعى كتابه " البرهان في مشابهة القرآن لما فيه من الحجة والبيان " (٣) . ثم يستعرض الآيات المشتهات في القرآن بدءا بسورة الفاتحة وانتهاء بسورة الناز ، على غرلو ما فعل الإسكافى . لكنه يختلف عنه من حيث الزيادة في مواضع المشتهات ، فقد بدأ بسورة الفاتحة ، فتكلم فيها عن أربعة مواضع ، ولم يتكلم الإسكافى قبله عن أى شئ فيها (٤) ، ومن حيث اختصاره للآيات القرآنية اختصارا يوقع في اللبس أحيانا ، ما يجعل الكتاب في حاجة شديدة إلى تحديد مواضع الآى في القرآن حتى يمكن تتبع سياقاتها وهو ما زلل التحقيق ، الذى بدوره تصعب الاستفادة من هذا الكتاب على من لم يحفظ القرآن حفظا جيدا ، أو بدايم على تلاوته حتى يسهل عليه تصور مواضع الآيات المشتهات ، وهذا ما لا عهد به في كتاب الدرة . ومن حيث إيجاز العبارة إيجازا يشعر المطلع على هذا الكتاب بأنه أمام عمل مختصر لعمل آخر مبسوط . وأغلب الظن أن الكرمانى استفاد بدراسة الخطيب

- (١) ينظر معجم البلدان " ج٤ ص ٤٥٤ دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر .
- (٢) رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة القاهرة تحت رقم ١٥٣٤ سنة ١٣٩٥ - ١٩٢٥ م للباحث منصور محمد منصور الحنفوى .
- (٣) انظر أسرار التكرار ص ١٧ - ١٩ .
- (٤) السابق ص ١٩ - ٢١ ومواضع أخرى من سورة البقرة ص ٢١ - ٢٥ وهذا على سبيل المثال .

السابقة ، والشذرات التي تناثرت في كتب السابقين حول هذه الآيات ، بالإضافة إلى ما فتح الله عليه به ، ثم قام بنهذيب ذلك كله واختصاره في هذا الكتاب ، فتلك هي طبيعة الكتب التي تبنى على ما قبلها ، وتستخرج هذه الظاهرة كلما تقدم الزمن ، وتعاقبست المؤلفات في هذا الموضوع .

وعلى ذلك فلا أستطيع أن أطلق القول مع الأستاذ / عبد القادر عطا - مفسر الكتاب - بأن كتاب " البرهان " للكرمانى أوفى كتاب بحث إعجاز الأسلوب القرآنى ، وأن كتاب الإسكافى غرض مقصده ، وأعدل كثيراً من مواضع التكرار^(١) ، لأن الكرماني إذا كان قد استدرك على الخطيب بعض المواضع فهذا أمر طبيعي لأنه متأخر عنه ، ومن شأن المتأخر أن يزيد على المتقدم - فقد جاء بعدهما من استدرك عليهما معا ، كما سنرى عند ابن الزبير الأندلسى في " ملك التأويل " .

ثم إننا إذا استثنينا مواضع الزيادة فإننا نجد الهون شامعا بين كتاب " الدرة " الذى يعنى بذكر الآيات القرآنية كاملة ، ويهتم بشرح ما بينها من فروق شرحا مفصلا ، وبين كتاب " البرهان " الذى يختصر الآيات اختصارا بوقع فى اللبس ، ويوجز فى التعبير إيجازا يجعل الوصول إلى المقصود صعبا فى كثير من المواطن ، كما أنه يجزئ الحديث عن المثال الواحد فى موضعين من الكتاب ، وانظر - إن شئت - حديثه عن قوله (تعالى) فى سورة آل عمران : " كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ " . الآية^(٢) وما يشبه بها فى سورة الأنفال^(٣) ، فقد تحدث عن هذا المثال مرة عند الحديث عن الآيات المشبهات فى سورة آل عمران حديثا قصيرا بعد أن تحدث عنه مرة ثانية عند الحديث عن الآيات المشبهات فى سورة الأنفال فى صفحة تقريبا^(٤) . على حين تحدث الخطيب عنه مرة واحدة عند حديثه عن المشبهات فى سورة آل عمران ، وهى السورة المتقدمة فى ترتيب المصحف ، وذلك فيما يزيد من ست صفحات ، بطريقة مفصلة ، يوضح فيها أولا الفروق ، ثم يقوم بتوجيه المعنى من خلالها^(٥) . ولم يكرر الحديث مرة ثانية اكفاء به فى موضعه المناسب . وسنستعرف على نماذج من توجيهاتها فى القسم الثانى من هذا البحث .

(١) انظر أسرار التكرار ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) آل عمران / ١١ .

(٣) الأنفال / ٥٢ ، ٥٤ .

(٤) انظر أسرار التكرار ص ٤٦ ، ٩٤ .

(٥) انظر " درة التنزيل " ص ٥٩ - ٦٥ .

مُتَشَابِهَةُ الْقُرْآنِ عَلَى حُرُوفِ الْمَعْجَمِ ... لِلْقُرْطُبِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٦٦٥ هـ (١) .

وهو كتاب مخطوط ... ، ومنه نسخة مصورة بالميكروفيلم في معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٢١٣ تفسير، عن نسخة بمكتبة شهيد على .

والكتاب ينتمي في اتجاهه إلى كتب القراء السابقة التي تُعْنَى بالجمع والتصنيف، لكنه يتميز عنها - كما يدل عنوانه - بمنهج الذي يقوم على جمع ما تشابه مواضعه من الألفاظ في سور القرآن الكريم ، ثم تصنيفها على حروف المعجم من الهمزة إلى الياء ، بحيث إذا أراد القارئ لكتاب الله أن يعرف كلمة ما ، أو آية من الآيات المشبهات ، وكم من مرة تكسرت ، فليحظر أولها ، ثم ينظر في الحرف الخاص بها (٢) . فهو بذلك يشل المعجماً للمتشابه اللفظي في القرآن الكريم . وكان في نيته أن يذكر الآيات التي لم تتكرر ، ولكنه اعتذر عن ذلك خشية التطويل (٣) . ولنتركه يحدثنا عن مقصده من التشابه ، وعن فائدة كتابه ، فس كلمات ، حيث يقول في المقدمة :

” إنما يراد من التشابه الآية التي لها شبه في سورة أخرى ، فإذا قرأ القارئ واشتبهت عليه آية أو كلمة ، نظرهما في موضعها من هذا الكتاب ، فيزول الالتباس بذلك إن شاء الله تعالى ، وجعلته على حروف المعجم لكي يسهل حفظه ، ويقرب تناوله لمن أراد ذلك ، وبالله التوفيق ” (٤) .

وقد التزم القرطبي بهذا المنهج في الكتاب ، فقدم ألفاظ القرآن أولاً مع الإشارة إلى عدد مرات ورودها فيها ، كقوله : ” أعوذ ست مرات ” الله ، لله ، والله ألفان وستائة ، ” الرحمن ” ٥٣ ، ” إن الله عزيز حكيم ” ست مرات ، ” إن الله عليم خبير ” مرتان (٥) . وهكذا في بقية الحروف إلى حرف الياء ، من غير ذكر الأماكن هذه الألفاظ في سور القرآن (٦) .

(١) القرطبي هو : أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد القرطبي أبو القاسم بن أبي الفضل ويعرف بابن بقي ، كانت له إمامة في اللغة وعلم العربية ، وكان قاضى الخلافة المنصورية وكاتبها ، وهو غير القرطبي صاحب التفسير المشهور بغية الوعاة للسيوطي ج ١ ص ٣٩٩ بتحقيق الأستاذ / محمد أبو الفضل إبراهيم ط ١ عيسى الحلي .

(٢) انظر لوحه رقم ٢ .

(٣) السابق نفس اللوحه .

(٤) السابق نفس اللوحه .

(٥) السابق نفس اللوحه .

(٦) السابق لوحه ٢ إلى ١٤ .

ثم عاد ثانيا فتحدث عن هذه الألفاظ في أجزاء من آياتها ، مشيراً إلى السور التي تكررت فيها ، فيذكر - على سبيل المثال - لكلمة " أعوذ " هذه المواضع : " أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين " البقرة ^(١) ، " أعوذ بالرحمن منك إن كنت تكفياً " مريم ^(٢) ، " أعوذ بك من همزات الشياطين " المؤمنون ^(٣) ، " أعوذ بك رب أن يحضرون المؤمنون " ^(٤) ، " قل أعوذ برب الفلق " الفلق ^(٥) ، " قل أعوذ برب الناس " الناس ^(٦) ويستمر هكذا إلى آخر الكتاب .

وهذه الطريقة يمكن أن نتبين مواضع المشتبهات ، وعدد مرات ورودها ، لكن يلاحظ عليه أنه قد يغفل عن بعض الأمثلة ، أو تسقط عنه بعضها ، كما نجد في المثال السابق ، فقد ترك موضعاً سابقاً ، وهو قوله (تعالى) في سورة هود : " قال رب أنسى أعوذ بك أن أنالك ما ليس لي به علم " ^(٧) .

هداية المرتاب في المشابهة . . . للسخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ^(٨) .

هذا عنوان منظومة للسخاوى ، جمع فيها الآيات المشتبهات ، وتعرف بالسخاوية . وهي مخطوطة بالأزهر ، تحت رقم (٥٥٨) حلیم فی فهرس التفسیر وعلوم القرآن . وتشمل نوعاً آخر من الجمع والتصنيف ، بطريقة تدنى الغرض منها ، وهو تسهيل الحفظ والتذكير لآيات القرآن الكريم المشتبهات ، وذلك بحفظ هذه المنظومة ، وهو أمر سهل بالنظر إلى قراءة الكتب الأخرى ، التي تنتمى إلى هذا الاتجاه .

- | | |
|-----|--|
| (١) | البقرة / ٦٧ . |
| (٢) | آية / ١٨ . |
| (٣) | آية / ٩٧ . |
| (٤) | آية / ٩٨ . |
| (٥) | آية / ١ . |
| (٦) | آية / ١ . |
| (٧) | آية / ٤٧ . والكتاب ١١٣ لوحة بالحجم المتوسط . |
| (٨) | السخاوى هو : علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الواحد الهمداني المقرئ النحوي الشافعي ، انتهت إليه رئاسة الإقراء والادب بدمشق ، وسمى بالسخاوى نسبة إلى سخا من أعمال مصر - شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٢٢ . |

وتواكب هذه المنظومة غيرها من الثنون العلمية - منظومة وغير منظومة - التي سارت في هذه الفترة الزمنية ، وانتشرت انتشارا واسعا في مختلف العلوم ، ومنها في هذا الموضوع - أيضا - منظومة للخضري^(١) ، ومتن للشيخ أحمد الدردير ، بعنوان " تحفة القارئ لكتاب الهاري " (٢) .

وهذه المنظومات ، أو المتون الصغيرة ، لا تستوعب كل مواضع المشتبهات في القرآن ، لأن هذه المواضع من الكثرة التي تجعل الجمع صعبا ، حتى على الكتب غير القيدة بالنظم والاختصار ، ولذلك اختلفت فيما بينها حول حصر هذه المواضع في كل سورة من سور القرآن . كما أن مجال الإفادة منها في هذه الدراسة محدود ، إذ يغنى بعضها عن بعض في التعرف على مواقع المشتبهات " . وأيا ما كان الأمر فهي تشمل نوعا من النشاط العلمي في هذا الميدان ، وجهت الإشارة إليه .

وقد أشار الزركشي في " البرهان " والسيوطي في " الإتيان " إلى منظومة السخاوي^(٣) ، مما يدل على شهرتها من بين هذه المنظومات وهذه المتون .

ملك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير الأندلسي المتوفى سنة ٧٠٨ هـ^(٤) .

وهو كتاب مخطوط ، حقق أخيرا في رسالة جامعية ، لم تطبع - كما سبقت الإشارة^(٥) - ذكره الزركشي في " البرهان " ووصفه بأنه أبسط كتب التشابه اللفظي^(٦) ، كما ذكره السيوطي في " الإتيان " ووصفه بأنه أحسنها ، غير أنه لم يقف عليه^(٧) .

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | مخطوطة بالأزهر تحت رقم (٢٨٧) ١٢٧٤٠ . |
| (٢) | مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٧ مجاميع يومسور . |
| (٣) | البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١١٣ والإتيان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٤٦ . |
| (٤) | ابن الزبير هو : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي : شيخ أبي حنبلان النحوي صاحب تفسير البحر المحیط ، انظر ترجمة وافية له في مقدمة تحقيق الكتاب ج ٢ للدكتور / محمود كامل . |
| (٥) | انظر ص من هذا البحث . |
| (٦) | البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١١٢ . |
| (٧) | الإتيان ج ٢ ص ١٤٦ . |

وحقيقة يعد هذا الكتاب أبسط الكتب التي تحدثت عن المشتبهات - على حد وصف الزركشى له - كما يعد أعمقها في تحليل وتوجيه المعانى لهذه الآيات في إطار ما بينها من فروق . ويتميز بروح الاستقلال ، والرؤية الشاملة ، في كثير من المواضع ، بحيث يصدق عليه - فيما أرى - ما ذكره الأستاذ / عبد القادر عطا عن كتاب الكرمانى ، من أنه أوفى كتاب بحث إعجاز الأسلوب القرآنى ، من خلال هذه المشتبهات .

وهو يمثل جهد المغاربة ، ومعالجتهم لهذا النوع من الدراسات الآتية .
وليس من شك في أنه استفاد بما جاء في " درة التنزيل وغرر التأويل " على الرغم من
تصرّحه بأنه ألف " ملاك لتأويل " ليعارضه به ، ولم يستدرك فيه ما فات ، كما
استفاد من الشذرات التي تشارت في كتب المفسرين حول هذه الآيات ، ومخاطبة تفسير
الكشاف للزمخشري .

ومن الجدير بالذكر أن ابن الزبير لم يتحدث عن كتاب " البرهان في متشابه
القرآن " للكرواني مع أن هذا الكتاب متأخر عن كتاب " درة التزويل " ولم تختلف
حوله الآراء من حيث نسبه إلى صاحبه ، كما اختلفت بالنسبة " لدرة التزويل " وهذه
شهادة " لدرة التزويل " بالثبوت والذيق ، والإقبال عليه من جانب العلماء ، وتداوله في
مختلف البلاد .

وقد سار ابن الزبير في هذا الكتاب على غرار ما سار الخطيب الإسكافي في "درة التزهيل" . . . والكرواني في "البرهان في مشابهة القرآن" فتحدث عن الآيات المشابهات تبعاً لترتيبها في سور القرآن الكريم ، بادئاً بسورة الفاتحة ، وخاتماً بسورة الناس ، إلا أنه اختلف عنهما بالشرح والتوجيه الذي يعتمد على رؤيته الخاصة - كما سبق - كما أنه تحدث عن مواضع جديدة ، لم يتحدث عنها ، فعلى سبيل المثال تحدث في سورة الفاتحة عن قوله (تعالى) : " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " وما يشتهى هذه الآية من الآيات التي انتحست بها بعض السور ، كسور : الأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ، وأختتمت بها ، كما جاء في خاتمة سورة الجاثية ، وسورة الصافات ، وسورة الزمر ، أو جاءت في ثناياها بقوله (تعالى) : في سورة الأنعام : " فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (١) .

وفي سورة غافر : " هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (١) . وفي سورة يونس : " وَأَخِرَ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (٢) . كما تحدث عن قوله (تعالى) في نفس السورة : " مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ " (٣) وما يشتهر بها من قوله (تعالى) : في سورة آل عمران : " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ " (٤) وفي سورة الناس " مَلِكِ النَّاسِ " (٥) . وهذان الموضعان لم يتحدث عنهما الكرمانى ، على الرغم من حديثه عن مواضع أخرى ، في سورة الفاتحة ، ولم يتحدث عنها - أيضا - الإسكافى ، الذى بدأ كتابه بما رآه من المشتبهات في سورة البقرة . وهذا يؤكد ما أشرت إليه سابقا من اختلاف هذه الكتب حول حصر مواضع المشتبهات في القرآن .

وإذا كان ابن الزبير ، قد وضع كتابه ليمارض به " درة التزويل " ولينص عليه على مغفلة ، فقد أغفل هو - أيضا - بعض المواضع التى تحدث عنها من قبله الكرمانى فى " البرهان " كما رأينا - على سبيل المثال - الموضع الأربعة التى تحدث عنها - الكرمانى فى سورة الفاتحة ولم يتحدث هو عنها (٦) . ثم إن هذه المغفلات التى نسبها إلى الإسكافى لم تسلم كلها له ، فقد ثبت بالرجوع إلى " درة التزويل " حديث الإسكافى عن بعضها وإن لم يكن فى أماكنه الظنونة كما سلفت الإشارة (٧) .

وستتعرف على نماذج نمن توجهاته فى القسم الثانى من هذا البحث .

كشف المعانى فى التشابه من الثانى لابن جماعة المتوفى سنة ٧٢٣ هـ (٨) .

- | | |
|-----|--|
| (١) | الآية / ٦٥ . |
| (٢) | الآية / ١٥ وانظر حديث ابن الزبير فى ملك التأويل ج ٢ ص ٩ - ١٢ . |
| (٣) | الآية / ٣ . |
| (٤) | الآية / ٢٦ . |
| (٥) | الآية / ٢ . وانظر حديث ابن الزبير فى ملك التأويل ج ٢ ص ١٣ - ١١ . |
| (٦) | انظر أسرار التكرار ص ١٩ - ٢١ . |
| (٧) | انظر ص ٢٠ من هذا البحث . |
| (٨) | ابن جماعة هو : محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ، الكنانى ، الحموى الشافعى ، ولى قضاء القدس وبصرى والشام وصنف كثيرا فى عدة فنون - انظر المسدرد الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى ج ٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٩ بتحقيق / محمد سيد جاد الحقيق ، مطبعة المدنى ويطلب من دار الكتب الحديثة |

وهو كتاب مخطوط ، ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣١٨١٨ ب)
يقد إشار إليه الزركشى والسيوطى ^(١) ، وطريقته فى العرض طريقة السؤال والجواب ، وهى
الطريقة المعروفة بطريقة الفقهاء ، مع التزامه بالترتيب الوارد فى الكتب سالفه الذكر ، هذا كتاب
القرطبي ، وأهم ما يميزه الإيجاز الشديد ، واقتضاره فى الآيات القرآنية على مواضع التفسير ،
ما يضطر الباحث إلى اصطحاب نسخة من المصحف معه ، وهو يطلع على هذا الكتاب .

وإذا كان الإيجاز هو الصفة الغالبة لكتاب الكرمانى السابق بالنسبة لتبائى درة
التزويل وملاك التأويل فإنه بالنسبة لهذا الكتاب يعد مطولا ، كما أن صعوبة
قد دلت بما قام به المحققان من جهد مشكور ، حيث بينا مواضع الآيات القرآنية نفسى
سورها ، وأزالا كثيرا من الإلهاس الذى يكف بعض عباراته ، ومن هذا تبين مدى ما تحتاجه
هذه الكتب من جهد لإخراجها إلى النور كي يسهل الانتفاع بها .

وهذا الإيجاز الشديد كان سمة غالبة على كثير من المصنفات العلمية فى هذه الفترة
- فترة الحوائى والتقريرات والفتاوى العلمية ، واتجاه العلماء لتلخيص الآراء السابقة ولم
يخرج الكتاب عن هذا الطابع العام لهذه المصنفات ، حيث يتضح فيه اتجاه صاحبه لتلخيص
آراء السابقين فى توجيه المشتبهات ، وقلة ابتكاره وإضافته إليها . وهذه هى الصورة السائدة لما
جاءت عليه المؤلفات فى المشتبهات القرآنية بعد ذلك .

ومن الشواهد على اختصاره الشديد فى هذا الكتاب أنه أحيانا يذكر الآيات
القرآنية ، ولا ينص على الآيات الأخرى التى تشبه بها ، اكتفاء بقوله : " وفى غيره " أى
فى غير هذا الموضع من الآيات الأخرى المشتبهات ^(٢) .

كما أنه - على الرغم من اختصاره - تحدث فيه عن أشياء لاصلة لها بالموضوع الأصلى للكتاب
وهو - كما أشار فى المقدمة - الحديث عن المعانى التى تكررت بألفاظ متغايرة ^(٣) ، متحدث

(١) انظر الهرهان فى علوم القرآن ج ١ ص ١١٢ والاتقان فى علوم القرآن ج ١ ص ١٤٦ .

(٢) انظر المخطوط ص ٤٦ .

(٣) انظر مقدمة المخطوط ص ٢٦ .

عن التكرار في المتماثلات ، وعن عجائب القرآن من ناحية اختيار الألفاظ ، وعن ما يوهم التناقض والاختلاف ، وذلك في ثنايا حديثه عن المشتبهات^(١) .

وربما يرجع هذا كله إلى الغرض الذي من أجله ألف الكتاب ، فهو غرض تروى أخذاً من حديثه في المقدمة - إن يشير فيها إلى أنه وضع هذا الكتاب استجابة للأسئلة الكثيرة التي كانت تدور في خواطر تلاميذه ، ولم توجد الإجابة عليها كاملة في كتب التفسير^(٢) ، مما يدل على أنه كان قائماً بتدريس التفسير ، وأنه وضع هذا الكتاب مختصراً لتلاميذه ، ليكون عوناً لهم على استيعاب هذه الأمور الدقيقة المتصلة بالآيات المشتبهات في القرآن الكريم .

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . . . لمجد الدين الفيروز آبادي المتوفى سنة ١٢٨١ هـ^(٣)

وهو كتاب مطبوع محقق ، يقع في أربعة مجلدات كبار ، تحدث فيه مؤلفه عن بعض الباحث العامة المتعلقة بعلوم القرآن ، ثم استعرض سور القرآن الكريم سورة - سورة على ترتيبها المعروف في المصحف ، فذكر في كل سورة مباحث تسعة ، وهي : موضع التدرول - عدد الآيات ، والكلمات ، والحروف - اختلاف القراءة في عدد الآيات - مجموع فواصل السورة - اسم السورة أو أسماؤها - مقصود السورة - الناسخ والمنسوخ - من السورة - المتشابه منها - فضل السورة .

ثم عقد بحثاً إجمالياً في عدد آيات القرآن ، وعدد كلماته ، وحروفه ، وعدد كل

(١) انظر السابق ص ٢٦ ، ٢٩ ، ٨٥ ، ٩١ على سبيل المثال .

(٢) انظر السابق ص ٢٦ .

(٣) الفيروز آبادي هو : محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر بن أبي بكر ، الفيروز آبادي ، نسبة إلى فيروز آباد ، مدينة في جنوب شيراز ، وشمالى كازين ، ويقال له أيضاً الشيرازي ، لأنه تلقى العلم في مطلع حياته بها ، وهو صاحب القاموس المحيطة . انظر ترجمة وأمينته له في مقدمة الكتاب لمحققه الأستاذ : / محمد علي النجار ج ١ - ٣٠ مطابع شركة الإعلانات الشرقية سنة ١٣٨٣ هـ . من كتب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي . ٤ .

حرف من حروف الهجاء فيه ، وهذا ينتهي الجزء الأول ، وابتداء من الجزء الثاني إلى آخر أجزاء الكتاب يعرض الفيروز آبادي لتفسير مفردات القرآن ، على نحو عمل الراغب في " المفردات في غريب القرآن " مع بعض الإضافات اللغوية في الحديث عن أوصاف الحروف ، ومعانيها ، ومع باب أخير ختم به الكتاب عن الأنبياء المذكورين في القرآن ، وأعدائهم ، وقصصهم ، وكل ما يدخل في هذا الباب .

والكتاب — على هذه الصورة — ليس خاصا بالمشتبهات ، وإنما جاء حديثه فيها ضمن حديثه عن أمور كثيرة في كل سورة من سور القرآن الكريم . وقد أثرت الحديث عنه في هذا الموضع مع هذه المؤلفات — لما يقتضين لي ، من أن مجموع ما جاء فيه ، منقول بنصه من كتاب الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن " ، وقد وزعه الفيروز آبادي ضمن المباحث الأخرى في كل سورة ، والتزم التزاما كاملا بنص الكرمانى ، إلا في مواضع نادرة ، حيث تصرف بال حذف ، أو بالزيادة ، تصرفا لا يؤثر على المضمون ، ويظن أنه نتيجة اختلاف النسخ التي اعتمد عليها هو ، واعتمد عليها محقق كتاب " البرهان "

والفيروز آبادي — على الرغم من هذا — لم يشر إلى الكرمانى إلا في مواضع قليلة ناسبا إليه بعض أقواله ، وتاركا بقية حديثه من غير نسيبه (١) .

فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن . . . للشيخ زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ هـ (٢) .

وهو كتاب مخطوط بالأزهر تحت رقم (٢٠٨) ٤٤٧٧٦ ، ويدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٨٧) تفسير تيمور ، وقد حقق أخيرا في رسالة جامعية ، لم تطبع بعد (٣) .

- (١) انظر على سبيل المثال بصائر ذوي التمييز ج ٢ ص ٢٧٦ ، وأسرار التكرار ص ١١٩ حول قوله تعالى في سورة الحجر : " وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارًا مِنْ سِجِّيلٍ " ٧٤/ .
- (٢) الشيخ زكريا . هو : زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصارى ، كنيته أبو يحيى مصرى الموطن ، لازم الأزهر ، وفتن بالعلوم اللغوية والبيانبة والدنية — انظر ترجمة وافية له في مقدمة تحقيق هذا الكتاب ص ١٠ للباحث عبد السميع حسين . رسالة ماجستير مخطوطة بكلية أصول الدين القاهرة يتسم التفسير وعلوم القرآن سنة ١٩٨٠/٧٩ .
- (٣) الرسالة السابقة .

وطريقة المؤلف فيه هي الطريقة التي اتبعها ابن جماعة في "كشف المعاني" حيث الإيجاز الشديد ، واختصار الآيات القرآنية ، والتعرض لأمر آخر غير المشتبهات في ثنايا الحديث ، إلا أنه راعى في عنوان هذا الكتاب ما يشملها جميعا ، إذ أن هذه الأمور كلها تدخل تحت ما يلتبس على أي وجه من وجوه الالتباس ، وبذلك يعد عنوان هذا الكتاب أوفى من غيره على الموضوعات التي تعرضت لها كتب المتشابه اللفظي .

وتتضح في الكتاب ظاهرة النقل عن السابقين ، واختصار آرائهم ، كما سبقت الإشارة ، وقد أشار محقق الكتاب إلى بعض المصادر التي أخذ منها ، كتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، والكتاب للزمخشري ، وغرائب القرآن وغرائب الفرقان للنيسابوري المتوفى سنة ٢٢٨ هـ ، والبرهان للكرمانى ، وهو أهمها من ناحية حجم المنقول^(١) .

إرشاد الرحمن لأسباب النزول والنسخ والمتشابه وتجويد القرآن . . . لابن عطية الأجهوري المتوفى سنة ١١٩٠ هـ

وهو مخطوط بالأزهر تحت رقم (١٥٢) ١١٤٧ ، يضم مباحث متعددة - يبدل عليها عنوانه - حول كل سورة من سور القرآن ، على غرار " بصائر ذوي التمييز " للفيروز آبادي ، ويتميز بالإيجاز الشديد ، واختصار الآيات القرآنية كتابي : كشف المعاني ، وفتح الرحمن السابقين . ويمتد الأجهوري فيه بالنعبة للمشتبهات على ما ذكره الكرمانى غالبا .

(١) أنظر الرسالة السابقة ص ٥٧٩ - ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ .

مؤلفات أخرى تحدثت عن المشتبهات

وبجانب هذه المؤلفات التي تخصصت في الحديث عن المشتبهات ، تانتشرت بعض التوجهات في كتب التفسير ، وكتب علوم القرآن ، أهمها : ما جاء في تفسير الزمخشري ، الذي انتفع بدراسة الشيخ عبد القاهر الجرجاني للنظم ، انتفاعا كبيرا ، ظهر أثره واضحا - ضمن ما ظهر - في حديثه عن هذه الآيات . وما جاء في تفسير الرازي ، وأبي السعود ، والألويسي وأكثره مأخوذ من تفسير الزمخشري . وما جاء في تفسير الهقاعي ، المسمى " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور " والذي غنى بدراسة المناسبات بين آي القرآن ، بعضها مع بعض ، وبين سور القرآن كذلك ، وتعرض للمشتبهات من هذه الزاوية . وما جاء في كتاب " مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل " لمؤلفه محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ، وهو كتاب مطبوع بتحقيق الأستاذ إبراهيم عطوة عوض ، تعرض فيه الرازي لأشلة من هذه الآيات - ضمن ما تعرض له من مسائل - وأوجز في توجيهها لها ، مستعينا بدراسات السابقين ، وخاصة الزمخشري . وما جاء في كتاب " بدائع الفوائد " لابن قيم الجوزية ، المتوفى سنة ٧٥١ هـ ، معتددا في بعضه على ما ذكره السهيلي في " نتائج الفكر " . وما جاء في كتابي " البرهان في علوم القرآن " للزركشي ، و " الإتيقان في علوم القرآن " للسيوطي ، حيث عقد المؤلفان لهذا النوع من الدراسة بحثا مستقلا ، أشارا فيه إلى بعض المؤلفات القديمة التي تحدثت عنه ، ثم تعرضا لبعض الأشلة بالتوجيه في إيجاز شديد ، وسترده نماذج متعددة من كل ما جاء في هذه الكتب ، في القسم الثاني من هذا البحث .

ومن الحديث السابق عن المؤلفات التي تخصصت في دراسة المشتبهات ، يمكن إجمال الحديث عن مناهجها ، والملاحظات عليها ، وصلتها بموضوع هذا البحث في النقاط التالية :

أولا : يلاحظ من ناحية الجمع للآيات المشتبهات ، والحديث عن الفروق بينهما ، أن بعضها اقتصر على مجرد الجمع والتصنيف حسب كل سورة من سور القرآن ، وهذا ما ظهر مبكرا في القرن الثاني الهجري عند القراء ، أمثال : حمزة ، ونافع ، والكسائي وخلف ، وأوضح ما يشل هذا الاتجاه كتاب الكسائي " مشتبهات القرآن العظيم "

الذى يعد أقدم الكتب الموجودة فى هذا الموضوع . ومعناها اقتصر على مجـمـوعـة الجمع - أيضا - لكن تغيرت فيه طريقة التصنيف ، حيث ظهرت فى صورة معجم لغوى لهذه الآيات ، كما رأينا عند القرطبي فى كتابه " متشابه القرآن على حروف المعجم " ، وفى صوره منظومات ، كمنظومة السخاوى " هداية المرتاب فى المتشابهة " .

ومعناها اهتم بالجمع مع التوجيه لما بينها من فروق . وقد ظهر هذا الاتجاه بوضوح عند الإسكافى فى مطلع القرن الخامس الهجرى فى كتابه " درة التزئيل وغرة التأويل " ، وسارت على دربه مؤلفات كثيرة ، أعقبها فى توجيه هذه الآيات كتاب " ملاك التأويل . . . " لابن الزبير الأندلسى فى القرن الثامن الهجرى .

ثانيا : تسير هذه المؤلفات على طريقة واحدة فى عرضها للآيات المشتبهات ، سواء ماقتصر منها على الجمع فقط ، أو ما اشتم منها بالجمع والتوجيه ، حيث تلتزم بترتيب سور القرآن الكريم ، فتبدأ بالمشتبهات فى سورة الفاتحة (عند من لاحظ ذلك كالكرمانى وابن الزبير) ثم تنتقل إلى المشتبهات فى سورة البقرة . . . وهكذا إلى سورة الناس . لا ينفذ عن هذه الطريقة إلا كتاب القرطبي ، نظرا لمنهجه الذى يسلك فيه طريقة المعاجم فى تصنيفه لهذه الآيات .

ثالثا : تتضح فى المؤلفات المتأخرة منها ظاهرة النقل عن الكتب المتقدمة ، مما يجعله الاقتصار على بعضها يغنى عن مراجعتها كلها ، فى كثير من الأحيان .

رابعا : لم تتفق هذه المؤلفات على حصر كامل للآيات المشتبهات ، وذلك راجع إلى كثرة المواضع التى تتضح فيها هذه الظاهرة ، ومن هنا اختلفت هذه المؤلفات فى تحديد مواضع المشتبهات فى كل سورة .

خامسا : أكثر هذه المؤلفات بين مفقيد ، ككتب : نافع وحزمة وخلف ، وبين مخطوط ، ككتب الكسائى والقرطبي وابن جماعة والأجهورى ، وهى كتب لها أهميتها فى الدراسات القرآنية بعامة ، والبلاغية بخاصة ، وفى حاجة إلى من يخرجها إلى النور ليسهل الانتفاع بها .

سادسا : على الرغم من أن المقصد الأساس لهذه الكتب هو الحديث عن الآيات
المشتبهات - جمعا ، أو جمعا وتوجيها - إلا أنها ضُمّت إلى ذلك الحديث عن
التماثلات المكررة ، كقوله (تعالى) في سورة الرحمن : " فَيَأْتِي الْآلَاءَ رُكُومًا
تُكَذِّبَان " ، وفي سورة القمر : " وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذَّاكِرِ فَهَلْ مِنْ مَذْكَر " وعن
الحروف القطعة في أوائل بعض السور عن الصيغ المفردة التي لم تكرر كما في قوله

(تعالى) في سورة البقرة ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِر (١) ، حيث يعدل التكرار
على ذلك بقوله : " ليس في القرآن غيره (٢) " يقصد تكرار العامل مع حرف العطف
وأن ذلك يأتي للتأكيد .

وبعضها تطرق للحديث عن أعاجيب القرآن في اختيار الفاظه ، وبعضها يورثهم
التناقض في بعض آياته ، وبعضها يشكل من جهة المعنى ، كما سبق في الحديث
عن كتابي : ابن جماعة والشيخ زكريا الأنصاري . وهذه الأشياء خارجة عن
المشتبهات ، أو المتشابهة اللفظي ، كما هو العنوان الشائع في هذه المؤلفات ،
ولا يحتويها من عناوين هذه الكتب إلا عنوان كتاب الأنصاري " فتح الرحمن بكشف
ما يلتبس في القرآن " .

أخيرا : فالطريقة التي سرت عليها في هذا البحث تختلف عن طريقة هذه المؤلفات
حيث أثرت الحديث عن المشتبهات من ناحية الفروق في صياغاتها ، وجعلت
هذه الفروق الإطار الذي تظهر من خلاله هذه الدراسة في فصولها المختلفة ،
ومباحثها المتعددة . ومن هنا تتميز الدراسة في هذا البحث عن مثيلاتها فهي
هذه المؤلفات من ناحية تناول ، وطريقة العرض ، لكن تبقى صلتها بها قوية ، من
ناحية الانتفاع بما جاء فيها من توجيهات ، والاعتماد عليها ، بجانب كتب التفسير ،
وكتب علوم القرآن ، وكتب البلاغة في تحليل الفروق بين هذه الآيات .

(١) الآيات رقم ٨ .

(٢) أسرار التكرار ص ٢٢ .

والنسبة للدراسات المعاصرة فيما يتصل بهذا الموضوع ، لم أجد سوى رسالة
جامعية واحدة ، سعدت حينما رأيت عنوانها " متشابه النظم في قصص القرآن الكريم .
مقارنة وتحليل " ولكن تبين لى بعد الاطلاع عليها ، أن الباحث يقتصر فقط على الجانب
القصصى من القرآن الكريم ، فيجمع ما اشتبه من الآيات في كل قصة على حدة ، ثم يقسم
بتوجيهها ، مستعنيا في هذا التوجيه بالمؤلفات السابقة ، بالإضافة إلى مباحث أخرى
تصل بالحديث عن القصة القرآنية . فهي دراسة للمشتبهات في موضوع واحد ، أو جانب
واحد من جوانب القرآن ، وموضوعاته المتعددة ، تختلف عن الدراسة في هذا البحث
التي تجعل الآيات المشتبهات في القرآن كله - وليس الجانب القصصى وحده - ميداننا
لها ، لحصر ما بينها من فروق ، وعرضها عرضا بلاغيا ، يخدم فكرة النظم ويجلى وجه الإعجاز
من جهتها .

(١) رسالة مخطوطة بكلية أصول الدين ، بالقاهرة للأستاذ الدكتور / عبد الفتاح
الراحمي ، تحت رقم ٠٧٦ .

الفصل الثالث

ملس تبيهاش

وظاهرة الشكر ارفى القرآن الكريم

التكرار في كلام العرب وفي القرآن

التكرار (١) عادة بيانية قديمة ، هدى إليها الإنسان بفطرته ، فهو يكرر ما يشير اهتماما عنده ، ويحب في الوقت نفسه أن ينقله إلى مخاطبيه ، أو من هم في حكم المخاطبين ، من يصلهم القول على بعد الزمان والديار ، وله متى أحسن استخدامهم - اثربارز ، وتأثير فعال في نفوس السامعين ، وذلك * لكون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختص فيها أسباب أفعال الإنسان فلماذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخا تنتهي بقبوله حقيقة ناصحة * (٢) وهذا أمر لا مزية فيه ، فليس تأثير دقة على مسار كائير دقيقين ، ولا رشفة ماء على قلب صاير كرشفتين (٣) .

وقد لجأ العرب القدماء إلى هذه العادة - قبل مجئ الإسلام - وأحسنوا استخدامها فيما صاغوه من شعر ونثر ، كما لجأ إليها القرآن الكريم - في صور متعددة - في التعبير عن معانيه ، والدعوة إلى مقاصده ، محاكيا هذا الخزع من منازعهم البيانية ، وتفوقا عليهم فيه ، تفوق المعجز على غير المعجز من الكلام !!

وهو - في استخدام لهذه العادة - بوجه عام - يعاود النفوس الغافلة بما يزيح عنها الغفلة ويرفع عنها الغشاوة ، ويهدم كل ما يمكن أن تختلقه من تعلات ، يمكن أن تقعد بها عز متابعة الحق ، حتى تبقى وليس أمامها مفر من الخضوع له ، والاستكانة إليه ، كما يعاود النفوس العائرة بما يدعم رقيها روح الحق ، ويقوى دعائم اليقين ، لتظل مستقيمة على الجادة ، فلا تعجل إلى ما يهز عقيدتها ، ولا تلتفت إلى ما يثنيها عن غايتها المحمودة في هذه الحياة . ولعل هذا من بين ما ترشد إليه الآية الكريمة : * اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُثَابِرًا مُثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْسُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * (٤) !!

- (١) التكرار صدر كثر إذا ردد وأعاد ، وهو تفعال - بفتح التاء - وليس بتياس . بخلاف التفعيل ، وهذا مذهب سيويه ، وقال الكوفيون : هو مصدر " فعا " و الألف عوض عن الياء في التفعيل . ينظر البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٨ - ٩ .
- (٢) روح الاجتماع للدكتور : جوستاف لوبون ، بترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ص ١٣٩ ، المطبعة الرحمانية .
- (٣) ينظر التكوير بين الخير والتأثير للدكتور / عز الدين السيد ص ١٣٧ - ١٣٨ ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- (٤) الزمر / ٢٣ .

وعلى الرغم من وضوح هذه الطريقة البينانية في القرآن ، وظهورها في صور مختلفة ، من بينها المشتبهات التي هي تكرار بنوع اختلاف — على ما سيتضح بعد — وعلى الرغم من قيمتها البلاغية ، وظهور هذه القيمة على أحسن وجه فيه ، إلا أن ضعف البصيرة من قديم — حاولوا أن يجعلوا من هذا الحسن قبحا ، ومن هذه البلاغة عيبا ، فأتخذوا من هذه المكررات — وبخاصة المشتبهات — غيرة للطمع في بلاغته ، ورميه بالسقم في الأداء ، والركاكة في التعبير ، وقالوا : إنه ضعف من قوة ، وضيق من سعة ، وقالوا : إن التكرار في ذاته أمر مستهجن ، وليته إذا تكرر كان ينجس من هذه الاختلافات التي يلنسك بها ، ومن أين يكون اختلاف والمعنى واحد ؟ وكيف تختلف الحكاية والمحكي واحد فيما كان من قبيل القصص ؟ وإذا كان أحد الوجهين بليغا كان الثاني — لا محالة — غير بليغ . وبلغت حماقة بعض محدثيهم أنه كان يعلل على تلاصق طوائف من هذه الآيات ، ويكلفهم بكشف ما يزعم فيها من هذه العورات ، وإحصاء ما يدعيه من هذه الهنات ، وراح البعض يتخذ من هذه الاختلافات في القصص وسيلة إلى زعمه أن قصص القرآن لا يعتمد على الصدق في الواقع والمطابقة في الخارج ، بقدر ما هو عمل أدبي وحك فني . ولقد شنع المستشرقون على هذه الظاهرة في كتاب الله ، وعدوها ضعفا وركاكة حتى قال أحدهم : ليس هناك مهارة أدبية عظيمة واضحة في التكرار الذي لا لزوم له^(١) إلى غير ذلك من افتراءات الملحدين قديما ، والمستشرقين حديثا . وكلها من الزبد الذي يذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، فظاهره قوة التكرار في القرآن فوق ما يظنون ، إنها فيه علامة من علامات التفوق ، وبرهان من براهين الإعجاز ، وكما أنه لا اختلاف بين مدلول آية ومدلول أخرى ، ولا تصادم بين مفهوم آية فيه وما ثبت في الواقع بالشاهدة والبرهان الملوس ، فكذلك لا اختلاف بين هذه المكررات ، ولا تصادم ، وما جاء في المشتبهات منها ، من فروق ، إنما جاء تأكيداً لهذا المعنى وبرهانا عليه ، حيث تحققت بها المطابقة لمتن الحال ، على أدق وجه من التحقق وسنرى ذلك بجلاء في هذه الدراسة .

ولقد هال ما أزعج به الملحدون قديما ، علماء السلف ، فأنبرى أكثرهم للرد عليهم من خلال حديثهم عن هذه الظاهرة في كلام العرب — قبل مجيء القرآن وبعد — وذكروا في ذلك ما يمكن أن تستأنس ببعضه في هذا السياق ، لتبين إلى أي مدى أدركوا قيمتها في الكلام ؟ وإلى أي مدى دافعوا عن وجودها ، وأظهروا دقائقها في القسran ؟

(١) ينظر : "تشابه النظم في قصص القرآن الكريم" ص ٦ . وينظر بتفصيل أكثر في خاتمة مفتاح العلوم "إرشاد الضلال بدفع ما يطعنون به من كلام رب العزة" ص ٢٧٨ — ٢٨١ .

بالإضافة إلى ما أشاروا إليه من دواعي استخدامها ، والمقامات التي تستجد فيها
وتستطاب .

من ذلك ما جاء في كلام الجاحظ مشيراً إلى بعض الأمور الداعية لاستخدام هذه
الطريقة في كتاب الله (عز وجل) حيث يقول : " وقد رأينا الله (تعالى) قد ردد
قصة موسى ، و هود ، و هارون ، و شعيب ، و إبراهيم ، و لوط ، و شعور ، و كذلك
ذكر الجنة والنار ، و أمور كثيرة ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب و أصناف الأمم ،
و أكثرهم غبي غافل ، أو معاند ، شتمول الفكر ، ما هي القلب " (١) ثم يذكر أن هذه الأمور
تناسب على الصبر و التحديد فيقول : " و جملة القول في الترداد أنه ليس له حد ينتهي
إليه ، و لا يؤتى على وصفه ، و إنما ذلك على قدر المستمعين ، و من يحضره من المسموعين
و الخسوص " (٢) .

و ما جاء في ردود ابن تيمية على الطاعنين ، حيث يقول : " فقد أعلمك أن القرآن
نزل بلسان القوم و على مذاهبهم ، و من مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد و الإيهام ، كما
أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف و الإيجاز و قد يقول القائل في كلامه :
و الله لا فعله ، ثم و الله لا فعله ، إذا أراد التوكيد و حسم الأطماع من أن يفعل ،
قال الله (عز وجل) : ﴿ كَلَّا حَافُونَ تَمَلُّونَ ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) و قال : ﴿ فَإِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٤) و ذكر ابن تيمية أمثلة من شعر العرب
في ذلك ، منها قول عوف بن الخضر :

و كَادَتْ فِزَارَةٌ تَصْلِي بِنَسَا
فَأُولَى فِزَارَةٌ أُولَى فِزَار

و قول الآخر :-

هَلَّا سَأَلْتُ جُفُوعَ كُنُوزِكَ يَوْمَ وَلُوا أَيْنَ أَيْنَا ؟ (٥)

-
- (١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٥ .
 - (٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٥ .
 - (٣) التكاثر / ٣ - ٤ .
 - (٤) الشرح / ٥ - ٦ .
 - (٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٨٢ .
 - (٦) السابق ص ١٨٢ - ١٨٣ .

و ما جاء فى ردود الخطاىبى - ايضا - إذ يقول : " وأما ما عابوه من التكرار ، فإن تكرار الكلام على ضربين : أحدهما مذموم ، و هو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الاول ، لانه حينئذ يكون فضلا من القول و لغوا وليس فى القرآن شئ من هذا النوع ، و الضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة ، فلان ترك التكرار فى الحوضع الذى يقتضيه ، و تدعو الحاجة إليه فيه ، بإزالة تكلف الزيادة فى وقت الحاجة إلى الحذف و الاختصار " (١) .

و بعد هذا التقسيم ، و هذه الإشارة الدالة على أن التكرار واحد نوعى الإيجاز سواء فى اقتضاء المقام لكل منهما ، و أن ذلك هو المقياس فيما يُقبل منهما و ما يرد ، يعود الخطاىبى فيشير إلى بعض المقامات التى يحسن فيها التكرار و يحتطاب ، إذ يقول : " وإنما يُحتاج إليه و يحسن استعماله فى الأمور المهمة ، التى تعظم العناية بها ، و يخاف بتركها وقوع الغلط و النسيان فيها ، و الاستهانة بقدرها " (٢) ثم يرجع هذه الطريقة فى القرآن إلى مجاراته سنن العرب فى التعبير - كما فعل ابن قتيبة من قبله - فيذكر أمثلة من أعمارهم ، منها البهمن السابق (٣) ثم ينتقل إلى بعض ما كور فى القرآن ، لسيبين دواعيه و أسرارها ، كمكررات سورتن الرحمن و المرسلات ، مقدما لذلك بما رآه مفسرا لهذه الظاهرة فى القرآن ، من القرآن ، حيث يقول : " وقد أخبر الله (عز و جل) بالسبب الذى من أجله كور الأقاصيص و الأخبار فى القرآن ، فقال (سبحانه) : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) و قال (تعالى) : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (٥) و (٦)

و ما جاء فى حديث ابن فارس عن هذه الظاهرة ، حيث يقول : " و من سنن العرب التكرير و الإعادة ، إرادة الإيلاج بحسب العناية بالأمر ، كما قال الحارث بن عباد :-

قَرَّبًا مَرِطَ النَّعَامَةَ مِئْنَى لَقَحْتَ حَرْبٍ وَائِلَ عَنْ جِئَالِ

(١) بيان إعجاز القرآن ص ٤٠ ، ٥٢ .

(٢) السابق ص ٥٢ .

(٣) السابق ص ٥٣ .

(٤) القصص / ٥١ .

(٥) طه / ١١٣ .

(٦) السابق ص ٥٣ .

فكرر قوله : (قريبا مريبط النعمة مني) في رموس أبيات كثيرة ، غناية بالأمـر ،
واراد الإبلاغ في التنبيه والتحذير^(١) . ثم يشير إلى أن ما جاء مكررا في سورة الرحمن ، جاء
على هذه السنة من كلام العرب ، ثم يخلص إلى سرد من أسرار التكرار في القرآن ، حيث
يقول : " إن الله (جل ثناؤه) جعل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الإتيان بمثله آية
لصحة نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كـرر
ذكر القصة في مواضع ، إعلاما أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأي نظم جاء وبأي عبارة
غـيـر " (٢) .

ويدور ابن جنى في إطار هذه الآراء ، فيقرر أن التكرار في لغة العرب — من
وسائل تمكين المعنى و الاحتياط له ، و هو تحليل نفسى دقيق ، استشهد له بأمثلة مختلفة
من الشعر في أغراض الفخر ، و الرثاء ، و العظة ، و النصيحة ، و التحذير ، و الإغراء ،
و هى الأغراض التى تنعكس فيها - بوضوح - البواعث النفسية القوية^(٣) . ويشير إلى
بعض صورته ، كتكرار الأول بلفظه ، أو تكراره بمعناه للإحاطة و العموم ، أو للتشبيـه
و التمكـين^(٤) .

ويذكر أبو على القالى في " أماليه " أمثلة من الشعر القديم تنضح فيها هذه
الظاهرة ، منها قول مهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب :-

على أن ليس عدلا من كليب	إذا طرد اليتيم عن الجـزـور
على أن ليس عدلا من كليب	إذا رجع العضاة من الدبور
على أن ليس عدلا من كليب	إذا ما ضم جيران المجـير
على أن ليس عدلا من كليب	إذا خيف المخوف من الثـغـور
على أن ليس عدلا من كليب	غداة بلايل الأمر الكبير
على أن ليس عدلا من كليب	إذا برزت مخبأة الخـذـور
على أن ليس عدلا من كليب	إذا علت نجيات الأمـور
فدا لبني الشقيقة يوم جاءوا	لأسد الغاب لجت في زفير ^(٥)

(١) ينظر " الصاحبى " ص ٣٤١ تحقيق / السيد صقر ، ط عيسى الحلبي .

(٢) السابق ص ٣٤٢ .

(٣) ينظر " الخصائص " ج ٣ ص ١٠٩ - ١١٣ تحقيق / محمد على النجار ، ط دار الكتب

سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٥٦ م .

(٤) السابق ص ٣٤٢ ، ط دار الكتب ، سنة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م .

ويذكر الشريف المرتضى أمثلة أخرى ، يشير في تعليقه عليها إلى أن المكرر يختلف باختلاف المعاني المتعلقة به^(١) ، وهو سر دقيق من أسرار التكرار في الكلام ، فسر به كثير من المفسرين التكرار الواقع في القصص القرآني ، وفي سورة الرحمن ، ومن الأمثلة التي ذكرها قول ليلى الأخيلية في رثاء توبة بن الحمير :-

لَعَنِي لَأَنْتَ الْمَرْءُ أَبْيَى لِفَقْدِهِ	يَجِدْ وَلَوْ لَأَمْتُ عَلَيْهِ الْعَوَازِلْ
.....	وَيَكْثُرُ تَسْهِيدِي لَهُ لَا أَوَائِلْ
.....	وَلَوْ لَأَمْ قِيمَ نَاقِصِ الرَّأْيِ جَاهِلْ
.....	إِذَا كَثُرَتْ بِالْمُخَمِّنِ التَّلَائِلْ
أَبَى لَكَ ذَمُّ النَّاسِ بِاتُوبَ كُلَّمَا	ذِكْرَتْ أُمُورٌ فَحُكِمَاتُ كَوَامِلْ
.....	ذِكْرَتْ سَمَاحٌ حِينَ تَأْوِي الْأَرَامِلْ
فَلَا يَنْعِدُكَ اللَّهُ يَا تُوبَ إِنَّمَا	لَقِيتَ حَمَامَ الْمَوْتِ وَالْمَوْتَ عَاجِلْ
وَلَا يَنْعِدُكَ اللَّهُ يَا تُوبَ إِنَّهَا	كَذَاكَ الْمَنَايَا عَاجِلَاتُ وَأَجَلْ
وَلَا يَنْعِدُكَ اللَّهُ يَا تُوبَ وَالتَّقْتُ	عَلَيْكَ الْغَوَادِي الْمَوْجِنَاتُ الْهَوَاطِلُ ^(٢)

ولابي هلال العسكري نظرات قيمة في هذا الباب ، استعان فيها بجهود السابقين . منها تأكيد على أن للتكرار مواضع لا يغنى فيها الإيجاز عنه ، حيث يقول : " والقول القصْد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام ، وكل نوع منه ، ولكل واحد منهما موضعا ، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه ، كالحاجة إلى الإطناب في مكانه ، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته ، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز ، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ " ^(٣) وهو يعني بالإطناب في هذا الموضع - ضمن ما يعني - ما جاء عن طريق التكرار ، بدليل ما مثل به من شعر العرب ، كقول الحارث بن عباد ، السابق : " قريبا مربوط انعامه مني " . ومن القرآن الكريم كقوله تعالى : " كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ " ^(٤) وقوله (تعالى) : " فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا " ^(٥)

- (١) ينظر : الأملاني ج ١ ص ١٢٤ . ط ٢ دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م .
 (٢) السابق ص ١٢٥ .
 (٣) ينظر : الصناعتين ص ١٩٦ ، تحقيق / على محمد البجاوي ، محمد
 أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ عيسى الحلبي .
 (٤) التكاثر : ٤٠٣ .
 (٥) الشرح / ٥ - ٦ .

و منها إشارته إلى بعض المقامات التي يستجد فيها ، ك مقام الوعظ والنصيحة ،
و ذلك في قوله : " والإطناب إذا لم يكن منه بُدُّ إيجاز ، و هو في المواظ - خاصة -
محمود ، كما أن الإيجاز في الإقحام محمود مدوح ، و الوعظ كقول الله (تعالى) :
﴿ أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۚ أَوَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ۚ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ١ ٢ ﴾ (١)
فتكرير ما كرر من الألفاظ ها هنا في غاية حسن الواقع " (٢) .

و منها إشارته إلى بعض أغراضه في الكلام ، و ذلك حيث يقول : " و كلام النصحاء
إنما هو شوبُّ الإيجاز بالإطناب ، و الفصيح العالي بما دون ذلك من القصد المتوسط .
ليستدل بالقصد على العالي ، وليخرج السامع من شيء إلى شيء ، فيرداد نشاطه وتتوفر
رغبته ، فيصرفوه في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه ، حتى استعملوا التكرار ليتوكد به القول
للسامع " (٣) . وفي تفرقة بين الإطناب و التطويل إشارة أخرى جامعة إلى الغرض من
الإطناب في الكلام ، إذ يقول : " فالإطناب بلاغة و التطويل عيب ، لأن التطويل
يمنزلة سلوك ما ينبغي جملاً بما يقرب ، و الإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه ، يحتسرى
على زيادة فائدة " (٤) .

و لابن رشيق - أيضاً - مثل هذه النظرات ، فقد أشار - في تفصيل - إلى
المواضع التي يحسن فيها التكرار ، كالتشويق و الاستعذاب في باب الفزل ، و التنويع
بالمكر و الإشارة إليه في باب المديح تفخيماً لشأنه ، و التقرير ، و التوبيخ ، و التهديد
و الوعد ، ثم الرثاء ، و هو كما يقول : " أولى ما تكرر فيه الكلام لِمكان الفجعة ، و شدة
الفرحة التي يجدها المتفجع ، و هو كثير حيث التمس من الشعر وجد " (٥) .

و قد عد من المعجز في هذا الباب ما جاء مكرراً في سورة الرحمن ، و ذكر أمثلة
مختلفة لما استحس منه في الشعر ، و أمثلة أخرى لما عيب " (٦) .

(١) الأعراف / ١٢ - ١١ .

(٢) الصناعتين ص ١١٨ .

(٣) السابق ص ١١١ .

(٤) السابق ص ١١٧ .

(٥) العمدة في صناعة الشعر و نقده ج ٢ ص ٧٣ - ٧٥ ، تحقيق محمد محي الدين

عبد الحميد ، ط ٤ سنة ١٩٧٢ بيروت .

(٦) السابق ج ٢ ص ٧٥ .

و أشار في صدر حديثه إلى صور منه ، حيث يقول : * و للتكرار مواضع يحسن فيها ،
و مواضع يقبح فيها ، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ، و هو في المعاني
دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعا فذلك الخذلان بعينه * (١) و بالتأمل
في هذا الكلام يلاحظ أن ما وصف به الصورة الأخيرة من صور التكرار ، لا يستقيم مع قوله :
* و للتكرار مواضع يحسن فيها و مواضع يقبح فيها * لأن هذه الصورة ليست معيبة على
الإطلاق ، بل فيها - كثيرها من الصور - ما يحسن ، و ما يقبح ، و في الأمثلة التي ساقها
ما يؤيد هذا ، إذ عدَّ من المعجز في هذا الباب ما جاء مكررا في سورة الرحمن ،
و هو من المكرر لفظا و معنى ، كما ذكر من مليحه ما أنشده أبو عبد الله محمد بن جعفر
لابن المعتز ، و قد جاء المكرر فيه على هذه الصورة - أيضا - حيث يقول :-

لِسَانِي لِسْرَى كَتُومٌ كَتُومٌ	وَدَمْعِي بِحَبِي نَعُومٌ نَعُومٌ
وَلِي مَالِكٌ شَفَنِي خَسَمٌ	يَدْبِيعُ الْجَمَالَ وَسِيمٌ وَسِيمٌ
لَهُ مَقَلْنَا شَادِنٌ أَحْمُورٌ	وَلَفْظُ سَحُورٍ رَخِيمٌ رَخِيمٌ
فَدَمْعِي عَلَيْهِ سَجُومٌ سَجُومٌ	وَجَسْمِي عَلَيْهِ سَقِيمٌ سَقِيمٌ (٢)

و هكذا تنبه القداماء إلى أثر التكرار في بلاغة الكلام ، فأشاروا إلى دواعيه ،
و إلى العواطف التي يحسن فيها ، و إلى الأمثلة الكثيرة التي حفلت به ، ما استحسنت منها ،
و ما عيب .

كما أكدوا على أنه جاء في القرآن الكريم ، كما جاءت كل طرائق التعبير الأخرى ،
جريا على المعهود من سنن العرب في البيان ، و إن فاتهم فيها كلها إلى درجة الإعجاز .

و من علامات هذا الإعجاز - بوجه عام - بالنسبة للتكرار ، تخيره العواطف التي تتجنىها
العرب فرارا من الثقل ، و خوفا من السقوط ، يَفْضَلُ ذلك أحد الباحثين فيقول : * إن تفرد
القرآن بهذا اللون من الأسلوب - مع احتفاظه بمستواه الذي عرف له ، من روعة النظم
وجماله و انساقه و نغمه - هو شهادة قائمة تشهد لاقرآن بالإعجاز - فالمعروف عن التكرار

(١) السابق ج ٣ ص ٢٣ .

(٢) السابق ج ٢ ص ٢٨ .

انه إذا وقع فى كلام الناس نزل بالكلام عن درجة البلاغة ، وأخل بتقنيات الفصاحة
وكما الكلام برودة وساجدة ، ولم يقع التكرار فى الأدب العربى إلا فى صدره ،
وفى الشعر خاصة ، لأن الوزن والقافية يعملان عملهما فى تلطيف غثاثة التكرار
أو تخفيف ثقله أما إذا وقع التكرار فى النثر - خطابة أو كتابية - فإنه يمسك
الكلام ويذهب به ، فلا يحسب فى الأدب ولا يضاف إليه .

و من عجيب أمر القرآن فى هذا أنه جعل التكرار الذى جاء فى سورة الرحمن
وفى سورة القمر ، وفى سورة المرحلات ، جعله آية مستقلة تعقبها على آية سابقة ، فكانها
بالنسبة للآية التى قبلها الصراع الثانى للبيت من الشعر ، أو الفاصلة فى الآية (١) على
حين أن الذى تكرر فى الشعر كان يجئ دائما صدر البيت ، ولو أن التكرار كان فى
الشطر الثانى من الأبيات التى وقع فيها التكرار لقصد النظام واضطرب (١) فانظر كيف
جاء التكرار فى القرآن مخيرا للمواطن التى يجتنبها العرب فرارا من الثقل وخوفا من
المقوطة ، فلم يجئوا به فى النثر ، وجاءوا به فى الشعر ، وفى الشطر الأول من البيت ،
وجاء القرآن به فى غير ثوب شعري ، وفى غير الصدر من الآية ، فكان ذلك إعجازا من
القرآن ، إذ قام النثر فى التأثير بما لم يطم به الشعر ، كما احتل نظم هذا التكرار من غير
أن يستعين على تخفيفه بوزن الشعر وقافيته ، فجاء أخف وقعا ، والطف مدخلا على
الأذن من الشعر بجميع ما فيه من ألوان النغم والموسيقى ؟ (١) .

وسنقف على بعض هذه العلامات بالتفصيل ، من خلال الحديث عن المشتبهات ،
من بين صور التكرار ، فى القسم الثانى من هذا البحث .

* * *

(١) الأستاذ / عبد الكريم الخطيب فى إعجاز القرآن ج ١ ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

أنواع التكرار في القرآن

للتكرار في القرآن أنواع متعددة ، كتكرار حرف ، وتكرار كلمة ، وتكرار موضوع ، وتكرار آية كاملة أو جزء منها وفيما يلي تعرف موجز بكل نوع ، لتعرف على موقع المشتبهات منها ، وصلتها بها :-

تكرار حرف :

لكل حرف من حروف العربية صوت وتنغيم معين ، يحدد طبيعة هذا الصوت و هذا التنغيم موقعه من جهاز النطق ، وقد قام العلماء بتشرح هذا الجهاز ، وبيان المخارج التي تنسب إلى حروف الهجاء في العربية ، وكأنها أوتار يعزف عليها اللسان فيخرج من كل وتر صوت مميز ، فتسمع الأذن من هذا هسا ، ومن هذا جهارة ، ومن أحد هسا رخاوة ، ومن الآخر شدة إلخ . وتأليف الكلمة من حروفها كتأليف اللحن من نقراته ، كلٌّ يعبر تعبيراً تحسه الأذن ، ويفسره العقل والوجدان التفسير اللاتقي بإيقاعه .

وكما أن عودة النقرة على الوتر تحدث التجارب مع سابقتها فتأني الأذن بازديادها وتآلفها ، فإن عودة الحرف في الكلمة تكسب الأذن هذا الأني ، لو لم يكن لعودته مزية أخرى تعود إلى معناه ، فإذا كان ما يزيد المعنى شيئاً أقاد مع الجرس الظاهر جرساً خفياً لا تدركه الأذن ، وإنما يدركه العقل والوجدان وراء صورته (١) .

وهذا ما يرى بوضوح في بعض الكلمات ، حيث تتكرر فيها الحروف محدثة هذا الأثر الموسيقي ودالة على معانيها ، كما في صيغة " فَعَّلَ " ودالاتها على التكثير ، إذ يقال : غَلَّتْ الأبواب ، وقطعت الثياب ، مكان أغلقت ، وقطعت ، إذا أريد تكثير الفعل ، والبالغة في معناه . وكما في صيغة " فَعَّلَلْ " ودالاتها على الترجيع والتكرار ، إذ يقال : ثأناً الرجل ، إذا تكلم فتردد في حرف التاء ، وفأفأ ، إذا تردد في حرف الفاء (٢) و مثل هاتين الصيغتين كثير في مفردات اللغة ، حيث التمس وجد .

(١) ينظر بتفصيل في " التكرير بين المثير والتأثير " ص ١٠ - ١١ .

(٢) يراجع السابق ص ٦٧ - ٧٨ .

وليس الموضع موضع تفصيل ، وإنما الذى يهمنا فى الحديث عن هذا النوع ، أن التكرار الحرفى فى بعض الكلمات المتجاورة أو المستقاربة سياق واحد ، مما يكسب الكلام نوعاً من الحسن ، إذا ما جاء عفواً ، بغير تكلف أو ترصد ، حيث يشترك بتكراره على أبعاد مناسبة - فى تشكيل الإيقاع المناسب للغرض - وقيل أن نلتقى بأمثلة منه فى القرآن ، نقف وقفة سريعة مع هذين البيتين من الشعر ، لنرى كيف جاء فى أحدهما بتكلف ، أدّى إلى سقوطه ونزوله عن مستوى الفصاحة والبلاغة ١٩ ، وكيف جاء فى الآخر عفواً ، بلا ترصد ، فشارك فى الدلالة على المعنى ، وعرضه فى شوب تشبيب ٢٠

الأول هو البيت المشهور فى كذب البلاغة :-

وَقَبْرٌ حَرْبٍ يَمَكِّنُ قَبْرٌ
وَلَيْسَ قُرْبٌ قَبْرٌ حَرْبٍ قَبْرٌ (١)

ويذكر مثالا لتنافر الكلمات ، المخل بفصاحة الكلام ، لأن هذا التنافر يسبب ثقلاً على اللسان فى النطق ، وسبب التنافر فى هذا البيت تكرار بعض الحروف تكراراً متكلفاً ، أحدث نشاطاً واضطراباً وصعوبة فى نطقه كلماته ، وإن كانت كل كلمة منه - على حدة - فصيحة ، حيث لا يوجد فيها هذا التنافر ، وهذه الحروف هى القاف والباء والراء (٢) .

أما الثانى فبيت البحتري الذى يصف فيه الذئب الجائع المرتجف بسبب البرد حيث يقول :-

يَقْضِقُضْ عَمَلًا فِى أَسْرَتِهَا الرَّدَى
كَتَضَقَّةِ الْمَقْرُورِ أَرْعَدَهُ الْبَرْدُ

فقد تكرر فى هذا البيت حرف القاف متواليًا خمس مرات ، وحرف الراء - أيضاً - ست مرات ، ولكنهما شاركا فى تصوير صورة الذئب فى ضراوته ، وجوعه ، وارتجافه ، حتى كأنه أمامك (٣) .

(١) البيت لا يخلو منه كتاب من كتب البلاغة المشهورة ، منذ أنشده الجاحظ .
وأنظر على سبيل المثال شروح التلخيص ج ١ ص ٩٩ ط السعادة بصر سنة ١٣٤٢ هـ .
(٢) ينظر فى هذا التعليل عروس الأقراع للسبكي ضمن شروح التلخيص ج ١ ص ١٠٠ .
(٣) ينظر فقه اللغة وخصائص العربية للدكتور / محمد الجارح ص ٢٦١ ط دار الفكر سنة ١٩٦٨ م .

إذا انتقلنا إلى القرآن - بعد هذا - فإننا نجد أمثلة كثيرة جاء فيها هذا النوع من التكرار ، ملتصقا مع الكلمات في نظمها المعجز ، مشاركا في إيقاعها المميز ، وتشكيل الصورة المناسبة للغرض ولنختار - على سبيل المثال - حرفا من الحروف السابقة ، وليكن حرف القاف ، انظر إلى تكرار هذا الحرف في قوله (تعالــى) :

« وَأَهْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْبَلََنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يُتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » (١) أو تكراره في قوله (تعالــى) :

« وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْجِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ » وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ اقْرَبُ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَوْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيُسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٢) .. انظر إلى تكراره مرات ومرات ، وتأمل الفرق بين تكراره فيما تقدم ، وتكراره في هذه الآيات تجد البون شاسعا ، والفرق واضحا تجد في هذه الآيات تكرارا لا يكاد السمع ، ولا يرهق الأذن ، وإنما تصويرا دقيقا للمعنى ، تحكي قلقة القاف المترددة ، على أبعاد متناسبة فيها ، وهو من الأمور التي يدركها الذوق ، ويقتصر عنها الوصف (٣) .

و يدخل تحت هذا النوع ختم مقاطع الفواصل بحروف متماثلة في السور القرآنية ، فهذه الحروف لها مدخل كبير في إيقاع هذه الفواصل ، وإحداث النغمة الموائمة لكل سياق ، ولذا تراها تتنوع في السورة الواحدة تبعا لتنوع المعنى فيها ، والأمثلة على ذلك هي القرآن كله ، في أي سورة من سورته ، وقد تنوعت هذه الحروف في خواتيم الفواصل ، لكن أكثرها جاء من حروف الد والين بالإضافة إلى حرف النون - ويعمل الزر كشي

(١) المائدة / ٢٧ - ٢٨ .
 (٢) آل عمران / ١٦٦ - ١٧٠ .
 (٣) راجع التكرير بين المثير والتأثير .

ذلك فيقول : " كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين ، وإلحاق النون ، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك ، كما قال سيدي بويه : إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والواو والياء والنون ، لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركسون ذلك إذا لم يترنموا ، وقد جاء ذلك في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع " (١) .

تكرار كلمة :

تكررت في القرآن الكريم بعض الكلمات ، في إطار البساطة لمقتضى الحال . وقد ظهر هذا النوع من التكرار في أشكال مختلفة ، منها ما هو معروف في علم البديع . وعند الآخرين - بأسماء المشهورة مثل :-

الجناس : فهو نوع من تكرار اللفظ مع اختلاف المعنى ، كما في قوله (تعالى) :
 " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقِيمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَيْشُوا غَيْرَ سَاعَةٍ " (٢) .

العكس أو التبديل أو المقلوب ، فهو تكرار للكلمة بتغيير موقعها في الجملة كما في قوله (تعالى) :
 " هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ " (٣) .

تشابه الأطراف ، بالمعنى الذي ذكره ابن أبي الأصبع وابن معصوم ، وليس بالمعنى المعروف عند الخطيب القزويني ، فهو عندهما بمعنى إعادة الكلمة الواقعة في نهاية الجملة في بداية الجملة التي تليها " (٤) وعلى هذا فهو نوع من تكرار الكلمة ، كما في قوله (تعالى) :
 " اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي زُجْجَةٍ الزُّجْجَةِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ " (٥)

(١) بتصرف من البرهان ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ ، وينظر الاثقان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) الروم / ٥٥ .

(٣) البقرة / ١٨٧ .

(٤) وهو بهذا المعنى أحد وجوه العكس أو التبديل عند الخطيب . ينظر بغية الايضاح

ج ٤ ص ٢٧ ط ٦ المطبعة النورانية ، ينظر تحرير التحبير ج ٣ ص ٥٢٠

تحقيق د / حفي شرف ، ط القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ ، أنوار الربيع ج ٣ ص ١٥

ط النجف سنة ١٩٦٩ م .

(٥) النور / ٣٥ .

رد المعجز على الصدر ، و هو تكرار - أيضا - للكلمة ، حيث تنتهي الفقرة - من الكلام بكلمة ابتدئت بها كما هو معروف في النشر ، و من أمثله في القرآن قوله (تعالى) :
 " وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ " (١) .

الترديد و هو " أن يعلق المتكلم لقطة من الكلام بمعنى ، ثم يردد ها بعينها ، ويعلقها بمعنى آخر " (٢) فتكون الكلمة - على ذلك - مكررة ، و من أمثله قوله - (تعالى) :
 " وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَلَمْ أَعْلَمْ حَيْثُ يَجْعَلُ رَسُولُهُ " (٣) فلفظ الجلالة كرر في هذه الآية مرتين - وقع في الأولى مضافا إليه ، و في الثانية مبتدأ .

المشاكلة ، فهي تكرار - أيضا - لللفظ مع اختلاف المعنى ، كما في قوله (تعالى) :
 " وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا " (٤) فذكر الجزاء باسم السيئة لوقوعه في صحبتها .

الإرصاد أو التسهيم : و هو " أن يجعل قبل المعجز من الفقرة أو البيت ما يدل على المعجز ، إذا عرف النوى " (٥) مثل قوله (تعالى) :
 " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (٦) .

الطلب و الإيجاب ، كما في الصنائع (٧) ، أو طباق الطلب ، عند الخطيب القزويني (٨) ، مثل قوله (تعالى) :
 " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " (٩) .

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | الأحزاب / ٣٧ و هذه الآية مثال لأحدى صوره التي ذكرها الخطيب - بغية الإيضاح ج ٤ ص ٨٧ . |
| (٢) | تحرير التعبير ج ٢ ص ٢٥٣ . |
| (٣) | الأنعام / ١٢٤ . |
| (٤) | الشورى / ٤٠ . |
| (٥) | بغية الإيضاح ج ٤ ص ٢١ . |
| (٦) | المنكبوت / ٤٠ . |
| (٧) | الصنائع ص ٤٢١ . |
| (٨) | بغية الإيضاح ج ٤ ص ٧ - ٨ . |

الجمع مع التفريق : وهو " أن يدخل شيان في معنى واحد ، ويفرق بين جهتي الإدخال " (١) كما في قوله (تعالى) : " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَخَوَّلَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً " (٢) .

وتكرار الكلمة في هذه الألوان بالبدعية (٣) منظور فيه إلى وضعها في الجملة ، أو عدة جمل توضع آية واحدة ، أو عدد من الآيات الكريمة .

ولتكرارها شكل آخر بالنظر إلى تردد ها في القرآن كله ، بمعانٍ مختلفة ، تحدد ها القرائن والسياقات ، وهذا الشكل معروف في علوم القرآن باسم " الوجوه " . وهي الألفاظ المشتركة المستعملة في عدة معانٍ ، عكس النظائر ، وهي الألفاظ المتواطئة على معنى واحد ، ويضم النوعين بحث واحد في كتب علوم القرآن (٤) وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن ، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر (٥) .

ومن أمثله لفظ " الهدى " فقد جاء في القرآن على سبعة عشر وجهاً :
بمعنى البيان كما في قوله (تعالى) : " أَوَلَمْ يَكُنْ عَلَيَّ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ " (٦) ، و " الدِّينِ " في : " إِنَّ الْهُدَى هُدًى اللَّهِ " (٧) ، والإيمان في : " وَبَارِئُ اللَّهِ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى " (٨) والداعي في : " وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ " (٩) ، والرسل والكتب في : " فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُدًى هُدًى " (١٠) ، والمعرفة في : " وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ " (١١) ، والرشاد في : " اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ " (١٢) ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) في : " إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدًى " (١٣) ، والقرآن في : " وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدًى " (١٤) .

- | | |
|------|--|
| (١) | بغية الإيضاح ج ٤ ص ٣٩ . |
| (٢) | الاسراء / ١٢ . |
| (٣) | تراجع هذه الألوان وعلاقتها بالتكرار في " التكرير بين المثير والتأثير " ص ٢١٢ - ٢٩٠ . |
| (٤) | ينظر : البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٠٢ ، والانتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٨٥ . |
| (٥) | البرهان ج ١ ص ١٠٢ ، الانتقان ج ١ ص ١٨٥ . |
| (٦) | البقرة / ٥ (٧) آل عمران / ٧٣ . |
| (٨) | مريم / ٦٢ (٩) الرعد / ٧ . |
| (١٠) | البقرة / ٣٨ (١١) النحل / ١٦ . |
| (١٢) | الفتح / ٦ (١٣) البقرة / ١٥٩ . |
| (١٤) | النجم / ٢٣ . |

والتوراة في : " وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى " (١) والاسترجاع في : " وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّبِعُونَ " (٢) ، والحجة في : " وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " (٣) ، وبعد قوله : " أَلَمْ تَدْرِ إِلَى اللَّهِ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ " (٤) أي : لا يهديهم إلى الحجة ، والتوحيد في : " إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ " (٥) ، والمنة في : " وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُتَّبِعُونَ " (٦) ، والإصلاح في : " وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ " (٧) ، والإلهام في : " أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى " (٨) ، والتوبة في : " إِنَّا هُذِنَّا إِلَيْكَ " (٩) أي تنبنا إليك (١٠) .

تكرار موضوع :

أقصد بهذا النوع حديث القرآن عن بعض القضايا في سور كثيرة ، من جهات مختلفة ، وفي سياقات متعددة ، كالحديث عن الوحدةانية ، وعن خلق الإنسان وما أمده الله (عز وجل) به من نعم ، وعن العبادات من صلاة وزكاة وصوم الخ ، وعن الأخلاق كالصبر ، والإحسان ، والرحمة الخ ، وعن أنبياء الأولين ، وعن اليوم الآخر بأحواله وأحواله فقد امتلأت سور القرآن بالحديث عن هذه الموضوعات ، وكثيرا ما تمتزج كلها في حديث واحد ، يمثل سورة كاملة ، أو بعض سور ، والمهم أن القرآن قد بلغ في هذا النوع من التكرار مبلغا عجيبا ، يستحق أن يفرد بدراسة مستقلة ، ليس هنا مكانها .

وما بلغت النظر في هذه الموضوعات أن تكرارها لم يكن بدرجة واحدة ، فموضوع الوحدةانية — على سبيل المثال — تكرر بصورة تجعل القارئ يشعر كأنما بُسِنِيَ القرآن

-
- | | |
|---------|---|
| (١) | غافر / ٥٣ . |
| (٢) | البقرة / ١٥٢ . |
| (٣ ، ٤) | البقرة / ٢٥٨ . |
| (٥) | النصر / ٥٢ . |
| (٦) | الزخرف / ٢٢ . |
| (٧) | يوسف / ٥٢ . |
| (٨) | طه / ٥٠ . |
| (٩) | الأعراف / ٥٦ . |
| (١٠) | ينظر : الأشياء والنظائر في القرآن ج ١ ص ٨٩ — ٩٥ ، البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٠٣ — ١٠٤ ، والإتيان ج ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ . |

على هذا الموضوع وحده (١) ١١ و ذلك لكثرة الآيات فيه مثل قوله (تعالى) : " اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ " (٢) ، " لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا " (٣) " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (٤) ، " هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (٥) ، " وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عَرْشِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ " (٦) وغير هذه الآيات كثير .

كما أن ثمة علاقة بين ما كُتِبَ من هذه الموضوعات و عدد مرات تكراره ، ففي باب الا'خلاق نجد أن الحديث عن خلق الصبر - على سبيل المثال - يتكرر في أكثر من سبعين موضعاً في القرآن ، و ذلك لعظم موقعه في الدين (٧) ، بدليل أن كل الحسنات لها أجر محصور من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر فإنه لا يحصر أجره ، حيث يقول الولي (عز وجل) : " إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ " (٨) ، و بدليل ما أعد الله (عز وجل) للصابرين من أنواع الكرامة في قوله : " وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ " (٩) و قوله : " إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ " (١٠) ، و قوله : " أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا " (١١) و قوله : " وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ " أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ " (١٢) .

وفي باب العبادات نجد الحديث عن الصوم الذي يقع مرة واحدة في العام لم يتكرر بنفس القدر الذي تكرر به الحديث عن الصلاة التي تتكرر كل يوم ، فقد جاء الحديث

(١) ينظر : دراسة في مصادر الإعجاز ص ٣١ محاضرات للدكتور : محمد أبو موسى في كلية اللغة العربية .

(٢) البقرة / ٢٥٥ .

(٣) طه / ٦ .

(٤) الملك / ١ .

(٥) الحديد / ٣ .

(٦) الأنعام / ١٨ .

(٧) ينظر لواء الإسلام العدد ١ للسنة العشرين رجب سنة ١٣٨٦ هـ ، مقال

للأستاذ / أحمد حمزة عن الابتلاء والصبر ص ٢١١ ، ولعله نظر في هذا

الحصر إلى عدد الآيات التي تضمنت الحديث عن الصبر ، بصرف النظر عن

تكرار الكلمة نفسها ، لأن هذا التكرار بلغ مائة وثلاث مرات ، ينظر المعجم

الفهرس لألفاظ القرآن ، مادة " صبر " . لمعرفة هذا العدد .

(٨) الزمر / ١٠ (٩) آل عمران / ١٤٦ .

(١٠) البقرة / ١٥٣ (١١) الفرقان / ٢٥ .

(١٢) القصص / ١٥٥ ، ١٥٧ .

عنه مطولا بسوطا في سورة البقرة فقط (١) ، ولم يأت بعد ذلك إلا في سور محدودة ،
إشارات سريعة في سياق الحديث عن الكفارات ، أو مدح المتصفين به ، أو استعماله
في غير مدلوله الشرعي (٢) ، على حين تكرر الحديث عن الصلاة في مواضع كثيرة —
القرآن (٣) .

وبينما نجد موضوعات كررت كثيرا ، كالتى سبقت الإشارة إليها ، نجد موضوعات
أخرى لم تذكر إلا مرة واحدة ، منها موضوعات : الدّين ، والرّهان ، وأحكام الظّهارة
وحادث الإفك ، وبعض ما عوتب به النّبي (عليه الصلاة والسلام) كحادثة عبد الله
ابن أم مكتوم ، وبعض مواقف من القصص القرآني (٤) .

(١) الآيات / ١٨٣ - ١٨٢ ، ١٩٦ .

(٢) ينظر : سور النساء / ٩٢ ، المائدة / ٨٩ ، المجادلة / ٤ .

الأحزاب / ٣٥ ، مريم / ٢٦ .

(٣) كرر لفظها تسعا وتسعين مرة - ينظر المعجم المفهرس مادة " صلو " .

(٤) ذكرت هذه الموضوعات بالترتيب في سور البقرة ، المجادلة ، النور ،

عيسى ، وموقف من قصة سيدنا موسى في الكهف هي الآيات / ٦٥ - ٨٢ .

وآخر في القصص آيات / ٢٢ - ٢٨ .

تكرار آية كاملة أو جزء منها

يشتمل هذا النوع فيما تكرر بلفظه ومعناه ، من آيات كاملة أو أجزاء منها ، ففى سورة واحدة أو سور متعددة ، كتكرار قوله (تعالى) فى سورة الرحمن : " قَيَّامٌ إِلَهِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَان " وقوله (تعالى) فى سورة القمر : " وَلَقَدْ بَعَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّير " وقوله (تعالى) فى سورة الشعراء : " إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ "

وكتكرار قوله (تعالى) فى خواتيم آيات كثيرة من سور مختلفة " وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(١) " وقوله : " وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ ^(٢) " وقوله : " إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٣) " وقوله : " لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " ^(٤) " وقوله : " لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ^(٥) " وقوله : " أَفَلَا تَعْقِلُونَ " ^(٦)

وهذا النوع أوضح أنواع التكرار التى اتجهت إليها طعون الملحدين قديماً . وقد تعرفنا فيما سبق على بعض ردود السلف على هذه الطعون ، من خلال حديثهم عن التكرار - عموماً - فى كلام العرب وفى القرآن . ولنقف هنا مع ابن قتيبة فى كلمات قصيرة ، أوجز فيها الحديث عن هؤلاء الملحدين ومطاعنهم ، وأجمل الرد عليهم ، فى نقاش هادئ وبحجج قوية ، حيث يقول : " وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، بأفهم كلام كليل وأبصار عليه ، ونظر مدخول ، فحرفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ثم قضاوا عليه بالتناقض والاستحالة فى اللحن ، وفساد النظم والاختلاف ، وأدلسوا

(١) من هذه الآيات : البقرة ٥ / ٢٨٤ ، آل عمران ١٨٩ ، المائدة ١٧ / ١٩٦ ، ٤٠ ، الأنفال ٤١ ، التوبة ٣٩

(٢) من هذه الآيات : البقرة ٢٨٢ ، النساء ١٧٦ ، النور ٣٥ ، ٦٤

(٣) من هذه الآيات : البقرة ١٧٣ ، ١٨٢ ، المائدة ٣٩ ، الأنفال ٦٩ ، النور ٦٢

(٤) من هذه الآيات : البقرة ٢١ / ٦٣ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، الأنعام ١٥٣ ، الأعراف ١٧١

(٥) من هذه الآيات : البقرة ٥٢ ، ٥٦ ، آل عمران ١٢٣ ، المائدة ٨٩ ، ٨٦

الأنفال ٢٦ ، النمل ٧٨ ، الحج ٢١

(٦) من هذه الآيات : البقرة ٤٤ ، ٧٦ ، آل عمران ٦٥ ، الأنعام ٣٢ ، الأعراف ١٦٩

الأعراف ١٦٩ ، يونس ١٦ ، هود ٥٠

في ذلك بعزل ربما أمالت الضعيف الغمر ، والحَدَث الغر ، واعتضت بالشُّبَه في القلوب ،
وقدحت بالشكوك في الصدور .

ولو كان ما نحلوا إليه - على تقديرهم وتأولهم - لسبق إلى الطعن به من لم يزل
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحتج عليه بالقرآن ، ويجعله العلم لنوبته ، والدليل على
صدقه ، ويتحداه في موطن بعد موطن على أن يأتي بسورة من مثله ، وهم الفصحاء
والبلغاء والخطباء والشعراء ، والمخصوصون من بين جميع الأنعام بالألسنة الحداد ، واللدد
في الخصام ، مع اللب والنهي وأصالة الرأي . وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع
من الكتاب : وكانوا مرة يقولون : هو سحر ، ومرة يقولون : هو قول الكهنة ، ومرة :
أساطير الأولين . ولم يحك الله (تعالى) عنهم ، ولا بلغنا في شيء من الروايات
أنهم جذبوه من الجهة التي جذبها منها الطاعنون (١) .

أين المشتبهات من هذه الأنواع ؟

تدرج المشتبهات - بالمعنى الذي سبق تحديده في الفصل الأول - تحت
النوع الأخير من هذه الأنواع ، فهي آيات وأجزاء من آيات ، تكررت في غير موضع من
القرآن ، لكن بفروق يسيرة تنصل بأحوال الكلمات والجمل في الصياغة ، يتبعها تغيير
يسير في تشكيل المعنى وتصويره ، مراعاة للمقامات المختلفة ، أما أصل المعنى أو المعنى
العام فتحد ، كما نرى - على سبيل المثال - في وصف الله (عز وجل) بصفة البصير
فقد ورد في خواتيم آيات كثيرة تلتقى كلها حول هذا الغرض لكنها تختلف في
صياغتها اختلافا يسيرا ، مراعاة لكل سياق ، فنجد في موضع : " إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ " (٢) وفي آخر " إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " (٣) ، وفي ثالث : " وَاللَّهُ بِصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ " (٤) ، وفي رابع : " فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " (٥) .

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٧

(٢) البقرة / ١١٠

(٣) هود / ١١٢

(٤) البقرة / ٩٦

(٥) الأنفال / ٣٩

وفى وصفه (عز وجل) بصفتي العزة والحكمة ، فقد جاء - أيضا - فى صياغات متعددة ، منها : " إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (١) ، " إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (٢) ، " إِنَّ اللَّهَ كُنَّانٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (٣) ، " وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (٤) ، " إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (٥)

وعلى ذلك فالمكرر من الآيات وأجزاء الآيات منه ما هو متماثل ، وسبق الحديث عنه فى النوع الأخير من أنواع التكرار ، ومنه ما هو متغاير بفروق يسيرة ، وهى المشتبهات ، محور الدراسة فى هذا البحث .

وبناء على ما رأيناه فى الأمثلة السابقة لها من اتحادها فى أصل المعنى واختلافها فى كيفية عرضه وتصويره يمكن القول - عامة - بأنها متحدة المعانى ، وذلك بالنظر إلى الغرض العام أو أصل المعنى ، ويمكن القول بأنها مختلفة المعانى ، وذلك بالنظر إلى صياغاتها ، وما فيها من خصوصيات زائدة على أصل المعنى ، تختلف من موضع إلى آخر فى هذه الآيات .

وقد جاء فى كلام الشيخ عبد القاهر ما يشير إلى هذا ، وهو بصدد الحديث عن العبارات التى تتمايز وتتفاضل فى التعبير عن معنى واحد - لا بصدد الحديث عن المشتبهات - إذ يقرر أن المعنى العام ، أو أصل المعنى ، أو الغرض الأساسى من الكلام واحد لا يختلف ، وإنما الذى يتناوله التغيير هو تشكيل هذا المعنى ، والصورة التى يخرج عليها رعاية لكل مقام ، فيقول : " لا يكون لإحدى العبارتين من مزية على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها .

فإن قلت : فإذا أفادت هذه ما لا تفيد تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد ، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين .

-
- | | |
|-----|---------------|
| (١) | البقرة : ٢٢٠ |
| (٢) | الأنفال / ٦٣ |
| (٣) | النساء / ٥٦ |
| (٤) | إبراهيم / ٤ |
| (٥) | آل عمران / ٦٢ |

قيل لك : إن قولنا " المعنى " في مثل هذا يراد به الغرض ، والذي أراد المتكلم أن يثبت أو ينفيه ، نحو أن تقصد تشبيه الرجل بالأسد ، فتقول : زيد كالأسد ، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : كأن زيدا الأسد ، فتفيد تشبيهه - أيضا - بالأسد إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه بزيادة لم تكن في الأول ، وهي أن تجعله من فرط شجاعته ، وقوة قلبه وأنه لا يروعه شيء ، بحيث لا يتميز عن الأسد ، ولا يتصر عنه ، حتى يتوهنهم أنه أسد في صورة آدمي . وإذا كان هذا كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه حيث قُدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع " إن " ؟

وإذا لم يكن إلى الشك سبيل أن ذلك ثان بالنظم ، فاجعله العبرة في الكلام كله ، ورض نفسك على تفهم ذلك وتتبعه ، واجعل فيها أنك تتزاول منه أمرا عظيما ، لا يقادر قدره ، وتدخل في بحر عميق لا يدرك قعره " (١)

ويشير إلى هذا - أيضا - ما جاء في المحاوراة المشهورة بين أبي عباس المبرد والكندي ، حيث قال الكندي لأبي العباس : إني أجد في كلام العرب حشوا ، يقولون عبد الله قائم ، وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد ، قال له أبو العباس : بل المعاني مختلفة ، فعبد الله قائم ، إخبار عن قيامه ، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سأل ، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر (٢) ، فقد نظـم الكندي إلى أصل المعنى في هذه العبارات - إثبات القيام لعبد الله - فحكم بأنها متحدة المعنى ، وأصدر اتهامه الغرض لكلام العرب بالحشو ، ونظر أبو العباس إلى الخصوصيات الزائدة ، التي اقتضت هذا التغاير بينها فحكم بأنها مختلفة المعنى ، ليحجج الكندي مع أن لحكمه أساسا من الصحة ، لولا إغراضه الذي رفع المبرد للرد عليه بهذا التوجيه الدقيق .

(١) ينظر دلائل الإعجاز ص ٢٥٨ ، وينظر ص ٣٨٦ فقد تحدث الشيخ عن بعض الصور التشبيهية التي يرتقى بها النظم إلى أفق بعيد ، وهو كلام يؤخذ منه لما يؤخذ من هذا النص الدالة على أن المعاني تتغير بتغير الصياغة وإن كان الغرض العام واحدا .

(٢) ينظر بغية الإيضاح ج ١ ص ٤٦

مواقع التكرار في القرآن

التكرار - كما سبق - ظاهرة واضحة في كتاب الله ، شائعة في كثير من موضوعاته وقضاياها . ومع هذا الوضع ، وهذا الشروع ، فقد جاء في كتاب " الصناعتين " ما يدل على ارتباط هذه الظاهرة بطلائعية المخاطب ، فحيث كان الكلام مع اليهود أو عنهم - لجا القرآن إلى بسط الحديث وتكراره ، وحيث كان الكلام موجهاً إلى العرب أخرج حديثه إليهم مخرج الإشارة والوحى .

وهو رأى قديم نقله أبو هلال العسكري عن الجاحظ ولم ينسبه إليه ، واكتفى بتوضيحه والاستشهاد له ، حيث يقول : " وقد رأينا الله (تعالى) إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى ، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم ، جعل الكلام مبسوطاً . فما خاطب به أهل مكة قوله (سبحانه) : **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الظَّالِمُ وَالمَطْلُوبُ** ^(١) ، وقوله (تعالى) : **إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ^(٢) ، وقوله (تعالى) : **أَوَأَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ^(٣) في أشياء لهذا كثيرة . وقل ما تجد قصة لبنى إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ، ومكررة في مواضع معادة ، لبعده فهمهم كان وتأخر معرفتهم ^(٤) .

وقد راقى الرافعى (رحمه الله) هذا الرأى فأعاد في كتابه " إعجاز القرآن " منبهاً على أن الجاحظ أول من قال به ، لكنه لم يسترج لعلته ، التي تشير إلى أن القرآن الكريم راعى ما عليه العرب والأعراب من فصاحة ولسن ، وما طبعوا عليه من بلاغة تجلسهم يكتفون باللمحة الدالة ، والإشارة الموحية فأخرج كلامه إليهم ، وخاطبهم بما سبيله الرمز والإيماء ، وعد التكرار والاطالة . كما راعى ما عليه بنو إسرائيل من عجز

(١) الحج / ٢٣

(٢) المؤمنون / ٩١

(٣) ق / ٣٧

(٤) الصناعتين ص ١٩٩ . وينظر تع الجاحظ في " الحيوان " ج ١ ص ٩٤ عقب حديثه عن الإسهاب ، وهو كهذا النص من غير ذكر الآيات القرآنية .

وبلادة في مسألة البيان - حيث كانوا قوما لا سليقة لهم كالعرب، ولیموا في حكمهم من البيان - فأخرج كلامه إليهم بما سبيله التكرار والبسط والإطالة ، مبالغة في إفهامهم، وردها بقوله: "وهو قول صحيح في الجملة" (١) بيد أنهم أخطأوا وجه الحكمة فيه فإن اليهود لم يكونوا من الغلظة والجفاء والاستكراء بحيث وصفوهم، أو بحيث يجوز ذلك في صفتهم، وإن فيهم لتكلمين، وإن منهم لشعراء، والخطاب في القرآن كان يسمعه العرب واليهود جميعا، فلا هؤلاء ينكرون من أمره ، ولا أولئك " (٢) .

ثم أشار إلى الحكمة التي اطمئن إليها فذكر ما خلاصته : أن هذه الظاهرة سر من أسرار الأدب العبراني ، جرى عليها القرآن في أكثر خطابهم ليعلموا أنه وضع غير إنساني، وليحسوا معنى من معاني إعجازه فيما هم بسبيله، كما أحس العرب فيما هو من أمرهم، إذ كان أبلغ البلاغة في الشعر العبراني القديم أن تجتمع له رشاقة العبارة، وحسن المعروض، ووضوح اللفظ، وفصاحة التركيب وإبانة المعنى، وتكرار الكلام لكل ما يفيد التكرار توكيدا وبالألفاظ وتحقيقا، ثم استعمال الترادف في اللفظ والمعنى، ومقابلة الأضداد، وغيره مما ما هو في نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظية، وتحسين للتكرار المعنوي (٣) .

وبالتأمل في هذا الكلام نجد أنه وإن دل على سعة علم الرافعي وثقافته، فإنه لا ينهض دليلا قويا على ما أطمئن إليه من حكمة التكرار في القرآن، بل هو - كما وصفه أحد الباحثين - "بيان لا يكفي في توجيه هذا الحديث العام عن شئون في الأدب العبراني، ولا يكون القول فيها بمثل هذا التعجل والإلزام القاصر، ولا ذاك التعميم ومجمل الكلام، ثم كيف كان هذا التكرار سرا لم يدركه إلا اليهود الذين عوا به ، ولأنه إذ ذاك لها تجدد العرب غرابته ويصح الطعن به ما دام قد خرج مخالفا لما لو فهم، نابيا عن طريق فسي مخاطبتهم" (٤) .

(١) يقصد رأي الجاحظ الذي اعتمد به بعض العلماء كأبي هلال العسكري .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١١٥

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٩٥ - ١٩٦

(٤) ينظر "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب" للشيخ/أمين الخولي

ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ط ٠ دار المعرفة سنة ١٩٦١ .

والجاحظ نفسه - وهو أول من نبه على هذا الرأي كما أشار - لم يقصر التكرار في القرآن على خطاب اليهود ، وإنما ذكر في " البيان والتبيين " ما يدل على وقوعه في شئون أخرى ، من قصص الأولين ، والثواب والعقاب والجنة والنار الخ . وهذه الأمور ليست مما يُخَصُّ به بنو إسرائيل أو يفردون بإدراك سره ، وقد سبق نصوص الجاحظ في هذا الفصل (١)

وعلى هذا يتبين بُعد ما ذهب إليه أبو هلال العسكري ، حين اقتصر فقط على جزء من رأى الجاحظ - في حديثه المفرق عن مواقع التكرار في القرآن - بتعليل يدل الواقع على ضعفه . كما يتبين بعد ما ذهب إليه الرافعي في توجيهه لهذا الرأي . فظاهرة التكرار في القرآن واضحة كل الوضوح في موضوعات شتى . نجد ها في الحديث عن الأولين من أنبياء الله (عز وجل) وتجاربهم مع أممهم ، وفي الحديث عن المعاصرين للدعوة الإسلامية فجر ظهورها ، وفي الحديث عن اليوم الآخر بما فيه من غروب العذاب وألوان النعيم ، وفي الحديث عن العبادات والأخلاق ، وبعض الأحكام الشرعية ، وفي الحديث عن أسماء الحق (تبارك وتعالى) وصفاته القدسية التي تكثر في خواتيم الآية . . . إلى غير ذلك من أمور ، الدليل عليها أوضح من أن يساق . وقد وصف الله (عز وجل) كتابه فقال : " اللَّهُ تَوَلَّى أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى " . وجاء في تفسير كلمة " مثنى " في الآية ما يدل على شيوع هذه الظاهرة في الكتاب الكريم ، وأنها لازمة من لوازمه حيث يقول الزمخشري في أحد تفسيراته لها : " إنها بيان لكون القرآن متشابهاً ، لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة ، والمثنى جمع مثنى بمعنى مكرر ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبيائه وأحكامه ، وأوامره ، ونواهييه ووعدته ووعيدته ومواعظته " (٢)

* * *

(١) ينظر ص ٨١ من هذا الفصل

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، وينظر أيضاً تفسير القرطبي ص ٩٣ - ٩٦

الأغراض العامة للتكرار في القرآن

التكرار في القرآن فوق أنه علامة من علامات الإعجاز ووسيلة من وسائل التحدى سلاح من أسلحة الدعوة - أخذاً من حديث القدماء عنه فيما سبق - فلن له غيايات وأهدافاً أخرى عاش على بلوغها في الكتاب الكريم . هذه الأهداف منها ما يرتبط بكل مكرر في سياقه ، من أغراض جزئية ، وسيرد تفصيله في الحديث عن المشتبهات بعده ومنها ما يلاحظ - بوجه عام - في معظم المكررات إن لم تكن كلها من أغراض عامة وأهداف كبرى ، وهي موضع الحديث في هذا الفصل . فقد تبين بالنظر إلى مكررات القرآن المختلفة في مواطنها المتعددة ، أن هناك أغراضاً عامة مشتركة هذه المكررات في تحقيقها وهي :

أولاً : التقرير

تقرير المعاني ملحوظ بلاغياً معروف في بلاغة الكلام ، وهو في بلاغة القرآن - خصوصاً - قاعدة أصيلة ، إذ يهتم القرآن اهتماماً بالغاً بتقرير معانيه ، لتستقر في الأذهان ، وتبلغ أعماق النفوس فتؤتسأ أكلها الطيب في حياة الناس لا

وقد لجأ إلى التكرار واحداً من طرق التقرير ، والتقرير - في الوقت ذاته - من أهم فوائد التكرار ، بل فائدته العظمى كما يقول بدر الدين الزركشى ^(١) ومن المأثورات " الكلام إذا تكرر غرر " ^(٢)

وقد أشار الزمخشري إلى هذا الغرض في بعض وقفاته مع مكررات القرآن ، وحدّثه عن أسرارها البلاغية ، وذلك في تعليقه على ماكرر في سورة الشعراء ^(٣) بقوله : " كل قصة منها كتزويل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت كل واحدة منها تُلَى بحق في أن تُفْتَحَ بما افتتحت به صاحبها ، وأن تختم بما ختمت به " .

(١) (٢) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ١٠

(٣) قوله تعالى في بداية كل قصة فيها ، على لسان كل رسول إلى قوم : " أَلَا تَتَّقُونَ " يَأْنِي أَلَمْ رَسُولٌ أَمِينٌ " وفي نهايتها : " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ " وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

ولأن في التقرير تأكيداً للمعاني في الأنفس وتثبيتاً لها في الصدور .. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر . وأبعد من النسيان ؟ ثم يربط الزمخشري ربطاً زكياً بين استخدام القرآن هذه الطريقة وبين طبيعة المتلقين الأول للقرآن، فجر الدعوة الإسلامية، فيقول : "ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الانصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوشرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرار، لعل ذلك يفتح أذننا أو يفتق ذهننا، أو يصقل عقلاً طال عهد به بالصقل، أو يجلسو فيها قد غطى عليه تراكم الصدأ " (١)

ومن أغراض التكرار في هذه السورة بوجه عام - أن هذا القول المتردد على السنة مجموعة من الرسل ، عاشوا في أزمنة مختلفة، وعالجوا اقواماً متباينة ، يوحى بفكرة عامسة، وهي صدق هؤلاء الرسل وتثبيت التصديق بهم . (٢)

وقد ألمح الزمخشري - أيضاً - إلى هذا الغرض في تعليقه على قوله (تعالى) في سورة الحجرات : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ " بقوله "إعادة النداء عليهم ، استدعت منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد ، ونظرية الانصات لكل حكم نازل، وتحريصك منهم لكلا يفترقوا، ويغفلوا عن تأملهم، وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله (صلوات الله عليه وسلم) من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم، وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به ... " (٣)

(١) الكشاف ج ٣ ص ١٢٧

(٢) ينسر " من بلاغة القرآن " للدكتور أحمد بدوي ص ١٤٤ دار النهضة مصر للطباعة والنشر

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٥٥٤

ثانياً : التأكيد

والتأكيد - أيضاً - سمة واضحة في أسلوب القرآن الكريم، إذ يؤكد بطرق مختلفة
في الحاججة - تدعو إليه في سياقات الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد،
والتذكير بالنعم، والدعوة إلى الفضائل، ومجادلة المشركين ودفع الشبهات... إلخ.
والتكرار واحد من هذه الطرق.

ويلتقى التأكيد بالتقرير في أن كلا منهما غرض أصيل يهدف إليه القرآن
في الدعوة إلى مبادئه، ويفترقان في أن التقرير دأثره أوسع، فقد يتقرر المعنى
بالتكرار كما يتقرر بوسائل أخرى، ومنها الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكنائية.
أما التأكيد فله طريقه المعلومة عند النحاة، فمنها المعنوي، ومنها اللفظي،
ومنهما ما كان بأرواح خاصة لتأكيد مضمون الجملة... إلخ.

وعلى ذلك فالتكرار يحقق الفرضين معاً، تقرير المعنى وتأكيد. وقد ألمح
الزمخشري إلى هذا الفرض في تعليقه على الآية الكريمة "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ
كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى" (١)، حيث يقول: "فإن قلت: ما فائدة التثنية
والتكرير؟ قلت: النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها
عوداً من بدء، لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله، ومن ثم كانت عادة رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) أن يكرر عليهم ما كان يعظ به، وينصح ثلاث مرات وسبعاً، ليركز
في قلوبهم ويغرسه في صدورهم" (٢).

واتكأ الزركشي على هذا الكلام، فقال وهو بصدد الرد على من ينكر كون
التكرار من أساليب الفصاحة: "ولما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباته جارية
فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة.

(١) الزمر ٢٣/

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٣٩٥

وعلى ذلك يحتفل ما ورد من تكرار المواعظ والوعيد ، لأن الإنسان مجبول — من الطبائع المختلفة ، وكلها داعية إلى المشهوات ، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع ... (١)

وما يرى فيه هذا الغرض بوضوح صفات الله (عز وجل) المتكررة في خواتيم الآية ، فما من شك في أن تكرارها بهذا الشكل الذي يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، سأل له أكبر الأثر في تأكيد معانيها وترسيخها في النفس رسوخاً ينبثق عنه العمل الجاد المبني على أساس وطيد ... يقول شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ملخصاً باللسان هذا : " من مقاصد القرآن التكرار ، وهو دال على الاعتناء والاهتمام بالمكر ، فتكرير صفات الله (عز وجل) دال على الاعتناء بمعرفتها ، والعمل بموجبها ، وتكرير القصص دال على الاعتناء بالمواعظ للايقاظ والاعتبار " . (٢)

ثالثاً : تجديد العهد بمعاني القرآن

وهو غرض نفسي ، اهتم به القرآن اهتماماً واضحاً ليروض النفوس على قبول الوعظ والنصيحة ، لأنهما من الأمور التي تتصادم مع الشهوات ، وتتعارض مع مغريات الحياة .

وقد أنبأ القرآن نفسه بهذا الغرض ، حيث جاء في بعض آياته : " وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " (٣) " وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثَ لَهُمْ ذِكْرًا " (٤) ، وتصريف الوعيد بمعنى : " أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة " مكررين فيه آيات الوعيد ، ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير

(١) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٩
(٢) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص ٢١٧ . نسخة من دار الكتب برقم هـ ٦٢٣٣ .

(٣) القصص ٥١ / طه ١١٣
(٤) طه ١١٣ / وينظر حديث الخطابي عن هاتين الآيتين ، فقد قدم للحديث عنهما بقوله : " وقد أخبر الله (عز وجل) بالسبب الذي من أجله كرر الأقسام والأخبار في القرآن " ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٥٣ ، ونقل هذا الحديث عنه الزركشي في البرهان ج ٣ ص ١٠

والطاعة " (١) وإحداث الذكر بمعنى : " تجديد معنويات الإنسان كلما صدئت على طول التعب وأسلوب القرآن في هذا إجمال يربو على كل تقدير إنه يخترق أسوار الغفلة، ويصل إلى صميم القلب ، ثم يقفه راغبا أو راهايا بإزاء ما يريد " (٢)

فقد نجد في القرآن حقيقة مفردة ولكن هذه الحقيقة تظهر في ألف شـوب، وتتوزع تحت عناوين شتى، وتثري في أكثر من صورة ، وهذا التكرار مقصود وإن لم تزد به الحقيقة العلمية في مفهومها ، ذلك أن الغرض ليس تقرير الحقيقة فقط بل بناء الأفكار والمشار عليها والتقاط آخر ما تختلقه اللجاجة من شبهات وتدللات ، ثم الكسر عليها بالحجج الدامغة حتى تبقى النفس وليس أمامها مفر من الخضوع للحق ، والاستكانة لله . . . (٣)

ومن الآيات الدالة على هذا الغرض - أيضا - قوله (تعالى) " وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا " (٤) ، أي رددنا وكررنا من كل معنى ما هو كالمثل في غرابته وحسنه (٥) . . . لقد لَوَّنَ القرآن حديثه للسامعين تلوينا يمزج بين إيقاظ العقل والضمير معا ، ثم تابع سوقه متابعة إن افلت المرء منها أولا لم يفلت آخرها ، كما يصاب الهدف حتما على دقة الرمي وموالاته التصويرية ، وذلك هو تصرف الأبطال للناس ، إنه إحاطة الإنسان بسلسلة من المغريات المتنوعة ، لا معدى له من الركون إلى إحداها ، أو معالجة القلوب المغلقة بمفاتيح شتى لا يسد أن يستسلم القفل عند واحد منها . (٦)

ومن حديث الزمخشري عن هذا الغرض قوله في التعليق على قوله (تعالى) في سورة القمر " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ " : " فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبي من أنبياء الأولين أذكارا وتعاطاء، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك، والبعث عليه، وأن يفرغ لهم العاصمات ، ويقعق لهم الشنن تارات،

- (١) الكشف ج ٢ ص ٥٥٤
- (٢) نظرات في القرآن للشيخ محمد الغزالي ص ١٢٨ ط ٥ مطبعة حسان - القاهرة .
- (٣) تراجع السابق ص ١٢٣
- (٤) الأسراء ٨٩ /
- (٥) الكشف ج ٢ ص ٤٦٥
- (٦) تراجع نظرات في القرآن ص ١٢٥

لأنهم يغلبهم السهو، وتستولى عليهم الغفلة، وهذا حكم التكرير كقوله : " فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ " عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن، وقوله : " وَيَلْ يَوْسُفُ لِلْمَكْدُ بَيْسَنَ " عند كل آية أوردتها في سورة والمرسلات وكذلك تكرير الأنبياء والقصص في أنفسهما لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ومصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان (١)

تلك هي الأغراض العامة للتكرار في القرآن.. تقرير المعاني في النفوس وتأكيدها في الأذهان، لينبعث عنها العمل الجاد على أساس مكين، ومعالجة القلوب بين الحين والحين بصنوف المعاني، في صور شتى، ليتجدد بها العهد، ويحدث للنفسوس ذكر.

وقد تعرض الزركشي لأغراض التكرار أو فوائد - كما يسميها - فتحدث عن كثير منها، بعضها ينتمي إلى الأغراض العامة التي سبق الحديث عنها، وبعضها ينتمي إلى الأغراض الخاصة التي تتعلق بكل مكرر في سياقه، حيث يذكر ما يلي :-

- ١ - التأكيد، كما في قوله (تعالى) : " وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ " (٢)
- ٢ - زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول، كما في قوله (تعالى) : " وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هُذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ " (٣)
- ٣ - إذا طال الكلام وخشى تناسي الأول أعيد ثانيا تطرية له، وتجديدا لعهد، كقوله (تعالى) : " ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " (٤)
- ٤ - في مقام التعظيم والتهويل كقول (تعالى) : " الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ " (٥)، فأصحاب السِّنَّةِ مَا أَصْحَابُ السِّنَّةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ " (٦)

(١) الكشف ج ٤ ص ٤٠ - ٤١

(٢) الانظار / ١٧ و ١٨

(٣) غافر / ٣٨ و ٣٩

(٤) النحل / ١١٩

(٥) الحاقة / ١ و ٢

(٦) الواقعة / ٨ و ٩

٥ - فى مقام الوعيد والتهديد ، كقوله (تعالى) : " كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ " (١)

٦ - التعجب ، كقوله (تعالى) : " فَقَتِلْ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ " (٢)

٧ - لتعدد المتعلق ، كقوله (تعالى) : " فَيَأْتِيْ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ " (٣)

كما ذكر لتكرار القصة فوائد أخرى غير هذه ، وهى بإيجاز :-

- ١ - الزيادة التابعة لتكرار القصة ، فكل تكرار يحمل معه إضافة جديدة .
 - ٢ - عموم القصة وشيوعها عند المكلفين فى بداية أمر الدعوة ، حتى لا تقع قصة إلى قوم ، وقصة إلى آخرين ، ممن هاجروا فى بداية نزول الوحى .
 - ٣ - تسليته لقلب النبى (صلى الله عليه وسلم) مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم .
 - ٤ - إبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة وأساليب مختلفة ، لإظهار فصاحته .
 - ٥ - الدواعى لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام ، فلهذا كررت دون الأحكام .
 - ٦ - الإعلام بعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن بأى نظم جاءوا وبأى عبارة عبروا .
 - ٧ - دفع حجة العرب الذين تحداهم للإتيان بمثله من كل وجه ، إذا ما ردوا هذه الدعوة إليه .
 - ٨ - توزيع القصة الواحدة فى عدد من السور تبعه تخيير فى الألفاظ وأحوال الصياغة فاجتمع من ذلك عدة معان عجيبة وهى :-
- ١ - أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع فى اللفظ هجنة ولا أحدث صلا
 - فباين بذلك كلام المخلوقين .
 - ب - أنه البسملة زيادة ونقصانا وتقديم وتأخيرا ، ليخرج بذلك الكلام أن تكون

(١) التلاثر / ٦٦ ٧

(٢) المدثر / ١٩ ٢٠

(٣) الرحمن / ١٣ وما بعدها فى أنحاء السورة .

الفاظ به واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً مُعاداً ، فَتَزَهُه عن ذلك بههذه

التغييرات .

جـ - المعاني التي اشتعلت عليها القصة الراحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير، فيجد البليغ - لما فيها من التغيير - ميلا إلى سماعها، لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة، التي لكل منها حصّة من الالتذات به مستانفة .

د - ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد ، وقد كان المشركون في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) يعجبون من اتساع الأمر في تكرار هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم ، وبيان وجوه التاليف، فعرفهم الله (عز وجل) أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع على كلفه، رد لقوله (سبحانه) : " قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا " (١)

ومن هذه الأغراض بالإضافة لما تقدم تتجلى أهمية هذه الظاهرة في كتاب الله . كما تتجلى حقيقة هامة، وهي أن القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين يخرج على العرب دائما من كل قاحلة جرداء بأشهى الجنى وأطيب الثمار، وهذا سر من أسرارها، فالتكرار الذي هو مظنة الضعف والركاكة، ومزلق التهافت والسقوط، حتى رأيناهم لا يلجأون إليه إلا في الأمور المهمة، ويحتاطون في استخداماتهم له، فيجئون به في الشعر - غالباً - دون النثر، عسى أن يقلل الشعر من غثائته وبروره، ويجئون به أوائل الأبيات ... هذا التكرار يتحول في النظم القرآني إلى أسلوب قوي، يطلع عليهم القرآن من خلاله بكل جديد يُعجب، وطريف يأخذ بالألباب .

وإن النظر الدقيق للمشتبهات - خاصة - من بين أنواع المكررات، يهدي إلى نتيجة لا مراء فيها ، وهي أن هذه التراكيب التي تكررت بفروق يسيرة في صياغاتها شيء جديد لا عهد للعربية به ، شأن المكررات التي وردت في كلام العرب أنها من قبيل التماثل فقط كما لاحظنا في الأمثلة السابقة ، وغاية ما يطرأ عليها

(١) الذهب / ١٠٩ وتراجع هذه الأغراض في البرهان ج ٣ ص ١١ - ٢٨ ويلاحظ أن الزركشي جمعها ولخصها من كلام السابقين ومن اعتمد عليهم وصرح باسمائهم المنخفضة ، وابن الجوزي ، وابن فارس ، والقفال .

من تغييرات لا يتعدى الشيء النادر في الاحتمال على ربط بيت من الشعر بأخره . أما هذا الامتداد في التعبير عن المعنى الواحد ، بتراكيب متعددة ، في مواطن مختلفة ، بفروق يسيرة مراعاة لكل سياق ، فشيء غير معهود وغير مألوف في استخداماتهم للتكرار . وقد احتوى بهذه الفروق على قدر كبير من أدلة الإعجاز في القرآن وسيضع هذا بتفصيل في القسم الثاني من هذا البحث .

كما أنه تامل على الإعجاز من ناحية أخرى تلك التي نتصورها إبان نزول القرآن على سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد ظل الرسول الكريم يستقبل وحى ربه بضعاً وعشرين عاماً ، كان الوحي فيها يسيراً وريحاً ، ويتنزل بالقرآن نجوماً متفرقة ، تثبيتاً لفؤاده (صلى الله عليه وسلم) ، ووفقاً لحاجات العباد ، ومستجداً لثبات الأمور وبعد أن كمل الدين ، ونزلت أخرى آياته ، وجدنا القرآن يأتي به هذه الأنواع المختلفة من التكرارات بنسب اضطراب ولا تناقض ، كل منها في موضعه من الكتاب الكريم ، كأنما نزل لحينه ، منسجماً في سياقه ، مؤلفاً مع موضوعه ، مرتبطاً بما قبله وبمما بعده ، في سورته والآية هذه الأوصاف على قدرة موحية (عز وجل) وصدق من أوحى إليه .

ولعل هذا ما تشير إليه الآية القرآنية : " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا " (١) والآية الأخرى : " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا " (٢)

فن معطيات التدبر - الذي يطلنا به القرآن - الوقوف على هذا المعنى ، الدال على الإعجاز - كما أن من معطيات التعرف على الأسرار الدقيقة للآيات المشتبهات من خلال ما بينها من فروق ، وهو عمل هذه الدراسة ، الذي يجدد أهميتها في مجال الدراسات البلاغية ، وبخاصة إذا ما علمنا أن كتب البلاغة لم تفرد للحديث عن هذه الظاهرة في كتاب الله باباً مستقلاً ، فعند القدامى من البلاغيين لا نرى

(١) النساء / ٨٢

(٢) محمد / ٢٤

إلا حديثاً عاماً عن التكرار ، في محاولة منهم لإثبات أنه جاء في القرآن على سنن العرب في كلامهم كما رأينا على سبيل المثال - عند الجاحظ وابن قتيبة والخطابي وغيرهم فيها تقدم (١) وعند المتأخرين منهم نرى عند البعض اهتماماً بالتقسيم والتفريع ، في دراسة عامة لا تستوعب صورة في القرآن ، ولا تخص المشتبهات بالحديث ، كما نجد عند ابن الأثير وابن أبي الأصم (٢) ، وعند البعض الآخر الملتزم بمنهج السكاكي نرى التكرار يذكر في علم المعاني على أنه طريق من طرق الإطناب ، مشفوعاً بأمثلة قليلة ، لا تكشف عن أنواعه وأسواره المتعددة في القرآن ، ولا نرى حديثاً مباشراً عن المشتبهات ، ولا تعرضاً لأمثلتها إلا في القليل النادر ، في ثانياً حديثهم عن الخصوصيات المختلفة التي تتراد على المسند إليه أو المسند أو بعض المتعلقةات . وسترد الإشارة إلى الأمثلة التي تعرضوا لها في موضعها من القسم الثاني .

* * *

(١) ينظر ص ٨١ - ٨٦ من هذا البحث

(٢) في المثل السائر ج ص

وبديع القرآن ص ١٥١ تحقيق د / حفني شرف ط ١ سنة ١٣٧٧ هـ مطبعة الرسالة

نشر نهضة مصر ، وتحوير التحرير ج ص

وينظر أيضاً الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ، المنسوب لابن قيم الجوزية ص ١١١ : ١١٦

مكتبة المتنبي .

القسم الثاني

المستدبرها في صنوع وفكرية التنظيم

ويقع في :

تمهيد

الفصل الأول : فروق في التنظيم على مستوى الكلمة

الفصل الثاني : فروق في التنظيم على مستوى الجملة

الفصل الثالث : فروق في التنظيم على مستوى الجمل

تقديم :

البلاغة في تعريفها الشهير : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ،
 أى لئلا يكون الكلام بليغاً لابد أن توجد في صياغته خصائص تدل على معان يكون بها
 وائياً ومطابقاً لما تتطلبه الأحوال أو المقامات (١) . وهذه الأحوال - وهى وراء كل
 تغيير في الكلام ، وارتفاع شأنه أو انحطاطه متوقف على مدى رعايتها - كثيرة ، ليست
 لها غاية متقف عندها . وعلى فرض إحاطة للناس بما ندرس منها ، ومعرفة بالخصوصيات
 المناسبة لها ، فإن ذلك لا يؤهلهم لتأليف كلام بليغ ، يرتفع في بلاغته إلى حد بلاغة القرآن
 الكريم . ذلك أن من الأحوال أحوالاً لا تتوقف رعايتها على الولوج في خبايا النفوس
 للتعرف على مكنوناتها ، والإحاطة بأسرارها ، وهذا ليس في وسع البشر ذوى الطاقات
 المحدودة والقدر المتناهية . ولا يتأتى إلا من المعلم الخبير ، الذى أحاط بكل شئ
 علماً وأحصى كل شئ عدداً .

ومن هنا يتأتى الإعجاز البلاغى في القرآن الكريم . ففيه من هذه الرعايات
 ما يعجز عن مثله البشر ولو اجتمعوا وكان بعضهم لبعض ظهيراً ، ويمكن أن نتصور
 أن هذا القرآن منذ نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى
 هذه اللحظة من عمر البشرية وإلى أن يربث الله الأرض ومن عليها ، ما زال - ولا يزال -
 يخاطب كل جيل ، بل كل إنسان كأننا أنزل إليه وحده ، على الرغم من تباعد الأزمان
 والبيئات والثقافات ، واختلاف الأمزجة والطباع .

(١) الطال أو المقام هو الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يورد كلامه على نحو
 خاص ، وهما متقاربان المفهوم ، والتغاير بينهما اعتبارى
 بالنسبة للزمان والمكان ، وعند الإضافة إلى المتقضى والمقتضى - ينظر
 المطول ص ٢٥ لسعد الدين التفتازانى ، مطبعة أحمد
 كامل سنة ١٣٣٠ هـ .

وقد اشار صاحب الطول الى هذا المعنى ، حيث يقول في تعليقه على
التعريف السابق للبلاغة : * فإن قيل : ليست البلاغة سوى المطابقة لمقتضى الحال
مع الفصاحة ، وعلم البلاغة كأول بياتام هذين الأمرين فمن أتقنه وأحاط به ، ولم لا يجوز
أن يراعيهما حق الرعاية فيأتي بكلام هو في الطرف الأعلى من البلاغة ولو بمقدار أقصر سورة ؟ (١)
ثم يجيب على السؤال الذي افترضه فيقول : * قلنا : لا يعرف بهذا العلم إلا أن هذه
الحال ، تقتضى ذلك الاعتبار - مثلاً - وأما الاطلاع على كمية الأحوال وكيفيةها ،
ورعاية الاعتبارات بحسب القامات فأمر آخر ، ولو سلم فإمكان الإحاطة بهذا العلم
لغير علم الغيوب منوع كما مر . وكثير من مهرة هذا الفن تراه لا يقتدر على تأليف كلام
بليغ ، فضلاً عما هو في الطرف الأعلى * (٢) .

وهذه الإجابة مأخوذة من قول السكاكي في نهاية حديثه عن الاعتبارات المتعلقة
بالفعل وتوابعه : * ولعمري علم المعاني على التتبع لتراكيب الكلام واحداً فواحداً - كما
ترى - وتطلب العثور على ما لكل منها من لطائف النكت مفصلة ، لا تتم الإحاطة به
إلا لعلم الغيوب ، ولا يدخل فيه بلاغة القرآن إلا تحت علمه الشامل * (٣)

وتطبيق الكلام على مقتضيات الأحوال هو ما يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم ، إذ
يقول : * النظم هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم عن حسب الأغراض التي يصاغ لها
الكلام * (٤) وهو القياس الذي يتفاضل في صوثة الكلام - كما سبق - فيتقدم منه
الشيء الشيء . ثم يزداد من فضله ذلك ، ويترقى منزلة فوق منزلة ، ويعلم
مَرَقَباً بعد مَرَقَب ، ويستأنفله غاية بعد غاية حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ،
وتحمر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوى الأقدام في العجز (٥)

-
- (١) (٢) السابق ص ٣٠ وتنظر حاشية الدشوقي ضمن شرح التلخيص ج ١ ص ١٣٨
ط ٢ مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٢ هـ .
(٣) مفتاح العلوم ص ١١٩ .
(٤) ينظر المطول ص ٢٢ ، بغية الإيضاح (نصر الإيضاح) ج ١ ص ٢٧ ط ٦ مكتبة
ومطبعة الآداب ، ونصر عبد القاهر مأخوذ من مواضع كثيرة كما أشار سعد الدين
التفتازاني ، ينظر - على سبيل المثال - دلائل الإعجاز ص ١٢٣ ٤٠٧ هـ .
(٥) ينظر دلائل الإعجاز ص ٨١ .

وفى هذا القسم من البحث تبصيح لفكرة المطابقة أو النظم بالتطبيق عليها فى أدق جوانبها ، حيث تتعرض الدراسة من خلال الحديث عن فـروق الصياغة فى المشتبهات إلى الكلمة والجملة والجملى أوضاع متقابلة من النظم رعائية لكل مقام ، وتجهد فى تصوير هذه المقامات وما تقتضيه ، وتبين كيف جاء النظم القرآنى فى كل موضع من مواضع المشتبهات أنسب شئ ؟ وكيف طوت هذه الفروق الدقيقة وراءها كثيراً من أسرار القرآن ؟

وبهذا تتبدى علامات الإعجاز فى هذا النمط من الآيات القرآنية ، أو كما يقول الشيخ عبد القاهر " تعرف حجة الله (تعالى) من الوجه الذى هو أضوا لها ، وأنه لها ، وأخلق بأن يزداد نورها سطوعاً ، وكوبها ظلوعاً ، وأن تسلك إليها الطريق الذى هو آمن لك من الشك وأبعد من الريب ، وأصح لليقين ، وأحرى بأن يبلغك قاصية التبيين " (١)

وإذا كان البلاغيون المتأخرون قد تحد ثوا فى دراستهم عن كثير من الخصوصيات المناسبة لبعض المقامات ، كالذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتكثير ... الخ ، فسرى فى هذه الدراسة - بجانب ما تردد من هذه الخصوصيات فى الحديث عن فروق الصياغة - خصوصيات أخرى لم ترد فى حديثهم ، وإنما تندرج تحت ما أشار إليه عبد القاهر

- بوجه عام - فى حديثه عن معنى النظم ، حيث يقول : " وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وأن تعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجة التى نهجت فلا تزيع عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشئ منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يمتنع بالناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ... ثم أشار إلى الوجوه التى يرد عليها الخبر ، والشرط والجزاء ، والحال ، وقال : فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجى به حيث ينبغى له . وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى فيضع كلاماً من ذلك فى خاص معناه ، نحو أن يجى بـ " ما " فى نفى الحال ، وبـ " لا " إذا أراد نفى

الاستقبال ، و " إن " فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون ، و " إذا " فيما علم أنه كائن . وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع " الواو " من موضع " الفاء " وموضع " الفاء " من موضع " ثم " وموضع " أو " من موضع " أم " وموضع " لكن " من موضع " بل " . ويتصرف في التعريف والتكبر والتقديم والتأخير في الكلام كله ، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار ، فيضع كلا من ذلك مكانه . ويستعمله على الصفة وعلى ما ينبغى له . (١)

وإذا كانوا في حديثهم عن هذه الخصوصيات قد حددوا أغراضا معينة ، وهي المعاني التي تفيدها أحوال السند إليه والسند والمتعلقات به ، ثم احتاطوا لما يمكن أن يلاحظ في الكلام من أغراض أخرى كثيرة لهذه الخصوصيات بقولهم بمبدأ سرد المعاني التي يفيدها كل حال من هذه الأحوال : " أو نحو ذلك " (٢) وقولهم : " وأما لاعتبار آخر مناسب " (٣) ، فنسرى في هذه الدراسة كثيرا من هذه الاعتبارات المناسبة ، وما تشير إليه من أغراض جديدة ، تدل على دقة الأداء القرآني ، وجديد عطائه .

وإذا كانوا - أيضا - قد اهتموا بالحدِيث عنها بالنسبة للسند إليه والسند ، ولم يتعرضوا إلا للقليل منها بالنسبة للمتعلقات (٤) اكتفاء بالتنبيه المذكور في آخر حديثهم عن أحوال السند على أن أمرها (٥) يجري في غير السند إليه والسند كما يجري فيها ، فنسرى في هذه الدراسة تعرضا لبعض هذه الخصوصيات مع المتعلقات وأن الدقة في مجيئها معها لا تقل عن الدقة في مجيئها مع السند إليه والسند .

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٧ = ١١٨ .
(٢) شروح التلخيص ج ١ ص ٢٨٠ ، المطول ص ٦٨ وهذا موضع على مبيِّن - المثال من مواضع كثيرة تكرر فيها هذا القول .

(٣) بفسفية الإيضاح ج ١ ص ٥٧ من مواضع كثيرة .
(٤) ما وصفوه بالدقة ، أو كما يقول السعد : " لاختصاصها بنوع غرض ومزيد دقة " كحذفها من الجملة أو تقديمها على الفعل أو تقديمها بعضها على بعض .
ينظر المطول ص ١٩٠ .
(٥) الضمير راجع إلى أحوال السند والسند إليه وما تفيد من معان .

وتأتي الدراسة هنا في ثلاثة فصول ، يحوى أولها على الفروق المتعلقة
بأحوال الكلمة في الآيات المشتبهات ، وثانيها على الفروق المتعلقة بأحوال الجملة ،
وثالثها على الفروق المتعلقة بأحوال الجمل .

وما يجدر التنبيه عليه أن هذا التقسيم إطار فقط لتقديم الدراسة عن هذه
الفروق . أما الأمثلة فقد التزمت في تحليلها بالحديث عن كل ما يوجد فيها من فروق ، سواء
في ذلك ما يتصل منها بموضوعات الفصل الذي تعرض فيه ، وما يتصل بموضوعات الفصولين
الآخرين ، خصوصاً على تصور السياق العام ، ولأن هذه الفروق يوضح بعضها بعضاً .

والآيات المقدمة في هذه الدراسة ليست كل الآيات المشتبهات في القرآن الكريم
كما سبق التنبيه وإنما القدر الذي يشتمل ما فيها من فروق الصياغة ، وقد جمعت هذه الفروق
بـ قدر طاقتي - من تتبع هذه المشتبهات في مواقعها المختلفة من القرآن . كل فرق
منها يتمثل في حالين من أحوال الكلمة أو الجملة أو الجمل ، جاء عليهما النظم
في موضعين أو أكثر حسب الأمثلة ، إذ منها الكثير الذي يدل على الفرق الواحد
في صور متعددة ، ومنها القليل الذي يدل على الفرق الواحد في صورة واحدة ، كما
أن المثال الواحد قد يتكون من آيتين فقط ، وقد يتكون من آيات عديدة . وقد راعيت
ذلك لافهما اخترت وعرضت من هذه الآيات .

الفصل الأول

نزهة في النظم والحكي مسبوقة بالكلمة

يشتمل هذا الفصل على ما يوجد في المشتبهات من فروق الصياغة بالنظر إلى أحوال المفردات فيها ، وهي الأحوال التي جاءت عليها الكلمات ، وتغايرت بها في أكثر من موضع ، مكونة هذه الفروق .

بين التعريف والتذكير

من الفروق في المشتبهات مجيء بعض الكلمات في طائفة منها مرددة على حال التعريف والتذكير ، وهما حالان من أحوال اللفظ العربي التي تتحقق بها المطابقة لقتضى الحال (١) ، تحدث البلاغيون المتأخرون عنها مع أحوال أخرى ، حد يثا موزعا على ركني الجملة - المسند والمُسند إليه - ولم يتحدثوا عنها ضمن أحوال المتعلقة التي خصوصها بالبحث ، لما تقدمت الإشارة إليه . (٢)

والأمثلة على هذا الفرق كثيرة ، وتدل عليه في صورة مختلفة تبعا لمواقع الكلمات المتغايرة في الجملة . وقبل عرضها أقف هذه الوقفة مع ما ذكره أحد الباحثين ، مخالفا فيه البلاغيين بخصوص المعاني التي تفيدها النكرة (٣) ، إذ يذكر بعد تأمله الطويل أن النكرة يراد بها واحد من أفراد الجنس ، ويؤتى بها عندما لا يراد تعيين هذا الفرد ، وهي بعد ذلك تفيد معناها مطلقا من كل قيد . أما ما يذكره علماء البلاغة - في نظره - من معاني تفيدها النكرة فإنها لم تفد ها بطبيعتها ، وإنما تفيد ها من المقام الذي تـسـرـه فيه (٤)

فهذا الذي انتهى إليه بعد وقوف طويل - كما يقول - لا يخرج عما ذكره

- (١) ينظر تعريف علم المعاني في كتب البلاغة - وملاحظ أن ثمة تناقضا يبدو بين إطلاق لفظ " الحال " ولفظ " مقتضى الحال " على هذه الأوصاف التي يكون عليها اللفظ ، لأن هذه الأوصاف هي الأحوال التي يفتضها الحال في اللفظ ، فهي بعينها مقتضى الحال ؟ وأجيب على هذا بأنهم تماموا نفس إطلاق " مقتضى الحال " على هذه الأوصاف ، إذ قصدوا بذلك أنها هي التي يتحقق بها مقتضى الحال ، أو أنهم نظروا إليها أولا من حيث ذاتها لا من حيث إنها مقتضى حال - يراجع لمطول ص ٣٥ ، بغية الإيضاح ج ١ ص ٣٥ .
- (٢) في التصديق السابق (٣) وهي من الأسس المعتمدة في توجيه هذا الفرق

البلاغيون والنحاة، من دلالة النكرة على فرد من أفراد الجنس . وقد ذكروا لها دلالة أخرى . وهي الدلالة على الجنس . فهي صالحة للدلالة الأولى عندما تقول : جاء رجل لا رجلان . وللدلالة الثانية عندما تقول : جاء رجل لا امرأة . وقد أغفل الباحث الدلالة الثانية، واقتصر في حديثه على الأولى .

وقد نبه البلاغيون - أيضا - على أن النكرة لا تتجاوز هذا المعنى الأصلي في كل موضع تكون فيه إلى معنى بلاغي، وإنما ترى هذا في القليل دون الكثير . وهذه المعاني لا تفيدها النكرة بطبيعتها، وإنما هي كامنة فيها . والسياق هو الذي يخرجها ويكشفها .

أما ما ذهب إليه الأستاذ الباحث من الاعتماد على السياق وحده في إلغاء لقيمة أحوال اللفظ وطلاقاتها بالسياق . وإن صح هذا الرأي مع التنكُّر - وهو بعيد - فإنه ينصب على كل الأحوال الأخرى ، لوجعل من السياق وحده حكما عليها، ويلغى تفاعلها مع هذا السياق وقدرته على استخراج ما كمن فيها من معان . وهذا يجعل الأستاذ الباحث متناقضا مع نفسه حيث اعتمد على تنبيهات البلاغيين - ومما رآه على آرائهم في أحوال أخرى كالذكر والحذف والتقديم والتأخير . . . (١)

أعود بعد هذه الوقفة، وما تأكد فيها من حديث البلاغيين عن المعاني التي تفيدها النكرة إلى الأشلة على هذا الفرق في الآيات المشتبهات، وهي كثيرة منها :

قوله (تعالى) في سورة الأعراف :

﴿ وَإِذَا يَرْزُقُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

وفي سورة فصلت :

﴿ وَإِذَا يَرْزُقُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣)

(١) تراجع مناقشة هذا الرأي في فاضل كتاب البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري

ص ٢٦٣ - ٢٦٥ . ويراجع دلائل الإعجاز ص ١٦٧ - ١٦٩ شرح التلخيص ج ١

ص ٣٤٧ وما بعدها في حديث البلاغيين عن المعاني التي تفيدها النكرة .

(٢) الآية / ٢٠٠ (٣) الآية / ٣٦

حيث اتفقت الآيتان في الدعوة إلى الاعتصام به (سبحانه) من وماوس الشيطان ،
والإخبار عقب هذا الدعوة - ترغيباً فيها وحللاً عليها - بأنه (سبحانه) سميع عليم . . .
يسمع من يستعيز به ، ويعلم ما يستعيز فيه فدفع عنه شره . واختلفتا في الخصوصية
التي جاء عليها السند المتعدد في الجملة الأخيرة منهما ، فهي في الأولى التنكير ،
وفي الثانية التعريف بال . كما اختلفتا في نفس الجملة بذكر ضمير الفصل في الثانية
وعدم ذكره في الأولى ، وهو فرق آخر من الفروق التي يرد الحديث عنها في الفصل الثاني ،
ما نحدث عنه هنا مع السابق لصلته به وتعاونه معه على إيجاد وتوضيح الأسرار البلاغية
التي تغير من أجلها النظم في كل من الآيتين بالنظر إلى الأخرى .

وإذا رجعنا إلى هاتين الآيتين لتعرف على هذه الأسرار وجدنا أن سياق
كل منهما مختلف عن سياق الأخرى . وهذا الاختلاف له أوجه كثيرة ، كلها وراء ما تغايرت به
الآيتان .

من هذه الأوجه اختلاف التكليف الشرعية السابقة على هاتين الآيتين والمعقب
عليها بهما ، فقد وقعت الآية الثانية عقب الدعوة إلى ما يشق على الإنسان فعله من هذه
التكاليف ، وهو مدافعة السيئة بالحسن ، ومقاولة غلبة العدو بالملاينة ، استكفافاً لشره
وأذاه ، حتى يهرب إلى اللطف في التول والجويل من الفعل ، فيصير بعد عدوانته
التي لم تقابل بما يوجبها لأنه صديق أو قريب حميم (١) وذلك في قوله تعالى) قبل
هذه الآية : " وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ اذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ " وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم " (٢)

وههنا على تصور المشقة المصوبة بهذا التكليف ما جاء في تفسير الزمخشري للآية
الأولى من هاتين الآيتين ، إذ يقول : " الحسنه والسئنه متفاوتتان في أنفسهما فخصه

(١) يراجع هذا الوجه في : درة التنزيل وغرة التأويل للإسماعيلي ص ٤١٩ - ٤٢٠

(٢) فصلت / ٣٤ - ٣٥

بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي
ترد عليك من بعض أعدائك ، مثال ذلك : رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة أن
تعفو عنه ، والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك
فتدحه ، ويقتل ولدك فتقتدي ولده من يد عدوه فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك
المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك (١)

ولا يفوت (رحمه الله) أن يبين في نفس الآية مرإيشار القرآن التعبير بالتي
هي أحسن مكان الحسنة فيقول : " وضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في
الدفع بالحسنة ، لأن من دفع بالحسن هان عليه الدفع بما هو دونها " (٢) . وفي
هذا المر تأكد على معنى المشقة الواضحة في هذا التكليف .

ومعين على تصورهما - أيضا - ما جاء مرويًا عن ابن عباس (رضي الله عنهما)
في تفسير هذه الآية مستندًا فيه إلى سبب نزولها ، الذي يدل على أن الرسول (صلى
الله عليه وسلم) هو المخطب الأول بهذا التكليف الشاق ، إذ يقول : " أمر الله
(تعالى) بالصبر عند الغضب ، والعلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة " (٣) .
فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم " (٤)

ولا شك في ثقل هذه الأمور وصعوبتها على النفس ، حيث تقتضي من
الإنسان أن يكون على عكس ما يفرضه الموقف وتعليه الظروف ، وهذا لا يقدر عليه إلا من
قوى إيمانه ، أو كما يقول الزمخشري : " إلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير " (٥)

-
- (١) الكشاف ج ٣ ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .
(٢) السابق ج ٣ ص ٤٥٤ .
(٣) وذلك في مواجهة أبي مفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام . ٨٠٦ .
(٤) مراجع الكشاف ج ٣ ص ٥٥٤ ، وتفسير القرطبي ص —
(٥) مراجع الكشاف ج ٢ ص ٥٥٤ ، تفسير القرطبي ص — ٨٠٧ .

وقد جاءت الآية الثانية لتؤكد هذا المعنى فقال (سبحانه) : " وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا أَذْوَاتُ مَغْطَظٍ عَظِيمٍ " أي لا يقدر على منسى هذه الفعلة الكريمة، والخلقة الشريفة ، أو ما يلقى الجنة وينعم بثوابها - كما جاء في تفسيرها ، ولا تعارض لانه يلقى الجنة بسبب هذه الخلقة - إلا الذين تملحوا بالصبر ، فكظموا غيظهم واحتملوا الأذى ، ولا الذين أوتوا نصيبا من الخير . (١)

ثم تلحق الآية بفتح النظر بالدعوة في فاتحتها إلى الاستعانة بالله (عز وجل) من نزاع الشيطان ، الذي يوسوس في صدور البشر من الجنة والنار ، هذه الدعوة ، وختت بما يرغب فيها ، فهو (سبحانه) ، يفتح دهره عود ، ويلجأ إليه ، عليهم ما يستعين . . . والآية بهذا المعنى ، وإلى هذا أشارت مختلف عن آية الأعراف ، فالدعوة واحدة ، والترغيب واحد ، لكن لما كان المتقدم على الثاني في السياق من التكليف الشاقة على النفس - كما سبق - والشيطان يكون معها أنشط من حيث أنظر روع في الترغيب ما يناسب هذا القدر الزائد من نشاطه ووسوسته ، فيجاء في الشرع بما جاء عليه إيشير إلى هذا المعنى ، ففسر السند بأل ، وجيء قبك بتفسير السند ، ليصور المعنى في هذه الجملة ليس فقط مجرد الإخبار بأنه (سبحانه) ، لا سمح سواء ولا عالم غيره - كما هو مفاد أسلوب القصر ، وفناء التأكيد الذي جاء منه ، ومن ضمير الفصل (٢) - وفي هذا من قوة الترغيب ما فيه .

أما آية الأعراف فقد وقعت تحت قوله (تعالى) : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (٣) ، وفي تفسير هذه الآية يقول الإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه) : " أمر الله (عز وجل) نبيه (عليه الصلاة والسلام) بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها (٤) ، ويتدقيق النظر في الأخلاق التي دعت إليها يلاحظ أنها - على عظمها - ليست من الأجر الشاقة على النفس ، ولا تضم بينها ما يصعب على الإنسان فعله ، كما هو الشأن في مدافعة البيئة بالحسن .

(١) راجع الكشاف ج ٣ ص ٤٥٤ وتفسير القرطبي ص ٥٨٠٧ .

(٢) ضمير الفصل هنا يفتح التأكيد فقط لأن التخصيص جاء من طريق آخر ، وهو تعريف

السند بأل - ينظر في مسند الطول ص ١٠٥ - ١٠٦ ، بغية الإيضاح

ج ١ ص ١١٧ .

(٣) الآية الأولى من سورة الأعراف .

ومن هنا اختلف السباقان ، فلما جاء قوله (تعالى) عقب هذه الأمور " وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ " ، وهو قول يدل على أن للشيطان معها نشاطا (١) أيضا . لكن دون نشاطه مع مدافعة السيئة بالحسنى ، روى في الترغيب ما يناسب السياق ، فاكفى بمعنى الخير على الأصل ، وهو التذكير ، فقيل : " إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " ولم يؤت بضمير الفصل حيث لا حاجة إليه .

وهكذا يزداد التأكيد ، يقال في هذه الجملة مراعاة لنزع الشيطان ومضى نشاطه في هذا النزاع مع بعض التكاليف دون بعضها الآخر !

ومن أوجه الاختلاف بين السباقين أن آية الأعراف سبقت بآيات كثيرة تتحدث عن التماثيل المنحوتة التي اتخذها الكفار آلهة لهم من دون الله والتي وصفها الحق (سبحانه) بأنها لا تخلق شيئا ولا تستطيع لهم نصرا ، ونفى عنها القدرة والسمع والبصر ، على نحو ما بينت الآيات (٢)

وهذا الوصف يدل على أن هذه الأصنام لم يلحقها أدنى شيء يجعلها تشبه الأحياء ، فضلا عما فوق ذلك . . . فلما يرد وصف الله (عز وجل) في هذا السياق بصفى السمع والعلم ، لم يحتج إلى تأكيد زائد يدفع وجودها فيمن يتصور معه هذا الوصف غيره ، فكان إثباتهما له - مجرد إثبات - كافيا لرد الالة على اختصاصهما بها ، من غير حاجة إلى أسلوب الاختصاص ، الذي يتضمن نفيهما عن النير والتأكيد على اختصاصه بهما .

(١) بدلهل ما جاء في أسباب النزول من أنه لما نزلت الآية السابقة قال (صلى الله عليه وسلم) : كيف يارب والغضب ؟ فنزلت هذه الآية ، لأن الغضب ميدان نصيح ينشط فيه الشيطان لثني النفوس عن هذه المطالب الكريمة - يراجع الكشف ج ٢ ص ١٣٩ تفسير القرطبي ص ٢٢٨١

(٢) الآيات / ١٨٩ - ١٩٠ .

أما آية فصلت فقد سبقت بالحدِيث عن يمكن أن يَنازع في امتلاك هاتين الصفتين،
 وهم أعداء الله من الإنس والجن، وذلك في آيات كثيرة من لدن قوله (تعالى) : " وَيَسْـُٔمُ
 يُخْشِرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ " (١). إلى قوله (تعالى) : " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
 رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ
 تُوعَدُونَ " (٢). حيث انقلت الآيات للحديث عن أولياء الله، وهم الطرف المقابل
 لأعداء الله... فلما جرى ذكر الصفتين السابقتين للمولى (عز وجل) في هذا السياق،
 روى من يتأتى منه المنازعة في امتلاكهما، وأكَّـد على اختصاصه (عز وجل) بهما، وذلك
 بتعريف الخبر، وإلتيان بضمير الفصل قبله (٣).

وهذا الوجه لا يتعارض مع الوجه السابق، وإن كان مبنياً على النظر إلى السياق
 البعيد في الموضعين، وإنما يدل على تجاوب النظم في أنطـاء السورة، وكيف تؤدي
 الكلمات... في إطار هذا التجاوب - أكثر من غرض ١؟

ويؤكد من استعمالات القرآن الكريم في موضع آخر ما جاء حكاية عن سيدنا إبراهيم
 (عليه السلام) في حوار مع أبيه وقومه، حيث يقول الحق (سبحانه) : " الْكَافِرُ
 خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُخَفِّنِي وَمُنْقِئِينَ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي
 يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ " (٤). ففي الحديث عن الهداية والإطعام والشفاية جن بالضمير " هو"
 وفي الحديث عن الإحياء والإماتة لم يؤت به، مع تشابه الجمل في طريقة بنائها (٥)، ومع
 صدورها عن متحد واحد في سياق واحد.

ومر ذلك - كما جاء في الوجه السابق - أن الضمير جن به في الحديث عن الأشياء
 التي يمكن أن يدعى الإنسان القدرة على فعلها، فيقال : فلان يطعم غيره، والطبيب يداوى،

- (١) الآية / ١٩ (٢) الآية / ٣٠
 (٣) ينظر في الإشارة إلى هذا الوجه ملاك التأويل ج ٢ ص ٢٩٤، ونظم
 الدرر ج ٢ ص ٤٨٦ (٤) الشعراء / ٢٨ - ٨١
 (٥) التشابه هنا في طريقة بناء الجمل وليس بمعنى المشتبه - موضوع الدراسة -
 والاستئناس بهذا الآيات منظور فيه إلى التأكيد وعدمه بناء على الوجه السابق.

وسبب الشفاء... وهكذا... فجىء بالضمير ليتأكد الكلام ، ويفيد اختصاص هذه الأفعال به وحده (مباحثه) دون سواه ممن يمكن أن يتأتى منه ادعاء ذلك . ولم يأت به في الحديث عن الأشياء التي لا يدعى أحد القدرة عليها ، ولا ينسبها لنفسه ، وهي الأحياء والإماتة . (١)

ومنها أن الآيات السابقة على آية الأعراف حُتِمت بأفعال منسوبة إلى الجماعة ، وأسماء مأخوذة من أفعال منسوبة إليهم ، وذلك مثل : يشركون - يخلقون - ينصرون - صامتون - الجاعلين . (٢) فلما وقعت الآية بعد هذه الآيات مختمة بمصنفين من صفات الله (عز وجل) أُخرجت فاصلتها بأقرب ألفاظ الأسماء المؤدية معنى الفعل ، وهو لفظ النكرة ، موافقة لما تقدم فيها في نواصل الآيات السابقة ... وكان المعنى على ذلك : استعذ بالله إنه يسمع استعاذتك ويعلم استخارتك .

أما الآيات السابقة على آية فصلت فقد مُلك بغواصلها طريق الأسماء التي لا يراد بها الأفعال ، ولا يقصد معنى الفعل منها في هذا السياق ، وذلك مثل : ولي حميم - حظ عظيم (٣) فأخرجت فاصلة الآية بعدها - موافقة لها - على لفظ ينفذ عن إرادة معنى الفعل ، وذلك بتمريف اللفظ ، وصار المعنى على ذلك : إنه هو الذي لا يخفى عليه سمع ولا معلوم - مؤكداً بضمير الفصل في الجملة - ولم يكن القصد الإخبار فقط عن مجرد الفعل بأنه يسمع الدعاء ويعلم الإخلاص ، كما كان في الأولى . (٤)

وهذا الوجه وإن كان مبنيًا على أمر لفظي ، وهو توافق الفواصل المتجاورة في صورة ما من صور الاتفاق وهي كثيرة (٥) ، إلا أنه ينتهي من التوافق في الصورة السابقة إلى

(١) راجع هذا الوجه في درة التنزيل ص ٣٣٢ ، وأسرار التكرار في القرآن ص ١٥٥ بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٣٤٧ ، ملك التأويل ج ٣ ص ٤٩٦ .

(٢) خواتيم الآيات / ١٩٠ - ١٩٩ (٣) في الآيتين / ٣٤ - ٣٥

(٤) ينظر درة التنزيل ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥) كالتوافق في الروي ، أو في الوزن ، أو في نوع الكلمة ، وسيورد الحديث عنها في أمثلة مختلفة .

ما انتهى إليه الوجه الأول من حيث المعنى وعلى ذلك فلا تعارض بينهما .

ومنها أن الآية السابقة على آية فصلت أُلِّفَ فيها المعنى بطريقتين : التَّنْقِيسُ والاستثناء ، وهو أحد طرق القصر ، والتكرار ، حيث يقول الحق (سبحانه) : " وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا أُولُو حُظٍّ عَظِيمٍ " وقد روى التوافق بينهما وبين الآية التالية عليهما المتصلة بها ، في هذا التأكيد ، وهي الآية موضع النظر ، فعرف المسند بأل وسبق بضمير الفصل .

وهذا التأكيد غير موجود في الآية السابقة على آية الأعراف فجاء الكلام فيها على الأصل ، من تنكير الخبر وتعريف المبتدأ ، موافقة للسابقة (١)

وهكذا تتعدد الأسرار البلاغية لهذا الاختلاف اليسير بين الآيتين تبعاً للنظر إلى سياقها من جهات مختلفة ! !

وقبل أن توجه هذا الاختلاف - أيضاً - : آية الأعراف نزلت أولاً ، وآية فصلت نزلت بعدها ، فحسّن التعريف فيها ، إشارة إلى أنه السميع العليم الذي تقدم ذكره أولاً عند الحديث عن نزغ الشيطان (٢) .

وهو توجه مبنى على النظر إلى ترتيب السور من ناحية النزول واختلاف أحوال الكلمات تبعاً لذلك ، فالكلمة التي ترد لفترة في سورة متقدمة نزولاً ثم تكرر في سورة أخرى تالية ، تُعرّف ، لأن النكرة إذا كررت في الكلام عُرفت ، كما في قوله (تعالى) : " إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا " فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (٣) .

وهذه القاعدة (تعريف النكرة إذا كررت) لا يصح على أساسها أن يوجه كل اختلاف بالتعريف والتشكيك في المشتبهات ، لأنها لا تصح إلا إذا كان الكلام متصلاً في سياق واحد ،

(١) يراجع في هذا الوجه : أسرار التكرار ص ١٨٩ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٤١٥ ،
(٢) قوله تعالى : " وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا أُولُو حُظٍّ عَظِيمٍ " فحسّن التعريف فيها ، إشارة إلى أنه السميع العليم الذي تقدم ذكره أولاً عند الحديث عن نزغ الشيطان (٢) .

وسورة واحدة، على نحو ما رأينا في آيتي سورة المزمل السابقتين ، حيث يسهل تصور العهد بالنكرة السابقة .

أما تصور العهد بكلمة نكرة في سورة عنها مُعرَّفة في سورة أخرى ، وبينهما سور كثيرة ، فأمر بعيد . ثم إن هاتين الصفتين (السمع والعلم) تكررتا في خواتيم آيات كثيرة ، وبصور متعددة ، من الاختلاف ، إحداها هذه الصورة ، التي لا تقتصر أمثلتها على آيتي الأعراف وفصلت ، بل لها أمثلة كثيرة في سور مختلفة يتعد فيها جميعا تصور هذا العهد .

ومن الملاحظات في هذا الباب من الدراسات القرآنية ما يصح كثيرا ، ومنها ما يحتاج إلى إعادة النظر . من هذه الملاحظات ما ذهب إليه أبو القاسم السهيلي (رحمه الله) فيما يتصل بالحديث عن هاتين الصفتين من أن الإخبار عن الله (عز وجل) بالسمع والعلم حيث وقع يتضمن التخويف والتهديد . (١)

وهو غرض لا يتحقق في كل موضع أُخبر عن الله (عز وجل) بهما فقد رأينا أن الغرض الواضح من الإخبار بهما في آيتي الأعراف وفصلت - أخذاً من التحليل السابق - هو الترغيب في اللجوء إليه (سبحانه) والاعتصام به من وساوس الشيطان وليس - كما ذهب السهيلي - التخويف والتهديد .

ومن الأمثلة على هذا الفرق قوله تعالى في سورة البقرة :

" وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات " الآية . (٢)

(١) ينظر " نتائج الفكر " ص ٢١٨ بتحقيق الدكتور / محمد الهنا - رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية اللغة العربية عنوانها " السهيلي ومذهبه النحوي مع تحقيق كتاب نتائج الفكر " رقم ١٢٧ ، والسهيلي هو : أبو زيد بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن ، المتوفى سنة ٨١ هـ - تراجع ترجمة وافية له في الرسالة ج ١ ص ٢٣ - ٨٤ .

(٢) الآية ١٢٦ .

وفي سورة إبراهيم :
 " وَاذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
 الْأَصْنَامَ " (١)

حيث تكررت جملة من القول المحكى عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في
 الآيتين ، مع اختلاف الخصوصية التي جاء عليها أحد المتعلقات فيها - لفظ بلد -
 فهي في الآية الأولى التنكير ، وفي الثانية التعريف . وهذا الاختلاف يرجع إلى
 أمور متعددة في الموضعين ، ينهى عليها أسرار كثيرة :

من هذه الأمور ما أجمع عليه أكثر العلماء في كتب التفسير وكتب المتشابه اللفظي
 وكتب علوم القرآن التي تعرضت لهذا الاختلاف (٢) من أن الدعاء الوارد في سورة البقرة
 توجه به سيدنا إبراهيم إلى ربه (عز وجل) قبل أن يصير المكان بلداً ، أي حينما
 كان وادياً قفراً ، لا زرع فيه ولا ضرع ، كما تشير الآية الكريمة - حكاية عن سيدنا إبراهيم -
 أيضاً - " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ " الآية (٣)
 والمناسب لذلك تنكير كلمة " بلد " إذ يترتب على هذا التنكير توجه الإشارة إلى المكان
 البهم ، لا إلى " بلد " ، وهو إذا ذاك مكان منكور ، لا يتميز عن غيره من الأمكنة
 بخصوصية ، من عارة أو سكنى الناس .

والغرض من الدعاء هنا أن يصير المكان بلداً آمناً ، فسيدنا إبراهيم يطلب
 الأمرين معاً : البلدية والأمن . وعلى هذا فاسم الإشارة مفعول أول للفعل " اجعل "
 والمشار إليه هو المكان البهم القفر ، و " بلداً " مفعول ثانٍ و " آمناً " صفة .

أما الدعاء الوارد في سورة إبراهيم فكان بعد أن استجاب الله (عز وجل) الدعاء الأول

-
- (١) الآية / ٣٥ .
 (٢) تقديم الحديث عن هؤلاء العلماء وكتبهم في القسم السابق .
 (٣) إبراهيم / ٣٧

فَبُنِيتَ الكعبة ، وصار المكان بلدا ، كما قال إبراهيم (عليه السلام) ، والمناسب له حينئذ تعريف " بلد " لأنه صار مكانا معروفا مشهورا . ويترتب على هذا التعريف توجه الإشارة إلى " البلد " لا إلى المكان البهم ، ويكون حينئذ بيانا أوصفا - على خلاف بين النحاة - (١) من اسم الإشارة ، و" آمنا " هو المفعول الثاني .

والغرض من الدعاء طلب الزيادة من الأمن واستمراره ، بناءً على أن المكان صار بلدا آمنا بالدعوة الأولى ، أو طلب الأمن لبناءً على أنه صار بهذه الدعوة بلدا فقط ، لم تنتف عنه صفة الخوف ، فطلب إبراهيم (عليه السلام) من ربه (عز وجل) أن يخرج من هذه الصفة إلى ضدّها لأنه قال : هو بلدٌ مخوف فاجعله آمنا .

ووصف البلد بالأمن إما على معنى النسب ، أي : ذا أمن ، على حد ما قيل في " عهشة راضية " ، وإما على الاتساع والإسناد الجازي ، والأصل : آمنا أهله ، فأسند ما للحال للمحل ، لأن الأمن ، والخوف من صفات ذوى الإدراك (٢) .

وعلى هذا التوجيه يتبين أن الوارد في الآيتين دعاء ان حدثا في وقتين مختلفين . يؤكد ذلك ما أنها به التاريخ من مجيئ نبي الله إبراهيم (عليه السلام) مع زوجه هاجر بولد هما إسماعيل إلى هذا المكان القفر ، ثم تركه لهما بوحى من الله (عز وجل) وتردده عليهما حتى كبر إسماعيل (عليه السلام) وتزوج من قبيلة جرهم المجاورة ، وعمر المكان وصار بلد مشهورا . كما يؤكد اختلاف الموصول بالدعاء في هذه الجملة من الآيتين ، حيث يدل على أن الدعاء برسته مختلف في الصورتين .

-
- (١) عطف بيان على مذهب سيويه ، وصفه على مذهب المبرد - درة التنزيل ص ٢٩ .
 (٢) يراجع في هذا التوجيه : درة التنزيل ص ٢٩ أسرار التكرار ص ٣٥ ، مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب أي التنزيل ص ٨ ، ملك التأويل ج ٢ ص ٦٢ .
 كشف المعاني ص ٣٥ ، فتح الرحمن ص ٢٢ - ٢٣ ، الكشف ج ٣ ص ٣٧٩ .
 مفاتيح الغيب ج ١ ص ٤٧٧ ، روح المعاني ج ١ ص ٣٨١ .
 الإتقان في علوم القرآن ، ج ٢ ص ١٤٨ ، نظم الدرر ج ١ ص ٢٢٢ ، ج ٣ ص ٣٣٤ .

وهنا ملاحظة تجدر الإشارة إليها في الحديث عن هذا المثال وغيره ما جاء من المشتبهات في قصص الأولين ، وهي أن هذا الدعاء المحكى عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) وكذلك كل ما حكاه القرآن عن أنبياء الله السابقين في تجاربهم — أسهم ، ليس محكياً بلفظه ونظمه ، ولا صدر الكلام المعجز من الخلق ، وإنما المحكى هو المعنى فقط ، بهدليل أن أكثر مقالات الأنبياء — لأسهم — إن لم تكن كلها — كانت بغير العربية . وقد حكى القرآن هذا المعنى في نظم معجز ، من مظاهر إعجازه هذه الفروق التي نجدها فيما تكرر من آياته ، دالة على كثير من أسرار وعطاء المتجدد (

ولذا يقول الهقاعي (رحمه الله) : " إن كل سورة أُعيدت فيها قصة فلمعنى ادعى في تلك السورة ، استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سبقت له في السورة السابقة . ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض ، وتغيرت النظم بالتقديم والتأخير ، والإيجاز والتطويل ، مع أنه لا يخالف معنى من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة " (١)

ويقول ابن الزبير الأندلسي : " إن اختلاف مقالات الأنبياء لأسهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم ، إذ ليس دعاؤهم إياهم في موقف واحد ولا لقوم مخصوصين ، بل يدعو النبي طوائف من قومه في أوقات مختلفة ومواطن شتى . وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعى فيهم ذلك في دعائهم . وقد يخاطب ملأهم الأعظم في موطن ، والفئة القليلة منهم في موطن آخر . وربما أطل إلى موطن وأوجز في موطن ، وذلك بحسب ما يروونه (عليهم السلام) أجدى وأرجى . فلا يشكل على هذا . اختلاف أقوالهم ، ولا اختلاف مجاوبة أسهم لهم ، فهذا ما لا يحتاج إلى سؤال عنه " (٢)

وخلاصة القول في هذا أن المحكى عن أنبياء الله السابقين هو أصل المعنى . أما كنية الحكاية وما روى فيها من خصائص مختلفة فتخضع للحياقات المتعددة التي وقعت فيها هذه المعاني .

(١) نظم الدرر ج ١ ص ٥ - ٦ ، ولعله يقصد بالتطويل الإطناب عمومًا ، لا التطويل الذي هو غير الإطناب كما جاء في حديث أبي هلال العسكري عنها - راجع ص ٨٥ من هذا البحث

والتوجيه السابق للاختلاف بين الآيتين مع وضوحه ينقصه الحديث عن ———
تخصيص كل كلمة من الكلمتين موضع الاختلاف بسياقها ، إذ من الجائز على هذا التوجيه —
أن يحدث العكس فيجىء التعريف في سورة البقرة ، والتكثير في سورة إبراهيم دون تعارض ؟

ويبين هذا السر ما جاء في الأمور الأخرى التي يرجع إليها هذا الاختلاف ،
فقد ذهب ابن الزبير إلى أن التنكير في سورة البقرة يرجع إلى وقوع الآية عقب قوله (تعالى) :
" وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى الآية " (١)
حيث ورد البهت معرّفا مرتين — بأل وبلا إضافة — وتعريف البهت تعريف للبلد في الآية
موضع النظر ، فلم يحتج اسم الإشارة من قوله (تعالى) : " هذا بلدا " إلى تابع
يبين جنسه — على ما هو معهود في اسم الإشارة — اكفاءً بما تقدم ، ما يحصل منه
مقصود البيان .

أما التعريف في سورة إبراهيم فلأن الآية لم يتقدم فيها ولا عليها ما يقوم لاسم
الإشارة مقام التابع المعرف بجنس ما يشار إليه ، فلم يكن بد من إحصاء لفظ " البلد " عليه
تابعاً له بالآلف واللام ، على المعهود الجارى في أسماء الإشارة ، من تعيين
جنس المشار إليه باسم جامد في الغالب . (٢)

وبتدقيق النظر في هذا الكلام يتبين أن ابن الزبير يسمي في هذا التوجيه
على رأى آخر ، ذكر في توجيه الاختلاف بين الآيتين (٣) ، وهو أن الدعاء
واحد ، صدر من إبراهيم (عليه السلام) بعد أن صار المكان بلداً ، وأخبر القرآن عنه
في الموضعين . (٤)

-
- (١) الآية / ١٢٥
(٢) ينظر ملاك التأويل ج ٢ ص ٦١ — ٦٢
(٣) وإن لم يصرح به ، مع ملاحظة أنه ضَمَّن من لمذكروا التوجيه الأول ، الذي يسمي
على أن الدعاء دعاءان .
(٤) من قال به الإسكافي في درة التنزيل ص ٢٩ والرازي في تفسيره ج ١ ص ٤٧٧ .

وأصل التعبير : اجعل هذا البلد تِلْداً آمناً ، بذكر النكرة والمعرفة ، ثم اقتصر في كل موضع على ما يناسبه من ذكر أحد اللفظين ، وحذف الآخر لعدم إحرازه معنى زائداً ، بناءً على ما جاء في كلام ابن الزبير السابق .

ودلالة كلامه على هذا الرأي تتضح في أنه علل التنكير في آية البقرة بوجود ما يؤدى معنى التعريف في السياق ، وهو تعريف البيت ، وتعريف البيت - كما يقول - تعريف للبلد ، وعلى ذلك يكون البلد معروفاً هنا من السياق بدلالة السابق ، فلا يحتاج إلى تعريف اللفظ . كما أنه معروف في آية إبراهيم بالنصر على تعريفه ، والقائلون بهذا الرأي قليل . وقد ذكره بعد التوجيه الأول ما يدل على أنه دونـه .

وإذا كان هذا التوجيه في بيانه لسراخص كل آية بموضها قد تعارض مع التوجيه الأول ، فقد ذكر البقاعى توجيهها آخر ، لا يتعارض معه ، ويبين هذا السر بالنظر إلى السياق البعيد لكل من الآيتين ، إذ يقول في آية البقرة : " ولما كان السياق للمنع من المسجد ، وللمعنى في خرابه " (١) وكان ذلك شاملاً بعمومه للبادى ، ولذلك قرر أنه مثابة للناس عامة وأمن (٢) كان الأنسب تنكير (البلد) فقال : (بلداً) يأنس من يحل به ، آمناً ، إنصاح بما أفهمه قوله (تعالى) : " وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا " والمعنى أنكم عظماء بآبائكم في دعوتيه كليهما ، فليس كونه بلداً ، فإنه إذا انقطع الناس عن أهله خرب ، وفي كونه آمناً وهذا بخلاف ما يأتى في سورة إبراهيم (عليه السلام) (٣)

ويقول : في آية إبراهيم : " ولما كان السياق لإخراج الرسل من محالهم " (٤)

- (١) يقصد ما تدل عليه الآية الكريمة " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَمَى فِي خَرَابِهَا " الآية / ١١٤ .
- (٢) كما تدل الآية " وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا " الآية / ١٢٥ .
- (٣) نظم الدرر ج ١ ص ٢٢٢ .
- (٤) كما تشير الآية " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا " الآية / ١٣

وكان ذلك مفهما ، لأن المحل الذى يقع الإخراج منه بلد يسكن فيه ، وأتبعه (سبحانه) بأن المتعرضين (١) بدلووا نعمة الله بما أسكن فيه من الأمر بعد جعله له بلدا ، بمسا أحدثوا فيه من الاضافة ، مخبرا أهله ومن الأنداد^(٢) لمن أنعم عليهم بكل ما فيه من الخير ، كان الأنسب تعريفه (البلد) فقال : (اجعل هذا البلد) أى الذى يريدون إخراج الرسول (صلى الله عليه وسلم) منه (آمنا) أى ذا أمن بأمان أهله * (٣)

وقيل فى توجيه الفرق بين الآيتين : إن الأصل التشكيك كما جاء فى آية البقرة فلما أعدت النكرة فى آية إبراهيم عرفت مجرى على القاعدة المعروفة : إذا كررت النكرة عرفت (٤) . وهو توجيه ضعيف لما تقدمت الإشارة إليه فى المثال السابق من أن ذلك يصح إذا كررت النكرة فى سياق واحد ، وحديث متصل . وقال فيه الإسكافى بعد أن ذكره : " هذا ليس مكانه " (٥) . ثم إن الأساس المبنى عليه هذا التوجيه ، وهو ترتيب النزول يقتضى العكس ، لأن سورة البقرة مدنية ، وسورة إبراهيم مكية ، فالأولى - على هذا - أن يجس التشكيك فى السورة المتقدمة نزولا وهى سورة إبراهيم ، ثم التعريف فى السورة التالية نزولا وهى البقرة ، لتكرار النكرة ، وهو خلاف الوارد فى المصحف كما يدل على ضعف التوجيه .

وقيل : إن التشكيك فى آية البقرة مراعاةً لتشكيك ما قبله فى السياق ، حيث سبق التشكيك فى الكلمات : إماما - مثابة - آمنا - مصلى (٦) والتعريف فى آية إبراهيم مراعاةً لتعريف ما قبله فى الكلمات : الله - السموات - الأرض - الثمرات - الأنهار (٧) . وهو توجيه بعيد ، لأن التشكيك إذا كان فى آية البقرة مراعاةً

-
- (١) ربما يقصد المتعرضين ، والعبارة ركيزة قد نقلتها كما هى فى النسخة التى اطلعت عليها .
 (٢) كما تدل الآيتان ٢٨ ، ٣٠ .
 (٣) نظم الدرر ج ٣ ص ٣٢٤ - ٣٣٥ .
 (٤) يراجع درة التنزيل ص ٣٠ ، أسرار التكرار ص ٣٥ ، بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ١٤٨ .
 (٥) درة التنزيل ص ٣٠ . (٦) فى الآيتين / ١٢٤ - ١٢٥ .
 (٧) فى الآيتين / ٣٢ - ٣٤ . وقد أشار إلى هذا الوجه محقق كتاب فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن - هامش ص ٣٢ .

للمنكسرات السابقة . فقد جاء في نفس السياق المعرف الذي يقنى - لشدة صلته -
بالكلمة المنكسرة في الآية - عن الإتيان بتابع بين جنس المشار إليه . ثم إن ربط التعريف
في آية إبراهيم بالكلمات المعروفة له لا وجه له . لأن الحديث مختلف .

■ ■ ■ ■

ومن الأمثلة - أيضا - قوله (تعالى) : في الحديث عن يحيى (عليه السلام) :
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * (١)

وفي الحكاية عن يحيى (عليه السلام) :
* وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * (٢)

حيث اتحدت الآيات في الدعاء بالسلام للرسولين الكريمين (عليهما
السلام) في المواطن الثلاثة . التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة
وقلة الحيلة والفقر إلى الله (تعالى) عظيم الحول ، يوم الولادة ، يوم الموت ، يوم البعث .
ولأنها مواطن الوحشة وكلما كان الموضع مظنة ذلك ، تأكد طلب السلامة وتعلقت
بها السهمة وكانت النفس عليها أحرص . ولأن من سلم فيها سلم في غيرها (٣) .
واختلفتا بتنكير المسند إليه (سلام) في الأولى ، وتعريفه في الثانية ، وتبعه
تغيير بناء الأفعال فيهما ، فهي مبنية للفائت في الآية الأولى ، والمتكلم في الثانية .

وسر هذا الاختلاف بالنظر إلى سياق الآية في القصتين أن السلام في قصة
يحيى نوارده عليه من قبل الله (تعالى) فَتَنَّا لِقَادَةَ التَّقْوِيل - في الظاهر - لأن

(١) مريم / ١٥ .

(٢) مريم / ٣٣ .

(٣) يراجع في هذا التعليل : تفسير القرطبي ص ١٤٢٩ ، نظم الدرر ج ٣ ص ٦١ ،
بدائع الفوائد ج ٢ ص ١٦٨ .

القليل منه (سبحانه) بالنسبة لعباده كثير ، كما يقول الشاعر :

قَلِيلٌ مِنْكَ يَكْفِينِي وَلَكِنْ قَلِيلٌ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ

أما السلام في قصة عيسى فوارد عليه من جهة نفسه ، فهو الداعي والمتلفظ به ، فعُرِّفَ باللام المفيدة لا متغراف الجنس (١) .

على أن هذا السلام بالغاً ما بلغ - بسبب التعريف - لن يبلغ مدى السلام المنكر في قصة يحيى ، لأنّ سلاماً من قبل الله (تعالى) فهو سلام كافٍ من كل سلام ، ومُعْنِي عن كل تحية ، ومقرب من كل أمنية .

وفي هذا المعنى ذكر القرطبي عن الحسن (رضى الله عنه) أن يحيى وعيسى النقيان - وهما ابنا الخالة - فقال يحيى لعيسى : ادع الله لي فأنت خير مني . فقال عيسى : بل أنت ادع الله لي ، فأنت خير مني ، سَلَّمَ الله عليك وأنا سلمت على نفسي (٢) .

وبما أن سياق القصتين أن الحديث في الأولى إما خطاب من الله (عز وجل) لمحيى ، كما في قوله : **يَا مَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ، (٣) وإما إخبار منه (سبحانه) عنه (عليه السلام) وهو الغالب ، كما في قوله (تعالى) : **وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَهَّارًا مَعَصِيًّا** (٤) ، وكما في الآية موضع الحديث ، ولذا بذت فيها الأفعال للغائب .

(١) راجع هذا السرف في : أسرار التكرار ص ١٣٦ ، كشف المعاني ص ٨٤ بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٣٠٧ ، فتح الرحمن ص ٠

(٢) تفسير القرطبي ص ٤١٢٨

(٣) الآية / ١٢

(٤) الآية / ١٤

أما الحديث في الثانية فحكاية لما نطق به عيسى (عليه السلام) وقت أن كان في المهد صبياً (١)، وجاء هذا الدعاء ضمن ما نطق به، وختم به كلامه، ولذا بنهت الأفعال في الآية للمتكلم، المحكى عنه.

ويؤكد هذا المعنى في الحديث عن مر الاختلاف بين الآيتين، ما نراه في استعمال القرآن الكريم لكلمة "سلام" في مواطن متعددة، حين يكون المقصود بها السلام الوارد منه (سبحانه) على أنبيائه، أو على عباده المؤمنين - منه مباشرة أو ببلغنا إلههم على السنة ملائكة ورسله - على سبيل التحية والتبشير بالسلامة، فلم ترد الكلمة بهذا المعنى إلا نكرة، كما في قوله (تعالى) : "سلام على نوح في العالمين" (٢)، "سلام على موسى وهارون" (٣)، "سلام على إيل ياسين" (٤)، "سلام قولاً من ربِّ رحيم" (٥)، "سلام عليكم بما صبرتم فنعيم غبي الدار" (٦)، "ولذا جاءك الدين يؤمنون بإياتنا قل سلام عليكم..." (٧) وغير هذه الآيات كثير.

كما يؤكد - على سبيل التنظير - ما جاء في قوله (تعالى) : "وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم" (٨) حيث تكررت كلمة "رضوان" لإفادة التقليل لأن القليل منه (سبحانه) كثير - كما سبق - والمعنى : وشيئاً ما من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه.

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | الآيات / ٣٠ - ٣٣ |
| (٢) | الصفحات / ٧٩ |
| (٣) | الصفحات / ١٢٠ |
| (٤) | الصفحات / ١٣٠ |
| (٥) | يس / ٥٨ |
| (٦) | الرعد / ٢٤ (٧) الأنعام / ٥٤ |
| (٨) | تراجع هذه الآيات مجموعة في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة "سلم" أو تبويب آي القرآن من الناحية الموضوعية، ج ٢ ص ١٥٣ - ٢٥٦ |
| (٩) | للدكتور / إبراهيم مهنا طه دار الشعب |
| | التوبة / ٢٢ |

وكرامته • والكرامة أكرم أصناف الثواب • ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه • فهو أكرم في نفسه مما وراءه من النعم • وإنما تَهَنُّأُ له برضاه • كما أنه إذا علم بسخطه تنفست عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت • فأيسر شيء من رضوانه (تعالى) أكرم من كل ما يُؤْتَى به • • • • • ولهذا لما هتجلى المولى (عز وجل) لأولياته في جنات عدن، وبينهم أي شيء يريدون ؟ فيقولون : ربنا • • • • • وأي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا ؟ فيقول (تبارك وتعالى) : إن لكم عندى أفضل من ذلك • • • • • أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا (١) •

وفى تعريف السلام فى قصة عيسى لطائف أخرى • تُبيِّن لنا مراحله فى هذا الموضع بتخصيصه به • وهى :

التعريض باللعنة على منهن مريم (عليها السلام) • وهو مبني على أن " أل " فى " السلام " لا متغراق بالجنس - كما سبق - فجنس السلام على عيسى (عليه السلام) يُعَرِّضُ بأن ضده عليهم، أى مُتَّهِمِ مريم من اليهود • • • • • ففيه إشارة لم صدقه ونذارة لمن كذبه • • نظيره قوله (تعالى) فى قصة سيدنا موسى (عليه السلام) : " وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى " (٢) فهو يعنى أن العذاب على من كذب وتولى • لأن المقام مقام منكرة ومعاندة • يؤذن بهذا التعريض (٣) • ولا يتعارض مجيء السلام مُعَرِّفاً فى هذه الآية مع ما تقدم ذكره، من مجيئه نكرة حيث وقع مراداً به التحية من الله (عز وجل)، لأنه هنا ليس بتحية • وإنما المعنى : أن من اتبع الهدى صلح من مخطئ الله (عز وجل) وعذابه • ودليل ذلك أنه ليس فى ابتدائه لقاء ولا خطاب (٤) •

- (١) •راجع الكشاف ج ٢ ص ٢٠٢، البرهان فى علوم القرآن ج ٤ ص ٩٢ •
بدائع الفوائد ج ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧، شروح التلخيص ج ١ ص ٣٥١، المطول بغية الإيضاح ج ١ ص ١٠٢، مع ملاحظة أن بعض الشراح كابن يعقوب والد سقى ذكر إفرادتها للتعظيم - أيضاً - لكن الراجح والغالب الرأى الأول •
- (٢) طة / ٤٧
- (٣) راجع الكشاف ج ٢ ص ٥٨، نظم الدرر ج ٣ ص ٦١٧ •
- (٤) راجع تفسير القرطبي ص ٤٢٤٣ ونسب هذا الرأى للزجاج •

الإشعار بذكر الله (تعالى) ، لأن السلام المَعْرُوف اسم من أسماء الحسنى وهذا المعنى يمكن تصويره إذا ما لاحظنا أن هذا الدعاء صدر من عيسى (عليه السلام) وهو نبي المهد . أنطقه الله الذى أنطق كل شئ . بهذا الكلام تبرئة لأمه ما اتهمت به ، ودل على نبوته بعد . . . فذكره (سبحانه) بهذا الاسم له مغزاه ودلالته ، لما يشعر به من أنه (سبحانه) موصَّلُهُ من هذا الموقف الغريب فى دنيا . النفساس ، ومنجبه فى آخر حياته ما سيحدث له .

الإشعار بطلب معنى السلامة من هذا الاسم . لأننا إذا نادينا الله باسم من أسماء فلننا نتعرض للمعنى الذى اشتق منه ذلك الاسم ، ولذلك نقول فى طلب الحاجة يا كريم . وفى طلب المغفرة : يا غفور . . . وقد نناديه بلفظ الجلالة قرونا بوصف من أوصاه (تعالى) مناسب لما نناديه من أجله ، فنقول فى الاستعانة بالله على عمل يحتاج إلى علم : باسم الله العليم ، وعلى عمل يحتاج إلى حكمة : باسم الله الحكيم ، فنجمع بين اللفظ الجامع لكل الصفات القدسية ، وبين الوصف الذى يعكس اهتمامنا بأظهر شئ يتوجه إليه قصدنا فى الدعاء (١) .

التأكيد على بشرية سيدنا عيسى (عليه السلام) . وهذا المعنى يؤخذ من جعل " آل فى " السلام " للعهد ، حيث يصور المعنى : السلام المعهود ، الموجه إلى يحيى فى المواطن الثلاثة موجه إلى ، وهذا يؤدي إلى أن الثانى كالأول تماماً فى البشرية ، لا يفارقه إلا فى كونه من غير ذكر (٢) .

وقبل فى توجيه الفرق بين الآيتين : إن الأصل النكرة فلما أعيدت عُرِّفَتْ . (٣)

(١) يراجع فى هذا المعنى : بدائع الفوائد ج ٢ ص ١٥٥ ، البرهان فى علوم القرآن ج ٤ ص ٩٢ ، اللؤلؤ الإسلامى ، السنة الأولى العدد ٦٠٢ ، مقال الشيخ الشعراوى ص ٢١ .

(٢) أشار البقاع إلى هذا المعنى فى نظم الدرر ج ٣ ص ٦١٢ وسار فيه على أن " آل " لا متفراق بالجنس مع أن المعنى لايتأتى إلا من جعلها للعهد كما رأينا فى توضيحه .

(٣) ينظر أسرار التكرار ص ١٣٦ ، مسائل الرازى ص ٢١٤ ، كشف المعانى ص ٨٤ بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ٣٠٧ ، الكشف ج ٢ ص ٥٠٨ ، المعانى ج ٦ ص ٩١ .

وهو القول الذى سبق تضعيفه فى المثالين السابقين ، لكنه يصح هنا لأن الكلمتين
فى سورة واحدة ، والعهد بالأول منها قريب .

ومع صِحِّهٖ ، وَجَّهَ إليه التضعيف من جهة أن السلام الأول من الله (عز وجل) ،
والثانى من يحيى (عليه السلام) وأن كانا فى سورة واحدة والعهد بينهما
قريب . وَرَدَّ على هذا التضعيف بأن السلام راجع إلى ماهية السلام ومواطنته
لا إلى كونه وارداً من عند الله (تعالى) (١)

وقيل - أيضا - إن نكرة الجنس ومعرفته سواء ، تقول : لا أشرب ماءً ، ولا
أشرب الماء فهما سواء (٢) . وهو يبيِّن الضعف لوضوح الفرق بين التعبيرين ، فالأول
فى الحديث عن أى ماء ، والثانى فى الحديث عن ماء معين معهود .

وأشار ابن قيم الجوزية إلى ما ذكر فى هذا - أيضا - من أن سلام يحيى جرى
مجرى ابتداء السلام ، فَتَكَرَّرَ ، وسلام المسيح جرى مجرى السلام فى آخر المكاتبة فَعُرِّفَ ،
لأن السورة كالقصة الواحدة ، ثُمَّ ضَعَّفَهُ بقوله : " ولا يخفى فساد هذا الفرق ، فإنهما
سلامان متغايران من مُسَلِّمَيْن ، أحدهما سلام الله (تعالى) على ———— ،
والثانى سلام العبد على نفسه ، فكيف يُضَيَّقُ أحدهما على الآخر " (٣)

* * *

(١) ينظر مسائل الرازى ص ٢١٤ .
(٢) أصرار التكرار ص ١٣٦ ، بصائر ذوق التمييز ج ١ ص ٣٠٨ .
(٣) بدائع الفوائد ج ٢ ص ١٦٢ .

بين أداتى تعريف لمعرفٍ واحد

لتعريف النكرة وسائل متعددة ، تحدث عنها النحاة بتفصيل فى كتبهم ، واهتم السلافيون من بعدهم بالإشارة إلى المعانى التى يفيدها التعريف بكل منها على حدة ، ومن الفروق فى المشتبهات اختلاف هذه الوسائل مع بعض الكلمات فيها ، ففى موضعين أو أكثر .

من الأمثلة على ذلك قوله (تعالى) فى خاتمة آية الاستئذان من سورة النور :

..... كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * (١) وفى خاتمة الآية التالية لها :

..... كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * (٢)

حيث عرفت * الآيات ، بأل فى الأولى ، وبالإضافة إلى الضمير المائد على لفظ الجلالة فى الثانية ، مع اتفاق المعنى العام فى الخاتمتين ، وورودهما فى موضع واحد من السورة ، فى سياق الحديث عن تكليف شرعى واحد ، وهو حكم الاستئذان بالنسبة للمالك ، وبالنسبة للأطفال قبل أن يبلغوا الحلم وبمده .

وسر هذا الاختلاف أن المشار إليه بالآيات فى الأولى ، من الأشياء الواضحة ، التى يسهل الوقوف عليها ومعرفتها ، وهى الفترات التى ذكرت فى الآية * مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، إذ يسهل على الناس تبين هذه الأوقات ، وتتضح فىهم القدرة على ذلك ، بما نصبه الله من علامات كونية واضحة ، تعين على هذه المعرفة بسهولة ، فلو ضوح هذه الأشياء ، وسهولة معرفتها اختير تعريف الآيات بأل ، والمعنى : كذلك يبين الله لكم الآيات الواضحة المعالم ، المشهورة ، التى لا تحتاج إلى صعوبة فى إدراكها والله عليم حكيم .

أما المشار إليه بآياته فى الثانية ، وهو بلوغ الأطفال الحلم فليس من هذا القبيل ،

(١) الآية / ٥٨ .

(٢) الآية / ٥٩ .

إذ يتوقف على الإنزال ، و الإنزال ليس له وقت معلوم حتى يمكن الوقوف على هذا الأمر بسهولة ، و لذلك يلجأ الفقهاء إلى تحديد البلوغ بالعمر ، مع اختلافهم في هذا التحديد (١) ، فلما كان المشار إليه هنا من الأعمال الخاصة بقدرته ، و التي تتعلق بكل إنسان على حدة ، و هي في الدلالة على قدرته (سبحانه) أدخل من الآيات السابقة ، بوعى في تكرار التعقيب بهذه الجملة هذا المعنى ، فَعُرِّفَتْ * الآيات * بالإضافة إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة إشارة إليه ، و فرقا بين الوضعين (٢) .

و يؤكد على هذا المعنى في الفرق بين الآيتين قوله (تعالى) في خاتمة آية أخرى بعدهما في نفس السورة ، تتحدث عن القربات التي يجوز تناول طعامها : * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * (٣) ، حيث عرفت * الآيات * بال ، و لم نعرف بالإضافة إلى الضمير ، لأنها مثل الأولى في أن معرفتها ما يسهل الوصول إليه ، و هي من الأمور الواضحة أي يبين لكم العلامات التي ينصبها على ما يبيح و يحظر ، و ما يضيئ فيهم و ما يوسع . (٤) .

و ذكر في توجيه الاختلاف بين الآيتين رأى آخر ، مبني على ما أورد عن العرب من استئثارهم تكرار اللفظ الواحد بمعنى في بيت واحد من الشعر ، أو ما تقارب من الكلام ما لم يحمل على ذلك حامل من المعنى و القرآن جرى على عادتهم في طرائق البيان - كما هو معروف - فلما تقارب اللفظ الواحد في الآيتين المتجاورتين ، عدل عن تكراره بنفس حالته التي هو عليها ، تَفَنُّناً في الصياغة حتى لا تمجج الأسماع ، فجئ به معرفاً بال المهديّة في الأولى ، أي المعهود فيما تقدم من المعتبرات الواضحة الدلالة ، و في الثانية مضافاً إلى الضمير المتصل ، لتحصل نسبة الآيات لمن هي له ، و اختيرت الإضافة في الثانية ، لأنها مع ما تعطيه من النسبة ، مَبِينَةٌ لِلأولى بياناً تَأَكِيدِيّاً ، إذ من المعلوم أنها آياته (سبحانه) ، فجاء ذلك على ما يجب (٥) .

(١) تراجع الإشارة إلى هذا الاختلاف في الكشف ج ٣ ص ٧٥ ، تفسير القرطبي ص ٤٧٠٠ ،

تفسير الرازي ج ٦ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٢) تراجع هذا التوجيه في درة التنزيل ص ٣٢٢ ، أسرار التكرار ص ١٥٢ ، كشف

المعاني ص ٩٣ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٣٣٨ ، فتح الرحمن ص ٤٤٢ .

(٣) الآية / ٦١ .

(٤) المراجع السابقة في التوجيه الأول بمفحاتها .

(٥) ينظر : ملك التأويل ج ٣ ص ٤٩١ ، كشف المعاني ص ٩٣ .

و هو رأى بعيد ، إذ يحمل فى جوانبه الدعوة إلى القعود عن تدبير هذه القسوى ،
للتعرف على أسرارها البلاغية فى هذا النوع من مكررات القرآن ، اكتفاءً بمعزوهـا
إلى مجرد التفنن فى الصياغة . فهذا التفنن لا يقبل إلا إذا كان وراءه غرض معنوى ،
كما رأينا فى الأمثلة السابقة ، فالغرض المعنوى هو السبب الأول لاختلاف هذه الآيات ،
ولا مانع بعد من أن تشتمل الآيات على غرض لفظى ، أما أن يقتصر الاختلاف على مراعاة
الغرض اللفظى — وهو مؤدى القول بالتفنن — فأمر بعيد ، وإن تكرر على السنة بمعـنى
العلماء فى توجيه طائفة من الأمثلة (١) .

وقد جاء فى هذا رأى ما يضعف القول بالتفنن ، إذ فيه أن الثقل الأثـنى
من التكرار ليس على إطلاقه ، وإنما يستثنى منه ما إذا كان هناك حامل من المعنى يقتضى
هذا التكرار ، وكل مكررات القرآن من هذا النوع ، كرر فيه ما كرر ليضيف جديداً فى كل
سياق ، وليؤخذ المعنى من جهات متعددة ، ولتعدد العبر التى تستنتج منه فى
كل سياق ، وعلى ذلك فلا داعى للقول بالتفنن فى تحليل هذه القسوى .
ومن الأمثلة قوله (تعالى) فى توعده إبليس بعد أن أمره بالسجود لآدم قابى واستكبر
أن يكون مع الساجدين :-

” وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ” (٢) وفى موضع آخر :-
” وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ” (٣) .

حيث عرفت ” اللعنة ” بال فى الأولى ، وبالإضافة إلى ضمير التكلم فى الثانية ،
مع اتفاق الضمون فىهما .

ويرجع هذا الفرق إلى اختلاف السياق فى الموضعين من ناحية أن سياق الحديث
فى قصة آدم (عليه السلام) وما يتعلق بها من أمر إبليس فى سورة الحجر — وهو سياق
الأولى — جاءت فيه الألفاظ المعتمدة بالذكر ، أو الأساسية التى يدور حولها الحديث

(١) سترد الإشارة إليهم فى الأمثلة التى عللوا الاختلاف فيها بهذا التعليل .

(٢) الحجر / ٣٥ .

(٣) ص / ٧٨ .

مَعْرِفَةً بِالْجَنَسِيَّةِ ، كالإنسان في قوله (تعالى) : * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * (١) ، و الجن في قوله : * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُومِ * (٢) و الملائكة في قوله : * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * (٣) ، فلما جرى الكلام على الجنس من أول القصة في هذه الألفاظ ناسبه في هذا السياق إخراج لفظ العقاب الذي شُوِّعَ به إبليس على هذا النحو من التعريف بالجنسية ، وبذلك تتجاوز المعرفات بالجنسية محدثة نوعا من التناسب فيما بينها ، بالإضافة إلى ما يؤدبه التعريف باللعنة من معنى آخر ، وهو الجالفة في أمرها ، والإلحاح إلى تعدد مصادرها على إبليس ، فلم تست هذه اللعنة فقط من المولى (عز وجل) وإنما منه (سبحانه) ، ومن الجن ، ومن الملائكة ، ومن الناس أجمعين .

أما سياق الحديث في نفس القصة من سورة " ص " - وهو سياق الثانية - فلم يفتح بذكر الصنفين من الجن والإنس بالجنسية ، كما جاء في سورة الحجر : * وَإِنَّمَا بَشَرٌ مُبْتَلًى * (١) بقوله (تعالى) : * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * (٢) كما تغيرت بعض الأسماء المعروفة في سورة الحجر إلى أعمال هنا ، مثل قوله (تعالى) في الحجر : * مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * (٣) ، وقوله هنا : * مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ * (٤) لما خُلِقَ بِيَدَيَّ * (٥) فتغير لفظ الساجدين في الحجر إلى قوله في " ص " : * أَن تَسْجُدَ * ، ثم جاء هنا تخصيص خلق آدم بيديه (سبحانه) تشريفا له وتكريما - في نفس الآية السابقة - دون واسطة بأمره (عز وجل) فلما جرى الكلام في السياق على هذا النحو ناسبه تعريف لفظ العقاب الموجه لإبليس بالإضافة إلى ضمير المتكلم ، ليتقابل التهديد في ذرته بالنسبة لإبليس مع التكريم في ذرته لآدم (عليه السلام) أخذاً من تخصيص آدم بيديه (سبحانه) ومن تخصيص اللعنة الموجهة لإبليس بالإضافة إليه - أيضا - فلم تكن لعنة أي لعنة ، وإنما هي لعنة الله ، وحسبنا ما تدل عليه هذه الإضافة من معاني التخويف والترهيب التي يقرر عنها الوصف ١١

-
- (١) الآية / ٢٦ .
 (٢) الآية / ٢٧ .
 (٣) الآية / ٣٠ .
 (٤) الأينان / ٧١ - ٧٢ .
 (٥) الحجر / ٣٢ .
 (٦) ص / ٧٥ .

وترتب على هذا المعنى من ناحية الصياغة اللفظية ، التناسق في توالى الإضافات هنا ، كما تواتت المعارف بال الجنسية هناك ^(١) .

* * *

بين الإظهار والإضمار

و من الفروق في المشتبهات التعبير بالاسم الظاهر في موضع ، وبضميره في موضع آخر في نفس الجملة أو الآية ، مع جواز التعبير بالضمير في الموضعين لتقدم مرجعه ، أو بالاسم الظاهر لما يتعلق به من معان .

.. من الأمثلة على ذلك قوله (تعالى) : في سورة غافر :-

”... إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ“ ^(٢) وفي سورة يونس:

”... إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ“ ^(٣) .

حيث أظهر لفظ ” الناس ” في الجملة الأخيرة من آية غافر ، وأضمر في الجملة المقابلة لها من آية يونس ، مع الاتفاق في المضمون بين هذين الجزأين من الايتيين ، وهو بيان فضل الله (عز وجل) على سائر الناس ، وطبيعة أكثرهم التي تتشغل في مقابلة هذا الفضل بالجحود والنكران وعدم الشكر .

و واضح — كما سلفت الإشارة — أن كل موضع يحتمل الإضمار لتقدم المرجع ، وهو لفظ ” الناس ” في قوله (تعالى) : ” إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ” ويحتمل الإظهار — وضعا للمظهر مع الضمر — لغرض بلاغي لكن القرآن أمر التعبير بكل منهما في موضعه لأسرار كثيرة .

(١) يراجع هذا التوجيه في : درة التنزيل ص ٢٥١ — ٢٥٢ ، أسرار التكرار ص ١١٨ ، ملك التأويل ج ٣ ص ٣٨٢ ، كشف المعاني ص ٧٦ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٧٥ ، فتح الرحمن ص ١٢٥ .

(٢) الآية / ٦١ .

فإشار التعبير بالاسم الظاهر فى آية غافر لزيادة التقرع والتوبيخ ، وتخصيص كفران النعمة بهم ، فهم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه ، وذلك لأن المولى (عز وجل) يمتن على خلقه فى هذا السياق بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ، ويستريحون من حركات تردد هم فى المعايض بالنهار ، ومن النهار الذى جعله بصراء أى خيلاً ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار ولكن أكثر الخلق لا يلتفتون إلى هذه النعم إلا بالجحود والنكران .

ولستفق الآية مع الآيات المتقدمة عليها فى زيادة تحريك الخلق للاعتبار ، والتذكير بما نصبه (سبحانه) من الدلائل والآيات ، بدءاً من قوله (تعالى) : " لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (١) إلى الآية المذكورة (٢) .

ولتشاكل هذه الجملة نظيرتها فى خواتيم الآيات المتقدمة عليها فى نفس السياق ، مثل قوله (تعالى) : " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (٣) ، " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ " (٤) حيث اتفقت جميعها فى التصريح بلفظ " الناس " المنسوب لأكثرهم عدم العلم ، وعدم الإيمان ، وعدم الشكر .

أما إشار التعبير بالضمير فى آية يونس مع كونه جرى على مقتضى الظاهر ، فلأن الآيات المتقدمة على هذه الآية فى سياقها بُنيت على الإضمار ، بدءاً من قوله (تعالى) " وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّ إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ " (٥) ، حيث استأنف الخبر عن القوم الذين بُعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إليهم بعد انقضاء الكلام عن بدخل من الظالمين النار فى قوله (تعالى) : " ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ " (٦) ، وجاء الخبر المستأنف ضمراً فى قوله (سبحانه) : " وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ " .

(١) الآية / ٥٢ .

(٢) الآيات / ٥٢ - ٦٠ .

(٣) الآية / ٥٢ .

(٤) الآية / ٥٩ .

(٥) الآية / ٥٣ .

ثم جاء بعده في آية أخرى قوله (تعالى) : " أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (١) فأضمر ما أضيف إليه لفظ " أكثر " .

ثم انتهى إلى قوله بعد في الآية موضع النظر : " إِنْ أَلَّهْ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ " فانتضى ما بُني عليه الكلام في هذه الآيات أن يضمير لفظ " الناس " مع أكثر ، فقال (تعالى) : " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ " . وهكذا يتناسب التعبير بكل منهما مع ما قبله في السياق (٢) .

و ما تجدر ملاحظته في هذا الاختلاف بين الآيتين أن التعبير بالضمير يربط الجملة بما قبلها ، أما التعبير بالاسم الظاهر مكان الضمير فيجعل الجملة مستقلة ، تصير كالمشمل ، وهو تصرف شائع في كثير من فواصل الآيات القرآنية (٣) ، ولا شك أن التعبير به في آية غافر أنسب لما قصد في سياقها من زيادة التفریع والتوبيخ .

وقيل : إن آية يونس تكرر قبلها لفظ " الناس " كثيرا ، فأضمر فيها تجنباً لزيادة التكرار ، أما آية غافر فأظهر فيها لعدم تكراره فيما قبلها (٤) .

وهو توجيه ضعيف ، إذ ينظر في الحديث عن الآية الأولى إلى تكرار لفظ " الناس " في أنحاء السورة ، لا في سياقها فقط ، وهذا التكرار لا علاقة له بما ورد في الآية لأنهم يتفرق في موضوعات شتى من السورة الكريمة (٥) ، وإذا كان تكرار اللفظ معيها في هذه الآية ما جعل النظم يعدل عنه إلى الاضمار ، فَلِمَ تكرر فيما قبلها من الآيات الكثيرة ؟ ولم لم يعدل عنه إلى الاضمار في آية غافر ، وهي - على هذا التعديل - أولى لتكرار لفظ الناس في الآيات المتقدمة عليها ؟

-
- (١) الآية / ٥٥ .
 (٢) يراجع في هذا التوجيه في : درة التنزيل ص ٤١٢ - ٤١٣ ، ملك التأويل ج ٢ ص ٣٢٢ ، أسرار التكرار ص ١٠٤ ، كشف المعاني ص ١٠٩ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٤٣ ، وبعض الملاحظات في الكشف ج ٣ ص ٤٣٤ ، تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٨٦ .
 (٣) تنظر هذه الملاحظة في " خصائص التراكيب " للدكتور محمد أبو موسى ص ١٤٤ ط ٢ سنة ١٤٠٠ هـ دار التضامن للطباعة .
 (٤) ذكره الأنصاري في " فتح الرحمن " ص ٣٩ .
 (٥) ...

وقد تكرر قوله (تعالى) : " إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ " في سورة البقرة^(١) ، ولم يُشر إلى هذا الموضع العلماء الذين تحدثوا عن الاختلاف بين الآيتين السابقتين .

وبعمل البقاعى التعبير بالظاهر فى هذه الآية - بعيداً عن توجيه الاختلاف - فيقول : " إن تكرار الظاهر ليكون أنص على العموم ، لئلا يدعى مدع أن المراد بالناس الأول أهل زمان ما ، فيخص الثانى أكثرهم ، وذلك تعرض بينى (إسرائيل) فى أنهم لم يشكروه " (٢) .

وما يلاحظ فى الآيات الثلاث أن قوله (تعالى) : " إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ " فوق ما يدل عليه من عموم فضله على الناس فيها جميعاً ، يدل على معانٍ أخرى يركز عليها السياق فى كل موضع ، وفى سياق آية يونس يدل هذا القول على أن من فضل الله الإنعام على الناس بالعقل ، والرحمة بالوحى وتعليم الحلال والحرام . وفى سياق آية غافر يدل على أن من فضل الله استجابة الدعاء ، وجعل الليل والنهار آيتين ، فيهما من العظات والعبر ما لا يحصى . وفى سياق آية البقرة يدل على أن من فضل الله تبصير الناس بما يعتبرون به ، حين يسوق أخبار الأمم السابقة .

بين الأفراد والجموع

بيّنت قواعد اللغة أحوال الالفاظ من ناحية الأفراد والتثنية والجمع بأنواعهم ، وأجازت فى نطاق محدود أن يُستعمل اللفظ فى التعبير الواحد على حالين من هـذـه الأحوال دون إخلال بصحة الكلام . لكن هذا الجواز وإن لم يترتب عليه إخلال بصحة المعنى فهو - أحياناً - يودى إلى الإخلال بالبلاغة ، لما يتعلق بالحالين الجائزين فى اللفظ من معانٍ ، تجعل البليغ يؤثر استعماله على حال واحد ، ويرى فى استعماله على الحال الأخرى إخلالاً بالمطابقة لمقتضى الحال .

(١) الآية / ٢٤٣ .

(٢) نظم الدرر ج ١ ص ٤٣٢ .

و ما نقد النابغة لحسان بن ثابت عنا يبيعد ، حيث اعتمد على هذا المعنى في توجيه نقده ، له حين رأى أنه استعمل جمع القلة في مقام يتطلب جمع الكثرة ، وهو مقام الفاخرة بأهلها ، والبالغة في وصفهم بالشجاعة والكرم وعراقة الأصول ، وذلك في قوله :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغَرَّيْلَمُنُ فِي الصُّحَى وَ أَسِيفُنَا يَقْطُرُنْ مِنْ نَجْدِهِ دَمًا

فاستعمل (الجفئات) على جمع القلة ، ولو قال (الجفان) لكان أكثر ، لأن دلالة جمع التكسير أغزر من دلالة جمع التانيث ، وكذلك استعمل (أسيفنا) على جمع القلة - أيضا - ولو قال (سيوفنا) لكان أكثر ، ولذا قال له النابغة : " أنت شاعرو لكنك قلت جفانك وأسيفنا " (١) .

وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح (٢) فإن ما تحتويه من مفاهيم نقدية وبلاغية باقٍ ويدخل في صميم فكرة المطابقة لمقتضى الحال ، التي هي قانون بلاغة الكلام .

وما من شك في أن كلام حسان صحيح من حيث المعنى ، وإن لم يكن صحيحا من حيث مطابقته لمقتضى الحال ، لأنه لم يوفق في اختيار أحد الأمرين الجائزين (٣) .

(١) ضمن ما قال له في هذه الرواية المشهورة التي تنويها كتب الأدب ، وينظر في التعليق عليها : " نظرات في البلاغة والإسناد " للأستاذ / الدكتور : محمد عبد الرحمن الكردي ص ١١ ط الصعادة ، " بحوث المطابقة لمقتضى الحال " ص ٩٤ - ٩٥ ، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٩٣ .

(٢) ثار جدل كبير حول هذا النقد ، وتوزعت الآراء بين قاطع بعدم ثبوت النقل عن النابغة ، وبين مشكك في نسبه هذا النقد إليه ، لتضمنه أفكارا علمية ، لم تكن من معارف تلك الحقبة ، وبين مؤيد له ، مدافع عنه بأن الفروق في دلالات الكلمات شيء قار في سليقة القوم ، وما المصطلحات العلمية إلا وصف لهذه الفروق . ينظر : في هذا الصباح المنير الخاتمة ص ٦٩٥ ، خصائص التراكيب ص ١٣ - ١٦ .

(٣) يلاحظ أن النقد بالنسبة للكلمة الأولى (جفئات) قائم على القول بأن جمع الجفئنث السالم من جموع القلة ، وأن للكلمة جمعا آخر دالا على الكثرة ، أما على القول بأن جمع الجفئنث دالا على التانيث ، فإنه لا يفي بالغرض ، لأن الجمع التانيث لا يدل على الكثرة ، بل على الجمع العادي .

و من دقة النظم القرآنى ما نراه فى الآيات المشتبهات من مجئ اللفظ فى جملة واحدة تكررت فى موضعين ، على الحالين الجائزين ، كمجيئه على الإفراد فى موضع وعلى الجمع فى موضع آخر ، دون إخلال بما يقتضيه الحال فى كل موضع .

من الأمثلة على ذلك قوله (تعالى) : فى سياق الحديث عن بنى إسرائيل ، حكاية لبعض ما قالوا : لِيُهَيَّؤُوا لَهُ الْعِقَابُ الْأُخْرَى عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، و يتدادوا فى الفساد والعناد ، والصد عن سبيل الله :

• وَقَالُوا لَنْ نَسْخَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا أَنْ تَتُؤْخِرُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١) .

وفى موضع آخر ، تعليلا لتوليهم : بإعراضهم عن دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهم ليحذروا إلى كتاب الله ، و هو التوراة فى رأى بعض المفسرين (٢) :

• ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَسْخَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْسِرُونَ (٣) .

حيث تكررت جملة القول المحكى عن اليهود فى الآيتين ، مع اختلاف الحال التى جاءت عليها الصفة الجارية على كلمة " أيام " ، فقد جاءت فى الأولى على الإفراد مع التانيث ، وفى الثانية على الجمع العالم الموثث .

وقبل الحديث عن سرتخصيص كل موضع بما جاء فيه يلاحظ أن معنى القلة فى

الجمع من غير نظير إلى قلة أو كثرة ، فلا وجه له ، وإن كان الراجح هو القول الأول ، ولا اعتراض على النقد بالنسبة للكلمة الثانية (أسياى) لأنها وردت على جمع من جموع القلة ، المنصوص عليها فى كتب النحو - يراجع فى الحديث عن هذه الجموع خاتمة الصباح المنير ص ٦٩٥ وما بعدها .

(١) البقرة / ٨٠ .

(٢) يراجع تفسير الطبرى ج ٦ ص ٢١٢ ، تفسير الزمخشري ج ١ ص ٤٢٠ ، تفسير القرطبي ص ١٢٩٢ .

(٣) آل عمران / ٢٤ .

الأيام التي هي زمن مس النار لليهود — كما يظنون — مقصود في الموضوعين على السواء ، بدلالة جمع هذه الأيام جمع قلة ، من ناحية ، ووصفها بالعد ، من ناحية أخرى ، حيث إن كل معدود منقضي .

ويؤكد بإرادة معنى القلة — أيضا — ما جاء في أسباب النزول ، من أن هذه الأيام أربعون يوما — عدد أيام عبادتهم العجل — أو أنها سبعة أيام ، مقابل سبعة آلاف سنة ، هي مدة الدنيا في زعمهم ، حيث يعذبون عن كل ألف سنة يوما واحدا .

وقد بنى اليهود على هذا المعنى مقاتلتهم التي يريدون بها تهوين العذاب عليهم ، وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائ ، ودفعتهم معنى الخلود فيها عن أنفسهم ، وهم يحتاجون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولذا ألحوا في هذه المقالة — كما صور القرآن — على الجالفة في تحديد هذا المعنى ، فلم يكتفوا بالجمع المشير إليه ، وهو جمع القلة لأيام ، لأنه قد يستعار للدلالة على معنى الكثرة ، وقد يصلح لهما إذا لم يكن للكلمة جمع كثرة ، وإنما أردفوه بما يقطع بإرادة معنى القلة ، وذلك في وصفهم الأيام بقولهم : معدودة ، ومعدودات .

وقد ترك القرآن بيان عدد هذه الأيام ، واكتفى بالإشارة إلى أنها معدودة ، لأنه أخبر عنهم بذلك وهم عارفون عدد الأيام التي يوقتونها لمكثهم في النار ^(١) .

وعلى الرغم من إرادة معنى القلة والجالفة فيها ، في الموضعين إلا أن الثاني أكد في هذه الجالفة ، لمجنى الصفة على الجمع بالالف والتاء ، حيث يجتمع فيهما أمران للدلالة على معنى القلة ، وهما : مفهومها ، لأن كل معدود منقضي ، وهذا ينافي الخلود في النار ، ويدل على أن إسماع التعذيب قليلة ، وصيغتها ، بناء على أن جمع المؤنث السالم من جمع القلة ، كما هو الراجع .

(١) يراجع في هذا : تفسير الطبري ج ٢ ص ٢٧٤ ، ج ٦ ص ٢٩٣ ، الكشاف ج ١ ص ٢٩٢ ، ٤٢١ ، تفسير القرطبي ص ٤٠٥ ، نظم الدرر ج ١ ص ١٦٥ ، ٥٢٠ ، أسباب النزول لأبي الحسن الواحد ص ١٦ ، دار الشهاب للطباعة سنة ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

واختلاف المقالة في الوضعين على هذا النحو يدل على أن الناطقين به — وإن كانوا جمعا واحدا — وهم اليهود ، إلا أنهم اختلفوا في التعبير عن المعنى تبعاً لاختلاف مشاعرهم ، وعمق إيمانهم به ، ومدى الإصرار على ترويجه ، فمنهم من بالغ إلى الحد الذي نراه في الآية الأولى ، ومنهم من زاد في هذه الجالفة إلى الحد الذي نراه في الآية الثانية . وعلى هذا يترجح ما أشار إليه ابن جماعة في توجيه هذا الاختلاف — على وجه الاحتمال — من أن قائل هذا القول من اليهود فرقتان ، إحداهما قالت : إنما نعذب أربعين يوما ، وهي أيام عبادتهم العجل ، وفي آية البقرة تكون الإشارة إلى الفرقة الأولى ، وفي آية آل عمران تكون الإشارة إلى الفرقة الثانية التي بالغت في تأكيد معنى القلعة (١) .

ولهذا ظائر كثيرة في المشتبهات الواردة في القصص القرآني — بصفة خاصة — وقد سبقت إشارة ابن الزبير العامة إلى هذا المعنى ، وهو يدل على اختلاف مقالات الأنبياء لأقوامهم ، واختلاف ردود أقوالهم عليهم ، باختلاف المواقف وتعدد ها (٢) .

أما سر تخصيص كل آية بما جاء فيها فهو مناسبة السياق في الوضعين ، من ناحية أن الوضع الثاني ورد فيه التصريح بأفعال اليهود الشنيعة ، قتلهم الأنبياء بغير حق ، والذين يأمرون بالقسط من الناس ، والتصريح بجور أعمالهم (٣) ، كما جاء فيه التعجب والتشنيع في حقهم ، أخذاً من الاستفهام في صدر الآية المتقدمة على هذه الآية وهي : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْسَنُهمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ " (٤) فهذا الأسلوب تعجب من الله (تعالى) ، ولذلك أدخلت " إلى " وكذلك تفعل العرب إذا أرادت التعجب من رجل في بعض ما أنكرت عليه من فعله (٥) . لهذا كله اختير في هذا الوضع اللفظ الدال على تأكيد الجالفة في معنى القلعة .

- (١) كشف المعاني ص ٣٤ .
- (٢) ينظر ص ١٣٣ من هذا البحث .
- (٣) أخذاً من الآيتين / ٢١ - ٢٢ .
- (٤) الآية / ٢٣ .
- (٥) يراجع دلالة هذا الأسلوب على التعجب في تفسير الطبري ج ٥ ص ٤٣٠ .

و أما الوضع الاول فلم يرد الحديث فيه عن مثل هذه الاجترارات ، ولم يكن المقام مقام تعجب و تشنيع ، و إنما أوجز القول و لم يذكر سببه ، فاكفى فى هذا السياق بما يدل على إرادة معنى القلة مؤكدا ، فجئنا بالصيغة على الأصل مفردة مؤنثة ، لجريانها على الجمع الذى واحد مذكر ، كقوله (تعالى) نى موضع آخر : " فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ " وَاَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ " (١) .

و يضيف ابن الزبير وجهها آخر ، يقول فيه : " ألا ترى قوله (تعالى) فى آل عمران : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَسْنَأَ النَّارُ إِلَّا آيَآءًا مَّعْدُودَاتٍ " و فى البقرة : " وَقَالُوا لَنْ نَسْنَأَ النَّارُ إِلَّا آيَآءًا مَّعْدُودَةً " و إخباره تعالى - فى آل عمران - باغترارهم ، بقوله : " وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ " و هذا يسط لحالهم ، الحامل على سوء مرتكبهم ، و لم يقع فى سورة البقرة تعرض لذلك ، بل أوجز القول و لم يذكر سببه ، فناسب الإفراد الإيجاز ، و ناسب الجمع الإسهاب " (٢) .

و قيل فى توجيه هذا الاختلاف : إن الأصل ما جاء فى آية البقرة ، و ما جاء فى آية آل عمران فمتفرع عنه ، و عليه فقد جمع القرآن بين الأصل و الفرع فى الاستعمال ، و خص الأصل بالسورة المتقدمة فى ترتيب المصحف (٣) .

و قيل إن هذا من باب التفنن فى الاستعمال (٤) .

و هما توجهان ضعيفان ، سبق الرد على الثانى منهما فيما تقدم ، أما الاول فضعفه ظاهر ، حيث لا يترتب على القول به فرق فى المعنى بين الآيتين ، فبصير كالثانى ، يفت عند حدود التنوع فى الألفاظ لا غير ، و هو ما نُجِل كتاب الله عن أن يُفسر شئ فيه بمثله .

* * *

(١) الغاشية : ١٣ - ١٤ ، وراجع هذا التوجيه فى نظم الدرر ج ١ ص ٥٢٠ ،

١٦٥ روح المعانى ج ٣ ص ١١١ .

(٢) ملك التأويل ج ٢ ص ٥٦ - ٥٢ .

(٣) جاء هذا التوجيه فى : درة التنزيل ص ٢٤ ، أسرار التكرار ص ٣٢ ، فتح

الرحمن ص ١٩ ، البرهان فى علوم القرآن ج ١ ص ١٢٨ ، بصائر ذوى التمييز

ج ١ ص ١٤٥ .

(٤) ينظر : روح المعانى ج ٣ ص ١١١ ، الإتيان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٤٧ .

ومن الأشلة - أيضا - قوله (تعالى) في الحديث عن جنات الدنيا :
 "... لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ " (١) ، وفي الحديث عن جنة الخلد
 في الآخرة : " لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ " (٢) .

حيث اختير لفظ " فاكهة " في الآية الأولى جمعا ، وفي الثانية فردا ، مع
 أن المعنى متحد في الموضعين ، وهو : الإخبار عن الجنة أو الجنات بتعدد أنواع الفاكهة
 فيها ، التي تتنوع منها بأكل البعض (٣) . والتعبير باللفظ على الحالين جائز في الموضعين ،
 فلو وقع الفرده مكان الجمع في الآية الأولى لأدى المعنى ، لأن المقصود به الجمع ، بدليل
 مجيء في سياق الحديث عن جنة الآخرة ، وهذه الجنة فيها من أنواع الفاكهة الكثيرة
 ولمست مقصورة على نوع واحد حتى تكون الإشارة بالفرده إليه وحده . ولو وقع الجمع مكان
 الفرده في الآية الثانية لأدى المعنى بالأصالة ، لأن صيغة الجمع موضوعة أصلا لذلك ،
 والمقصود - كما سبق - تعدد أنواع الفاكهة وكثرتها في جنة الخلد .

وعلى الرغم من هذا الجواز فقد أثر القرآن التعبير بكل منهما على ما جاء عليه في
 موضعه رعية لما قبله ، من جهة أن المتقدم على هذا الجزء من الآية الأولى قوله (تعالى)
 " فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ " (٤) وقد ورد فيه لفظ " الجنة " جمعا ،
 فروعى في الكلام التحمل به ، الجنى عليه ما يناسبه ، وذلك في الاتيان بلفظ " الفاكهة "
 على الجمع أيضا .

والتقدم على الآية الثانية قوله (تعالى) : " وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ " (٥) وقد ورد فيه لفظ " الجنة " فردا ، فروعى - أيضا - فيما حصل به ما يناسبه
 فجاء بلفظ " فاكهة " فردا (٦) .

-
- (١) المؤمنون / ١٩ .
 (٢) الزخرف / ٢٣ .
 (٣) على أن " من " للتعميم ، كما ذكر الزمخشري - الكشاف ج ٣ - ٤٩٦ .
 (٤) الضمير في " به " ، راجع إلى الماء في الآية السابقة ، الذي أنزله الله (عز وجل) من
 السماء بقدر فأسكنه في الأرض ، وأنشأ به هذه الجنات - الآية / ١٨ .
 (٥) الآية / ٢٢ .
 (٦) يراجع هذا التوجيه في : أسرار التكرار - ١٤٧ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ - ٣٣ ، فتح
 الرحمن ص ٢٣٥ .

وهكذا يناسب الفرد الفرد ، والجمع الجمع في إطار النسق المعز لكل موضع ، وتشاكل
أحوال الألفاظ داخل هذا الإطار :

ومن الفروق في الآيتين اختلاف الجملة الأخيرة منهما بالمطف في الآية الأولى ،
وعدمه في الثانية^(١) ، والسفر في هذا أن بنات الدنيا تتعدد أوجه الانتفاع بفواكهها ، فمنها
ما يمتد للآكل ، ومنها ما يدخر ليبيع ، فضلا عن الانتفاع بها وبمخلفاتها في أغراض أخرى كثيرة .
ففي الحديث عنها جئ بالواو لتشير إلى هذه الأوجه المتعددة ، بالإضافة إلى ما نص عليه
في الجملة الأخيرة ، وهو الآكل . وتقدير الكلام : لكم فيها فواكه كثيرة ، منها تدخرون ومنها
تبيعون ، لو تنفعون على أي وجه ، ومنها تأكلون .

أما جنة الآخرة ففواكهها للآكل فحسب ، ولذا لم يؤت في الحديث عنها بالواو لتشير
إلى أوجه أخرى من أوجه الانتفاع^(٢) .

وهكذا اقتضى الإيجاز المعجز أن يبقى مابه أساس الحياة من الفواكه في الموضعين
مبهوتا بالواو التي تدل على بقاء المنافع المقصودة من حدائق الأرض ، دون إخلال بالمعنى :

ويتوى هذا التوجيه في الآية الأولى ، قوله (تعال) في سياقها : * وَإِنَّ لَكُمْ
فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّظِّقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ *^(٣) حيث ختمت
هذه الآية بنفس الجملة التي ختمت بها الآية السابقة ، واقتربت بالواو بعد الإشارة المجلدة
قبلها إلى المنافع الكثيرة للأنعام . فهذه الإشارة تؤكد سر مجئ الواو في الآية الأولى ، كما
تدل على مقدّر في هذه الآية ، أشهر إليه بها . ولذا يقول الزمخشري في تعليقه على الجملة
الأخيرة من هذه الآية ، مبيهاً القدر ، المشار إليه بالواو : * (ومنها تأكلون) أي تتعلق
بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك ، كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال
والحمير ، وفيها منفعة زائدة وهي الآكل الذي هو انتفاع بذواتها *^(٤) .

(١) وهو من الفروق التي يرد الحديث عنها في الفصل الثالث .
(٢) جراجع : أمرلو التكرار ص ١٤٢ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٣٠ ، فتح الرحمن
ص ٢٣٥ - (٣) الآية / ٢١ .
(٤) الكشاف ج ٣ ص ٢٩ .

وزاد المناسبة حسنا في هذا الموضع توافق الآيتين في خاتمة واحدة ، على نسق واحد ، بعد رعلية المعنى ، والإشارة إلى وجه دقيق فوه ، وقد علق الكرمانسى على هذا التوافق بقوله : " فهذا للقرآن معجزة وبرهان " (١) .

وللبقاعى تعليق على الآية الأولى يشير فيه إلى المَقْدَر قبل الولو ، لكنه قصر هذا المقدر على ما يتصل بالمنافع الآتية من الأغراب فقط ، إذ يقول : " ولما كان التقدير : (منها) وهى طرية تتفكرون ، عطف عليه تولد (ومنها) أى بعد اليس والعصا — (تاكلون) أى يتجدد لكم الأكل بالادخار " (٢) مع أن الحديث عام فى جميع أنواع الفاكهة ، وإن صرح القرآن فى هذا الموضع بصفتين منها ، لشرفهما ، ولأنهما قوام الحياة عند العربى المخاطب الأول بالقرآن .

ولابن كثير تعليق آخر ، أشار فيه إلى بعض أوجه الانتفاع المَقْدَر قبل الواو ، حيث يقول : " كأنه معطوف على شئ مقدر ، تقديره : تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تاكلون " (٣) وهذا الوجهان — التمتع برؤية الثمار وهى معلقة فى أغصانها ، وبرؤيتها وقست النضج — لفتنا إليهما القرآن فى موضع آخر حيث يقول : " ... انظروا إلى ثمره إذا أنضر ويخض " (٤) .

بين الإفراد والتثنية والجمع

ومن الفروق فى المشتبهات اختلاف بعض الكلمات بالإفراد والتثنية والجمع ، كما نجد فى قوله (تعالى) من سورة المزمل :

" رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا " (٥) ، ومن سورة الرحمن : " رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ " فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ " (٦) ، ومن سورة المعارج :

- (١) أسرار التكرار ص ١٤٧ .
- (٢) نظم السدرد ج ٤ ص ٥٥ .
- (٣) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٢٤٣ .
- (٤) الأنعام / ٩٩ .
- (٥) الأبيات / ٩ .
- (٦) الأيتان / ١٧ - ١٨ .

• فَلَا أَتَمُّ بِبَيْتِ الشَّارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ • عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَبْذُورِينَ • (١)

• حيث جاء لفظا المشرق والمغرب • في الموضع الأول مُفْرَدَيْنِ • وفي الثاني مُتَّحَيْنَيْنِ •
• وفي الثالث جمعين • والمعنى العام المقصود من ربوبية الله (عز وجل) للمشرق والمغرب
• في الموضع الثلاثة واحد وهو : أن الله (سبحانه) مالك المشرق والمغرب • وما بينهما •
• وما يتصل بهما • وأن ذلك من نعمه الكبرى التي يمن بها على الخلق • ومن مظاهر قدرته
• التي ينبغي أن تدفع الناس للاعتصام به • والتوكل عليه •

• والمقصود باللفظين في الموضع الأول ههنا المشرق والمغرب • كما كان الناس يتصورون
• قديما • أو المكان المحدد الذي تشرق منه الشمس في كل يوم • والمكان المحدد الذي
• تغرب فيه كل يوم • ولا تمد إليهما إلا بعد انقضاء الحول • كما يتصور الناس حديثا •

• والمقصود بهما في الموضع الثاني جهتا المشرق والمغرب مع المكانين المحددين لهما
• في كل يوم • أو مشرقا الشمس ومغرباها في الصيف والشتاء • أو أقصى مطلع للشمس في الأيام
• الطوال وأدنى مطلع في الأيام انقصار • وكذلك أقصى مغرب وأدنى • أو مشرقا الشمس
• ومغرباها بالنسبة لنصف الكرة الأرضية المتجه لهما • في الوقت الذي يكون فيه النصف الآخر
• معتما • يصبح في ظلام دامس • لا تشرق له ولا تغرب •

• والمقصود بهما في الموضع الثالث مشارق كل بلد ومغاريبه • أو عدد المشارق والمغارب
• اليومية على مدار السنة الشمسية • أو ملاصق المشارق والمغارب بالنظر إلى تغيير زوايا
• الشروق وزوايا الغروب على الأرض لكونها • في كل جزء من الثانية • لأن الشمس لا تغيب
• عن مكان إلا وتشرق على آخر في نفس اللحظة مما يدل على كثرة المشارق والمغارب إلى
• هذا الحد الكبير (٢) •

(١) الأيتان / ٤٠ - ٤١ •

(٢) يراجع في تحديد معاني اللفظين : تفسير الطبري ج ٢ ص ٥٣٦ • ج ٣ ص ١٤٠ •
تفسير الكشاف ج ١ ص ١١٢ • ٣٠٦ • ج ٣ ص ١١٠ • ٣٣٤ • ج ٤ ص ٤٥ • تفسير
القرطبي ص ٤٦٢ • ٥٣٦ • ٤٨١ • ٥٥٠ • ٥٤٧٢ • مسائل الرازي ص ٢٩١ •
تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧١ • بدائع الفوائد ج ١ ص ١٢١ • البرهان في علوم القرآن
ج ١ ص ١٦ • معجزة القرآن للشيخ محمد متولى الشعراوى ج ١ ص ٢٥ - ٢٧ • كتاب
اليوم صادر عن مؤسسة أخبار اليوم • العدد ١٥٤ سنة ١٣٩٩ هـ • ١٩٧٩ م •

ومع دلالتها بهذا الاختلاف ففى الموضع الثلاثة على المعانى السابقة ، فقد
أمر القرآن التعبير بهما ، على ما جاء عليه فى كل موضع ، رعاية للسباق فيه .

ففى الموضع الأول ذكرا مفردين ، اتقدم ذكر الليل والنهار عليهما فى قوله (تعالى)
مخاطبا نبيه الكريم (صلى الله عليه وسلم) : " قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا " ^(١) وقوله : " إِنَّ لَكَ فِى
النَّهَارِ سَهْحًا طَوِيلًا " ^(٢) ، وهما مظهر الليل والنهار ، فكان ورودهما على الإفراد فى هذا
السباق عقب ذكر الليل وما أمر (صلى الله عليه وسلم) به فيه ، وذكر النهار وما يكون منه
فيه ، أحسن من التثنية والجمع ، لأن ظهور الليل والنهار فيهما واحد ، فالنهار أبدا يظهر
من المشرق ، والليل أبدا يظهر من المغرب ^(٣) .

ولمجيئ الحديث بعدهما عن الوحدة فى قوله (تعالى) " ... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا " ^(٤) ، حيث يجتمع الإفراد فيهما مع الإفراد فى مالكتها وربهما ، فى سياق
واحد .

وفى الموضع الثانى ذكرا متضمنين ، لأن سياق سورة الرحمن سياق المزدوجين ، فقد
ذكر العلى (عز وجل) فيها قبلهما نوعى الإيجاد وهما الخلق والتعليم ، وسراجى العالم
ومظهرى نوره وهما الشمس والقمر ، ثم نوعى النيات ، ما قام منه على ساق ، وما انبسط على
وجه الأرض ، وهما النجم والشجر ، ثم نوعى السماء العرفوة والأرض الموضوعة ، وأخبر أنه رفع
هذه ووضع تلك ، ووسط بينهما ذكر العيزان ، ثم ذكر العدل والظلم فى العيزان ، فأمر
بالعدل ونهى عن الظلم ، ثم نوعى الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار ، ثم خلق
نوعى المكلفين وهما الإنس والجان ^(٥) ، فحسن لهذا مجيئهما على التثنية مراداً بهما
نوعى المشرق ونوعى المغرب - على أى تقدير مما سبق - فى هذا السياق ^(٦) . . . يقول
ابن قيم الجوزية بعد إشارته إلى هذا الوجه : " فتأمل حسن تثنية الشرق والمغرب فى

(١) المزمل ٢٠ / ٢١

(٢) المزمل ٢٠ / ٢١

(٣) يراجع : بدائع الفوائد ج ١ ص ١٢٢ ، البرهان فى علوم القرآن ج ١ ص ١٦ .

(٤) المزمل ٩٠ / ٩١

(٥) تراجع الآيات ٩٠ - ٩١

(٦) يراجع فى هذا الوجه : بدائع الفوائد ج ١ ص ١٢١ ، البرهان فى علوم القرآن

ج ١ ص ١٦

هذه السورة ، وجلالة ورودها لذلك ، وقدر موضعها اللفظ مفردا ومجوعا ، تجدد السمع ينوعه ويشهد العقل بمنافقته للنظم ^(١) .

ولأن المذكور يمدد هما في نفس الموضع من السورة البحران العذب والطح ^(٢) ، ونوعان مما يخرج منهما وهما اللؤلؤ والمرجان ^(٣) ، كما أن الخطاب في الآية المتكررة " فَهَآئِ آيَةٍ بِكُمَا تَكْذِبَانِ " ، وآيات أخرى غيرها ^(٤) خطاب الاثنين وهما الإنس والجن .

ولأن سياتي السورة الكريمة - بوجه عام - سياتي امتنان ، وتعداد نعم الله على الثقلين . ومن هذه النعم ماله صلة وثيقة بشرقى الشمس ومغربها في الصيف والشتاء ، حيث تتعدد الفصول وتختلف ، فتعدد - تبعاً لذلك - وتختلف فواكه الأرض وجوهرها ، التي أشارت إليها الآيات في قوله (تعالى) : قبل ذكر اللفظين : " وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ " فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، وَالْحَبُّ ذُو السُّفُوفِ وَالرَّيْحَانُ ^(٥) .

وتبع هذه الأوجه وجه آخر من جهة اللفظ ، وهو توافق الفواصل في الروي الغالب في فواصل السورة ^(٦) (أو رعاية لهذه التوافق تغير وضع اللفظين مع لفظ " رب " ، قبلهما في هذا الموضع بالنظر إلى الموضعين الآخرين ، حيث تكرر لفظ رب مع كلٍّ منهما ، وتكونت منهما ومنه - على هذا الوضع - آية كاملة ذات مقطعين متماثلين وزنًا ورويًا ، وهما " رب المشرقين ورب المغربين " ، على حين ارتبط المشرق بالمغرب في الموضعين الآخرين ، دون فاصل بينهما ، وتقدم عليهما لفظ " رب " ، وتكون من الألفاظ الثلاثة جزء من آية ، لا آية كاملة كافي هذا الموضع .

(١) بدافع الفوائد ج ١ ص ١٢٢ .

(٢) في الآيتين ١٩ / - ٢٠ .

(٣) في الآية ٢٢ / وهما يخرجان من الطح فقط ، لكن لما التقى البحران وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال : يخرج منهما - يراجع الكشاف ج ٤ ص ٤٥ .

(٤) الآيات ٣١ / ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٤ .

(٥) الآيات ١٠ / - ١٢ .

(٦) حرف النون التي انتهت به معظم فواصل السورة ، والفواصل الباقية منها ما انتهى بحرف الهم القريب منه وذلك في الآيات ١٠ / ، ١٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦

وتكرار لفظ " رب " في هذا الموضع فوق ماله من أثر في اعتدال النسق يدل على غرض آخر من جهة المعنى ، يقول فيه محمد بن أبي بكر الرازي : " إنا ذكر الرب مكررا للتأكيد ، وكان التأكيد بهذا الموضع ألحق منه يدينك الموضعين ، لأنه موضع الامتنان وتعدد النعم ، ولأن الخطاب فيه مع الجن والإنس والجن " (١) .

وتلائم لفظي المشرق والمغرب في الموضعين الآخرين ، وفي مواضع أخرى من القرآن (٢) دليل جديد على كروية الأرض ، لأن المشرق لا يتصور بدون مغرب ، والمغرب لا يتصور بدون مشرق ، فحيثما وُجد أحدهما في موضع من الأرض وجد الآخر في موضع مقابل ، وهذا لا يتم إلا إذا كانت الأرض كروية . . . ومن هنا كان تلازمهما في اللفظ دليلا على تلازمهما في المعنى من جهة التقابل ، وكان هذا التقابل دليلا على كروية الأرض .

وفي الموضع الثالث ذكرا جنهم لوقوعهما في سياق القسم على سعة ربوبيته (سبحانه) وإحاطة قدرته ، إذ في الجمع دليل على هذه السعة ، وهذه القدرة ، على النحو الذي سبق تفصيله ، وفيه إشارة إلى معنى التفسير أو التبديل المناسب للمقام عليه في قوله (سبحانه) . . . إنا لقادرون على أن نبذل خيرا منهم وما نحن بمُبتليين " ، أي إن هب هــولا المعاندين المنكرين للبعث ، الطامعين في دخول الجنة ، والأتيان بخير منهم ، وليس ذلك على الله بعزيز (٣) ، لأن تعدد المشارق والمغارب يعني انتقال الشمس التي هي إحدى آياته العظمى ، وتصرفها كل يوم ، أو كل لحظة في شرق ومغرب جديد بين . وهذا تفسير وتبديل فيما هو مشاهد وتقع عليه أعين المعاندين ، يناسب المقام عليهم ، ويؤكد الفرض من القسم . . . لأن من فعل هذا ، كيف يُعجزه أن يبدل هـولا ، وينقل إلى أمكتهم خيرا منهم ١٢

وللمشارق والمغارب - أيضا - تأثير في اختلاف أحوال النبات والحيوان ، وهذا أمر مشهود ، جعله الله بحكمته سببا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوانات وانتقالها من حال إلى حال ، وكذلك سببا لكثير من التغيرات الواقعة في العالم ، كمقاب التصول

(١) مسائل الرازي ص ٣٣٢ .

(٢) في البقرة / ١١٥ ، ١٤٢ ، ١٧٧ ، الشعراء / ٢٨ ، الأعراف / ١٣٢ ، وسورة

الحديث عن بعض هذه الآيات .

(٣) ينظر في معنى الآية الكشاف ج ٤ ص ١٦٠ .

وتغير الأقطار والرياح والثلوج . . . ومن قدر على ذلك لا ينجزه أبداً أن يبدل هؤلاء،
ولذا لا اله المعنى بقوله : « وَمَا نَحْنُ بِمُتَوَقِّينَ » (١) .

وفى جمعهما - أيضا - فى هذا الموضع وجه آخر يناسب السياق ، وهو عموم التهديد ،
ليس فقط بالنسبة للمعاندین من أهل مكة ، وإنما لهم ولأمتهم فى كل زمان ، وفى كل
مكان تشرق عليه الشمس أو تغرب .

وفيها - بالإضافة إلى ما سبق - وجه آخر من جهة اللفظ ، وهو مناسبة الجمع
فيما اتصل بالقسم به - المشارق والمغارب - للجمع في جواب القسم ، حيث يُدْرِكُ بضمير
الجمع - إنا - وروى هذا الجمع في الخبر - لِقَادِرُونَ ، بُدِّلَ بِمُسْتَهْوِقِينَ - كما أن المتحدث
عنهم في هذا السياق جمع ،

وقد وقع أحد اللفظين جماعاً في موضع آخر من القرآن ، وهو لفظ " المشرق " ففى قوله (تعالى) : " إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشَارِقِ " (١) .

وسمجهته على الجمع في هذا الموضع وتوعد في سياق الحديث عن جملة المربوبات المتعددة، وهي : الصَّافَاتِ صَفًا وَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا وَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ، ثم السماوات والأرض وبلبينهما (٣) والمشارق من أوضاع الأشياء بين السماوات والأرض، فجاء به جمعاً لينتظم معناه ما تقدم من الجمع والتعدد في المربوبات السابقة (٤) .

وتبع ذلك من جهة اللفظ توافق الفواصل وزناً في المقطع الأخير منها ، في هذا
الموضع من السورة ، وهذا المقطع يتكون من مُسَحَرَكَيْن يَسْكُن ثانيهما في الوقف ، مَبْهُوتَيْن بحرف
البد " الألف " وقد انتهت به مجموعة من الفواصل ، هي على الترتيب الوارد في السورة :
واحد - مشارق - الكواكب - مارد - جانب - صاحب - ثاقب - لاذب^(٥) - ولاشك فـ

(۱) مراجع بدائع الفوائد ج ۱ ص ۱۲۲ ، البرهان فی علوم القرآن ج ۴ ص ۱۲۰ .

(٢) الملاحظات / ٤ - ٥٥

(٣) الآيات ١ / ٣، والبراد بالصافات وما بعدها الملائكة أو طوائف المؤمنين المتراصة في ساحة الجهاد أو الطير الصافات ، والمؤمنون الزاجرون عن كل معصية ، النالون لآيات الله ، أو غير ذلك . ينظر في هذه المعاني : الكشاف ج ٣ ص ٣٣٣ ، تفسير القرطبي ص ٥٥٠٥ ، مفاتيح الغيب ج ٧ ص ١١٨ - ١١٩ .

(۴) مراجع بدائع الفوائد ج ۱ ص ۱۲۳ ، البرهان فی علوم القرآن ج ۱ ص ۱۲۰

(هـ) فی الآیات / ٤ - ١١١

أن مجيء اللفظ على غير الجمع يفوت هذا الغرض ، فضلا عن ثقوبته الغرض المعنوي السابق .

أما سر الاختصار عليه وحده دون قرينه فكما يقول ابن قيم الجوزية : " لاقتضاء الحال ذلك ، فإن المشارق مظهر الأنوار ، وأسباب انتشار الحيوان وحياته وعصره ومعاشه... وانهاطه ، فهو إنشاء مشهور ، فقدمه بين يدي الرد على منكرى البعث ، ثم ذكر... تعجب نبيه من تكذيبهم (١) واستبعادهم البعث بعد الموت (٢) ، ثم قدر الموت وحالهم فيه (٣) . وكان الاختصار على ذكر المشارق هنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب واللامعظم (٤) .

ويذكر محمد بن أبي بكر الرازي وجهها آخر ، حيث يقول : " ... لدلالة المذكور وهو المشارق على المحذوف وهو المغارب . وكانت المشارق أولى بالذكر لأنها أشرف ، إما لكون الشروق سلباً في الوجود على الغروب ، أو لأن المشارق منبع الأنوار والاضواء (٥) .

وله تعليل عام لاختلاف اللفظين في المواضع كلها يقول فيه : " نزل القرآن بلغة العرب على المعهود من أساليب كلامهم وفنونه . ومن أساليب كلامهم وفنونه الإجمال والتفصيل والبسط والإيجاز ، فأجمل تارة بقوله : (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) ... وفصل تارة بقوله : (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) ، وأوجز واختصر مرة بقوله : (رَبُّ الْمَشَارِقِ) ... (٦) .

وهو تعليل بعيد ، لأن الإجمال أو التفصيل — على ما أفهم — إنما يكون فـسـى فكرة ، أو حديث في قضية من القضايا التي عرضها القرآن في أكثر من موضع ، لا فـسـى لفظين فقط ، وكذلك البسط والإيجاز .

(١) في الآية / ١٢ " بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ " .

(٢) في الآيتين / ١٦ - ١٧ .

(٣) في الآيات بعد ذلك / ١٩ - ٣٤ .

(٤) بدائع الفوائد ج ١ ص ١٢٣ ، ونقله الزركشي في البرهان بتغيير بصير ج ٤ ص ١٧ .

(٥) مسائل الرازي ص ٢٩١ .

(٦) السابق نفس الصفحة .

ولم يرد اللفظان مع لفظ " رب " قبلهما إلا في موضع آخر - غير المواضع السابقة - من سائر المواضع التي ذكرا فيها ، بالنظر إلى القرآن كله ، وهو ما جاء في قوله (تعالى) من سورة الشعراء : " حَآيَةُ عَنْ سَيِّدِنَا مُوسَى (عليه السلام) في جداله مع الطاغية فرعون : " قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ " (١) . ولعل السر في مجيئها مفردتين في هذا الموضع مناسبة ما يدور حوله الجدال بين موسى (عليه السلام) وفرعون في هذا الموضع من المسورة : وهو توحيد الله (عز وجل) وإن يحاول سيدنا موسى بالإبراهيم القاطعة - أن يثبت تفرد (سبحانه) بالملك والسيطرة ، ويدعو الناس لعباده من أجل ذلك ، على حين يتنازع الطاغية فرعون في هذه الربوبية مويد على الألوهية ، فيقول كما حكى القرآن عنه في هذا الموضع : " لَكِنِ اتَّخَذَتِ الْهَاءُ غَمَرًا لَّأَجْمَلَتِكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ " (٢) ، وفي موضع آخر : " يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ عَلَتْ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَمَرًا " (٣) !!

* * *

بين جمع القلة وجمع الكثرة

ومن الفروق في المشتبهات ما جاء من الكلمات على جمع القلة في موضع ، وجمع الكثرة في موضع آخر ، كما في قوله (تعالى) من حديثه عن بنى إسرائيل في سورة البقرة : " وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَإِذْ خُلُّوا الْبَابَ مُسَجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ " (٤) ، وفي سورة الأعراف : " وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَإِذْ خُلُّوا الْبَابَ مُسَجَّدًا تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ " (٥) .

حيث جمع لفظ " خطيئة " في الآية الأولى جمع تكسير على وزن من أوزان جموع

(١) الآية / ٢٨ . (٢) الآية / ٢٩ . (٣) القصص / ٣٨ .

(٤) الآية / ٥٨ . (٥) الآية / ١٦١ .

الكثرة ، وفي الثانية جمع مؤنث سالم ، وهو من جمع القلة ^(١) . بالإضافة إلى فسوق أخرى ، سيرد الحديث عنها بعد .

ومع أن القصة واحدة ، والمتحدث عنهم في الموضعين هم بنو إسرائيل — والفقولة التي وُجِّهت إليهم من المولى (عز وجل) واحدة ، إلا أن كل آية خُصَّت بما جاء فيها لأغراض كثيرة ، بالنظر إلى السياق في الموضعين .

فاختار جمع القلة في الآية الأولى لأن سياقها مَبْنِيٌّ على تعداد الآلاء والنعم ، بدءاً من قوله (تعالى) : " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ " ^(٢) . . . إلى الآية المذكورة وما بعدها . والمناسب لهذا السياق التعبير عن الذنوب ، التي وعدهم الله (عز وجل) بغفرانها إن استجابوا له ، بجمع الكثرة ، ليكون في هذا الجمع دلالة على نعمة أخرى تضاف إلى نعم الله عليهم المذكورة في السياق ، وهي مغفرة ذنوبهم الكثيرة ، التي أصرروا عليها حتى كادوا أن يجعلوا بإزاء كل نعمة من نعم الله عليهم ذنباً .

واختار جمع الكثرة في الآية الثانية لأن سياقها مَبْنِيٌّ على تعداد مساوئهم ، وتوعدهم على هذه المساوئ بسوء الصور ، وبارود فيه من تعداد النعم عليهم ^(٣) ، لم يكن بالقدر الوارد في سياق الأولى ، فافترق السياقان من هذا الوجه ، وَجِئَ بجمع القلة في الثاني منهما ، لما فيه من الإشارات بعد تعداد المساوئ ووعدهم بالمغفرة إن استجابوا لما أمرهم به الله (عز وجل) . بأن هذه الذنوب ، مهما كثرت فهي بجانب غفوه (سبحانه) قليلة ^(٤) .

(١) على الراجح ، كما سبق . ولأن الكلمة جمعاً آخرداً لا على الكثرة ، بالنسبة للرأي القائل بأنه مشترك في الدلالة على القلة والكثرة ، وللرأي القائل بأنه شائع فيهما . وقد أكد الإسكافي دلالة جمع المؤنث السالم على القلة بناءً على ما يحدث في تصغير " دراهم " ، وأمثالها ، حيث نقول : ذرئتهما ، بردها إلى الواحدة وتضغيرها ثم جمعها على لفظ القلول الملائم للتصغير — درة التزويل ص ١٠١ . وكذلك خطايا ، حيث نقول في تصغيرها : خطيات .

(٢) الآية ٤٠ / .

(٣) كما في الآية السابقة على هذه الآية ، وما جاء في نفس الآية ، والآية رقم ١٤١ قبلها .

(٤) يراجع في هذا الوجه : ملاك التأويل ج ٢ ص ٤٣ ، نظم الدرر ج ٢ ص ٤٥٢ .

ومن اختلاف الجمع في الموضعين يمكن الخروج بمعنى آخر ، بعيد عن ارتباط كل جمع بسياقه ، وهو أن هذه الذنوب التي ارتكبوها ، تُغفر لهم إذا فعلوا مما أُمرُوا به من قول أو فعل ، سواء كانت قليلة أو كثيرة (١) .

وتقول : إن التعبير بجمع الكثرة في الأولى لأن الإخبار فيها عن نفسه (سبحانه) ، وذلك بإسناد فعل القول إليه في مطلع الآية : " وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا ... " ، فَشَرَطَ لمن قام بتفويض الأوامر المذكورة فيها ما يشترطه الكريم إذا وعد ، من مغفرة الخطايا كلها ، ومار الكلام كالتوكيد بالمصوم ، كأنه قال : تُغفروكم خطاياكم كلها أجمع .

ولما لم يسم فاعل القول في الثانية عوّج بجمع القلة ، لانقضاء ما يقتضى جمع الكثرة ، وللفرق بين ما يؤتى به على الأصل وما يعمد ل عند إلى الفرع .

وهذا التوجيه ذكره كهرون (٢) ، منهم الرازي في تفسيره الكبير (٣) . ونقله الألويسي عن الرازي ، كما نقل عنه كل ما ذكره من توجيهات للفروق الأخرى في الآيتين . ثم اعترض عليها جميعا ، فقال : " وأما الثالث (٤) فلأنه (تعالى) وإن قال في الأعصراف " وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ... " لكمة قال في السورتين : (تَغْفِرْ لَكُمْ ...) وأضاف الغفران إلى نفسه ، فبحكم تلك اللباقة ينبغي أن يذكر في السورتين جمع الكثرة ، بل لاشك أن رعاية (تغفروكم) أولى من رعاية (وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ) لتعلق الغفران بالخطايا ، كما لا يخفى على العارف بالمزايا (٥) .

والجواب الصحيح عنده ما حكاه عن الزمخشري من أنه لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض (٦) ، ثم يقول في نهاية حديثه مؤكداً هذا المعنى : " التخنن في في التعبير لم يزل دأب اللفاء ، وفيه من الدلالة على رخصة شأن المتكلم ما لا يخفى .

- (١) يراجع تفسير المنار ج ٩ ص ٣٤٧
- (٢) الإسكافي في درة التنزيل ص ١٥ - ١٦ ، الكوراني في أسرار التكرار ص ٢٩ ، الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٤٣ ، الشيخ زكريا الأنصاري في فتح الرحمن ص ١٥ .
- (٣) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٣٥٤ .
- (٤) يقصد التوجيه السابق ، وهو الثالث من التوجيهات التي نقلها عنه في هذا الموضع .
- (٥) روح المعاني ج ١ ص ٢٦٢ - ٢٦٨ .
- (٦) السابق ج ١ ص ٢٦٨ والكشاف ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

والقرآن مملوء من ذلك ، ومن رام بيان سر لكل ما وقع فيه منه فقد رام مالا سبيل إليه
إلا بالكشف الصحيح والعلم اللدنى ، والله يؤتى فضله من يشاء ، وسبحان من لا يحيط بأسرار
كتابه إلا هو (١) .

ولا اعتراض على الثفنن في التعبير إذا ما جاء بغرض تزييح المعنى ، والإحاطة
به من وجوه مختلفة ، كما رأينا في الآيات المشتبهات التي سبق الحديث عنها .

أما أن يكون الثفنن لذات الثفنن ما دامت العبارات لا تتناقض - أخذًا من كلام
الألوسي السابق ، وما حكاه عن الزمخشري في هذا الموضع - فرأى ضعيف ، أستبعد أن توجه
على أساسه الفروق التي نجدناها في المشتبهات (٢) .

والزمخشري نفسه له في الحديث عن هذه الفروق باع طويل ، إذ يهتم اهتمامًا
واضحًا في تحليلاته الباریة لكثير من المشتبهات بتوضيح الأسرار البلاغية ، التي تشير إليها
هذه الفروق . وللألوسي - أيضا - مثل هذه التحليلات ، إضافة لما نقله عن الزمخشري وغيره
حول هذه الآيات . وفي كلامه السابق ما يرد القول بالثفنن في توجيه هذه الفروق ،
إذ يقول : " والقرآن مملوء من ذلك ، ومن رام بيان سر لكل ما وقع فيه منه فقد رام مالا
سبيل إليه إلا بالكشف الصحيح والعلم اللدنى " ومعناه : أن وراء كل ثفنن في
التعبير سرا ، يحتاج إلى تأمل وتدبر لمعرفة .

وكان من الممكن أن يكون القول بالثفنن - بهذا المعنى - هو ما يقصده الزمخشري
والألوسي فهما تقدم ، لولا أن الثاني اعترض على الرازي في حديثه الذي حاول فيه أن يبين أسرار
الاختلاف بين الآيتين ، واكتفى بأن هذا الاختلاف بينهما للثفنن في التعبير ، ولم يذكر
سرا من أسرار هذا الثفنن . ولولا أن الأول اكتفى في حديثه عن الآيتين بأن هذا الاختلاف
لا بأس به ، حيث لا تناقض بينهما ، ولم يتحدث عن أسرار ، كما هي عادة في حديثه
عن آيات أخرى كثيرة .

(١) روح المعاني ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) سبق الحديث عن ضعف هذا الرأي في أماكن مختلفة .

وعلى ذلك فما جاء في توجيه الرازي لا بأس بقبوله لأنه يوضح الغرض المعنوي من اختلاف التعبير في الموضعين . ولا محل لاعتراض الألوسي عليه ، لأن رعاية مطلق الآية وما جاء بعده من فروق في الموضعين ، له دخل كبير في اختيار الخاتمة المناسبة ، وسنرى في الحديث عن بقية الفروق ، كيف ينهني بعضها على بعض ؟ وكيف تتعاون كلها على تمييز المعنى في الموضعين ؟

فالفعل " ضفر " وإن لمَّ على الإخبار عن نفسه (سبحانه) في الموضعين ، إلا أن هذا الإخبار قد تقوى في آية البقرة بما جاء في مطلعها ، فرُوي في خاتمتها ما يناسب هذا الإخبار المؤكّد ، وذلك باختيار جمع الكثرة ، تحقيقاً لفضل الكريم ووعده ، إذا أُخبر فوعده !!

وللميوطى توجيه آخر لهذا الفرق وغيره من الفروق في الآيتين ، يتلخص في أن الآية الأولى في معرض ذكر الضم عليهم ، حيث قال (سبحانه) : " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَمْ يَنْسُوا أَنْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَضَعُوا عَنْهُمْ أَصْفَادَهُمْ سِرًّا وَعَلَى ظُهُورِهِمْ أَثْقَالًا " . أما الآية فقد افتتحت بما فيه توبيخهم ، وهو قوله (تعالى) حكاية عنهم : " ... اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ " (١) . فاختلفنا بما اختلفنا به ، رعايةً للساق في الموضعين من هذه الجهة (٢) .

وهو قريب من التوجيه الأول ، ويمكن إضافته إليه في توجيه هذه الفروق هو أن لم يوضح الميوطى كيفية الضاممة لكل فرق منها في ضوءه .

وفيما يلي ما جاء في الآيتين من فروق أخرى غير هذا الفرق ، وتوجيهها :
جاء فعل القول مَهْنًا للفاعل في الآية الأولى ، وَلِيَا لَمْ يَسْمَ فاعله في الثانية ، متبوعاً بالجار والمجرور " لهم " ، وهو مَنَحِد الزمن في الموضعين .

والسرف في هذا الاختلاف أن الثانية سبقت في خطاب وجه إلى أهل مكة - أولاً - فالحكاية فيه عن بني إسرائيل ، حكاية بمعن غائب ، والأصل فيه أن يذكر ضمير الغائب ، فعبر لذلك بالفعل الضمير للمجهول ، وصرّح بضميرهم في الجار والمجرور المتعلق بهذا الفعل .

(١) الأعراف / ١٣٨ .

(٢) الامتحان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٤٧ .

أما الأولى فسيقت في خطاب بنى إسرائيل مباشرة ، كما تدل مطالع آيات كثيرة في السياق مثل : " وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ " (١) " وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى " (٢) " وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ " (٣) ، فناسب ذلك التعبير بالفعل مَهَيَّأً للفاعل ، ولم يذكر بعده الجار والمجرور ، لاضمحور الخطاب فيقال : " لكم " كما قيل مع الفائزين في الأخرى " لهم " لأن القول كان لأجداد المخاطبين من الوف الصنن ، وليس لهم أنفسهم ، ولا بضمير الفية فيقال : " لهم " ، لأن سياق الحديث ليس حكاية عن غائب مجهول يحتاج إلى تعيينه ، بل هو تذكير الخلف بما تقوم به عليهم الحجة من شئون السلف ، حيث إن الخلف وارثوا أخلاقهم وغرائزهم وعاداتهم . . . فالحديث مشترك - إذا - بين الخلف الحاضر والسلف الغابر ، وذكر الجار والمجرور " لهم " يُلصقه بالغائب وحده ، فتكون حكاية لبنى إسرائيل كحكاية لعرب مكة وغيرهم (٤) .

وذكر الرازي لهذا الاختلاف وجهاً آخر ، قال فيه : " إن الله (تعالى) صرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله (تعالى) إزالة للإبهام ، ولأنه ذكر في أول الكلام " اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ " ثم أخذ يعدد نعمة نعمة ، فاللائق بهذا المقام - مقام آية البقرة - أن يقول : " وَإِذْ قُلْنَا " أما في سورة الأعراف فلا يبقى في قوله : " وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ " إبهام ، بعد تقديم التصريح به في سورة البقرة " (٥) .

واعترض الألوسي عليه ، فذكر أنه يصح إذا كانت سورة البقرة مقدمة على سورة الأعراف نزولاً كما أنها مقدمة عليها ترتيباً ، لكنها كلها مدنية ، والأعراف كلها مكية إلا ثمانى آيات (٦) ، ليست هذه الآيات منها ، وحينئذ لا يصح الجواب (٧) .

وهذا الاعتراض يفهم منه أن الألوسي يعتد بترتيب السور في توجيه المشتبهات ،

-
- | | |
|-----|----------------------------------|
| (١) | الآية / ٥٥٠ |
| (٢) | الآية / ٥٥١ |
| (٣) | الآية / ٥٥٣ |
| (٤) | يراجع ضمير النار ج ١ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ |
| (٥) | مفاتيح الغيب ج ١ ص ٣٥٤ |
| (٦) | الآيات / ١٦٣ - ١٢٠ |
| (٧) | روح المعاني ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ |

وبقدم الأخذ بترتيبها من جهة النزول على الأخذ بترتيبها الوارد في المصحف ، مع أن الأخذ بترتيبها الوارد في المصحف أقوى ، لأنها بهذا الترتيب موجودة عند الله في اللوح المحفوظ (١) . ولأن الأخذ بهذا الترتيب يريح من الخلافات الكثيرة حول تحديد المكي والمدني من الآيات والسور . ثم إن الأخذ بالترتيب من جهة النزول يضيق مجال الانتفاع بما جاء في المشتبهات من فروق مَبْنِيَّةً على هذا الترتيب ، حيث يفقد منها فقط من عاصروا نزول القرآن الكريم ، أما من جاؤا بعدهم فتكون هذه الفروق بالنسبة لهم تتعلق بحكاية أمور ماضية والقرآن يخاطب البشر جميعا على حد سواء .

وقد سار الرازي في توجيهه السابق على الأقوى من الترتيبين ، فلا وجه لاعتراض الألوسي عليه فيه . وإن كنت أرى أن الاعتداد بترتيب السور - عموما - في توجيه المشتبهات لا يؤخذ به إلا إذا كان هناك ما يقويه من توجيهات أخرى ، كما رأينا في المثال السابق .

وَتَغْيِيرُ الْأَمْرِ بِالْأَوَّلَى إِلَى الْأَمْرِ بِالسَّكْنَى فِي الثَّانِيَةِ .

والمرفي ذلك تكثير المعنى ، حيث يتحصل من الآيتين أنهم أمروا بالداخلين والممكنين . ولمفهم أن الأمر بالداخلين في الأولى ، الفرض منه الدخول للممكن كما بينت في الثانية (٢) . وَخَصَّتِ الْآيَةُ الْأَوَّلَى بِالْأَوَّلَى ، لِأَنَّهُ مُقَدَّمٌ بِطَبِيعِ الْمَمْنُونِ ، فَقَدَّمَ وَضْعًا بِالنَّظَرِ إِلَى تَرْتِيبِ السُّورِ ، وَخَصَّتِ الثَّانِيَةَ بِالْمَمْنُونِ ، لِأَنَّهُا مُتَأَخِّرَةٌ طَبِيعًا فَأُخِّرَتْ وَضْعًا (٣) .

وعطف الأمر بالاكل على ما قبله في الأولى بالفاء ، وفي الثانية بالواو .

والمرفي ذلك مناسبة المصطوف عليه في الموضعين - وهو محل التغيير السابق - فقد ورد الأمر بالاكل عقب الأمر بالداخلين في الأولى ، والدخول سريع الانقضاء ، والبدء بالاكل يكون عقبه مباشرة ، فلذا عطف عليه بالفاء ، حيث لا موضع للواو ، التي تدل على الجامعة الدائمة للأكل .

(١) نرى على هذا الكرمانى في أمرار التكرار ص ٢٢ ، ويراجع في القضية - قضية ترتيب السور في المصحف - بتوسيع في الهرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٥٧٦ وما بعدها ، والانتقان

في علوم القرآن ج ١ ص ٢٨٢ - ٨٤ .

(٢) يراجع تفسير المنار ج ١ ص ٣٤٦ .

(٣) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٣٥٤ ونقله الألوسي واعتراض على الرازي فيه بنفس الاعتراض السابق - روح المعاني ج ١ ص ٢٦٧ وسبق الرد على هذا الاعتراض .

وورد الأمر بالاكل في الثانيه عقب الأمر بالسكنى ، والسكنى هى الإقامة الدائمة
المستدة ، والاكل المأمور به يكون فى اثنائىها ، ويجامعها ، فلذا عطف عليها بالواو ، التى
تعهد الجمع بين الأمرين (١) .

وقد يلاحظ فى قوله (تعالى) : " امكنوا " معنى آخر ، هو اتخاذ المكان
المشار اليه فى الآية الثانية سكا ، فيكون الأمر بالسكنى كالأمر بالدخول وهذا المعنى غير
مراد هنا .

وقد اشرت إليه لمجمع الأمر بالاكل والأمر بالسكنى فى آية أخرى من سورة الأعراف
اشتبهت بآية أخرى من سورة البقرة ، وكلتاها فى قصة آدم (عليه السلام) ووَجَّه الأمر بالسكنى
فى الأعراف به " ، وفى سورة البقرة : " وَقُنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا " (٢) . وفى سورة الأعراف : " وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ
حَيْثُ شِئْتُمَا " (٣) .

حيثما جمع الأمران ، وعطف الثانى على الأول فى آية البقرة بالواو مجنأً على أن المراد
بالسكنى فيها الإقامة المستدة ، وهذه يجامعها الاكل - كما سبق - وعطف على الأول فى
آية الأعراف بالفاء بناءً على أن الواو بالسكنى فيها اتخاذ الموضع سكا ، فيكون كالأمر بالدخول
فى الآية الأخرى من السورة .

واختير الأمر بالسكنى فى آية الأعراف - على هذا المعنى - لأن المولى (عز وجل)
خاطب إبليس فى هذه السورة بقوله : " اخْرِجْ مِنْهَا مَذْذَرًا " (٤) أى من الجنة هو خاطب
فيها آدم (عليه السلام) بقوله : " وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا " أى اتخذها
لأنفسكما مسكا فورد الأمر بالسكنى لآدم وزوجه مقابل الأمر بالخروج لإبليس ، ففسر بمعنى
الدخول وهو اتخاذ المكان مسكا ، وعطف عليه الأمر بالاكل ، بالفاء لأنه مشروط به ، أى إن
دخلتم أو سكتم فكلوا (٥) .

(١) يراجع : درة التنزيل ص ١٠ ، ١٥ ، أسرار التكرار ص ٢٨ ، بصائر ذوى التمييز

جا ص ١٤٣ ، فتح الرحمن ص ١٥ ، تفسير المنار ج ٩ ص ٣٤٦ .

(٢) الآية / ٣٥ (٣) الآية / ١٩ .

(٤) الآية / ١٨ .

(٥) يراجع : درة التنزيل ص ١٠ - ١١ ، أسرار التكرار ص ٢٥ ، بصائر ذوى التمييز

جا ص ١٤٠ - ١٤١ .

وذكرت كله " رَغَدًا " عقب الأمر بالأكل في الأولى ، ولم تذكر في الثانية .

وذلك مراعاة لما عطف عليه الأمر بالأكل - أيضا - في الموضعين ، فهو في الآية الأولى الدخول ، والذي يناسب الدخول التبشير بنوع الأكل ، لأن الأمر بالنسبة للدخول على مكان ما ، تكون مجهولة ، فذكرت " رَغَدًا " لتدل على أن هذا النوع من الأكل أكمل هنئ ، واسع ، لا يمتنى صاحبه ، وفي هذا من الحمل على استجابة الأمر ما فيه (١)

وفي الثانية المكى ، وهي تالية للدخول الذي ناسبه ودفع إليه التبشير بالكلمة في الأولى ، فلا حاجة تدعو إلى ذكرها هنا (١) .

ولما سبق في توجيه " خطايا و خطيئات " من أن فعل القول في صدر الأولى مستند إلى ذاته (سبحانه) ، وفي صدر الثانية مبنى للمفعول ، فاقضى إسنادها إلى الذات العلوية - صراحة - في الأولى ذكر ما يناسبه من الجود والكرم اللائقين بإخباره (سبحانه) عن نفسه فيها ، فذكرت كلمة " رَغَدًا " إشارة إلى هذا المعنى فيها دون الثانية (٢) .

وقدّم الأمر بدخول الباب على الأمر بقول حطة في الأولى ، وأخر عنه في الثانية . وذلك لأن الأولى ورد فيها الأمر بدخول القرية ، والثانية ورد فيها الأمر بفتحها ، فمع الأمر بدخول القرية في الأولى قدّم الأمر بدخول بابها لتمامه للدخول الأول ، إذ يُبيّن كيفية الدخول ، وهو الدخول في حال التلبس بالتواضع والخشوع لله (تعالى) وتتكوّن الروى شكوا لجلاله على نوايه ، كما فعل النبي (صلى الله عليه وسلم) لما دخل مكة فاتحا ، وليس السجود المعروف ، لأنه ينافي حركة الدخول . وهذه المناسبة تجعله أهم في هذا الموضع فقدّم لذلك .

(١) يراجع تفسير المنار ج ٩ ص ٣٤٦ .

(٢) يراجع : درة التنزيل ص ١٦ ، أسرار التكرار ص ٢٨ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٤٣ ، مفاتيح الغيب ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ، ونقله الألوسى عن السرايى ملخصا في روح المعاني ج ١ ص ٢٦٢ واعترض عليه بأن الفعل وإن لم يستند إلى ذاته صراحة في الآية الثانية إلا أنه مستند إليه في نفس الأمر ، فنهض أن يذكر الإنعام الأعظم في الموضعين - ويمكن الرد عليه بأن المراعاة هنا لظاهر الألفاظ وطريقة صياغتها - كما لاحظنا في توجيه الفروق السابقة . ثم إن ما ذكره بدلا لهذا التوجيه غير مسلم به . كما سبق في الحديث عن الفرق الأول .

وبع الأمر بسكنى القرية فى الثانية قُدِّمَ الأمر بقول حطة ، لأهميته فى هذا الموضع ،
حيث إن المناسب للمكنى - أولاً - الاشتغال بالتوبة ، وطلب غفران الذنوب ، وتقديمها
لشكر على نعمة المكنى (١) .

وذكر الرازى وجهاً آخر ، يتلخص فى أن هؤلاء المخاطبين ، منهم من كانت ذنوبهم
كبيرة ، وهؤلاء يكون اشتغالهم بحط (٢) الذنوب - أى التوبة والدعاء بأن يحط الله
(عز وجل) عنهم أو زارهم - أهم ، ومنهم من قلت ذنوبه أو انعدمت ، بدلول ما جاء
فى الحديث عنهم من قوله (تعالى) : " وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَنْهَدُونَ بِالْحَقِّ ، أَنَّهُ يَعْدِلُونَ " (٣)
وهؤلاء يكون اشتغالهم بالعبادة - أولاً - ثم بالتوبة - ثانياً - للهضم ولزالة العجب . فتقديم
الأمر بدخول الباب ، فى آية البقرة يشير إلى الطائفة الثانية . وتقديم الأمر بقول حطة فى
آية الأعراف يشير إلى الطائفة الأولى التى أمرت بالاشتغال بالتوبة - أولاً - ثم بدخول باب
القرية فى حالة من التعبد ، شَغْرِبَ عن شكرهم لله (عز وجل) ثانياً (٤) .

واعترض الألوس على هذا الوجه - أيضاً - فقال : " القصة واحدة ، وكون بعضهم
مذنبين ، وبعضهم غير مذنبين محقق ، فعلى مقتضى ما ذكرينهم أن يذكر " وقولوا
حِطَّةٌ " مقدماً فى السورتين " (٥) . ومع ما فى الاعتراض من غرض لم يذكر الألوس الغرض
من هذا الاختلاف ، اكفاءً بالتوجيه العام الذى نقله عن الزمخشري وأيده فيه ، وسبقنا
مناقشته .

وسيدو أن الشيخ رشيد رضا تأثر بما جاء فى هذا الاعتراض ، فقد ذكر فى هذا
الموضع أن العطف بالواو بين الجملتين مع اختلافهما بالتقديم والتأخير يدل على عدم الفرق ،
بخلاف ما لو قُدِّمَ أحدهما مطلقاً فى الآيتين وأُخِّرَ الآخر ، فإنه يشعر بالفرق ، حوث أهمية
القدم لذاته (٦) .

(١) يراجع : أسرار التكرار ص ٢٨ ، بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ١٤٣ ، فتح الرحمن

ص ١٥

(٢) وهو المراد من قول حطة ، والِحِطَّة : فُحِّلَهُ من قول القائل : حَطَّ الله عنك خطاياك
فهو يَحِطُّهَا حِطَّةً ، ينزله الحِطَّةَ والِحِطَّةَ من حدوت ومددت - يراجع تفسير الطبرى
ج ٢ ص ١٠٥ ، الكشاف ج ١ ص ٢٨٣ .

(٣) الأعراف ١٥٩/ .

(٤) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥ . (٥) روح المعاني ج ١ ص ٢٦٧ .

(٦) تفسير الضار ج ٩ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

وهو رأى يحتاج إلى مراجعة - أيضا - لأن الذى يقدم فى موضع ويؤخر نفسى موضع آخر هو مناط البحث البلاغى ، لما يتعلق به من أسرار فى كل موضع تُرجَّح تقديمه تارة ، أو تقديم غيره عليه تارة أخرى ، وخاصة إذا ما كان الجامع بين الأمرين الواو التى هى لطلق الجمع . أما التقديم بذاته ، أو الذى تتحكم حروف العطف الأخرى فى تقديمه ، لما تدل عليه من معاني غير الجمع ، فالبحث فى تقديمه وتأخيره يكون من جهة صحة الكلام أو فساده أو دخل .

وأشار الإسكافى فى حديثه عن هذا الاختلاف إلى أن حكاية الله (سبحانه) عن الأمم للمعاني حكاية للمعاني ، وليست حكاية الألفاظ التى كانوا يتكلمون بها (١) . ثم بنى على ذلك رأيه فى توجيه الاختلاف فقال : " ومن قصد حكاية المعنى كان مخبرا بأن يؤدى به بآى لفظ أراد ، وكيفما " من تقديم وتأخير بحرف لا يدل على ترتيب كالواو (٢)

ومع صحة الأصل الذى بنى عليه كلامه إلا أن هذا الكلام يجعله متناقضا مع نفسه ، حيث ينظر إلى الفروق فى مشتبهات الفصحى القرآنى فيجعل بعضها لأسرار كثيرة ، حاول أن يكشف عنها فى الآيتين السابقتين ، ضمن آيات كثيرة وردت فى كتابه ، ويميز بعضها لمجرد التصرف الجائز فى أوضاع الألفاظ ، لأن الحكاية حكاية للمعنى ، وحكاية المعنى يفتقر فيها ما لا يفتقر فى حكاية الألفاظ . وهذا هو مفاد القول بالتفنن الذى سبق عند الزمخشرى نفسى هذا الموضع وأيده فيه الألوسى ، وتابعهما فيه الزركشى والسيوطى (٣) .

وَعُطِفَتْ جُمْلَةٌ " مستزيد المحسنون " على ما قبلها فى آية البقرة ، ولم تعطف نفسى آية الاعراف ، مع أن الاتصال المعنوى بين هذه الجملة وما قبلها متحقق فى الموضعين ، نفسى الأول بحرف الوصل الظاهر ، وفى الثانى بالوصل الخفى الذى رخص ترك هذا العطف .

والمعنى مع العطف أن الله (عز وجل) وعدهم بشيئين إن التزموا بما طُلب منهم : مغفرة خطاياهم ، وزيادة المحسنين فى الجزاء مقابل إحسانهم فى العبادة .

(١) سبق الحديث عن هذا المعنى بتوسع - يراجع ص من هذا البحث .

(٢) درة التنزيل ص ٢٦ - ١٢ .

(٣) البرهان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٢٨٢ ، الإتيان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ .

والمعنى مع ترك العطف أن الله (عز وجل) وعد ببغفره الخطايا للجميع
ما التزموا بأوامره . وأكد هذا المعنى بزيادة المحسنين منهم في الأجر والجزاء إذ الوعد
بزيادة العطاء للمحسنين فيه تأكيد للوعد بعطاء غيرهم ، الذين لم يصلوا في عبادتهم إلى
درجة الإحسان وهي الدرجة العليا في العبادات ، كما أخبر المعصوم (صلى الله عليه
وسلم) في حديثه مع أمين الوحي جبريل (عليه السلام) : " أن تعبد الله كأنك تراه
فإن لم تكن تراه فإنه يراك " (١) .

وقد اختير العطف في الآية الأولى لوقوعها في سياق تعداد النعم على بني إسرائيل
وتذكيرهم بها ، حيث يترتب عليه تعداد ما وعدوا به - أيضا - من مغفرة خطاياهم ، وزيادة
المحسنين منهم .

وترك في الثانية لوقوعها في سياق الحديث عن إصراعهم في الكفر وتعداد مساوئهم ،
وتوعدهم بالعذاب في الدنيا والعذاب في الآخرة ، حيث إن عدم العطف يدل على شدة
الاتصال بين الجملتين ، وتأكيد الثانية منهما لضمون الأولى - كما سبق - وهذا التأكيد
مطلوب في هذا السياق ، بعد الحديث عن اجترأتهم ، لوجملتهم على الالتزام بأسباب
المغفرة ، ويبين لهم سعة فضله (سبحانه) ورحمته بالذين هم .

وذكر الرازي وجها آخر يتلخص في أن العطف بالواو في الأولى يدل على أن المغفرة
مع الزيادة جزء واحد لمجموع الفعلين ، وعدم العطف في الثانية يدل على توزع الجزئين على
كل من الشرطين فتكون المغفرة جزء قول حظه ، والزيادة جزء الدخول (٢) . ولم يذكر سر
تخصيص كل آية بما جاء فيها .

وقد اعترض الألوسي عليه - أيضا - بأن القصة واحدة والواو لمطلق الجمع ، والمقابلة
معروفة بين كل من الجزئين والشرطين (٣) .

(١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، للإمام محي الدين أبي زكريا النووي

ص - ٣٢ ط ٢ مطبعة الشهد الحسيني .

(٢) مفاتيح الغيب ج ١ ص - ٣٥٥ .

(٣) روح المعاني ج ١ ص - ٢٦٨ .

وهو في هذا الاعتراض متأثرا بما ذكره الزمخشري في هذا الوضع من أن الموعود به
 شيان : المغفرة ، والزيادة ، وطرح الواو لا يخل بذلك ، لأنه استئناف مرتب على تقديم
 قول القائل : وماذا بعد الغفران ؟ فقول له : سنزيد المحسنين ^(١) .
 وكلاهما لم يذكر الصرف في تخصيص كل موضع بما جاء فيه ، اكتفاء بالتوجيه العام
 السابق عندهما .

* * *

بين التذكير والتأنيث

ومن الفروق في المشتبهات تذكير اللفظ في موضع وتأنيثه في موضع آخر ، كما في
 قوله : (تعالى) :
 " وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تُمْسِكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا
 سَائِغًا لِلنَّارِبِينَ " ^(٢) ، وفي موضع آخر :
 " وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تُمْسِكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا
 تَأْكُلُونَ " ^(٣) .

حيث ذكر الضمير المتصل بكلمة " بطون " في الآية الأولى ، وأنت في الثانية مع
 اتحاد مرجعه فيهما على " الأنعام " . وتحديد المراد من هذا المرجع هو الأساس في توجيه
 الاختلاف بين الآيتين ^(٤) .

فقد جاء في بعض كتب التفسير أن " الأنعام " لفظ مفرد ومعناه جمع - كوهط وقوم
 وبقر وغنم - يرجع إليه ضمير الواحد المذكور مراعاة للفظه ، وضمير الإناث الجمع مراعاة لمعناه .
 وعلى ذلك فالتذكير للضمير في الآية الأولى مراعاة للفظ ، والتأنيث في الثانية مراعاة للمعنى ^(٥) .

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٢٥ . (٢) النحل / ٦٦ .
 (٣) المؤمنون / ٢١ . (٤) في الجزئين المشتبهين فقط منهما .
 (٥) مراجع الكشاف ج ٢ ص ٤١٩ ، مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٣٢٧ ، تفسير القرطبي ص ٣٢٤٠ .

وقيل : اسم جنس يُذكر ويؤنث فيقال : هسى الأنعام وهو الأنعام (١) .

وقيل : التذكير في الأولى راجع إلى معنى الجمع في الأنعام ، والتأنيث في الثانية راجع إلى معنى الجماعة ، وهذا الاستعمال كثير في اللفظة (٢) .

وقيل : التذكير في الأولى على اعتبار الشار إليه المذكور فيما تقدم والتقدير : مما في بطون ما ذكرناه . . . وهو استعمال شائع في القرآن ، قال (تعالى) : " فَلَمَّا رَأَى السَّمَاءَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي . . . " (٣) يعني هذا الشيء الطالع ربي ، وقال : " إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ " (٤) أي ذكر هذا الشيء . وشيوعه أو جوازه متعلق فقط بما يكون التأنيث فيه غير حقيقي (٥) .

وقيل : إن في الأولى إضمارا ، والتقدير : نسقيكم مما في بطونه اللبن ، إذ لوست كلها ذات لبن (٦) .

وجاء في معاجم اللغة أن الأنعام جمع ، واحد " نعم " ويجمع على أنعام (جمع الجمع) ويطلق على البقر والغنم والإبل ، وأكثر ما يقصد به الإبل ، ولا يطلق على الغنم وحدها إلا إذا كانت مع البقرة والإبل (٧) .

وهذه الآراء - على تعددها وتوجيه بعضها للاختلاف بالتذكير والتأنيث في الآيتين - لم تبين سر تخصيص كل موضع بما ورد فيه

وقد تحدثت كتب المتشابه عن هذا السر ، فذكرت ما خلاصته : أن التذكير في الأولى يشير إلى أن المقصود بالأنعام في هذا الموضع إناثها (٨) ، وهي التي تدر اللبن

(١) تفسير القرطبي ص ٣٧٣٩ ، ملاك التأويل ج ٣ ص ٣٩٨ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٣٧٤٠ .

(٣) الأنعام / ٧٨ .

(٤) الأنعام / ٢٩ .

(٥) مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٣٢٢ ، تفسير القرطبي ص ٣٧٤٠ .

(٦) مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٣٢٢ ، تفسير القرطبي ص ٣٧٤٠ .

(٧) تراجع مادة " نعم " في أساس البلاغة ص ٤٦٤ ، مختار الصحاح ص ٩٦٩ ، المصباح المنير ص ٦١٢ - ٦١٣ المنجد ص ٨٩٥ .

(٨) كما ورد في رأى سابق ، لكن لم يرد فيه سر إرادة الإناث في هذا الموضع .

بدلول أن الحديث في بقية الآية عن مخرج اللبن وأوصافه ، وهو المناسب ، للإناث فقط من الأنعام ، لا كلها . والتقدير : وإن لكم في بعض الأنعام لمبرة ، والضمير المذكور في كلمة بطونه " عائد على هذا البعض المقدر .

والتأنيت في الثانية يدل على أن المراد جميع الأنعام ، ذكورها وإناثها ، لأن سياق الحديث في هذا الموضع تعداد منافع جمة للأنعام ، يُعَدُّ ذَرُّ اللَّبَنِ واحدًا منها فقط . ولذا جاءت الإشارة في نفس الآية إلى منافعها الكثيرة ، في قوله (تعالى) : " وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ " ثم الإشارة إلى منفعة تأتي من الذكور والإناث معا في قوله : " وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ " ثم الإشارة في الآية التالية إلى منفعة أخرى مشتركة في قوله : " وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُخَلُونَ " (١) .

وتبع هذا من جهة اللفظ مناسبة أخرى ، وهي مناسبة ضمير الأنعام في كلمة " بطونها " لما جاء بعده من ضمائر في الكلمات : فيها - منها - عليها - وهي الكلمات الواردة في الحديث عن الأنعام - أيضا - من جهة منافعها المشتركة بين النوعين (٢) .

وخالف البقاعى في هذا ، حيث ذكر أن التأنيت في الثانية لعدم النص على ما يستقى منه في الآية ، فتعين ذكر الضمير مؤنثا لينصرف إلى الإناث فقط منها (٣) .

ويمكن الرد عليه بأن إشار الضمير في الآية على هذا الموضع ربما يكون الغرض منه الإشارة إلى أن للذكور مدخلا في در اللبن ، حيث لا يتأتى من الأنثى إلا بعد تلقيح الذكر لها وما يتبع ذلك من حمل وولادة .. وعلى ذلك تكون المنافع كلها المذكورة في هذا الموضع مشتركة بين النوعين . يخلاف ما ركز عليه الحديث في الآية الأولى ، من تخصيص مخرج اللبن وأوصافه ، حيث يدل على أن المراد بالأنعام إناثها فقط وهي موطن المبرة في هذه النعمة الجليلة .

كما ذكر أن التذكير في الأولى مراعاة للفظ " الأنعام " بعد أن تعينت إرادة الإناث من السياق لك دالة على قوة المعنى في هذا الموضع (٤) ولم يبين وجه الدلالة على هذه القوة .

(١) الآية ٢١/ ، ومنظر هذا الوجه في : درة التنزيل ص ٢٦٨ ، أسرار التكرار ص ١٢٥

كشف المعاني ص ٧٩ ، يصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٨٥ ، فتح الرحمن ص ١٨٢ .
(٢) يراجع هذا الوجه في ملاك التأويل ج ٣ ص ٣٩٨ .

(٣) نظم الدرر ج ٢ ص ٥٢ .

(٤) السابق ج ٣ ص ٤١٠ .

بمن اسم الفاعل واسم التفضيل

ومن الفروق في المشتبهات التعبير باسم الفاعل في موضع وباسم التفضيل في موضع آخر من نفس الآية ، كما في قوله (تعالى) في معرض ذم المنكرين الجاحدين من كفار مكة .

• لَا جِزْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ^(١) ، وفي موضع آخر :
• لَا جِزْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ^(٢) .

حيث عُرِّبَ باسم التفضيل " الْخَاسِرُونَ " في الأولى ، واسم الفاعل " الْخَاسِرُونَ " في الثانية والفرض من الآيتين في الموضعين واحد ، وهو الجالفة في إثبات الخسران لهؤلاء الكفار في الآخرة ، وذلك بتعريف طرفي الجملة المتضمنة هذا الإثبات ، وتوسط ضمير الفصل لهما . غير أن هذه الجالفة أرقوى في الأولى منها في الثانية ، لاستخدام اسم التفضيل في وصفهم بالخسران .

ومر الاختلاف في الموضعين أن سياق الأولى يدل على أن المقصودين بهذا الوصف طائفة خاصة من الكفار ، تَمَيَّزَتْ بِأَفْعَالٍ شَنِيعَةٍ ، استحقوا بسببها مضاعفة العذاب عليهم ، وتأكد الخسران الذي ينتظرهم . وأهم ما يميزهم في هذا السياق أنهم لم يكتفوا بعد أنفسهم عن سبيل الله ، بل صَدُّوا غَيْرَهُمْ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا ^(٣) ، واقترأوا على الله كذبا ، ولذا ذمهم المولى (عز وجل) فيه بأوصاف كثيرة ، آخرها هذا الوصف ^(٤) ، الذي يتناسب اجترأاتهم .

أما سياق الثانية فيدل على أن المراد بالكفار المقصودين بهذا الوصف طائفة أخرى غير الطائفة السابقة التي ضلت واضلت . هذه الطائفة تحدث عنها المولى (عز وجل) في هذا السياق فقال : " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ " ^(٥) ، ولم يذكر عنهم ما يوجب مضاعفة العذاب ، وتأكد الخسران تأكيداً زائداً

- (١) هود / ٣٢ . (٢) النحل / ١٠٩ .
(٣) كما تفيد الآية في الحديث عنهم : " الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَمْنُونَهَا غُجْجًا " .
(٤) راجع الآيات / ١٣ - ٢٠ ، وتفسيرها في الكشاف ج ٢ ص ٢٦٤ ، مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٤٨ - ٥٠ ، تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٣٩ .
(٥) الآية / ١٠٢ ، راجع الآيات / ١٠٤ - ١٠٩ ، وتفسيرها في مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٣٥٦ .

كالأولى ، فاكثُرَ باسم الفاعل في نسبة الخسران لهم في هذه الآية (١) .

وتبع هذا الوجه من طريق اللفظ موافقة الآية الأولى للآيات المتقدمة عليها ، الدالة على المفاضلة ، بقوله (تعالى) : " أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنٍ مِّن رَّبِّهِ " (٢) إذ التحدير :
 أمَّنْ كان على بينه من ربه كمن كثر وجهه وكذب بالرسول ، وقوله (تعالى) : " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا " (٣) وهو صريح مفاضلة وتتابع الآيات في وصف
 الكفار ، وعرضهم على ربهم إلى ذكر مضاعفة العذاب لهم إلى وصفهم بالخسران فسي
 هذه الآية ، وأكثرها يشير إلى التفاضل أو التفاوت يقول ابن الزبير : " فناسب لفظ
 (الأخرين) بصفه التفاضل ومقصود التفاوت ما تقدم بما يفهم ذلك ، من قوله (تعالى) :
 " أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنٍ مِّن رَّبِّهِ " ، وأعمل من كذا في قوله : " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ
 عَلَى اللَّهِ كَذِبًا " والآيات من لدن قوله : " أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنٍ مِّن رَّبِّهِ " إلى قوله : " لهم
 الأخرى " مبيِّنات على ما ذكرناه ، غير خارجة عن هذا المقصود . ولو ورد هذا
 " الخاسرون " مكان " الأخرين " لتنافر النظم ، وتباين السياق ، ولم يتناسب (٤) .

وكذلك موافقة الآية الثانية للآيات المتقدمة عليها ، حيث لا مفاضلة قبلها ، ولا
 ما يفهم منه التفاوت ، وإنما ختم الآيات قبلها في الحديث عن هؤلاء الكفار بأوصاف خرجت
 في صيغة اسم الفاعل المجموع جمع سلامة ، كما جاء في نفس الآية ، وهي : كاذبون - كافرون -
 غافلون - خاسرون (٥) يقول ابن الزبير : " وأما آية النحل فلم يقع قبلها فعل التسي
 للمفاضلة والتفاوت ، ولا ما يفهمها ، وإنما قبلها (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ
 اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ
 وعد هذا إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ وعد هذا وَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الْغَافِلُونَ فتأمل هذه الفواصل واتفاقها في اسم الفاعل المجموع جمع السلامة في قسم
 متفق الأحوال في كثرهم إلى أن ختم وصفهم وما قصد من ذكرهم بقوله : (لَأَجْمَعُنَّهُمْ فِي الْأَخِرَةِ)

(١) يراجع هذا الوجه في : درة التنزيل ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، أسرار التكرار ص ١٠٦ بمأثر
 ذوى التمييز ج ١ ص ٢٤٨ ، نظم الدرر ج ٣ ص ٩٤ ، فتح الرحمن ص ١٦٥ .

(٢) الأبيات ١٢ /

(٣) الأبيات ١٨ /

(٤) ملك التأويل ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٥) في الأبيات ١٠٥ / - ١٠٩ .

هُمُ الْخَاسِرُونَ " فتناسب الآي في السياق والفواصل ، وختب بشل ما به بدئت ، ولم يكن لمناسب ماورد هنا لفظ الفاضلة ، إذ ليس في الكلام ما يستدعي ذلك ، لامن لفظه ولا من معناه " (١) .

وتبعه - أيضا - من طريق اللفظ توافق الفواصل المتجاورة في الموضعين ، من ناحية تكوين المقطع الأخير ، فهو في فاصلة الأولى مع الفواصل المتجاورة مَكُونٌ من واو ونون قبلهما متحركان " (٢) وفي فاصلة الثانية مع الفواصل المتجاورة في الآيات المختتمة بأوصاف الكافرين ، مَكُونٌ من واو ونون ، أو يا ونون ، مضبوطين بمتحرك قبله مد (٣) .

* * *

بين الماضي والمضارع

ومن الفروق في المشتبهات التعبير بالفعل ماضيا في موضع ، ومضارعا في موضع آخر (٤) كما في قوله (تعالى) من سورة الأنعام :

" إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (٥) ، ومن سورة القلم :

" إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ يَمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (٦) .

حيث عبر بالفعل " يَضِلُّ " في الأولى ، والفعل " ضَلَّ " في الثانية ، مع أن الزمن بالنسبة له (مبطنه) واحد ، لافرق بين ماضى ومضارع ، ومع أن المعنى في الآيتين واحد ، وهو : أن الله (عز وجل) يعلم أحوال من ضل عن سبيله ، ومن يضل ، كيف كان ابتداء هذا الضلال ، وما يكون من مآله ؟

كما يعلم أحوال المهتدين من عباد ، الذين استمعوا للحق فآمنوا به وانقادوا إليه ،

(١) ملاك التأويل ج ٣ ص ٣٣٣ . (٢) كما في : يهترون - يفترون - أخسون .

(٣) كما في : كاذبون - كافرين - غافلون ، ويراجع هذا الوجه في : درة التنزيل

ص ٢٢٠ ، أسرار التكرار ص ١٠٦ ، بعائر ذوى التمييز ج ١ ص ٢٤٨ .

(٤) الفروق من هنا تتعلق بأحوال الأفعال والحروف ، وقد تعلقت فيما سبق بأحوال الأسماء

(٥) الآية / ١١٧ . (٦) الآية / ٧ .

وما يَدُّ خِرْلَهُم من ثواب عظيم .

وقبل الحديث عن توجه هذا الفرق يلاحظ أن "أَفْعَلَ مِنْ" أكثر ما يُستخدم في اللغة مع الفعل الماضي ، كقولهم : أعلم من دَبَّ ودَرَج ، وأحسن من قام وقعد ، وأفضل من حج واعتمر (١) الخ .

وعلى ذلك فما جاء في الآية الثانية جارٍ على الاستعمال الكثير في اللغة . وفي القرآن ما يؤيد هذا الاستعمال الكثير ، حيث تكرر التعبير بالفعل "ضَلَّ" ماضيا مع "أعلم" قبله في قوله (تعالى) من سورة النحل : " اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْظِعِ الْحَسَنَةِ وَجَاهِ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (٢) ، وفي قوله (تعالى) من سورة النجم : " ذَلِكَ مَتْلَفُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى " (٣) .

أما سر الاختلاف فهو مراعاة السياق في الموضعين ، من جهة أن مدار الكلام في سياق آية الأنعام حول أمر مستقبل ، يقرر قاعدة إيمانية ماضية إلى الأبد ، فيما يتصل بالعقيدة وشئون الدين ، كما نجد في قوله (تعالى) قبل هذه الآية : " وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ " (٤) وفيما جاء بعدها : " وَإِنْ كَثُرَ لَوْضُلُونَ بِأَهْوَائِهِمْ يَغْتَرِ عَلَيْهِمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ " (٥) ، " إِنَّ الدَّيْسَانَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ " (٦) ، حيث نجد الحديث عن المستقبل وما يقع فيه من الكفار واضح في الآيات ، فجاء بالفعل "ضَلَّ" ضارعا لمتناسب مع هذا السياق ، وإن كان من حيث الاستعمال مع أفعل قبله على غير الكثير الشائع . والمعنى : أن علمه (عز وجل) محيط بمن سضلون أو يزيدون في ضلالهم ، وإلام يصورون في هذا الضلال ؟

-
- (١) يراجع في هذا : أسرار التكرار ص ٧٤ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٩٨ ، فتح الرحمن ص ١٠٦ .
 (٢) الآية / ١٢٥ .
 (٣) الآية / ٣٠ .
 (٤) الآية / ١١٦ .
 (٥) الآية / ١١٩ .
 (٦) الآية / ١٢٠ .

ومدار الكلام في سياق الثانية حول قوم ضلوا بالفعل ، وهم كفار قريش ، الذين
أظهروا ضلالهم في قولهم عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) : مجنون ، وعن القرآن
الكريم : محر ، كما أشارت الآيات قبل^(١) ، فجئ بالفعل ماضيا في هذه الآية ، ليناسب
حال المتحدث عنهم ، وهم الذين ضلوا ، ولما فيه من إشعار بتسجيل الضلال عليهم ، فهم
يما ذهبوا إليه من آراء في كتاب الله (تعالى) وفي رسوله (صلى الله عليه وسلم) قد
أصبحوا من الضالين ، والله (سبحانه) يعلم أحوالهم في هذا الضلال ، كما يعلم أحوال
المهتدين من عباده^(٢) .

وكذلك ما جاء في آيتي النحل والنجم ، ففي آية النحل تقدم الأمر بالدعوة إلى سبيل
الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتقوى أحسن ، وهذا لا يكون إلا مع من ضلوا ،
ويراد بهذه المعالجة الحكمة جذبهم إلى طريق الإيمان ، فجئ بالفعل " ضل " في الزمن
الناصب لحالهم ، وهو زمن الماضي .

والقصد بالضالين في هذا الموضع كفار قريش - أيضا - الذين ضلوا بحمزة عم
النبي (صلى الله عليه وسلم) في غزوة أحد ، فحزن (صلى الله عليه وسلم) أشد الحزن ،
وتوعدهم بأن يقتل منهم سبعين رجلا مكانه ، فنزلت هذه الآية وما بعدها تبين له (صلى
الله عليه وسلم) ما يجب عليه إزاءهم ، وعلى المؤمنين من بعده ، المقتدين به في مواجهته
أمثالهم^(٣) .

أما آية النجم فتقدمها الحديث في آيات كثيرة عن الضالين من كفار مكة ، الذين
سأوا الملائكة تصدبه الأنثى ، وأعرضوا عن ذكر رسوله ، وأثروا الحياه الدنيا^(٤) . وهؤلاء
يناسبهم الفعل في الزمن العاضى ، كما جاء في الآية .

ويشير ابن الزبير إلى وجه آخر في هذه الآية ، فيقول : " وأما آية النجم فمبينه على
مطلع السورة ، من قوله (تعالى) : وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * كَمَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ " ^(٥) فقال

-
- (١) الآيات ٣/ - ٦ .
(٢) يراجع هذا الوجه في : درة التزويل ص ١٢٨ - ١٢٩ ، ملك التأويل ج ٢ ص ٢٢٤ ، كشف
المعاني ص ٥٧ .
(٣) الآيات ١٢٦/ - ١٢٨ ، وينظر تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٣٥ ، وأسباب النزول ص ١٩١ .
(٤) تراجع الآيات ١٩/ - ٢١ .
(٥) الآيتان ١/ - ٢ .

مشيراً إلى حالهم : ٠٠ ٠ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ؟
فَبَرَأْنَاهُ (صلى الله عليه وسلم) ما نسبوا إليه ، وأثبت لهم ذلك بكنايته وتعريضه أوسع
في نفوسهم من الإفصاح بتعريفهم (١) .

ومن هذا الوجه في الآية يمكن أن كَسَبَتْ وجهها آخر من طريق اللفظ ، وهو موافقه
الفاصلة في الآية لما تقدمها في السورة من فواصل وما جاء بعدها في موضعها ، حيث انتهت
جميعها بالآلف القصورة .

وتبع هذا الفرق فسرق آخر ، يتشمل في دخول " الهاء " على " من " بعد " أعلم " .
في آيات القلم والنحل والنجم ، وعدم دخولها في آية الأنعام .

ومر ذلك أن الآية في الأنعام لما جاء الفعل " أعلم " فيها مع الفعل " يَضِلُّ " قُطِعَتْ
الإضافة بين " أَعْلَمَ " و " مَنْ " حيث نُفِثَ بلفظ المستقبل " يَضِلُّ " على قطعها ، وانتفى مع
قطعها مظنة الضلال بالنسبة لله (عز وجل) التي تُثَوِّمُ مع الإضافة ، وصار المعنى : أن الله
يعلم من يضلون عن سبيله في المستقبل . . . ولم تحتج الصياغة إلى حرف الجر " الهاء " .
الذي لوجه هنا ، لكان من قبيل الحشو .

أما الآيات الأخرى ، فلما كانت الإضافة فيها مؤكدة ، لاستعمال " أعلم " مع الفعل
الماضي " ضَلَّ " ، احتاج النظم إلى هذه " الهاء " الداخلة على " من " لئلتفى المعنى
التثوِّم من هذه الإضافة ، وهو أنه أعلم الضالين عن سبيله (تعالى لله عن ذلك علواً
كبيراً) (٢) ؟

وهكذا يحتاط النظم القرآني للمعنى في هذه الآيات بذكر الهاء ، كما احتاط لله
في الآية الأخرى بحذفها حتى لا تكون من قبيل الحشو .

وذكر ابن الزبير أن سقوط الهاء في آية الأنعام يرجع لاستقلال زيادتها مع الزيادة
اللازمة للمضارع القريب منها ، وهو الفعل " يَضِلُّ " ، ووجودها في بقية الآيات للتأكيد لأن الفعل

(١) ملاك التأويل ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) يراجع هذا الوجه في : أسرار التكرار ص ٧٤ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٩٨ ، ،
كشف المعاني ص ٥٧ ، فتح الرحمن ص ١٠٦ .

"ضل" بعدها ماض^(١) . وهو توجيه بعيد ، ومع بعده لا يوضح الغرض من التأكيد في الآيات التي ذكرت فيها الباء .

وقبل - أيضا - إن حذف الباء من آية الأنعام موافقة لقوله (تعالى) بعد :
 " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ " ^(٢) . وضعفه ظاهر ، حيث إن الآية الثانية تقع بعد الأولى بست آيات ، ولا تناسب بينهما ، لا معنى ولا لفظا .

* * *

بمن التذكير والتأنيث في الفعل (٣)

ومن الفرق في المشتبهات مجئ الفعل بتاء التأنيث في موضع ، وبغيرها في موضع آخر ، والفاعل واحد ، كما في قوله (تعالى) مُصَوِّرًا مآل الصراع بين نبيه صالح (عليه السلام) وقومه :

" فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ " وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْحَوْا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ^(٤) .

وقوله (سبحانه) مصورا هذه النهاية - أيضا - بين نبيه شعيب (عليه السلام) وقومه :

" وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْحَوْا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ " ^(٥) .

حيث التفتت تاء التأنيث بالفعل "أخذ" في الموضع الثاني ، ولم تلتحق به في الموضع الأول ، مع أن الفاعل واحد فيهما وهو "الصيحة" التي أخذت الذين ظلموا من القومين .

وقبل الحديث عن توجيه هذا الفرق يلاحظ أن قواعد اللغة تجوز الحاق تاء التأنيث

(١) ملك التأويل ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٢) الآية ١٢٤ / ، ومراجع الوجه في أسرار التكرار ص ٧٤ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٩٨ ، فتح الرحمن ص ١٠٦ .

(٣) تعبير شائع في كتب المتشابه ، يلاحظ فيه التجوز : لأن التذكير أو التأنيث إنما يكون للفاعل ، لا للفعل ، وما يلحق بالفعل علامة فقط .

(٤) هود ٦٦ / - ٦٧ .

(٥) هود ٩٤ / .

بالفعل وتجريده منها إذا كان الفاعل مؤنثا مجازيا ، سواء حدث فصل بين الفعل وفاعله
أم لم يحدث ، إلا أنه مع الفصل يحسن حذف التاء ، وكلما كثر الفصل حسن الحذف .
وفي اللغة : اللفظ مذكورة ، قد يُلَمَح في معناها التانيث فيُشار إليه ^(١) ، كلفظ " صوت " في قول الشاعر :

يَأْتِيهَا الرَّكِيبُ الْعُزْجِيُّ مَطْبِيتَهُ سَائِلُ بَنِي أَسَدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ

فقد أراد به الصيحة ، فأشار إليه بلفظ التانيث " هذه " .
وفي اللغة - أيضا - اللفظ مؤنثة ، قد يلاحظ في معناها التذكير ، فتعامل معاملة
المذكور ، منها لفظ " الصيحة " الوارد في الآيتين السابقتين ، إذ يأتي - أحيانا - بمعنى
الصباح ^(٢) .

وعلى ذلك فالحاق التاء بالفعل " أخذ " أو تجريده منها ، من الأمور الجائزة لفقه
موا ، سرنا على أن " الصيحة " مؤنث مجازي ، أو على أنها لفظ مؤنث ، قد يلاحظ فيه معنى
التذكير .

هذا من ناحية الاستعمال اللفظي . أما الحديث عن سر تخصيص كل موضع بما جاء
فيه - وهو موضع الاهتمام في هذه الدراسة - فيتضح فيما يلي :

ذكر البقاعي أن تذكير الفعل في قصة صالح فيه دلالة على التعظيم وقوة الأخذ ،
لجيشه عقب قوله (تعالى) : " إِنَّ رَبِّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ " حيث يُشعريان من مظاهر
القوة والعزة هذا الأخذ الشديد للذين ظلموا . كما يُشعريان الصيحة كانت بجانب قوم
صالح أشد وأعنف منها بجانب قوم شعيب .

وتأنيثه في قصة شعيب للدلالة على أنه دون الأخذ الأول في قصة صالح ، لأن قوم
شعيب كانوا أضعف من قوم صالح ^(٣) .

وهكذا يتميز الأخذ في الموضعين ، كما تتميز الصيحة فيهما ، بذكر التاء وحذفها .

(١) بأي إشارة تدل على إرادة التانيث ، كالحاق التاء بالفعل ، أو استعمال اسم الإشارة
للمؤنثه الخ .

(٢) يراجع في هذا : درة التزيل ص ٢٢٤ ، بدائع الفوائد ج ١ ص ١٢٥ ، ملك التاويل
ج ٢ ص ٢٣٩ (٣) نظم الدرر ج ٣ ص ١٤٧ .

وَيُقَوَّى هذا التوجيه مانراه من اختلاف النظم فى الموضعين ، مع أن الغرض واحد ،
ففى الموضع الأول جاء الحديث عن نجاه صالح (عليه السلام) ومن آمن معه فى آية مستقلة ، ختمت
بصفى القدرة والعزة لله (عز وجل) الذى أنجاهم . ثم الحديث عن اهلاك القسوم
الظالمين فى آية أخرى مستقلة .

على حين جاء الحديث عن هذا كله بالنسبة لشعيب (عليه السلام) وقومه فى آية واحدة
خلت من الحديث عن صفى الحق (عز وجل) السابقتين ، وعن الخزى الذى لحق بالظالمين
منهم كما لحق بالظالمين من قوم صالح .

وذكر ابن قيم الجوزية وجهين آخرين ، نقل الأول منهما عن السهيلي ، وخلاصته :
أن الصيحة فى قصة صالح (عليه السلام) بمعنى العذاب والخزى ، لأنها متصلة بقوله (تعالى)
قِيلَ : " وَمِنْ خِزْيٍ يُؤْتِيهِ إِنْ رَكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ " ، فصارت عبارة عن ذلك الخزى ،
وعن العذاب المذكور فى الآية ، فتوى التذكرة . بخلاف قصة شعيب فإنه لم يذكر فيها ذلك (١) .

ومقب بالثانى عليه ، فقال : " وعندى فيه جواب أحسن من هذا إن شاء الله ،
وهو أن الصيحة يُراد بها الصدر بمعنى الصباح ، فيحسن فيها التذكير ، ويراد بها الواحدة
من الصدر ، فيكون التأنيت أحسن . وقد أخبر الله (عز وجل) عن العذاب الذى أصاب
به قوم شعيب بثلاثة أمور كلها مؤنثة اللفظ ، أحدها : الرَّجْفَةُ فى قوله : " فَأَخَذَتْهُمُ
الرَّجْفَةُ فَأَصْحَوْا فِى دِيَارِهِمْ جَانِبِينَ " (٢) ، الثانى : الظُّلَّة فى قوله : " فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ
يَوْمِ الظُّلَّةِ " (٣) . الثالث : الصَّيْحَةُ فى قوله : " وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ " (٤) . وجمع
لهم بين الثلاثة ، فإن الرجفة بدأت بهم فأصحبوا إلى الفضاء خوفا من سقوط الأبنية عليهم ،
فصهرتهم الشمس بحر ها ، ورفعت لهم الظلة فأهرعوا إليها يستظلون بها من الشمس ، فنزل
عليهم منها العذاب ، وفيه الصيحة ، فكان ذكر الصيحة مع الرجفة والظلة أحسن من ذكر الصباح
وكان ذكر " التاء " والله أعلم " (٥) .

(١) بدائع الفوائد ج ١ ص ١٢٦

(٢) الأعراف ٩١ / وكذلك الآية ٣٧ من سورة المنكوت ولم يشر إليها .

(٣) الشعراء ١٨٩ .

(٤) آية هود السابقة .

(٥) بدائع الفوائد ج ١ ص ١٢٦ .

وهذا الوجه الذى نسيه عنه كما يلاحظ فى صدر حديثه - سبق أن ذكره
الامكانى ، ثم الكرمانى نقل عنه ^(١) . وعندما نعيد النظر فيه على ضوء الآيات القرآنية
التي أخبرت عن العذاب فى القصتين نجد أن الأحق بالتأنيث - بناءً على العلة المذكورة
فيه - الفعل فى قصة صالح ، لأن القرآن أخبر فى أماكن كثيرة عن عذاب قوم صالح بالفاظ
مؤنثة ، وهى : الطَّائِفَةُ : فى سورة الحاقة ^(٢) ، وَالصَّاعِقَةُ فى سورتي فصلت ^(٣) والذاريات ^(٤)
وَالرَّجْفَةُ فى سور الاعراف ^(٥) وهود ^(٦) والمنكسوت ^(٧) . وهذه الالفاظ أكثر من الالفاظ المؤنثة
التي وردت فى الأخبار عن عذاب قوم شعيب .

وعلى ذلك فالوجه الذى ذكره السهيلي أولى بالقبول من هذا الوجه ، ولا يتناقض
مع ما ذكره البقاعى ، بل يضيف سرا آخر للتذكير فى آية صالح (عليه السلام) .

وقال الكرمانى : " التذكير والتأنيث حسان ، لكن التذكير أخف فى الأولى بحذف
حرف منه ، وفى الأخرى وافق ما بعدها ، وهو : " كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ " ^(٨) .

وهو توجيه بعيد والمتكلف فيه ظاهر .

* * *

(١) يراجع درة التزليل ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، أسرار التكرار ص ١٠٩ .

(٢) الآية / ٥٠ .

(٣) الآية / ١٢ .

(٤) الآية / ٤٤ .

(٥) الآية / ٢٨ .

(٦) الآية / ٦٢ .

(٧) الآية / ٤٠ .

(٨) أسرار التكرار ص ١٠٩ ونقله الفيروز آبادى فى بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ٢٥٢ .

بين ورود الفعل على الأصل ووروده على

صفة الافتعال

ومن الفروق في المشتبهات مجيء الفعل على الأصل في موضع وعلى صيغة الافتعال

في موضع آخر ، كما في قوله تعالى :

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّْي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^(١) ، وقوله :

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّْي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا

يُضِلُّ وَلَا يَشْقَى ^(٢) .

حيث جاء الفعل "تبع" في الأولى على الأصل ، وفي الثانية على صيغة افتعال، مع

أن القصة واحدة في الموضعين .

والخطاب في في الآيتين بالهبط ، وباتباع هدى الله (عز وجل) آدم وحواء ،

وذريتهما من بعدهما ، لأنهما لما كانا أصل الإنس جملا كأنهما الإنس كلهم ، بدليل قوله

سبحانه (في الآية الأولى :

فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " وفي الثانية : فَمَنِ اتَّبَعَ

هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى " ، وقوله بعد الأولى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ^(٣) . وما هذا إلا حكم يعم الناس كلهم ، وسنة الله في جميع

خلقه ، وتعريف منه (سبحانه) للذين أخرج عنهم في أول سورة البقرة بقوله : إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ^(٤) ، وقوله : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا

بِاللَّهِ هِيَ الْآخِرَةُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ^(٥) . من تاب منهم وأتاب وتبع ما جاء من البيان يكون

في الآخرة من لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن مات على ضلاله وكفره ، كان من أهل النار

المخلدين فيها . ويدخل في الخطاب أيضا - إبليس ، لأنه سبب العصيان ، وله ذريته

(١) البقرة / ٣٨

(٢) طه / ١٢٣

(٣) البقرة / ٣٩

(٤) البقرة / ٦

(٥) البقرة / ٨

الماتلة لذرية آدم .

والمراد بالهدى كتب الله وشرائعه ، أو رسله ، وهم الى آدم من الملائكة ،
والى بنى آدم من البشر ، أو التوفيق للهداية التى جاء بها الأنبياء (عليهم السلام) .
وكلها أقوال متقاربة ، ولا يستغنى بعضها عن بعض فى توضيح المراد باتباع هدى الله .^(١)

أما الفعلان "تبع" و "اتبع" فالثانى منهما فرع عن الأول^(٢) ، وصيغة "افتعل"
التي جاء عليها تدل على التكلف والمشقة فى الفعل . وعلى ذلك فمعنى "تبع" فى الأولى :
تبع طواعية من غير مشقة ومجاهدة . ومعنى "اتبع" فى الثانية : اتبع بشقة ومجاهدة
لنفس وتحصيل لها . . . وهذا هو الاستعمال المطرد لهما فى مواضع أخرى من القرآن ،
كما فى قوله (تعالى) مخاطبا من وسم بالإسراف فى المخلوقات ، من عصاة الموحدين :
"**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**" .^(٣) حيث عبر بالفعل "اتبع" وذلك لألفتهم المخلوقات
وانقياد نفوسهم لها ، حتى احتاجوا فى الإقلاع عنها ، والأخذ فى خلاف حالهم إلى التعمُّل
والعلاج .^(٤)

وكذلك قوله (تعالى) خطاب من ألف الطاعات وارتاض لالتزامها : **لَا تَبْغِيُوا**
خُطُواتِ الشَّيْطَانِ .^(٥) وذلك لألفة نفوسهم الطاعات ، حتى إن وقعت منهم مخالفة
فتمتثل وعلاج ، لأنها خلاف المألوف .^(٦)

وكما فى قوله تعالى حكاية عن الخليل إبراهيم (عليه السلام) : **مَنْ تَتَّبِعَنِ فَإِنَّهُ**
مِنَ الْغَالِبِينَ .^(٧) حيث عبر بالفعل "تبع" وذلك لأنه أشار فى قوله (مِنِّى) إلى الخاصة من
مالكى صبيه ، فعبر بها بشيوائى غاية التصك والقرب . . . فتناسب ذلك (تَعْنَى) بريد
الجري على مقتضى الفطرة ، ويميز الحق بدبيها بسابقه التوفيق ، من غير إطالة نظـر
أو كبير علاج . . .^(٨)

(١) يراجع فى هذا : تفسير الطبرى ج ١ ص ٥٥٠ - ٥٥١ ، والكشاف ج ١ ص ٢٢٤ ، ص ٥٥٢ .

تفسير القرطبي ج ١ ص ٣١٩ ، روح المعاني ج ١ ص ٢٣٩ ، نظم الدرر ج ١ ص ٩٨ .

(٢) لأنه مزيد عليه وهذه الزيادة تنهى عن زيادة فى المعنى ، هى ما تدل عليه صيغة افتعل .

(٣) الزمر / ٥٥ (٤) ملاك التأويل ج ٢ ص ٣٢ - ٣٣

(٥) النور / ٢١ (٦) ملاك التأويل ج ٢ ص ٣٣

(٧) إبراهيم / ٣٦ (٨) ملاك التأويل ج ١ ص ٣٢

وقد اختصت الآية الأولى بالفعل على الأصل ، والثانية بالفعل على صيغة " أفعل " لمناسبة السياق في الموضعين من جهات مختلفة :

فسياق الأولى لم يرد فيه من أمر إبليس سوى ما أخبر به (تعالى) من قوله : **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا** ^(١) من غير تعرض لكيفية تناوله ما فعل ، ولا إبداء علة ، ولا كيهن معالجة ، والمدعو إليه فيه مطلق عبادة ، فناسبه الفعل " تبع " إذ المقصود بالاتباع هنا ما يصدق عليه أدنى اتباع وأقله ، ولذا جاء الجواب عليه ^(٢) فيها ، بنفى الخوف والعز ، وهو أقل من الجواب عليه في الأخرى .

أما سياق الثانية فقد ذكرت فيه كيفية إغواء إبليس ، وذلك في قوله (تعالى) حكاية لما قاله إبليس لآدم : **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى** ^(٣) . وقد أجملت هذه الآية ما ورد مفصلاً في سورة الأعراف قبلها من قوله (سبحانه) حكاية لما قاله إبليس أيضاً : **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ^(٤) . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ^(٥) . مما يفهم قوة كيد اللعين ، واستحكام حيلته ، حتى اختصك الكثير من ذرية آدم ، وحلهم على عبادة الطواغيت ... فصار تمييز الحق من الباطل لا يحصل إلا بمعالجة وتعمل ، ولهذا اختير الفعل " اتبع " على صيغة " أفعل " .

ولأن المدعو إليه في هذا السياق الخشية - بناءً على ما جاء مطلع السورة - ^(٥) والتحذير من النسيان ، كما ألمحت الآيات قبل ^(٦) ، والمناسب لهذا اتباع هدى الله بنشاط وجه . ^(٧)

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | البقرة / ٣٦ |
| (٢) | على فعل الشرط " تبع " |
| (٣) | طه / ١٢٠ |
| (٤) | الأنبياء / ٢٠ - ٢١ |
| (٥) | قوله (سبحانه) : إِلَّا تَذْكُورُ لِّمَن يَخْشَى " الآية / ٣ |
| (٦) | الآيات / ١١٥ - ١٢١ |
| (٧) | مراجع: ملاك التأويل ج ١ ص ٣٣ - ٣٤ ونظم الدرر ج ١ ص ٩٨ ، ج ٢ ص ٣٨٥ |

كذلك جاء التعبير بالفعل "تبع" في الأولى ، والفعل "اتبع" في الثانية ، لأن سياق الثانية ورد فيه التصريح بمعصية آدم ، بخلاف سياق الأولى ، فقد ورد فيه التلميح فقط بهذه المعصية . (١)

ولأن القصة من أولها في سياق الثانية بنيت على التأكيد ، كما في قوله (تعالى) "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ كُنْهِ الْآيَاتِ" فناسبها الاختصاص بالزيادة المفيدة للتأكيد في الفعل "اتبع" . (٢)

وقيل : إن اختيار "اتبع" في الثانية ليوافق الفعل قبله في قوله (تعالى) : "يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَعِوجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمًّا" (٣) . وهو توجيه من طريق اللفظ ، يمكن أن يقبل تبعاً للتوجيهات السابقة ، لا على أنه توجيه مستقل . وقال أحد الباحثين : "الآية في البقرة نزلت بالمدينة ، والآية في طه نزلت بمكة الأول يناسبه تخفيف الفعل ، لأن الإسلام قد صار عزيزاً واتباعه مبسوراً ، وأكثر المخاطبين بالآية سليم الفطرة ، والثاني يناسبه تشديد الفعل ، لأن الدين كان غريباً ، يحتاج اتباعه إلى شد العزم ، وأكثر المخاطبين مدخول الفطرة" (٤)

وهو توجيه يقيد المعنى بوقت معين في الآيتين ، ويتعارض مع عمومية القسـر أن كما أنه مبنًى على مراعاة الترتيب بين السور من جهة النزول ، والتوجيهات المبنية على هذا ضعيفة ، كما سبق . (٥)

وفي الآيتين فروق أخرى غير هذا الفرق وهي :

إسناد فعل القول إلى ضمير المتكلم (المعظم نفسه) في الأولى ، وإلى ضمير الغائب في الثانية .

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | ينظر كشف المعاني ص ٣٠ |
| (٢) | ينظر فتح الرحمن ص ٥٤ |
| (٣) | جاء في أسرار التكرار ص ٢٦ ، وصائر ذوى التمييز ص ١٤١ ، وجاء في فتح الرحمن ص ٥٤ مع الوجه السابق . |
| (٤) | د / الراجحي في "مشابه النظم في قصص القرآن" ص ٦٨ |
| (٥) | تراجع ص من هذا البحث |

وهذا الاختلاف يدل على تفاوت منزلة الخطاب لبني آدم - مثلين آدم وحوا -
 تبعاً لما ركز عليه السياق في الموضعين ، ففي الموضع الأول لم يرد ذكر لكيفية إغواء إبليس ،
 ولم يرد تصريح بمعصية آدم ، بخلاف الموضع الثاني فقد صرح فيه بالمعصية ، وبيّنت كيفية
 الإغواء - كما سبق - فجاء في الموضع الأول بما يدل على قرب المنزلة في الخطاب ، وذلك
 بإسناد فعل القول إلى ضمير المتكلم ، وفي الموضع الثاني بما يدل على بعد المنزلة ، وذلك
 بإسناد الفعل إلى ضمير الغائب ، فرقا بين السياقين ، وإن كان القائل فيهما واحداً وهو
 الله (عز وجل) .

وتبع هذا من طريق اللفظ مناسبة الآية الأولى للآية السابقة عليها ، حيث افتتحت
 بإسناد فعل القول إلى ضمير المتكلم - أيضاً - في قوله (سبحانه) : " وَإِذْ قُلْنَا
 لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ... " (١) .

ومناسبة الثانية للمتقدمة عليها ، بإذ الحديث فيها حديث الغائب ، ففي الأولى :
 " ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ... " (٢) ، وفي الثانية : " قَالِ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ... " .
 إسناد فعل الأمر " اهبط " إلى ضمير الجماعة في الأولى ، وإلى ضمير المثنى في
 الثانية .

وقد أوضحت فيما سبق المخاطب في الموضعين ، وبناءً عليه فما جاء في الآية الأولى
 جاء على الأصل . أما ما جاء في الثانية فهو من المثنى الذي يراد به الجمع ، وله نظائر
 في القرآن كثيرة ، والذي يدل على أن المقصود به الجمع قوله (تعالى) في نفس الآية :
 " جَمِيعًا " وقوله : " بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ " وقوله : " فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ " ... يقول الزمخشري
 معلقاً على الجملة الأخيرة : " لما كان آدم وحوا (عليهما السلام) أصلي البشر ،
 والمبنيين اللذين منهما نشأوا وخرجوا ، جعلاً كأنهما البشر في أنفسهما ، فخطباً مخاطبتهم ،
 قبل : " فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ " ... على لفظ الجماعة (٣) .

وسر الخطاب به هنا أن السياق فيه تفصيل عن إبليس وكيفية إغوائه ، وآدم وكيفية
 معيانه ، فكانت جهة الخطاب إليهما - أولاً - ويدخل فيه ضمنا ، حوا ، وذرية آدم وذرية
 إبليس .

ولعل من سره ٥ أيضا - بناءً على أن الخطاب لإبليس وآدم - الإشارة إلى
مؤلبة آدم بالدرجة الأولى عن معصيته ، لأن الرجل هو المسئول الأول ، والمرأة تابعة له ،
فهو قِيمُ أهله ، في شقائه شقاؤهم وفي سعاده سعادتهم . نظيره في نفس الموضع نسبة الشقاء
لآدم وحده ، مع أن الخطاب له ولزوجه في قوله (تعالى) : " فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ
فَتَشْفَى " (١) .

ذكر جملة "بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" ، في الثانية ، وعدم ذكرها في الأولى .
وذلك لأن الآية الأولى سبقت بآية أخرى فيها هذه الجملة ، وهي قوله (تعالى) :
"..... وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ " (٢)
أما الآية الثانية فقد جاءت فيها هذه الجملة ابتداءً ، وعلى ذلك تكون الجملة
قد تكررت في الموضعين .

اختلاف الخاتمة فيها .

وهذا الاختلاف راجع لاختلاف السياقين على النحو الذي سبق توضيحه في الحديث
عن الفرق الأول ، ومناسبة كل خاتمة لسياقها .
* * *

بين تعدية الفعل بالهمزة وتعديته بالتضعيف

ومن الفروق في المشتبهات تعدية الفعل بالهمزة في موضع ، وبالتضعيف في موضع
آخر ، كما في قوله (تعالى) في سورة النمل :

"وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" (٣) وفي سورة فصلت :

"وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" (٤) .

(١) ط / ١١٢ ، وكذلك في الآيتين التاليتين لهذه الآية .

(٢) البقرة / ٣٦ (٣) الآية / ٥٣ (٤) الآية / ١٨

حيث عُذِّي فعل النجاة في الأولى بالهمزة ، وفي الثانية بالتضعيف ، مع أن الأيتين
رفعتا في نهاية الحديث عن صالح (عليه السلام) وقومه في الموضعين .

والتعدي بالهمزة هو الأصل والأكثر في الاستعمال ، والتعدي بالتضعيف فرع عنه ،
وبدل على المبالغة في معنى الفعل ^(١) .

وقد اختير كل من الفعلين في موضعه رعاية لاختلاف السياقين ، من جهة أن الآية
الأولى خُتم بها الحديث عن صالح (عليه السلام) مع قومه ^(٢) ، ولم يلاحظ في التعقيب
بها ما جاور قصة صالح من قصص الأنبياء الأخرى المذكورة في نفس السورة ، وهي ذلك
فالمؤمنون الذين ظفروا بالنجاة فيها ، هم مؤمنوا قوم صالح فقط ، فجئ معهم بالفعل على الأصل
حيث لا حاجة تدعو للمبالغة في تكثير عدد الناجحين .

أما الثانية فالتعقيب بها وإن جاء في نهاية الحديث عن صالح (عليه السلام)
ففيه إلا أنه مقصود - أيضاً - بالنسبة لعاد قوم هود (عليه السلام) في هذا الموضع .
فقد تحدث القرآن عن القومين بالجمع - أولاً - في قوله (سبحانه) مخاطباً رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) : " فَإِنْ لَعَرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ " .
إِنَّ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ
مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ " ^(٣) .

ثم بالتقسيم - ثانياً - في قوله (سبحانه) عن عاد : " فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
فَنَبِّئِهِمْ أَنَّ قُوَّةَ رَبِّكَ أَوْلَىٰ بِهَٰذَا الْأَمْرِ مِنَ قُوَّتِهِمْ وَلَهُ الْأُولَىٰ " .
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِصَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِيهِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ " ^(٤) . وفي قوله (سبحانه) عن ثمود :
" وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَصَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ الْعَاصِيَةُ الْعَذَابَ الْهُونِ بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ " ^(٥) .

(١) مراجع : دُرّة التنزيل ص ١٥٤ ، ملاك التأويل ص ٢٦٢ ، نظم الدرر ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) في الآيات / ٤٥ - ٥٣

(٣) الايتان / ١٣ - ١٤

(٤) الايتان : ١٥ - ١٦

(٥) الآية / ١٧

ثم بالجمع - ثالثا - في هذه الآية : " وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ "

وعلى ذلك فالمؤمنون الناجسون في هذه الآية هم منسوقون هود وقوم صالح
معا ، وهم كثيرون بالنظر الى المؤمنين الناجسين في الآية الاولى ، فجاء معهم بالفعل على
الصيغة الدالة على الكثرة .

وتتبع هذا الوجه من طريق اللفظ مناسبة الفعل " أَنْجَيْنَا " في الآية الاولى
للفعل بعده في قوله (تعالى) من قصة لوط (عليه السلام) المجاورة : " فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ^(١) " .
وفي قوله : " وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ^(٢) " وللفعل - أيضا - في قوله (سبحانه) في نفس
السياق : " وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ^(٣) " ، فالأفعال كلها في السياق على صيغة
واحدة وهو صيغة " أَفْعَل " .

ومناسبة الفعل " نَجَّيْنَا " في الثانية للفعل قبله في قوله (سبحانه) : " وَزَيَّنَّا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِضَوَائِبٍ ^(٤) " وللفعل بعده ، في قوله (سبحانه) : " وَبِغُفْرَانٍ ^(٥) " .
لَهُمْ قُرُونًا ^(٦) " ، إذ جاءت كلها على صيغة " فَعَّل " .

والقوآن في عرضه لقصص الأنبياء ، يعطى للقصص المتجاورة في مكان واحد سمات خاصة
مشتركة من أحوال الألفاظ والجمل ، وما تبنى عليه من إجمال أو تفصيل .

ولذلك نرى الفعل " نَجَّيْنَا " الدال على كثرة الناجسين من قوم عاد وثمود في
الآية الثانية ، يتكرر في سياق الحديث عن عاد في سورة هود ^(٧) بهذه الصيغة ، لأنها
الصيغة الشائعة التي جاء عليها الفعل في القصص المجاورة ^(٨) . وليس
الفرض منه الدلالة على الكثرة ، كما تكرر في سورة الأعراف بالصيغة الاولى " أَنْجَيْنَا " ^(٩) لأنها
الصيغة الشائعة التي جاء بها الفعل - أيضا - في القصص المجاورة ^(١٠) .

- | | | | | | |
|-----|--|-----|------------|-----|------------|
| (١) | الآية / ٥٧ | (٢) | الآية / ٥٨ | (٣) | الآية / ٦٠ |
| (٤) | الآية / ١٢ | (٥) | الآية / ٢٥ | | |
| (٦) | يراجع في الحديث عن هذه المناسبة : أسرار التكرار ص ١٥٧ بمصادر ذوى التعميم | | | | |
| | ح ١ ص ٣٥١ ، فتح الرحمن ص ٢٥٩ ، مع ملاحظة أنها ذكرت في هذه الكتب بمسندة | | | | |
| | عن الوجه المعنوي السابق | | | | |
| (٧) | هود / ٥٨ | | | | |
| (٨) | فقد ورد في الآيتين / ٩٤ و ٦٦ من قصتي صالح وشعيب (عليهما السلام) بالإضافة إلى | | | | |
| | الآية السابقة من قصة هود (عليه السلام) | | | | |
| (٩) | الأعراف / ٢٢ | | | | |

وكذلك تكرر الفعل "نَجَّيْنَا" في قصة هود ، في سورة هود (١) للغرض السابق .

وقد يكون الغرض من تضعيف الفعل في سورة هود البالغة في معناه ، لا في كثرة عدد الناجحين كما جاء في آية فصلت ، وبذلك يكون استعماله لغرض معنى في السورتين بالإضافة إلى الغرض اللفظي فيهما .

وتحدث الإسكافي عن هذين الفعلين في بعض القصص القرآني ، فذكر أن أكثر ما جاء في القرآن منهما جاء على وزن "أَفْعَل" (٢) وليس الأمر كذلك ، فما جاء على وزن "أَفْعَل" تكرر في تسعة عشر موضعا بصيغة الماضي ، وفي أربعة مواضع بصيغة المضارع . أما ما جاء على وزن "فَعَّل" فقد تكرر في ثلاثة وعشرين موضعا بصيغة الماضي ، وفي سبعة مواضع بصيغة المضارع ، وفي ستة مواضع بصيغة الأمر ، وفي موضع بصيغة الماضي المنحصر للجهول ، بالإضافة إلى موضعين اشتق فيهما اسم الفاعل منه (٣) .

* * *

بين البناء للفاعل والبناء للمفعول

ومن الفروق في المشتبهات بناء الفعل للفاعل في موضع ، ولما لم يسم فاعله في موضع آخر (٤) كما في قوله (تعالى) عن المنافقين في سورة التوبة بعد أن ساق طائفة من أخبارهم وأحوالهم على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

"رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ" (٥) وفي موضع آخر

"... رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (٥) .

حيث بُنِيَ الفعل "طبع" للفاعل في الأولى ، ولما لم يسم فاعله في الثانية ، مع أن الحديث في الموضعين عن المنافقين ، الذين قعدوا عن الجهاد ، وتخلفوا بغير عذر ، وكذبوا الله ورسوله ، ورضوا بأن يكونوا من بين المهزومين والزمنى ، والنساء والضعفاء ، والفقراء الذين لم يجدوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهم ما يحملهم عليه فتولوا وأعينهم تخييض من الدمع .

(١) الآية / ٦٦ (٢) درة التنزيل ص ١٥٤
(٣) تراجع هذه المواضع في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مادة "نجو" ٦٨٩ - ٦٩٠
(٤) سبق مثال لهذا الفرق في ثنايا الحديث عن أمثلة الفروق السابقة
(٥) الآية ٨٧ (٦) الآية / ٩٣

وقد وصف القرآن قلوب هؤلاء المخلّفين بغير عذر في الآيتين بالطبع ، فأصبحت
لا تسمى عن الحق (سبحانه) مفهومة مخاطباء ، وجعلتهم يرضون بالدناءة والضعفة ،
وهو وصف من أوصاف كثيرة ، وصف الله بها قلوب التّفّار والمنافقين .^(١)

وخصّص الآية الأولى بالفعل "طبع" مبنياً للمجهول ، لوقوعها عقب قوله (تعالى)
في الحديث منهم : " وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا لِلَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو
الظُّلُمِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ " .^(٢) ، حيث لخصت هذه الآية موقفهم مع رسول
الله (صلى الله عليه وسلم) الذي فصله الآيات قبل ، من لدن قوله (سبحانه) :
" فَجَحِ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ " .^(٣) إلى هذه
الآية ، وهنا استشرفت النفوس لمعرفة سبب هذا التخلّف وداعى ذلك العصيان ، فجاءت
الآية - موضع الدراسة - ببيان ذلك ، وهو ما طبعت عليه قلوبهم من عدم الفهم عن الله
(عز وجل) وتدبر عواقب الأمور ، فركزت على محل الطبع مبنياً الفعل للمجهول . وعدم
التصريح بالفعل الحقيقي ، لعلمه من السياق ، كما ركز الحديث في الآية السابقة على
سبب الهداية ، الذي لم يلتفتوا إليه ، وهو السورة التي تدعوهم للإيمان بالله ، والجهاد
مع رسوله ، مبنياً الفعل أنزل للمجهول ، وإسناده إلى السورة ، مع العلم بالفعل الحقيقي
للانزال من السياق ، وهو الله (عز وجل) الذي أنزل السورة ، وطبع على قلوب المنافقين ،
والسورة هي سبب الهداية ، والقلوب المطبوعة هي التي أنكرت هذه الهداية ، ولم تلتفت
إليها .

وخصّصت الثانية بالفعل "طبع" مبنياً للمعلوم ، لوقوعها عقب الحديث عن المؤمنين المجاهدين
في سبيل الله ، وأصحاب الاعذار المقبولة ، الذين لا يقلون في الأجر والثواب عن إخوانهم حملة
الصّلاح والبكائين الذين تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون^(٥)

(١) راجع هذه الأوصاف والآيات الدالة عليها في تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٦ ط دار الكتب

(٢) الآية / ٨٦ (٣) الآية / ٨١

(٤) الآيات : ٨١ - ٨٦

(٥) تراجع الآيات / ٨٨ - ٩٢

حيث إن إعادة الحديث عن المنافقين بعد ذكر هؤلاء الذين استجابوا لله
ورسوله ، فيه نوع من المقابلة بين الفريقين ، البكائين الذين يريدون الخروج ولم يجسد
الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهم ما يحملهم عليه ، والأغنياء الذين يريدون القعود
بغير عذر إثارة للراحة والعافية في ظنهم ، فلما أُعيد الفعل " طبع " أظهر الفاعل الحقيقي ،
لزيد من التخويف والتهديد في سياق هذه المقابلة .

وللتأكيد على أن هذا الطبع إنما هو من الله (عز وجل) حقيقة بعدما علم
سرائرهم ونواياهم ، حتى لا يظن أن لهم مدخلا فيه ، وذلك على حد قوله (سبحانه)
في نفس الصورة : " ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ " (١)

وهذا التأكيد مناسب للتأكيد قبله في افتتاح الآية ، بقصر الائم والعقوبة عليهم
في قوله (عز وجل) : " إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ " الآية .

وقبله إن بناء الفعل للمجهول في الأولى مناسبة الفعل المبني للمجهول - أيضا -
" أنزل " في الآية السابقة عليها (٢) وهي مناسبة لفظية ، جاءت تبعا للتوجيه السابق
ولا تستقل بذاتها .

وذكر الإسكافي وابن جماعة أن بناء الفعل للمعلم في الثانية ، وما ترتب عليه من
التصریح بالفاعل فيه مناسبة للسطح الملحوظ في الحديث عن أصحاب الأعداء ، الذي من
ظواهره تكرار النفي لاتباع المعنى وتوكيده في قوله (تعالى) : " لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ
وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ " الآية (٣) . وفيه مناسبة
للتأكيد الآتي من طريق القصر في الحديث عن المنافقين أول الآية (٤) . والمناسبة هنا -
أيضا - لفظية يمكن قبولها تبعا للتوجيه الأول .

- (١) الآية / ١٢٢
(٢) راجع : درة التزيل ص ٢٠١ ، كشف المعاني ص ٦٨ - ٦٩ ، أسرار التكرار ص ١٠٠
بصائر ذوي التمييز ح ١ ص ٢٣٥ ، مفتاح الرحمن ص ١٤٢ ، البرهان في علم القرآن
ح ٣ ص ١٤٥ ، تفسير المنار ح ١ ص ٦٨٣
(٣) الآية / ٩١
(٤) راجع : درة التزيل ص ٢٠١ ، كشف المعاني ص ٦٨ - ٦٩

وقيل: إن بناء الفعل للمعلوم في الثانية محمول على ما تقدم من ذكر الله (تعالى) مرات ، في الآيات السابقة ، فكان اللاحق إظهاره مع الفعل " طبع " في هذه الآية ^(١) .

وهو توجيه ضعيف ، لأن الفعل في الموضعين مسبوق بذكر الله مرات عديدة مع أفعال أخرى ، ولا يوجد في الموضع الثاني ما يدل على تميزه بهذا الذكر عن الأول .

وفي الآيتين فرق آخر ، وهو اختلاف الفاصلة فيهما .

وذهب البقاعي في توجيهه إلى أن الأولى لما أُبهم فيها فاصل الطبع ، ناسبها نفى دقيق العلم عنهم في الفاصلة ، فقال (سبحانه) : " فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ " أي لا فقه لهم يعرفون به ما في الجهاد من العز والسعادة ، وما في التخلف من الشقاء والعار .

وأن الثانية لما صُرح فيها بفاعل الطبع ، ناسبها نفى العلم عنهم ، فقال (سبحانه) " فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " أي أنهم جهلوا ما في الجهاد من منافع الدارين ، فلذلك رضوا بما لا يرضى به عاقل ^(٢) .

وذهب الإسماعيلي وابن جماعة إلى وجه آخر ، يتلخص في أن المتحدث عنهم في الآية الأولى ، لو أنهم فهموا ما في الجهاد مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الأجر ، لما رضوا بالقعود ، فالموضع موضع فكر ودراية ، والمناسب له نفى الفقه .

أما الثانية فقد جاءت في الحديث عنهم بعد ذكر الباكين لفوات صحة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعلمهم بما في صحته من الفوز والمنزلة عند الله (تعالى) ، والمعنى على هذا ، لو علم المستأذنون ما علمه الباكون لما رضوا بالقعود ، ولكنهم لا يعلمون ، فالمناسب نفى العلم ^(٣) .

وكلا التوجيهين رائق ومقبول .

* * *

(١) مراجع : أسرار التكرار ص ١٠٠ ، بمائثر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٣٥ ، فتح الرحمن ص ١٤٢

(٢) نظم الدرر ج ٢ ص ٦٢٢ ، ٦٨٠

(٣) في التبيين ج ٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ ، ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ ، ١٤٧٧ ، ١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٠ ، ١٤٨١ ، ١٤٨٢ ، ١٤٨٣ ، ١٤٨٤ ، ١٤٨٥ ، ١٤٨٦ ، ١٤٨٧ ، ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، ١٤٩٠ ، ١٤٩١ ، ١٤٩٢ ، ١٤٩٣ ، ١٤٩٤ ، ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ ، ١٤٩٧ ، ١٤٩٨ ، ١٤٩٩ ،

بين البناء للواحد والبناء للجمع

ومن الفروق في المشتبهات بناء الفعل للواحد في موضع ، وللجمع في موضع آخر ، كما في قوله (تعالى) مَخْرًا رَسُولَهُ (صلى الله عليه وسلم) بأحوال المشركين :

” وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ” (١) ، وفي موضع آخر :

” وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ” (٢) .

حيث أسند الفعل ” يستمع ” في الآية الأولى إلى الواحد ، وفي الثانية إلى الجمع (٣) مع أن الضمير عائد منه في الموضعين على ” مَنْ ” قبله ، ومع أن الفاعل جمع في الآيتين ، بدليل ما جاء في عجز يسعاد الأعلى بإرادة الجمع ، كما أن الاستماع فيها واحد ، وهو استماع الكفار للقرآن ، ولأحاديث الشريفة (صلى الله عليه وسلم) ، وعدم جدوى هذا الاستماع معهم ، إذ لا ينفعهم به ، وإنما يزدون عنادا واستكبارا . . .

وسر هذا الاختلاف أن الآية الأولى نزلت في قوم قليلي العدد ، كانوا يرصدونهم (صلى الله عليه وسلم) بالليل ويستمعون إلى قراءته على سبيل الاستهزاء ، وهم : أبو سفيان بن حرب ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، وعتبة ، وشيبة ، وأمية بن خلف وأضرابهم ممن كانوا يستمعون إليه (صلى الله عليه وسلم) ليؤذوه ، وينصروه من الصلاة خوفا من أن يسمعه منهم من تدعوه دواعي الحق فيسلم . وكان (عز وجل) ينصمهم عنه بنوم يلقبه عليهم ، وحجاب يحجبه به عنهم ، كما قال (سبحانه) في موضع آخر : ” وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ” (٤)

- (١) الأنعام / ٥٢ (٢) يونس / ٤٢
(٣) أي الفاعل المستتر هو ” العائد على الموصول قبله في الأولى ، وإذ الجماعة في الثانية .
(٤) الإسراء / ٤٥ ، ومراجع في هذا المعنى : الكشف ج ٢ ص ١١ ، ومفاتيح الغيب ج ٤ ص ٢٦ ، روح المعاني ج ٧ ص ١٢٥ ، أسباب النزول ص ١٤٣

أما الثانية فنزلت في جميع الكفار ، الذين يسمعون مسمرا هو حجة عليهم ،
وهو القرآن الكريم ، ولا ينتفعون بسماعه ، فكانهم صم عنه . (١)

فلما اختلف عدد المستمعين في الموضعين قلة وكثرة ذل على الجمع القليل فـ في
الأولى بإسناد الفعل للواحد ، وعلى الجمع الكثير في الثانية بإسناد الفعل للجمع (٢)

وضمير الواحد في الأولى عائد على لفظ " من " ، وضمير الجماعة في الثانية عائد على
معناها ، بناء على أن لفظها مفرد ، ومعناها يصلح للمثنى والجمع (٣) . أو أن الضمير في
الموضعين عائد على لفظها ومعناها ، بناء على أنها لفظ موضوع للمفرد والمثنى والجمع ،
وهو الأصح .

وجاء بعد الآية الثانية قوله (تعالى) في نفس السياق :

" وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ (٤) . وقد تغير
فيها النطق ، حيث روي لفظ " من " في لسانه الفعل يَنْظُرُ إلى ضمير الواحد (٥) ، مع أن
الآيتين في سياق واحد ، ومصفان أحوال الكفرة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . (٦)

ومر ذلك الإشارة في هذه الآية إلى أن الناظرين له (صلى الله عليه وسلم)
قليل ، بالنظر إلى المستمعين ، فعلى الرغم من أن الكفار جميعهم أشبهى الناس إلى تعرف حاله
(صلى الله عليه وسلم) بما يستمعون وبما يبصرون ، إلا أن تحديد العين إليه لا يخفى ،
فكان أكثرهم يخفى النظر إظهاراً للبغضة ، وخوفاً من إنكار من يراه على هذه الحالة .
أما الاستماع فكان بوسعهم إخفاؤه ، مع حدوثهم الجميع ، وحرصهم عليه ، وبالفهم فيه ،
فروي مع الاستماع في الأولى معنى " من " أو بنى الفعل للجمع للدلالة على كثرة المستمعين
كما سبق - وروي مع النظر لفظها ، أو بنى الفعل للواحد ، ليدل على قلة الناظرين (٧) .

-
- (١) تراجع الآيات الدالة في هذا الموضع على أن الحديث مع جميع الكفار / ٣٢ - ٤١
(٢) تراجع هذا التوجيه في : درة التنزيل ص ١١٧ ، أسرار التكرار ص ٦٢ ، كشف المعاني
ص ٥٥ ، ملك التأويل ح ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، روح المعاني ح ٢ ص ١٢٥ .
(٣) تراجع السابقة ، مفاتيح الغيب ح ٤ ص ٢٦
(٤) الآية / ٤٣ (٥) أو روي لفظها ومعناها والمراد بها المفرد ابتداءً .
(٦) الحديث هنا استطراد لتوضيح الفرق السابق .
(٧) تراجع نظم الدرر ح ٣ ص ٣٢

وقيل : الإيمارة إلى اختلاف نوى الآيات المنظورة والسموعة . فالآيات النسي
رُبِّت بالمين لم تكثر كثرة الآيات التي سمعت بالأذن . (١)
وذكر الألويس أن المراد بالنظر " النظر المستتبع لمعانيه " أدلة الصدق . . . والناظرون
كذلك أقل من المستمعين للقرآن . (٢)

وفيه بُعد ، لأن الكثر عن كرامة ، الناظرين نظرا استهزا ، كما يدل على الآية ،
والآيات قبلها في السياق . وقد نص القرطبي على ذلك (٣) .

وقيل : إن هذا الاختلاف من باب التفنن في الصياغة . (٤)

وهو قول ضعيف ، كما سبق .

وجاء في نفس السياق قبل الآيتين قوله (تعالى) :

" وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْفَاسِدِينَ " (٥) . وهي كالثانية
منها في بناء الفعل " يؤمن " للواحد مراعاة للفظ " من " أو لفظها ومعناها والمراد بها
المفرد .

ولم يتحد شغنها من غنوا بتوجيه الاختلاف بين الآيتين السابقتين . ولعل السر
في ذلك أن الإخبار باستماع الكفار تكرر في موضعين ، فجاء الاختلاف في آية الاستماع في هذا
السياق مراعاة للفرق بين المستمعين في الموضعين - كما تقدم - وأن الإخبار بنظرهم بنى
الفعل للواحد في آية للدلالة على قلة الناظرين - كما تقدم أيضا - وكذلك بنى الفعل
لِلوَاحِدِ في هذه الآية للدلالة على قلة المؤمنين بالقرآن الكريم منهم ، أو من سيؤمنون به منهم
آنذاك ، بدليل أن الآية قسمتهم قسمين : من يؤمن ، ومن لا يؤمن ، والتعقيب على من لا
يؤمن بقوله (سبحانه) : " وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ " ، وهو تعقيب يدل على كثرة من لا يؤمن بجانب
المؤمنين ، ويدفع ما يمكن أن يعترض به من أن بناء الفعل للواحد مع الفريقين ، فكيف يستدل
به على قلة المؤمنين ، وكثرة غيرهم ؟ لأن بناء الفعل للواحد مع الفريق الثاني قد يكون لمشاكلته
ما قبله مع عدم التأثير على المعنى لوجود هذا التعقيب ، الوجه للفريق الثاني ، والدال على
كثرة والله أعلم .

(١) راجع دُرّة التزويل ص ١١٨ ، فتح الرحمن ص ٩٢ (٢) روح المعاني ج ٢ ص ١٢٥

(٣) تفسير القرطبي ص ٣١٨ (٤) كشف المعاني ص ٥٥

(٥) الآية / ٤٠

بين ورود الفعل على أصله ووروده مخففاً

ومن الفروق في المشتبهات مجيء الفعل على أصله في موضع ، ومخففاً بحذف أحد حروفه في موضع آخر ، كما في قوله (تعالى) من قصة سيدنا موسى مع الخضر (عليهما السلام) :

” ... سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ” (١) وفي موضع آخر من السورة :

” ... ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ” (٢) .

حيث حذفت تاء الاستفعال من الفعل ” تستطيع ” في الثانية ومقت فيه - على الأصل (٣) - في الأولى ، مع أنهما في قصة واحدة وسياق واحد ، والمتكلم في الآيتين واحد ، وهو الخضر (عليه السلام) بعد أن أطلع سيدنا موسى على الأمور العجيبة ، في الأولى (٤) ، وبعد أن بين له أوجه الحكمة من هذه الأمور ، في الثانية (٥) .

وفي توجيه هذا الفرق يقول البقاعي : ” أثبت تاء الاستفعال هنا وفيما قبله (يقصد الآية والآيات السابقة عليها في نفس القصة ، التي تكرر فيها فعل الاستطاعة) إعلماً بأنه ما نفى إلا القدرة البليغة على الصبر ، لا مطلق القدرة على الصبر ، إشارة إلى صعوبة ما حمل موسى (عليه السلام) من ذلك ” (٦) ، ” وحذفت تاء الاستطاعة هنا (يقصد الآية الثانية) لضرورة ذلك بعد كشف الغطاء في حيز ما يحمل ” (٧) أي أن القدرة البليغة على الصبر انتهت هنا بعد أن علم سيدنا موسى ما علم من أوجه الحكمة ، ولم يبق إلا مطلق قدرة على الصبر ، فتناسب فيها عنه (صلى الله عليه وسلم) اسقاط التاء من الفعل ، فرقاً بين القدرتين عنه في الموضعين

- | | |
|-----|---|
| (١) | الكهف / ٧٨ |
| (٢) | الكهف / ٨٢ |
| (٣) | الأصل هنا أصل مجيء الفعل على صيغة الاستفعال . |
| (٤) | تراجع هذه الأمور في الآيات / ٧١ - ٧٧ |
| (٥) | انظر الآيات / ٧٩ - ٨٣ |
| (٦) | نظم الدرر ج ٣ ص ٥٨٨ |
| (٧) | السابق ج ٣ ص ٥٩٠ |

ولعل في هذا الاختلاف من جهة أخرى إشارة إلى حالتى الخضر مع موسى (عليهما السلام) حين جلس يحدوه عن حكمة الأمور التى رأها قبل ، كما تدل الآية الأولى ، وحين فرغ من الحديث معه عن حكمة هذه الأمور ، كما تدل الثانية .

ففى الأولى كان الخضر مقبلاً على سيدنا موسى ليحدوه بعد أن أذنه بالفسراق لمخالفتهما اشتراط عليه عند أول لقاء . فناسب ذلك إثبات التاء .

وفى الثانية فرغ من الحديث عن هذه الأمور وأسرع إلى مفارقتها ، فناسب ذلك حذف التاء .

وقيل : إن الفعل جاء فى الأولى على الأصل ، وفى الثانية على الفرع تخفيفاً لدلالة الأولى عليه . (١) وهو قول لا يتعدى وصف الاختلاف وإجوازه لغوياً .

ويؤكد الوجه الأول ما ورد بعد فى نفس السورة من تكرار فعل الاستطاعة بإثبات التاء وحذفها ، فى آية واحدة ، وهى قوله (تعالى) عن يأجوج ومأجوج بعد أن أقام ذو القرنين الحد بينهم وبين القيم المستغِيثين به : "فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا" (٢) ، أى : لم يستطيعوا أن يعلوه ويصعدوا فيه ، لأنهم لم يستوعبوا الجبل ، والجبل عال لا يرام ، ولم يستطيعوا أن يتقبوه لصلابته وشخائضه (٣) .

ففى هذه الآية تعلقت الاستطاعة المنفية عن يأجوج ومأجوج بأمرين : القدرة على صعود الردم والظهور عليه ، والقدرة على نقبه ، ولما كان الفعل الأول وهو الصعود أيسر من مقابله وهو النقب مروي الفرق بينهما فى نفي الاستطاعة عليهما ، فحذفت التاء من فعل الاستطاعة المتعلق بالفعل الأول ، وبقيت فيه مع الفعل الثانى ، فرقاً بين الاستطاعتين . (٤)

ولأن الثانى من الفعلين محل تأكيد لنفى قدرتهم على الاسيلاء على المد ، وتمكنهم منه ، فناسبه الإتيان بالفعل على الأصل للدلالة على التأكيد . (٥)

(١) يراجع: أسرار التكرار ص ١٣٤ ، كشف المعاني ص ٨٣ ، بصائر ذوى التمييز ص ٢٠٢

فتح الرحمن ص ٢٠٦

(٢) الكهف / ٩٢ (٣) يراجع فى معنى الآية الكذا فبجاء ص ٤٩٩ وتفسير القرطبي ص ٤١٠

(٤) يراجع فى هذا التوجيه : ملاك التأويل ح ٣ ص ٤٢٨

(٥) السابق نفس الصفحة .

وقيل : حذفت التاء من الأول تخفيفاً لأن مفعوله مركب من " أن " وما بعدها حتى لا يجتمع الثقلان وبقيت في الثاني لعدم مقتضى للتخفيف ، إذ المفعول مفرد . (١)

وهو تعليل لفظي محض . وما وجد في مواضع أخرى من القرآن بخالقه ، فقد تكرر فعل الاستطاعة ، بغير حذف التاء ، ومفعوله مركب في قوله (تعالى) : " إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا " (٢) وقوله : " وَلَكِنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ " (٣) وقوله : " هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ " (٤) . ولو كان الغرض مجرد التخفيف حتى لا يجتمع الثقلان ، وهما الفعل على الأصل ، والمفعول المركب كما جاء في هذا التعليل ، لحذفت التاء من الفعل في كل هذه المواضع ، ولكنها لم تحذف .

بين ورود الحرف على أصله وبين وروده مخففاً

ومن الفروق في المشتبهات مجيء الحرف على أصله في موضع ، ومخففاً بحذف أحد حروفه في موضع آخر ، (١) كما في قوله (تعالى) :

" وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (٢)

وقوله (سبحانه) :

" فَلَمَّا أَحْرَسَ مِنْهُمْ الْكَفَرُ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (٣)

(١) يراجع : درة التنزيل ص ٢٨٥ ، أسرار التكرار ص ١٣٤ ، كشف المعاني ص ٨٣ مباهر

ذوى التمييز ح ١ ص ٣٠٢ ، فتح الرحمن ص ٢٠٦

(٢) الأنعام / ٣٥ (٣) الرحمن / ٣٣

(٤) النساء / ١٢٩ (٥) المائدة / ١١٢

(٦) هذا لا يتأتى - لزوماً - إلا فيما يطلق عليه حرف ، وهو مكون من حروف ، كالحروف التي

تنصب المبتدأ وترفع الخبر .

(٧) المائدة / ١١١

حيث تكرر " أَنْ " المتصل بضمير المتكلمين " نَا " في الجملة الأخيرة من الأيتين وقد جاء على أصله في الأولى ، ومخففا بحذف النون ، الأخيرة ، في الثانية ^(١) مع أن الجملة واحدة في المضمين ، والمتكلم بها الحواريون ، بغرض تأكيد إيمانهم ، بالشهادة عليه من الله (سبحانه) أو من عيسى (عليه السلام) بأنهم مسلمون ^(٢) .

والاستعمالان جائزان ، وإن كان الأول منهما هو الأصل ، وقد جاء كل منهما في موضعه رعاية للسياق ، من جهة أن الجملة في الآية الأولى خطاب الحواريين لله (عز وجل) ورفعت بعد تفصيل ما يجب الإيمان به في أول الآية ، وفي الثانية خطاب الحواريين لعيسى (عليه السلام) ولم تسبق بما سبقت به في الآية الأولى ، فروى الفرق بين الخطابين ، وبين المقامين بإثبات النون الثانية في الحرف ، لزيادة التأكيد ، ومناسبة التفصيل في الأولى ، وحذف هذه النون منه ، لعدم زيادة التأكيد ، ومناسبة الإجمال في الثانية .

يقول ابن الزبير : " إن آية المائدة لما ورد فيها التفصيل فيما يجب الإيمان به ، وذلك قوله (أَنْ آمِنُوا بِرِسُولِي) فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأقفاها ، ناسب ذلك (أَنَّا) على أوفى الحالين ، وهو العرود على الأصل ، ولما لم يقع إقصاد بهذا التفصيل في سورة آل عمران ، حين قال (تعالى) : (قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ) ، فلم يقع هنا (بِرِسُولِهِ) لإيجاز العلم به ، ومناسبة السياق ، ناسب هذا الإيجاز الإيجاز ، كما ناسب الإنعام في آية المائدة الإتيان ، فقبل هنا : (وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) ، وجاء كل ما يجب ، ولو قد ورد العكس لما ناسب ^(٣) .

ويقول البقاعي معلقا على الآية الأولى : " ولما كان الإيمان باطنا فلا بد لإثباته من دليل ظاهر ، وكان في سياق هذه النعم ^(٤) ، والطوعية لو حى الملك الأعظم ، ولوا عليه بتمام الانقياد ، وناسب المقام زيادة التأكيد بإثبات النون لثالثه في قولهم ، (وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) ، بخلاف ما في آل عمران ^(٥) .

(١) ينظر في التأكيد على أن المحذوف هو النون الثانية من الحرف ، لا نون الضمير " نَا " درة التنزيل ص ٢٠

(٢) يراجع في المعنى : الكشاف ج ١ ص ٤٣٢ ، تفسير القرطبي ص ٢٣٦ ، نظم السدور ج ٢ ص ١٥٢

(٣) ملائكة التأويل ج ٢ ص ١١٠

(٤) يقصد ما تدل عليه الآية السابقة على هذه الآية من النعم التي امنن بها الله (عز وجل) على رسوله عيسى (عليه السلام) ووالدته .

(٥) نظم الدرر ج ٢ ص ١٥٢

ويقول ابن جلاء : آية المائدة في خطاب الله (تعالى) لهم - أولاً - وفي سياق تعداد نعمه عليهم ، فناسب سياقه تأكيد انقيادهم إليه - أولاً - عند إباحة اليهم . وآية آل عمران في خطابهم المسيح ، لا في سياق تعداد النعم ، فاكفى - ثانياً - بـ "بَشَرًا" لحصول المقصود (١) .

وقيل - أيضا - في توجيه هذا الفرق : إن ما جاء في المائدة جاء على الأصل ، لأنه في أول كلام الحواريون . أما ما جاء في آل عمران فقد جاء على الفرع لأنه وقع في تكرار كلامهم السابق ، لما سألهم عيسى (عليه السلام) فقال : " مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ " والمكرر يناسبه التخفيف ، جرياً على عادة العرب في استئثارهم المقادير بغير تخفيف ، والتكرار فرع ، والفرع بالفرع أولى (٢) .

وهو توجيه بعيد ، لأن استئثار المكرر - على فرض أنه ثقيل - يكون بالنظر إلى المكرر في كلام متصل ، وسياق واحد ، ومن غير أن يضيف جديداً في المعنى ، وهذه الأمور كلها منبهة عن الجملة المكررة في الآيتين ، فهي في صورتين ، وفي سياقين مختلفين ، وقد دلَّ الاختلاف بتخفيف الحرف ، والإتيان به غير مخفف على منيئين مختلفين لها في الموضعين ، كما عرفنا في توجيهات ابن الزبير والبقاعي وابن جلاء السابقة .

وبالحديث عن هذا الفرق ينتهي الحديث عن الفروق التي استبطنها من المشتبهات بالنظر إلى أحوال المفردات فيها . وسنعرض لبعض الأمثلة عليها - بالإضافة إلى ما سبق - في ثنايا الحديث عن أمثلة الفروق الأخرى في الفصلين الآتيين .

(١) كشف المعاني ص ٤٤

(٢) يراجع هذا التوجيه في درة التنزيل ص ٦٩ - ٧٠ ، أسرار التكرار ص ٥٠ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٦٤ ، فتح الرحمن ص ٥٥ ، روح المعاني ج ٣ ص ١٧٩

الفصل الثاني

زور في النظم على مستوى الجملة

يتناول هذا الفصل مجموعة أخرى من فروق الصياغة في المشتبهات ، تتعلق
بتركيب الجملة فيها ، وأحوال أجزائها من هذه الجهة .

بين التقديم والتأخير

التقديم والتأخير ، كما يقول الشيخ عبد القاهر : " باب كثير الفوائد ، جـ
المعاسن ، واسع التعرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتتر لك عن بديعه ، وينفى بك السي
لطفه ، ولا تزال ترى شعرا ، يروفك صمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب
أن راقك ولطف عندك ، أن قدّم فيه شيء ، وحلّ اللفظ عن مكان إلى مكان " (١) .

وأمثله من القرآن الكريم كثيرة ، وصوره متعددة ، تحتاج إلى دراسة مستقلة ،
تكشف عن لطائفه وأسراره في كتاب الله ، ليس الوضع هنا موضعها ، وإنما أقف فقط مع
أدق شيء في هذا الباب ، وهو ما اختلف في المشتبهات بتقديم وتأخير ، لبيان سر تقديمه
حيث قدّم ، وسر تأخيره حيث أخر وقدم عليه غيره .

وهو هذا الاختلاف كثيرة (٢) ، سنتعرف عليها من خلال الأمثلة .

من هذه الأمثلة قوله (تعالى) في سورة الأنعام :

" ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ " (٣)

وفي سورة غافر :

" ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِئْزِعْ تُفَكَّرُونَ " (٤) .

حيث اشغقت الآيتان في إثبات الألوهية والربوبية والوحدانية والخلق (٥) للمولى
(عز وجل) ، واختلفتا بتقديم ما يدل على الوحدانية على ما يدل على الخلق في الأولى ،
وتأخيره عنه في الثانية .

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣٧

(٢) بالنظر إلى أجزاء الجملة التي شملها هذا الاختلاف .

(٣) الآية / ١٠٢

(٤) الآية / ٦٢

(٥) وهي أخبار متعددة لاسم الإشارة والمشار إليه هو المولى (عز وجل) الموصوف بأفعال

كثيرة في الآيات السابقة - ينظر الكشاف ج ٢ ص ٤١ ، ج ٣ ص ٤٣٤

وسر هذا الاختلاف أن سياق الأولى في إثبات الوجدانية ، ردّاعلى من افتسروا ،
نجعلوا لله شركاء ، الحق ، وخرقوا له بنين ونسب ، ربّما بقول عن عى وجهالة من غير
نكروا روية (١) . وقد ساق القرآن في ردّه عليهم بعض الحجج الدامغة ، من أنسـه
(سبحانه) بديع السماوات والأرض ، أى خالقها على غير مثال سابق ، ومن كان كذلك
لا يستقيم وصفه بالولادة ، لأن الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون
جما حتى يكون ولدا ١١

ومن أنه (سبحانه) لم تكن له صاحبة ، ومن كان كذلك فلا تصح الولادة بالنسبة
له ، لأن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد ، وهو (سبحانه) متعال عن
مجالس ، فلم يصح أن تكون له صاحبة حتى تكون له ولادة ١١

ومن أنه (سبحانه) خالق كل شئ وعالم به ، ومن كان كذلك كان غنيا عن كل
شئ ، والولد إنما يطلبه المحتاج لا (٢)

ثم ساق في هذه الآية ما يستوجب إفراده بالمعبادة ، وإسلام الوجه إليه ، فإن من
استجبت له أوصاف الألوهية والربوبية والوجدانية والخلق ، كان هو الحقيق بالعبادة دون
سواه .

ولما كان السياق في إثبات الوجدانية ، ونفى ما ادّعى من الشركاء والصاحبة والولد ،
قدّم الأهم من الأمور ، والألصق بهذا السياق ، وهو قوله (تعالى) : " لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ " ،
ثم قرّف العبادة بعد ذلك بأن كل ما سواه (سبحانه) خلقه وملكه في قوله : " خَالِقُ
كُلِّ شَيْءٍ " .

أما سياق الثانية فنصّ تثبیت خلق الإنسان ، ردّا على منكرى البعث (٣) فقدم
ما يناسبه من الأمور ، وهو ما يدل على الخلق ، ثم ثبّت بما يدل على التوحيد الذى هو
نتيجة لذلك ونهاية . (٤)

(١) كما تدل الآية / ١٠٠

(٢) انظر الآيتين / ١٠٠ - ١٠١ وتفسير الكشاف ج٢ ص ٤١ ، وتفسير القرطبي

ص ٢٤٨٨ - ٢٤٩٠

(٣) بدليل قوله (سبحانه) قبل هذه الآية : " كَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ
خَلْقِ النَّاسِ " الآية / ٥٢ ثم الحديث عن الجزاء الأخرى والتأكيد على مجى
الصلوة في الآيتين التاليتين لها . يراجع الكشاف ج٣ ص ٤٣٣ ، وتفسير القرطبي
ص ٥٧٦٩ - ٥٧٧٢

(٤) يراجع في هذا التوجيه : درة التنزيل ص ١٢٧ ،

وفي الآيتين فرق آخر ، وهو اختلاف الخاتمة فيهما مناسبة للسباق في الموضعين .
فقد خُتمت الأولى بالدعوة الصريحة إلى عبادة الله (عز وجل) ، وهي خاتمة مناسبة لمقام
التوحيد ، ومحااجة المشركين ، وجاء بعد هذه الدعوة ما يؤكد ها في قوله (سبحانه) :
" وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ " أي مالك لكل شيء من الأرزاق والأجال ، رقيب على الأجال * (١)

وختمت الثانية بالتعجب من انصراف المشركين عن عبادة الله (عز وجل) إلى
عبادة الأوثان في قوله (سبحانه) : " فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ " (١) . وهي خاتمة مناسبة - أيضا -
لمقام الحوار مع المشركين ، والرد على منكرى البعث بالأدلة التي لفتهم الحق (سبحانه)
إليها .

ومن الأمثلة قوله (تعالى) حكاية عن الكفار في ردِّ فكرة البعث وعدم الإيمان
بها ، غليدا لأبائهم الأولين ، في سورة المؤمنون :

" بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * "

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * (٢)

وفي سورة النمل :

" وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا
نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * (٤)

حيث تخدم اسم الإشارة " هذا " على الضمير " نحن " وما عطف عليه في الآية
الثانية من آيتي سورة النمل ، وتأخر عنها في الآية الثالثة من آيات سورة المؤمنون (٥) ، مع
أن المقالة التي جاءت عن الذين كفروا في الآيتين واحدة ، وهي قولهم بأن فكرة البعث
هذه ، تقدم الوعيد بها ، لأبائهم الأولين ، ولم يروا لها حقيقة ، فما هي - في زعمهم -
إلا ضرب من الأباطيل التي كتبها الأولون * (٦)

أسرار التكرار ص ٧٣ ، ملائكة التأويل ح ٢ ص ٢٢١ ، كشف المعاني ص ٥٧ ، مبصائر
ذوي التمييز ح ١ ص ١٩٧ ، نظم الدرر ح ٢ ص ٢٦٣ ، روح المعاني ح ٧ ص ٢٤٤ ،
تفسير المنار ح ٧ ص ٦٥١

(١) الكشف ح ٢ ص ٤١ ، وراجع أمباب النزول ص ١٤٨

(٢) أنظر في المعنى الكشف ح ٢ ص ٤٣٣ (٣) الآيات / ٨١ - ٨٣

(٤) الأيتان / ٦٢ - ٦٨

(٥) وهما موضع الحديث

(٦) ينظر في هذا : الكشف ح ٣ ص ٤٠ ، تفسير القرطبي ٤٥٣٧

وقبل الحديث عن توجيه هذا الاختلاف يلاحظ أن تأخير اسم الإشارة في آية المؤمنين جاء على الأصل والقياس ، بناءً على ما قرره النحاة ، من أن الضمير المرفوع المتصل كالضمير "نا" في "وَعِدْنَا" لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالمنفصل (١) . أما تقديمه في آية النمل فجاء على غير الأصل لغرض سيوضح في التوجيه . وعلى ذلك فالبحث عن سر الاختلاف بين الآيتين ينهض أن يقتصر على ما جاء في آية النمل ، للعدول فيها عن الأصل . أما ما جاء في آية المؤمنين فلا حاجة للبحث فيه لمجيئه على الأصل .

لكن أكثر العلماء الذين تحدثوا عن هذا الاختلاف ، لم يقتصروا في حديثهم على آية النمل ، وإنما حاولوا البحث في آية المؤمنين - أيضاً - عن سر إثارة الأصل فيها ، مع إمكان العدول عنه ، لأن المقولة في الآيتين واحدة ، والحديث في الموضعين عن الكفار الذين يرددون مقالة آبائهم الأولين . وهذا صميم عمل البلاغة ، فهي لا تُغرق في بحثها عن أسرار التراكيب ، بين ما جاء منها على غير الأصل ، وما جاء على الأصل ، لمعرفة سر اختيار كل منهما في موضعه .

أما توجيه الاختلاف فقد وردت فيه آراء متعددة ، ينطلق أكثرها من القاعدة الأم في باب التقديم والتأخير ، وهي تقديم الأهم في الكلام ، والذي تتجه إليه العناية في السياق . يقول الزمخشري مسلماً على الآيتين : " فَإِنْ قُلْتَ : قُدِّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (٢) (هذا) على (نحن وأبائنا) ، وفي آية أخرى (٣) قدم (نحن وأبائنا) على (هذا) . قلت : التقديم دليل على أن المقدم هو الفرض المعتمد بالذكر ، وأن الكلام إنما سبق لأجله . ففى إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البحث هو الذي تعمد بالكلام ، وفى الأخرى دل على أن اتخاذ البحوث بذلك الصدد (٤) . يعنى أن الاهتمام منصب في آية النمل على البحث ، وأن الكلام حوله ، لا على البحوث ، وفي آية المؤمنين على البحوث لا على البحث .

وهو توجيه يقتصر على أن القُدِّم أهم في الموضعين وأن تقديمه دليل الاهتمام به ، جرياً على القاعدة العامة . لكن من أين جاء الاهتمام ؟

(١) ينظر أسرار التكرار ص ١٤٩ ، بعائير ذوي التمييز ج ١ ص ٣٣٢

(٢) يقصد آية النمل

(٣) يقصد آية المؤمنين

(٤) الكشف ج ٣ ص ١٥٨

هذا ما نجد تفصيله عند ابن الزبير وابن جماعة ، إذ يذكran أن آية المؤمنون
 سُبقت بالحديث عن الآباء الأولين في قوله (سبحانه) : " أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ
 مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ " (١) ، وقوله : " بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ " (٢) ، وهم
 آباء الكفار الذين رددوا هذه المقالة ، وأمثالهم في مجئ الرسل إليهم وإنذارهم ،
 فناسبها تقديم ما يدل عليهم ، على ما أُنذروا به جميعا ، وهو البعث المُشار إليه ،
 فقبل : " لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا " .

أما آية النمل فلم تُصَبِّح في سياقها بحديث عن آبائهم الأولين ، وإنما جاء قبلها
 حكاية عنهم : " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا . . . " فانصب الاهتمام على مقولتهم
 من البعث ، فناسبها تقديم ما يدل عليه ، على ما يدل على آبائهم ، الذين ذُكروا في الآية ،
 للزيادة في إنكار البعث واستبعاد ، فقبل : " لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا " (٣) .

ومذكر الزركسى أن هذا الاهتمام يرجع الى الجهة المنظور فيها قبل الأيتين في الموضعين
 فالجهة المنظور فيها قبل آية المؤمنون كونهم ترابا وعظاما (٤) ، والجهة المنظور فيها
 قبل آية النمل كونهم وآبائهم ترابا (٥) ، وهذه الجهة أدخل عندهم في تعميم البعث
 من الأولى ، فناسبها تقديم ما يدل عليه في الآية ، فرقا بينها وبين الأخرى (٦) . . . أي أن
 سياق آية النمل يدل على أن الشبهة المستحكة لديهم هي أنهم صاروا وآبائهم ترابا ،
 وبعد عندهم أن يُعْمَثُوا بعد صيورتهم ترابا ، فانصب الحديث على استبعاد البعث ،
 وأنه محال في نظرهم ، فَقَدَّم ما يشير إليه . وسياق آية المؤمنون يدل على أصالتهم في العناد
 والكفر ، وأن التقليد ومحاكاة الآباء هو الأمر المستحكم عندهم ، يقولون المقالة الموروثة
 من قبلهم عن الآيات والحجج التي تُخاطب العقول ، فقد جاء في السياق قبل هذه
 الآية " وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (٧)

- | | | | |
|-----|---|-----|------------|
| (١) | الآية : ٦٨ | (٢) | الآية / ٨١ |
| (٣) | يراجع ملاك التأويل ج ٣ ص ٤٨٦ ، كشف المعاني ص ٩١ | | |
| (٤) | كما تدل الآية السابقة عليها | | |
| (٥) | كما تدل الآية السابقة عليها أيضا . | | |
| (٦) | البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٨٤ ، وذكره السبكي والدسوقي - أيضا - | | |
| | في شروح التلخيص ج ٢ ص ١٦١ ، ١٦٥ | | |
| (٧) | الآيات / ٢٨ - ٨٠ | | |

فلم يهتموا بهذه الحجج ، ولم يناقشوها ، لأن قلوبهم انطوت على مقالة الأولين ، فقالوا :
 "لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا" بتقديم آبائهم الذين تأثروا بهم .^(١)

ويذكر البقاعي وجهها آخر لأهمية المقدم في الموضعين ، يربطه بالغرض العام ففى
 المورثتين ، حيث يقول : " لما كان محط العناية فى هذه السورة ^(٢) الخلق والإيجاد
 لتهديد أهل العناد ، حكى عنهم أنهم قالوا : (لقد وعدنا) مُقَدِّمًا قولهم (نحن
 وآبائنا) على قوله (هذا) أى البعث . . . بخلاف النمل فإن محط العناية فيها الإيمان
 بالآخرة ، فلذلك قدم قوله (هذا) ، والمواد وعد آبائهم على السنة من أتاها من الرسل ،
 غير أن الإخبار بشموله جعله وعد الكل على حد سواء " ^(٣) .

ولهذا الاختلاف توجه آخر من طريق اللفظ ، يقول فيه الإسكاني : " لما كان
 الأول ^(٤) فى حكاية تظاهرت فيها أفعال أُسِنِدَت إلى فاعليها ، متصلة بها وهى (بَلَّ
 قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ) فهذان فعلان تعلق بهما هذا المحكى ، وكل واحد منهما
 جاء بعده فاعله مواصلا له ، غير منفصل عنه ، ثم بعده (قَالُوا إِذَا مِتْنَا) فكل هذه
 الأفعال قصد بها حكاية ما جاء بعدها ، فلما قال (لَقَدْ وَعِدْنَا) وجب فى البناء على
 الأفعال المتقدمة أن يتم حكم الفاعل ، وهو توكيده ، والعطف عليه ، فقدم (نحن وآبائنا) على
 الفعل الثانى وهو (هذا) لذلك ، ولأن الأصل إذا جرى عليه الشئ أولى من غيره . . .

وأما الآية من سورة النمل فإن الذى تقدمها (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا
 وَآبَاءُنَا) فآخر المعطوف على اسم كان الذى هو كالفاعل لها ، وهو قوله (وآبائنا)
 من المنصوب الذى هو كالمفعول لها ، وهو قوله (ترابا) ، نصار ما هو كالمفعول
 مُقَدِّمًا على ما هو معطوف على الفاعل ، فاقترض البناء عليه تقديم المفعول ، ثم العطف على
 الفاعل الضمر ، فجاء (لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ) لذلك " ^(٥) .

ولخص الكرماني هذا الكلام ، فأشار إلى أن الأولى جاءت على الأصل والقياس ،
 وقال من الثانية : " قَدَّمَ فى النمل المفعول موافقة لقوله (ترابا) لأن القياس فى
 أمثاله - كنا نحن وآبائنا ترابا ، فقدم (ترابا) ليهدم معه (نحن) فكانا لفقين " ^(٦) .

(١) راجع هذا التوضيح فى "خصائص التراكيب" ص ٢٩٤

(٢) سورة المؤمنون (٣) نظم الدرر ح ٤ ص ٧٢ ، ٢٥٦

(٣) يقصد الضمير "نحن" المُقَدِّم على اسم الإشارة فى آية المؤمنون

(٤) درة التنزيل ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، ولم يرد معه توجه آخر من طريق المعنى

(٥) أسرار التكرار ص ١٤٩ ، ونقله الفيروزبادى فى بصائر ذوى التمييز ح ١ ص ٣٣٢

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سورة الأنعام :

"..... وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِبَائَهُمْ"

وفي سورة الإسراء :

"وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِبَائَكُمْ"

حيث تكررت الوصية بالنهي عن قتل الأولاد ، لأن الله (عز وجل) تكفل
بهم ورزق آبائهم ، وقُدِّم في الجملة الثانية من الموضع الأول ضمير المخاطبين (الآباء)
على ضمير الفاعلين (الأولاد) ، وأُخِّر عنه في نفس الجملة من الموضع الثاني ، مع أن الفرض
واحد في الجملتين ، وهو وعد الله برزق المخاطبين وأولادهم ، والجملة في الموضعين
مستأنفة لتعميل النهي عن قتل الأولاد ، وإبطال سببية ما اتخذوه سبباً لارتكاب هذه الجريمة .

ومر ذلك باختلاف المخاطبين في الموضعين ، ومراعاة ما يناسبهم في السياقين ،
فهم في الموضع الأول الفقراء ، بدليل قوله (تعالى) في نفس الآية " مِمَّنْ إِمْلَاقٍ " ،
فالفقراء موجود فعلاً ، وحالهم بهم . وهذا الصنف يُقدم على الجريمة لقلة ماله ، وانقطاع زاده ،
ويكون مشغولاً برزقه أولاً قبل أن يشغل بالرزق لذويه من الأزواج والأولاد . وقد راعى
القرآن هذا الإحساس الطافي عندهم ، فعَجَّل بضمان الرزق لهم أولاً ، لأنه الأهم في نظرهم ،
ثم بعد ذلك أعلمهم بأنه متكفل - أيضاً - برزق أولادهم ليكون ذلك أماناً لهم من ارتكاب
الجريمة ، لما فيه من إشعار بتكديسهم في الحال ، بمعنى : إذا كنتم تقتلونهم من أجل
الرزق فنحن المتكفلون برزقكم ورزقهم ، ولما فيه من إشعار بشقاعة الأولاد في دفع فقرهم ،
بمعنى : إنما ترزقون بهم فلا تقتلوهم .

وهم في الموضع الثاني الموسرون الذين يخشون الفقر ، بدليل قوله (تعالى)
في الآية " خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ " . وهذا الصنف يُقدم على الجريمة خوفاً من الفقر على الأولاد ،
أو خوفاً من الأولاد أن يكونوا سبباً في تضيق الرزق عليهم مستقبلاً ، ويكون مشغولاً برزقهم
أولاً ، لأنه الأهم في نظره قبل أن ينشغل برزق نفسه . وقد راعى القرآن - أيضاً - هذا
الإحساس عندهم فعَجَّل بضمان الرزق للأولاد قبل الوعد برزقهم .^(١)

(١) يراجع في هذا التوجيه : سورة التزويل ص ١٣٦ ، أسرار التكرار ص ٢٥ ، ملائكة التأويل
ص ٢٢٩ ، نظم الدرر ص ٢٠٩ ، البرهان في علوم القرآن ص ٢٨٥ ، فتح الرحمن
ص ١٠٩ ، روح المعاني ص ٨٤ ، كشف الكشاف ص ٨٢ ، لسراج الدين عمر الكتاني -
رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية ، رقم ٢٤٢٤ للباحث محمد محمود عجد
الله سلمان ، وورد هذا المثال في كتب البلاغة شاعداً على تقديم المفعولات بعضها

وكان من الجائز أن يأتي معنى الجملتين في عبارة أوجز ، كأن يقال في الموضعين : نحن نرزقكم جميعا ، لكن القرآن أثر النظم على ما هو عليه ، ليعلم كل إنسان أن له في هذه الدنيا رزقا مستقلا عن الآخر ، فلا المولود يأخذ من رزق أبيه شيئا ، ولا الوالد يأخذ من رزق ابنه شيئا ، وليس ذلك فالذين يقدمون على جريمة قتل الأورد لم يستأثروا بسببهم أكبر (١) .

وهناك أمثلة لصور أخرى من الاختلاف بالتقديم والتأخير ، تتعلق بالألفاظ التي كُررت في القرآن مرتبطة بعضها مع بعض ، كالسما والارض ، والانس والجن ، والحياة والموت ، والليل والنهار ، والضر والنفع ، واللعب واللهو ، وما جاء مكررا من صفات المولى (عز وجل) في خواتيم الآي ، كالسمع والبصر ، والعلم والحكمة ، والمغفرة والرحمة ، والعزة والحكمة الخ

فقد تكررت هذه الثنائيات في آيات عديدة ، مشتبهات وغير مشتبهات ، واختلفت أوضاع بعضها في هذه الآيات بالتقديم والتأخير ، وفيما يلي بعض الأمثلة لما اختلف فيها في المشتبهات مع الاستعانة بمرورها في غير المشتبهات لتوضيح الغرض :

من صفات الحق (سبحانه) التي وقعت في خواتيم بعض الآيات القرآنية ، صفتا المغفرة والرحمة ، وقد اختلفتا بالتقديم والتأخير في هذه الآيات ، فجاءت الرحمة مقدمة على المغفرة في قوله (تعالى) من سورة سبا :

" يَعْلَمُ مَا بَلَّغَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ " (١) ، وجاءت المغفرة مقدمة على الرحمة في قوله (تعالى) من سورة يونس :

" وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (٢) كما جاءت مقدمة عليها في خواتيم آيات أخرى كثيرة . (٣)

(١) تنظر هذه الملاحظة في " معجزة القرآن " للشيخ الشعراوي ج ١ ص ٥٨

(٢) الآية ٢ / (٣) الآية ١٠٧

(٤) في جمل متشابهة ، كتكرار قوله (تعالى) : " إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " في مواضع : البقرة / ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، الأنفال / ٦٩ ، النور / ٦٢ ، وقوله : " وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا " في مواضع : النساء / ٩٦ ، الفرقان / ١٥٢ ، الأحزاب / ٥٥ ، وفي جمل متشابهة والاختلاف فيها بفروق أخرى غير التقديم والتأخير ، كما في : " إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " فيما سبق ، " إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " في النحل / ١٨ ، ويمكن مراجعة كل الآيات المشتملة على الصفتين في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة " رحم " ص ٣٠٧-٣٠٩ أو مادة " غفر " ص ٥٠١-٥٠٢

وإذا نظرنا إلى هاتين الصفتين حيث وقعتا في القرآن فإننا نجد أن الرحمة لم تقدم على المغفرة إلا في آية سبأ . أما فيما عدا هذه الآية فالتقديم للمغفرة ، فما سر ذلك ؟

وضع السهيلي قاعدة عامة لتقديم الألفاظ بعضها على بعض ، وهو بصدده التعليق على عبارة سيويه المشهورة في موضوع التقديم والتأخير ، يقول فيها : " والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء : إما بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإما بالفضل والكمال ، فإذا سبق معنى من المعاني إلى الخفة والثقل بأحد هذه الأسباب الخمسة ، أو أكثرها ، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك " (١) وعلى أساس هذه القاعدة جعل تقديم المغفرة على الرحمة - كما جاء في آية يونس ، وكل الآيات الأخرى عدا آية سبأ - من التقديم بالطبع ، ولعل ذلك لبيان المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمية ، والسلامة تطلب قبل الغنيمية .

أما تقديم الرحمة على المغفرة - كما جاء في آية سبأ - فجعله من التقديم بالفضل والكمال ، أو بالطبع ولعل ذلك بأن الرحمة في هذه الآية منتظمة في ملك تعداد أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان ، كما يلاحظ في قوله (تعالى) " فِي نَفْسِ الْآيَةِ : " يَغْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا " والرحمة تشمل هؤلاء جميعاً ، أما المغفرة فتخص البعض ، والعميم من هذه الزاوية مقدم بالطبع قبل الخصوص ، وقد سار القرآن على هذا في آيات كثيرة ، كقوله (تعالى) : " فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ " (٢) وقوله : " وَمَلَأْنَاهُ زُفْرًا وَرُسُلًا وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ " (٣) فقدم العام على الخاص . (٤)

وقد تابعه الزركشي في هذا التوجيه ، غير أنه جعل تقديم الرحمة على المغفرة من التقديم بالرتبة ، ولم يبين من أي الأنواع تقديم المغفرة على الرحمة ، حيث ذكر أنواعاً كثيرة لتقديم اللفظ زيادة على ما ذكره السهيلي في القاعدة السابقة (٥)

- (١) نتائج الفكر ص ٢١٤
(٢) الرحمن / ٦٨
(٣) البقرة / ٩٨
(٤) نتائج الفكر ص ٢١٨ - ٢١٩
(٥) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٤٩

ونقل ابن قيم الجوزية رأى السهيلي يعلق عليه فاعتمد ما قاله بالنسبة لتقديم المغفرة على الرحمة ، ووصفه بأنه حسن جدا ^(١) ثم أضاف لما قاله عن سر تقديم الرحمة على المغفرة في آية سبأ معنى آخر خلاصته : أن الآية السابقة على هذه الآية ، وهي التي افتتحت بها الصورة الكريمة تضمنت إثبات حمده (سبحانه) في الأولى والآخرى ، وهولم المعارف وأوسع العلوم ، ومتضمن لجميع صفات كماله ووعسوت جلاله ، مستلزم لها ، كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره ، فهو المحمود على كل حال ، وعلى ما خلقه وشرفه ، وهذا الحمد دائم بدوامه لا يزول أبدا ، وتضمنت - أيضا - إثبات ملكه ، لما فيه من دلالة على كماله الزائد (جل وعلا) . وختمت بوصف الحكيم الخبير ، الذي ليس على كمال إرادته ، وكمال علمه الذي لا يتعلق فقط بظواهر الأمور ، وإنما يتعلق ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة دقيقة ، ثم جاءت الآية التالية بتفاصيل علمه الشامل لما ظهر ولباطن في العالم السفلي والعالم العلوي ، وختمت بهاتين الصفتين اللتين تقتضيان غاية إحسان المولى (سبحانه) إلى خلقه ، فبالرحمة يجلب لهم النفع على أتم الوجوه ، وبالمغفرة يعفو عن زلاتهم ، ويهب لهم دنوسهم ولا يأخذهم بها .

وعلى هذا فقد جمعت الآية في الحديث عنه (سبحانه) بين معه علمه ، وسعة رحمته ، وسعة مغفرته . والقرآن يقرن كثيرا بين سعة العلم والرحمة ، كما في قوله (سبحانه) " رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا " ^(٢) . فلما تضمنت الآية سعة العلم وسعة الرحمة وسعة المغفرة ، قدّم ذكر الرحيم ، على الغفور - ليقترن الحديث عن رحمته (سبحانه) بالحديث عن علمه ، على نحو ما جاء في آية غافر ^(٣) .

هذا مثال لما ورد من صفات المولى (عز وجل) على هذا النوع من الارتباط في كثير من الآيات ، واختلف بالتقديم والتأخير ، ويلاحظ - في هذا الصدد - أن بعض هذه الصفات ورد متقدما على ما اقترن به في جميع المواضع ، كما في صفتي العزة والحكمة ، فحيثما وقعنا نجد أن المقدم منهما صفة العزة ^(٤) .

(١) وذكر علة أخرى عامة ، وهي أن صفة المغفرة تتضمن دفع الشر ، وصفة الرحمة تتضمن جلب

الخير ، ودفع الشر مقدم على جلب الخير . لهذا تقدم الغفور على الرحيم حيثما وقعا .

(٢) الآية غافر / ٢ بدائع الفوائد ج ١ ص ٢٩ - ٨٠

(٣) كما في قوله (تعالى) على سبيل المثال : " إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " في الأنفال / ١٠

التوبة / ٧١ ، لقمان / ٢٧ ، وقوله : " وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " في البقرة / ٢٤٠ ،

المائدة : ٣٨ ، وقوله : " إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " في الأنفال / ٦٣ ، وقوله : " إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا " في النساء / ٥٦ ، ويمكن مراجعة هذه الجمل كاملة في المعجم

المفهرس مادة " عزز " ص ٤٥٩ وما بعدها ، أو مادة " حكم " ص ٢١٤ وما بعدها

وقد علل السهيلي ذلك بأنه (سبحانه) عزَّ فلما عزَّ حكم ... وجعل هذا التقديم من نوع التقديم بالطبع ، أو من تقديم السبب على السبب (١) ، ووافقه الزركشي في هذا التعليل ، لكن اقتصر على جعل التقديم من التقديم بالسببية (٢) ، وفعل مثله السيوطي (٣) .

ورمق على رأى السهيلي بعد عرضه ، فأشار إلى أوجه أخرى لهذا التقديم ، حيث يقول : " وأما تقديم العزيز على الحكيم ، فإن كان من الحكم وهو الفصل والأمر ، فما ذكره من المعنى صحيح ، وإن كان من الحكمة ، وهى كمال العلم والإرادة المتضمنين اتساق صنعهم ، وجريانه على أحسن الوجوه وأكملها ، ووضعها الأشياء مواضعها ، وهو الظاهر من هذا الاسم فيكون وجه التقديم : أن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم ، وهو (سبحانه) الموصوف من كل صفة كمال بأكملها وأعظمها وغايتها ، فتقدم وصف القدرة ، لأن متعلقه أقرب إلى مشاهد الخلق ، وهو مفعول (تعالى) وأياته . وأما الحكمة فتعلقها بالنظر والفكر والاعتبار غالبا ، وكانت متأخرة عن متعلق القدرة .

وجه ثان : أن النظر في الحكمة بعد النظر في المفعول والعلم به ، فينتقل منه إلى النظر فيما أودعه من الحكم والمعاني .

وجه ثالث : أن الحكمة غاية الفعل فهى متأخرة عنه تأخر الغايات عن وسائلها ، فالقدرة تتعلق بإيجاده ، والحكمة تتعلق بغاياته ، فقدم الوسيلة على الغاية ، لأنها أسبق في الترتيب الخارجى " (٤) .

ويلاحظ أيضا - أن من هذه الصفات ما استعمل في جانب الخلق ، والتزم فيه بهذا الترتيب ، كما فى صفتى السمع والبصر ، وتقديم الأولى منهما على الثانية ، مما فى الحديث عن الله (عز وجل) . أو فى الحديث عن مخلوقاته .

يقول ابن قيم الجوزية : " وأما تقديم السمع على البصر ، فهو مقدم عليه حيث وقع فى القرآن ، مصدرا أو فعلا أو اسما ، فالأول كقوله (تعالى) :

" إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا " (٥) والثانى كقوله : " إِنِّى مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى " (٦) والثالث كقوله : " إِنْ اللّٰهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ " (٧) ، " إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " (٨) ، " وَكَانَ اللّٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا " (٩) .

(١) نتائج الفكر ص ٢١٥ (٢) البرهان ج ٣ ص ٢٢٢ (٣) الإتيان ج ٢ ص ٢٠
(٤) بدائع الفوائد ج ١ ص ٦٢ - ٦٨ (٥) الأبرار / ٣٦
(٦) لقمان / ٢٨ (٧) غافر / ٥٦
(٨) طه / ٤٦ (٩) لقمان / ٢٨ (٨) غافر / ٥٦

هو يسمع ما يُجيبهم به ، ويرى ما يرضعه . وهذا لا يعم سائر الواضع ، بل يختص منها بما
هذا شأنه . والسبب الثاني : أن أفكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام مع غاية البعد بين
السامع والسموع أشد من أفكارها لرويته من بعده . وفي الصحيحين عن ابن مسعود (رضى
الله عنه) قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ، ثقيان وقرشي ، أو قرشيان وثقي ، فقال أحدهم
لثوون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا . فقال
الثالث : إن كان يسمع إذا جهرنا ، فهو يسمع إذا أخفينا . ولم يقولوا : لثوون الله يرانا ،
فكان تقديم السمع أهم والحاجة إلى العلم به أم . وسبب ثالث ^(١) : وهو أن حركة
اللسان بالكلام أعظم حركات الجوارح وأشد تأثيرا في الخير والشر ، والصالح والفساد ،
بل عامة ما يترتب في الوجود من الأفعال إنما ينشأ بعد حركة اللسان فكان تقديم الصفة
المتعلقة به أهم ، وأولس ^(٢) .

في هذه الأوجه تحليل دقيق لتقديم السمع على البصر في القرآن ، بالإضافة إلى
ما سبق ، لكن يلاحظ فيها أن ابن قيم جمع فيها بين ما ينطبق على تقديم السمع على البصر
حيث وقع في القرآن ، كما في السبب الثاني والثالث ، وبين ما يختص ببعض
مقامات التهديد والوعيد كما في السبب الأول .

ويؤخذ عليه أنه قطع بأن السمع مقدم دائما على البصر حيث وقع معه في آيات
القرآن ، سواء كان فعلا أو اسما ، أو مصدرا . . . وليس الأمر كذلك ، فقد تقدم البصر
على السمع في بعض الآيات وإن كانت قليلة .

منها قوله (تعالى) في سورة السجدة : * وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ
عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * ^(٣) حيث تقدم الإيهام
على السمع في الفعلين * أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا * .

وسر هذا التقديم أن الآية في سياق الحديث عن يوم القيامة ، وما يحدث للكافرين فيه ،
وإن ما يفجأ من مشاهد يوم القيامة مرئي لا سموع ، فحين تقوم الساعة نرى أولا ، ثم
نبرثانها ، وعلى هذا يكون تقديم الإبصار على السمع منطقيا مع وقته ، وواقعه ^(٤) .

(١) استدرك هذا السبب بعد ما تقدم في صدر حديثه أن تقديم السمع على البصر له مبيان

(٢) بدائع الفوائد ج ١ ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) الآية ١٢ / .

(٤) ينظر هذا التوجيه في * القضاء والقدر وإعجاز القرآن ، ص ١١٢ ويلاحظ أن الشيخ
الشمراني جزم بأن هذه هي الآية الوحيدة التي تقدم فيها البصر على السمع .

وجعل السهيلي هذا النوع من التقديم من باب التقديم بالفضل والشرف ، فالسمع يقدم على البصر لشرفه ^(١) ، وتابعه في هذا الزركشي ^(٢) ، والسيوطي ^(٣) .

والأولى أن يكون هذا التقديم من نوع تقديم الأسبق زماناً في الوجود ^(٤) . حيث أن الحكم بأن السمع أشرف من البصر مختلف فيه ، فهناك من يقدم السمع ، وهناك من يقدم البصر ، ولكل دليله ، ولا حاجة لعرض هذا الخلاف الذي لطائل وراءه ^(٥) .

ثم إن تحليل تقديم السمع على البصر بأسبقية الوجود ، أي أن السمع يؤدي وظيفة في الحياة أولاً ، ثم بعد ذلك البصر ، كما أثبتت علم وظائف الأعضاء في العصر الحديث . هذا التحليل يضع أيدينا على ناحية من نواحي الإعجاز العلمي في القرآن ، استطعنا أن ندركها في ضوء العلم الحديث ^(٦) .

وذكر ابن قيم أوجه أخرى لتقديم السمع على البصر ، حيث يقول : " تقديم السمع على البصر له سببان ، أحدهما : أن يكون السياق يقتضيه بحيث يكون ذكر هاتين الصفتين مضمناً للتهديد والوعيد ، كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين ، وتحذيرهم بما يذكر من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة . كقوله : (فَإِنْ زِلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ^(٧) وقوله : (مَنْ كَانَ يُرِيدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) ^(٨) ، والقرآن مملوء من هذا ، وعلى هذا فيكون في ضمن ذلك أني أسمع ما يردون به عليك ، وما يقابلون به رسالاتي ، وأبصر ما يفعلون . ولا رب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إليّ الإجابة والطاعة نوعان ، أحدهما : قائلوها بقولهم : صدقت ، ثم عملوا بوجهها . والثاني : قائلوها بالمتكذيب ، ثم عملوا بخلافها ، فكانت مرتبة السمع منهم قبل مرتبة البصر ، فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالبصر . وتأمل هذا المعنى في قوله (تعالى) لموسى : (إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى) ^(٩) .

(١) نتائج الفكر / ٢١٧ . (٢) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٣) الإتيان ج ٢ ص ١٨ .

(٤) مع ملاحظة أن هذا بالنسبة لنا نحن المخاطبين بالقرآن لا بالنسبة إليه (سبحانه) .

(٥) ينظر هذا الخلاف في بدائع الفوائد ج ١ ص ٧١ - ٧٣ ، والبرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٥٤ ، والإتيان ج ٢ ص ١٨ .

(٦) ينظر " القضاء والقدر وإعجاز القرآن " ص ١٠٨ - ١٠٩ للشيخ محمد متولى الشعراوى ط ٣ دار الشروق سنة ١٩٧٥ م .

(٧) البقرة / ٢٠٩ .

(٨) النمل / ١٣٤ .

(٩) طه / ٤٦ .

ومنها قوله (تعالى) فى سياق حاجة الشركين ، فى عبادة الأصنام :

• لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يُمِطُّونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ

أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ * (١) ، حيث تقدم الحديث

عن الإبطار على الحديث عن السمع فى الفعلين " يُبْصِرُونَ بِهَا ... يَسْمَعُونَ بِهَا ... " .

ولعل هذا التقديم يرجع إلى أن الآية الكريمة جمعت بين حواس متعددة ، ثم

رُتبت هذه الحواس تصاعدياً من الأدنى إلى الأعلى حسب الأهمية ، فاقضى ذلك تقديم

البصر على السمع . وقد ذكر الزركشى هذه الآية مثالا للتقديم بالترقى من الأدنى إلى

الأعلى ، حيث يقول : " فإنه (سبحانه) بدأ منها بالأدنى لغرض الترقى ، لأن

منفعة الرابع أهم من منفعة الثالث ، فهو أشرف منه ، ومنفعة الثالث أهم من منفعة

الثانى ، ومنفعة الثانى أهم من منفعة الأول ، فهو أشرف منه " (٢) . ونقل السيوطى عنه

هذا الكلام (٣) .

ومنها قوله (تعالى) فى سورة الأعراف - أيضا :

• وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كُفْرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ

أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ

هُمُ الْغَافِلُونَ * (٤) .

حيث تقدم الحديث عن الإبطار على الحديث عن السمع كما فى السابقة ، ولعلهم

يرجع إلى أن الآية الكريمة جمعت بين نوعين من العمى لهؤلاء المرصودين لنصار

جهنم : عمى البصيرة كما يلاخذ من قوله (تعالى) : " لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا " .

أى لايتفهمون بها فى معرفة الحق ، فكانها معدومة - وعمى البصر ، كما يؤخذ

من قوله (سبحانه) : " وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا " . أى لاينظرون بها ، إلى ماخلق

الله نظر اختبار يهديهم إلى الحقيقة ، فهم بمنزلة العميان ...

(١) الأعراف / ١٩٥ .

(٢) البهـرهان ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٣) الانتفىـان ج ٢ ص ٢٠ .

(٤) الأيـة / ١٢٩ .

فلما بدأت الآية بالحديث عن عى البصيرة فى وصف هؤلاء كان الأنسب أن يقتصر بـ الحديث عن عى البصر ، فقدّم لذلك الحديث عن البصر على الحديث عن السمع (١) .

ومنها ، قوله (تعالى) فى سورة هود : * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * (٢) حيث قدّم البصير على السميع . ولعله يرجع إلى مراعاة المقابلة بين الفريقين (٣) فى الصفات المذكورة ، حيث قيل الأعشى بالبصير ، والأصم بالسمع ، فلبنا الصفتين على ما تقدمهما من صفتى الفريق الآخر امتضى النظم فى الآية أن يكون على ما جاء عليه من تقديم البصير على السميع .

ومنها - وهى الآية الأخيرة التى قدّم فيها البصر على السمع من كل آيات القرآن التى جمعت بينهما - قوله (تعالى) فى سورة الكهف : * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثْبِتُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا * (٤) حيث تقدم البصر على السمع فى قوله * أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ * .

ولم أهتم إلى سر تقديمه فى هذه الآية * مع يقينى بأن هذا السر موجود ، وإن كان محجبا .

* * * *

(١) نظيرة فى جمع القرآن بين هذين النوعين من العمى قوله (تعالى) : * ...

فَلْيَنْهَا لَاتَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَخْفَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * سورة الحج / ٤٦ .

(٢) الآية / ٢٤ .

(٣) فريقا الكفر والإيمان * الأول كالأعمى الأصم ، والثانى كالبصير السميع .

(٤) الكهف / ٢٦ .

ومن الأمثلة على الاختلاف بالتقديم والتأخير بين هذه الالفاظ - غير ما جاء
 فيها في صفات الله (عز وجل) • وما جاء مشتركاً في الحديث عنه (سبحانه) ومن
 مختلفاته - قوله (تعالى) في سورة الأنعام :
 " رَمَا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبًّا وَلَهُمْ وَلَا الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (١) • وفي سورة العنكبوت :
 " وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوَ
 كَانُوا يَعْلَمُونَ " (٢) • وفي سورة محمد :
 " إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُمْ وَإِنْ تَحْسَبُوا وَيَتَّقُوا يَأْتِيَكُمُ أَجُورُكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ " (٣)
 وفي سورة الحديد :

" اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
 وَالْأَوْلَادِ كَشَلٍّ عَنِ الْعَجَبِ الْكَفَّارِ نَهَاتُهُ ثُمَّ يَهْمُجُ فَنَرَاهُ مُضْطَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
 قَدِيدٌ وَصَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَاعٌ الْفُرُورِ " (٤)

حيث تقدم اللهو على اللعب في آية العنكبوت • وتأخر عنه في بقية الآيات • مع
 أنها كلها في الحديث عن الدنيا، والتأكد على وصفها باللعب واللهو •

وقبل الحديث عن الغرض من اختلاف هذين اللفظين بالتقديم والتأخير تجسّد
 الإشارة إلى بعض ما جاء في تفسير هذه الآيات • وله أثره في توضيح هذا الغرض •

فقد جاء في تفسير الرازي عن معنى اللعب واللهو • أن اللعب : الإقبال على الباطل
 للذة بصورة زائلة • وأن اللهو : الإعراض عن الحق • وقيل : اللعب : الاشتغال بشئ
 عن شئ آخر على وجه الترجيح • أى تقديم الاشتغال بشئ عن الاشتغال بشئ آخر • فى
 النية لاشتغال به أيضاً • واللهو الاشتغال بشئ عن شئ آخر على وجه الاستغراق •
 أى استغراق الاشتغال بالشئ الأول بما لا يدع فرصة للتفكير فى الثانى • فالدنيا
 للبعض لعب • أى يشتغل بها أولاً ثم يشتغل بالآخرة بعد • ولللبعض لهو • أى يشتغل
 بها فقط • ونسب الآخرة بالكلمية (٥) وذكرت أقوال أخرى

(١) الآية / ٣٢ (٢) الآية / ٦٤
 (٣) الآية / ٣٦ (٤) الآية / ٢٠
 (٥) يراجع : مفاتيح الغيب ج ٦ ص ٥٠٧ •

بكر أن يخلص منها بالسر . أن . اللعب : هو الفعل الذي لا يقصد به صاحبه مقصداً
مهما من تحصيل منفعة أو دفع ضرر . كالأعمال الصغار التي يتلذذون بها لذاتها
وسرمان ما يلحقهم الملل منها . واللغو : هو كل ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهتف
بطلبه . أيضاً - على كل ما به استغناء . وفائدته - إن تحققت منه فائدة أحياناً - عاجلة
ملبية . كدفع الهوم والآلام^(١) . وقصد يطلق اللهو على جد يتشغل به عن
جد آخر . كما تشغل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بدعوة كبراء قريش إلى الإسلام
عن الأعرابي (ابن أم مكتوم) ، فقال له الولي (عز وجل) في ذلك - ضمن ما قال - " وأما من
جاءك بنفسه وهو يخشى فأتته عنه تلهي^(٢) " . وهذا المعنى ليس مقصوداً في هذه
الآيات .

وجاء في معنى الحياة الدنيا أن المقصود بها في هذه الآيات : حياة أهل الشرك
والنفاق . كما قال ابن عباس (رضى الله عنه) ، وذلك لأن حياة المؤمن يحصل فيها
العمل الصالحة فلا تكون لعباً ولهواً ويدعم هذا أن الآيات وردت في سياق الرد على منكري
البعث . والحديث عن مآل الكفار في الآخرة ففيها تنبيه على خسارة وركاكة هذه الحياة
التي يتشبثون بها ويدعون أنه لا حياة بعدها . وقيل : إن المقصود حياة المؤمن والكافر ،
بمعنى أن اللذات الحاصلة فيها . والطيبات المطلوبة فيها . كاللعب واللهو . يلتذ
الإنسان وقت الانشغال بهما ، فإذا ما انتهيا ، لا يبقى إلا الندم . وكذلك الحياة لا يبقى
قد انقرضها إلا الحسرة والندامة على ما كان فيها من لذات^(٣) .

وجاء في توضيح المقصود من كون الدنيا لعباً ولهواً في هذه الآيات أحوال مختلفة
لبنها ، وأشملها قولان :

الأول : أن الدنيا كمدة زمنية محدودة بالنسبة للإنسان . قصيرة الأجل ، فما هي إلا كآزمان
اللعب واللهو التي تكون عادة قصيرة . أو تبدو هكذا في مشاعر الناس . وبخاصة
اللاعبون . واللاهون .

الثاني : أن متع الحياة وزخارفها . وسائر ما يتعلق به الكفار من أعمال تلهيهم عن الحق .

(١) يراجع الكشاف ج ٢ ص ١٤ . ج ٣ ص ٢١١ . تفسير القرطبي ص ٢٤١١ . ص ٥٧٨ .
الفردات في غريب القرآن ص ٤٥٠ . ٤٥٥ . تفسير المنار ج ٧ ص ٣٦٥ .
درة التنزيل ص ١٢٣ - ١٢٤ . روح المعاني ج ٧ ص ١٣٣ .

(٢) سورة محس / الآيات ٨ - ١٠ .

(٣) يراجع تفسير الرازي ج ٤ ص ٣٢ . تفسير القرطبي ص ٢٤١١ - ٢٤١٢ . تفسير
المنار ج ٧ ص ٣٦٦ .

لأنفسى ولا تنفد ، فهى كاللعب لا ينتظر منه فائدة ، وكاللهو ، الذى يشغل عما يفيد
وان أماد ، فإنادته عاجلة سلبية لاتدوم ، بخلاف أعمال الآخرة ، فهى باقية أبداً ،
والجزاء عليها دائم فى حياة أبدية ، وهى الحياة الأخرى (١) .

ومع ملاحظة هذين المعنيين فى كل آية من هذه الآيات ، إلا أن تدقيق النظر
فى خواتمها يهتدى إلى أن أحدهما هو المقصود أولاً ، وأن جاز معه إرادة المعنى الآخر :

ففى آية المنكوت يلاحظ أن المعنى الأول هو المقصود ، بدليل قوله (تعالى)
فى خاتمتها : " وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " ، ففى الآية مقابلة
بين حياة منقضية سريعة ، لبقاء فيها أبدية ، دائمة دل على دوامها والبالغة
فيه باستعمال هذه الصيغة الفريدة ، صيغة " الحيوان " .

وفى آية الانعام يلاحظ أن المعنى الثانى هو المقصود أولاً ، بدليل قوله (تعالى)
فى خاتمتها : " وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ " ، حيث يعطى هذا
المعنى بطريق اللزوم ، أن أعمال غير المتقين فى الدنيا لا خير فيها ولا نفع ، فتكون كاللعب
واللهو ، وهو مفهوم المعنى الثانى .

وفى آية مُحْتَسَب ، يلاحظ كذلك أن المعنى الثانى هو المقصود ، بدليل قوله
(تعالى) فى خاتمتها : " وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ يَرْجُكُمُ أَجْرُكُمْ " ، فالحديث
فيها عن ثواب أعمال الإيمان والتقوى ، وهو المراد من كلمة " أجور " وهذا يعنى أن مقابل
ذلك لا أجر له . وهى أعمال الكفار فى الحياة الدنيا التى لا فائدة فيها .

أما فى آية الحديد ، فالمعنى المقصود أن بدرجة واحدة ، حيث يناسب الأول ما جاء
فيها من التشبيه الذى يبين قصر هذه الحياة وسرعة تضيئها مع قلة جدواها . ويناسب
الثانى ما جاء فيها من المقارنة بين حالتى الدنيا والآخرة ، فالآخرة تتعلق بالأمور
المعظم ، كالمغفرة والرضوان لمن آمن ، والعذاب الشديد لمن كفر وعاند ، والدنيا
تتعلق بحقوق الأمور من لعب ولهو وزينة وتفاخر ، وهى أمور لا تنفع ، ولا تجدى ، ولا تعود
على صاحبها بما ينفعه فى الآخرة .

(١) المراجعة السابقة ، الكشاف ج ٢ ص ١٤ ، درة التنزيل ص ١٢٣ - ١٢٤ .
روح المعانى ج ٧ ص ١٣٣ .

وأما عن الغرض من تقديم ما تقدم من اللفظين في هذه الآيات بعد هذه التوطئة ،
فقد أجمع المتحدثون عن هذا الاختلاف على أن تقديم اللعب على اللهو هو الأصل ،
لأنه يسهرو وفق التدرج الطبيعي لمراحل الحياة عند الإنسان ، فاللعب يكون زمن الطفولة
حيث لا فائدة تُقصد منه ، ولا يحتاج إلى فكر ، واللهو يكون في مرحلة تالية ، لحاجته
إلى القصد الذي لا يتأتى من الطفل ، فحينما يجتمعان يكون التقديم للعب على اللهو ،
ولا يُعَدل عن ذلك إلا لدواعٍ قوى في سياق الكلام . . وبناءً على ذلك اهتموا أولاً ببيان
مرئقديم اللهو على اللعب ، كما جاء في آية العنكبوت ، لأنه خلاف الأصل ، فذكرُوا
أرجها كورة ، منها :

أن المراد في هذه الآية الجالفة في وصف قصر الحياة الدنيا بالنسبة للحياة الأخرى
الأبدية ، فهي سريرة الانقضاء ، قليلة البقاء ، كآزمة اللهب ، واللعب ، وهي آزمة
تُستَصر لشغل النفس بحلاوة ما يُستعجل ، كما قال القائل :

شُهُورٌ يَنْتَظِمُونَ وَمَا مَعَرُزْنَا
بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا أَسْرَارِ

يُقَمِّدُ ذَلِكَ مَا جَاءَ مُقَابِلًا لِهَذَا الْمَعْنَى فِي نَفْسِ الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ (تَعَالَى) : " وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ " أَيْ أَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي لَا أَمَدَ لَهَا ، وَلِانْهِائَةِ
لأَبَدِهَا . . وَلَمَّا كَانَ الْمَعْنَى كَذَلِكَ قُدِّمَ اللَّهْوُ عَلَى اللَّعْبِ ، لِأَنَّ الْأَزْمَنَةَ الَّتِي يُقَصِّرُهَا
اللَّهُ أَكْرَمُ مِنَ الْأَزْمَنَةِ الَّتِي يُقَصِّرُهَا اللَّعْبُ ، وَلِأَنَّ الْأَزْمَنَةَ الَّتِي يَشْتَغِلُ النَّاسُ فِيهَا بِاللَّهْوِ
أَكْرَمُ مِنَ الْأَزْمَنَةِ الَّتِي يَشْتَغِلُونَ فِيهَا بِاللَّعْبِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَطِيبَهَا لَهُمْ يُخَيِّلُ قَصْرَهَا إِلَيْهِمْ ^(١)

ومنها : ما ذكره ابن الزبير ناظرًا فيه إلى صلة الآية بـ قبلها ، حيث يقول :
 • وأما آية المنكوت فإنه تقدم قبلها قوله (تعالى) : • وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَصَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ • • • (٢) ولا يسأل عن هذا ويجب إلا من جاوز سن
 اللعب • وبلغ السن التي بها يتعلق التكليف بالمخاطب • ويصح خطابه وحسابه على
 تفريطه • فناسب ذلك من ذكر الحياة الدنيا ما يساوي تلك السن • فقدم ذكر الله
 التالي للعب لمناسب • ولحصل ذكر مانعهم من الاستجابة • • • وأخر ذكر اللعب
 الذي لا يساوي • مع أنه متبع لله ولزوما • • • (٣) •

(۱) ينظر في هذا التوجيه دورة التنزيل ص ۱۲۳ - ۱۲۴ ، ومراجع أخرى تليها بتلخيص، مثل أسرار التكرار ص ۶۸ - ۶۹ ، بصائر ذوي التمييز ج ۱ ص ۱۹۲ - ۱۹۳ ، البرهان في علوم القرآن ج ۱ ص ۱۲۱ .

(٢) الأية ٦١ / (٣) ملك التاويل ج ٢ ص ٢٠٦

ومنها ما ذكره البقاعي ناظراً فيه إلى الغرض العام في السورة الكريمة ، وارتباط هذه الآية به ، حيث يقول : " ولما كان مقصود السورة الحث على الجهاد ، والنهي عن المنكر ، وكان في معرض سلب العقل عنهم (أي الكفار ، كما يفهم من سياق الحديث ، ولقوله (تعالى) قبل هذه الآية : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) قَدَّمَ اللّهُو لأن الإعراض عنه يحسم مادة الشر ، فإنه الباعث عليه " (١) .

ومنها ما ذكره الرازي ناظراً فيه إلى السياق من جهة أن الحديث قبل هذه الآية في أميأ تتصل بالحياة الدنيا ، وبناءً على ما ذكره في معنى اللّهُو من أنه الاستغراق في الشئ ، والانصراف إليه بالكلية ، وترك ما عداه ، كما في الانشغال بالدنيا ، وترك التفكير في الآخرة ، حيث يقول :

" وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا (أي في سياق الآية) وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها ، والاستغراق فيها ، اللهم إلا لما منع يمنع من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولداسم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه ، فقدم اللّهُو " (٢) .

ومنها ما ذكره الشيخ رشيد رضا ناظراً فيه إلى السياق من جهة أنه في إقامة الحج العتلية على المشركين حيث يقول : " هذه الآية ذكر فيها اللّهُو قبل اللعب على طريقة التدلي المؤذن بالانتقال من الشئ إلى ما هو دونه في نظر العقلاء ، فإن اللعب من العاقل الذي لا يليق به العبث أتبع من اللّهُو ، إذ اللّهُو يُقصد به فائدة ولو سلبية ، واللعب هو العبث الذي لا يُقصد به فائدة البتة ، فهو شأن الأطفال ، لا العقلاء العالمين بالمصالح ، الذين يقصدون بكل عمل من أعمالهم إما دفع بعض الضرر ، وإما تحصيل بعض النافع ، ولذلك بيّن جهلهم بقوله : (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ، وقال في الحجة التي قبلها : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) " (٣) .

ومنها ما ذكره ابن جماعة صَبِيحاً على ما جاء في معنى اللّهُو من أنه إعراض عن متابعة الحق مع العلم به ، حيث يتلخص كلامه في أن الآية صُبغت بقوله (تعالى) : " وَلَئِنْ مَّأْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ " ، وقوله : " وَلَئِنْ مَّأْتَهُمْ مِّنْ نَّزْلِ السَّمَاءِ مَاءً فَآخَبَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ " ، وقد دلت

(١) نظم الدرر ج ٤ ص ٣٦٦

(٢) تفسير الرازي ج ٦ ص ٥٠٧ وقد تحدث عن هذا الاختلاف في آيتي العنكبوت والأنعام فقط

(٣) تفسير المنار ج ٧ ص ٣٦٥

هاتان الآيتان على إعراضهم عن الحق مع علمهم به ، أى أنهم مع إقرارهم بهذا الحق لا يتبعون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولذا خُتِمَت الأولى بالتعجب من انصرافهم بعد هذا الإقرار فى قوله : " فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ " ، وخُتِمَت الثانية بتجهيلهم ، والحكم على أكثرهم بعدم العقل فى قوله " بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " ، ولما كان مدلولهما هو نفسه مدلول اللهو فى هذا السياق قُدِّمَ اللهو على اللعب فى الآية الكريمة . (١) .

ومنها ما ذكره الشيخ زكريا الأنصارى ، وَتَبَسُّمٌ بِالْفَوْضِ لَشِدَّةِ إِبْجَازِهِ ، وتعميمه ، حيث يقول : " قُدِّمَ اللعب هنا (يقصد آية الأنعام) ، وفى القتال ، والحديد وعكس فى الأعراف ، والمنكبات ، لأن اللعب زمن الصبا ، واللهو زمن الشباب ، وزمن الصبا مُقَدَّمٌ على زمن الشباب ، فناسب إعطاء المقدم للأكثر ، والمؤخر للأقل " (٢) .

وسمع أن تقديم اللعب على اللهو فى بقية الآيات يجرى على الأصل - كما سبق - بحث لا يحتاج إلى البحث عن سر تقديمه ، إلا أن بعض العلماء رأوا أن هذا التقديم مع كونه جارياً على الأصل لا يكون إلا لفرض بلاغى وفى تحديد هذا الفرض ذكرنا أوجهها - متعددة -

منها : أن سياقات هذه الآيات - على الرغم من تعدد مواضعها - فى ذم الدنيا ، للاشتغال بلعبها ولهوها ، وزيتها عن الله (عز وجل) ، فناسبها تقديم اللعب ، لأنه المُقَدَّم فى الوجود من ناحية ، ولأن الكلام حينئذ يجرى فى سياقات هذه الآيات على طريقة الترتى ، حيث الانتقال من بحث ليس له غائبة نافعة وهو اللعب ، إلى لهو فائدتهم سلبية عاجلة لا تنفع فى الحياة الأخرى (٣) .

وهذا التوجيه ، ووضح فى آتى الأنعام ، ومحمد على ما رجحت فيهما من المعنيين الواردين فى تفسير كون الدنيا لعباً ولهواً . لكم يسير فى آية الحديد على المعنى الثانى فقط . ومزيدة توضيحاً ، أن صدر هذه الآية يُفَصِّلُ متاع الحياة الدنيا ، ويرتبه بحسب الترتيب الذى تقتضيه مراحل الحياة ، لهذا تقدم فى الآية اللعب ، الذى يمثل المرحلة

(١) كشف المعانى ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) فتح الرحمن ص ٩٨ - ٩٩ - مع ملاحظة أنه تحدث فى هذا الوضع عن آيات أخرى جاء فيها هذان اللفظان ، لكن فى سياق آخر ، وسيرد الحديث عنها بعد .

(٣) ينظر : درة التنزيل ص ١٢٢ ، أسرار التكرار ص ٦٨ ، بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٣ ، كشف المعانى ص ٦٠ - ٦١ ، ملك التأويل ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، فتح الرحمن ص ٩٨ - ٩٩ ، تفسير المنار ج ٢ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ، البرهان فى علوم القرآن ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

الأولى في حياة الطفل ، ثم تلاءم اللهو الذي يُخلّ مرحلة تالية تحتاج إلى فكر ، ثم الزينة التي هي شأن الصبا ، ثم التفاخر الذي هو شأن الشباب ، ثم التكاثف في الأموال والأولاد ، الذي هو شأن الكهول والشيوخ .

ومنها ما ذكره البقاعي في آية الانعام فقط من بين هذه الآيات ، وبينه على صلة الآية بما قبلها في السياق حيث يقول : * لما كان السياق للخسارة ^(١) وكانت أكثر ما تكون من اللعب ، وهو فعل يزيد سرور النفس على وجه غير مشروع ، قدمه ، فقال : (إَلَّا لَعِبَ وَلَهْوٌ) . . . وللحياة الدنيا شر للذين يلعبون ، واللهو من شأنه أن يعجب النفس كالغناء والزينة من المال والنساء على وجه لم يؤذن فيه ، فيكون سببا للغفلة عما ينفع ، فتأخيرة إشارة إلى أنهم كلما فترّوا في اللعب ، وهو الاشتغال بالأموال السالفة والشواغل الباطلة بحثوا النفس وأثاروا الشهوات بالملاهي ^(٢) .

ومنها ما ذكره الرازي في آية الانعام - أيضا - ملاحظا فيه السياق من وجه آخر ، حيث يقول : * لما كان المذكور من قبل الآخرة ، وإظهارهم للحسرة ^(٣) ، ففي ذلك الوقت يعمد الاستغراق في الدنيا ، بل نفس الاشتغال بها ، فأخر الأبعد ^(٤) .

وتتوخا للحديث عن مواقع هذين اللفظين في القرآن ، واختلافهما بالتقديم والتأخير ، يلاحظ أنهما وردا في آيتين أخريين في سياق مختلف عن سياق الآيات السابقة ، وهما قوله (تعالى) في سورة الأنعام :

* وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَسَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ رَبِّهِمْ أَنَّ تُهْمَلْ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ بِهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ يَنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ^(٥) . وفي سورة الأعراف :

* الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَسَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنصَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ^(٦) . حيث تقدم في الأولى اللعب على اللهو ،

(١) كما يؤخذ من الآية السابقة عليها حيث يقول الحق (سبحانه) : * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ . . .

(٢) نظم الدرر ج ٢ ص ٢٣١ .

(٣) يقصد ما تدل عليه الآية السابقة على هذه الآية من قوله (تعالى) : * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَمَاءٌ مَا يُزِيلُونَ .

(٤) تفسير الرازي ج ١ ص ٥٠٧ .

(٥) الآية - / ٧٠٠ .

(٦) الآية - / ٥١ .

وفى الثانية للهو على اللعب مع أن الحديث فيها عن الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، وهم المشركون ، ومن يحمل على شاكلتهم من أهل الكتاب، حيث اتخذوا الدين السدى كلقابهم ، ودُعوا إليه ، وهو دين الإسلام لعباً ، ولهواً وسخرية واستهزاء ، أو اتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم ، أو أنهم كانوا يحكمون فى دين الله بمجرد التشهى والتشنى ، كحريم السوائب والبحائر ، ولا يختاطون فى أمر الدين ، مُكفّين بمجرد التقليد ، فعبر الله عن ذلك بأنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ، أو أن الله (سبحانه) جعل لكل قوم عهداً يُعظّمونه ويصلون فيه ، ويممرونه بذكر الله (تعالى) فتخذ أكثر المشركين وأهل الكتاب عهدهم للهواً ولعباً ، أما المسلمون فقد اتخذوا عهدهم كما شرعه الله (عز وجل) . أو أن المعنى عام فى كل من اتخذ دينه سبيلاً إلى دنياه ، لأن الدنيا قد حكم الله عليها - كما فى الآيات السابقة - بأنها لعب ولهو ، وعلى هذا رأى يندرج السلون مع غيرهم من المشركين وأهل الكتاب تحت ما تضمنته الآيتان من أحكام (١)

ولتقديم اللهو على اللعب فى الثانية ، جزئياً على غير الأصل - كما جاء فى آية العنكبوت السابقة ذكر العلماء أوجهاً متعددة :

منها : أن سياق الآية عما يجرى يوم القيامة من حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وقد وردت هذه الآية على لسان أصحاب الجنة فى ردهم على أصحاب النار بعدما طلبوا منهم أن يفيضوا عليهم من الماء ، أو مما رزقهم الله ، فقال لهم أصحاب الجنة : " إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ " ثم ذكروا من وصف الكافرين ما كان سبباً لهذا الحرمان . فقالوا : " الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لُحُوباً وَلَهُمْ أَلْفُ أَلْفٍ مِنَ الْآيَةِ " ولما كان هذا الحديث يوم القيامة رُوعي الترتيب بين هذين اللفظين ، بناءً على خاتمة الإنسان ، وعلى ترتيب ما انقضى ، وما انتهى به من الحالتين (٢) .

ومنها : أن الخطاب فى هذه الآية ، والحديث مع عامة الكفار ، واللهو فعل الأكثرية منهم ، فناسبه فى هذا السياق تقديم فعل الأكثرين ، بخلاف ما جاء فى آية الأنعام فهو بخصوص جماعة قليلة . ولأن أعمالهم التى اقتدوا فيها بآبائهم لم تطلبت لهم ، ولم يجدوا فى العاقبة نفعاً عليهم ، كاللعب الذى ينطوى على أعمال تبطل

(١) ينظر تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٧ ، تفسير القرطبي ص ٢٤٥١ - ٢٤٥٢ ، تفسير المنار ج ٧ ص ٣٦٥ - ٣٦٧ ، تفسير السرايزى ج ٤ ص ٦٥ مع ملاحظة أنه انفرد بالرأى الأخير .

(٢) ينظر أسرار التكرار ص ٦٨ بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٣ البرهان فى علوم القرآن

فى الآجل • وان سرت فى العاجل • وهذا بعد الأول • وأكثر الكفار دأؤهم اللهو^(١) .

ومنها : " أن الآية من قول المؤمنين أهل الجنة إخباراً عن حال الكافرين ، الموجبة لتعذيبهم فقدوا فى الذكر لله الشاغل عن الاستجابة • الجارى مع من التكليف • والمساوق له • • • • • إذ وجود اللعب أولاً فى السن التى معظمها غير من التكليف • • • • • فقصدوا أن يخصصوا موجب التعذيب من الأعمال • فذكروا مساوئهم ومظنتهم • وهو معاقب اللعب • • • • • فكان الكلام فى قوة أن لو قيل : إن الله حرم نعيم الجنة على من تأبط الكفر واحده • وأتبع اللعب باللهو من كفره • فلم يترج عن ملازمة السطيع والهوى •^(٢) .

ومنها : أن فى السياق ما يدل على معنى اللهو • وهو إغراضهم عن اتباع الحق ، كما يؤخذ من قوله (تعالى) قبل هذه الآية على لسان أصحاب الأعراف إلى الكفار : " قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَنَّتُمْ وِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ " ^(٣) • ومن قوله (تعالى) بعدها : " كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا " ^(٤) • فقدم اللهو لذلك على اللعب • إذ هو المعتد أولاً فى السياق ^(٥) .

كما ذكر العلماء - أيضاً - سر تقدم اللعب على اللهو فى الأولى • مع كونه جارياً على الأصل • فقال الإسكافى ما خلاصته وتوضيحه : أن الآية نزلت فى قوم من الكفار كانوا إذا سمعوا آيات الله (عز وجل) هزلوا عندها • واستهزأوا بها • كما حكى القرآن فى آية أخرى " وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا أَنطَلَبْتُمْ • • • • • " ^(٦) • وهؤلاء القوم حضوا النبى (صلى الله عليه وسلم) وسمعوا القرآن • وعجثوا عند سماعهم وتلاعوا بآياته وأجروها مجرى أعمال يستروح إليها • ولا تنفع فى عقابها • ثم شغلوا بدنياهم عن تدبرها • وألهتهم بحلاوتها عن التفكير فى صحتها • فأول أعمالهم لعب • وثانيها للهو • وكان أول ما اتخذوه من الدين لعباً • وثانيه للهو • فلذا قدم اللعب على اللهو • ولأن الحديث هنا عن قلة من الكفار • لا كلهم • وهم الذين نزلت فيهم الآية • فناسب ذلك تقديم فعل القلة منهم وهو اللعب • على فعل الكثرة • وهو اللهو ^(٧) .

(١) درة التنزيل ص ١٢٢ .

(٢) ينظر : ملك التأويل ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ باختصار .

(٣) الآية / ٤٨ .

(٤) الآية / ٥١ .

(٥) ينظر كشف المعانى ص ٦٠ - ٦١ (٦) النساء / ١٤٠ .

(٧) درة التنزيل ص ١٢١ - ١٢٢ .

وقال ابن الزبير : " إن هؤلاء الكفار لما لم يبرحوا عن الجرى على مهيع الصم الهكم الذين لا يعقلون ، جرى الإخبار عنهم بمقتضى أحوالهم غي أعمارهم ، التي لم تخرج عن أحوال البهائم ، فأول أعمارهم لعب ، وعقب ذلك لهو ، فورد الإخبار على حسب جرى الأعمار أنهم احمقوا البقاء مع مقتضى الطبع الإنساني إذ لم يصغ المكلف إلى داع ، ولا تكلف الخروج عن مقتضى هواه (١) .

وأكفى بعضهم بالإشارة إلى الأصل العام في هذا التقديم من أنه يجري وفق التدرج الطبيعي لمراحل حياة الإنسان (٢) .

وأيهم ابن جماعة حيث أكفى بتنبههم على أن المواضع التي تقدم فيها اللعب على اللهو جاءت في سياق ذم الدينار ، والاشتغال عن الله (تعالى) بلعبها ولهوها ، وزينها (٣) . وهذه الآية ليست كذلك ، فسياقها مختلف عن سياقات الآيات التي وردت في ذم الدنيا وتقدم الحديث عنها .

وأكفى بهذا القدر من الأمثلة على ما جاء مختلفا في المشتبهات بالتقديم والتأخير ، حيث يبين كل مثال منها صورة من صور التقديم والتأخير بين أجزاء الجملة ، كما وردت في هذه المشتبهات .

* * * *

(١) ملاك التأويل ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) ينظر أسرار التكرار ص ٦٨ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٩٢ . فتح الرحمن

ص ٩٨ ، البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٢١ .

(٣) كشف المعاني ص ٦٠ - ٦١ .

بين الحذف والذكر

للحذف في الكلام أغراضه التي لا يغنى الذكر عنها فيها ، يقول الشيخ محمد
الظاهر : " فإنك ترى به ترك الذكر أقصَح من الذكر ، والصمت عن الإعادة أزيد للإفادَة
وتجديك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأنت ما تكون بيانا إذا لم تُبين " (١) .

وللذكر - أيضا - أغراضه التي لا يغنى الحذف عنها فيها . . . والبلاغة مراعاة
القامات والأحوال ، فلكل منهما مقامات تناسبها ، ودواع تقتضيها . . .

ولبيان شيء في الدلالة على هذا مانراه في طائفة من المشتبهات ذكر فيها ، في
وضع ، ما حذف منها في موضع آخر (٢) ، رعاية للمعنى واستجابة للسياق في الوضعين .

من الأمثلة على ذلك قوله (تعالى) في سورة الكهف ، حكاية عن العبد الصالح
لما أنكر سيدنا موسى (عليه السلام) خرق السفينة :
" قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا " (٣) ، ولما أنكر قتل الفيلام :
" قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا " (٤) .

حيث ذكر في الثانية متعلق فعل القول " لك " ، وحذف من الأولى ، مع أنهما
متركان في الغرض ، وهو تذكير العبد الصالح لسيدنا موسى بسقائه الأبلَى له ، لما التقيا
وطلب موسى (عليه السلام) منه أن يتبعه على أن يعلمه ما علم : (٥) .

وسر هذا الاختلاف أن القول في الآية الأولى كان عقب أول اختبار جرى لسيدنا
موسى بعد أن قال له العبد الصالح : " . . . إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا " ، وكيف

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٠ ، ويلاحظ أن هذا بخصوص ما يجوز حذفه من الكلام بقرينة
تدل عليه ، ولا يؤدي إلى التواء في القصد أو غوض في المعنى ، وكذلك ذكر ما يفهم
من الكلام لو حذف .

(٢) سواء في ذلك ركنا الجملة ، والمتعلقات ، وكل ما يرد في الجملة من وسائل التأكيد .
والأمثلة ستبين هذه الصور المختلفة .

(٣) الآية / ٢٢ .

(٤) الآية / ٢٥ .

(٥) راجع الآيات / ٦٥ - ٦٢ .

يُخْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا" (١) وبعد أن شرط عليه ألا يسأل عن شيء حتى يحدثه -
 (٢) ، ووافق سيدنا موسى قائلاً له : " . . . سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي
 لَكَ أَمْرًا " (٣) . ولكنه حين رأى من أمر السفينة ما رأى ، ثَقُلَ عليه الصبر فنسى ما وافق عليه
 والتزم به ، وقال للعبد الصالح : " لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا " (٤) ، فرد عليه العبد الصالح
 بالقول الوارد في هذه الآية ، مقتصرًا فيه على تذكيره بما قاله سابقًا عند بدء اللقاء بينهما ،
 من أنه لن يستطيع الصبر على ما يرى .

ولما كان القول لمجرد التذكير ، لو وود ، عند أول مخالفة ، لم يحتج فيه إلى ذكر
 التعلق ، الذي يدل على زيادة التأكيد وشدة العتاب المنافيئين للطف التوجيه عند أول
 مخالفة .

٩ ما القول في الآية الثانية فكان بعد أن اعتذر سيدنا موسى عن إنكاره الأول بالنسيان ،
 وقبل العبد الصالح اعتذاره ، واستثغنا الرحلة من جديد ، ثم عاد إلى إنكاره مرة أخرى ،
 فقال حين قتل العبد الصالح النمل : " أَتَيْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِخَيْرٍ نَفْسٌ لَقَدْ جِئْتَ
 شَيْئًا نُّكَرًا " (٥) أي شيئًا أنكر من الأول ، فاحتاج الرد عليه في هذه المرة إلى زيادة التأكيد
 لما تدر به العبد الصالح سابقًا وتكررت منه مخالفته ، فذكر التعلق إشارة إلى هذا ، حيث
 ينرب عليه ببيان القول له ، وتخصيصه بالقول ، كأنه قال : ألم أقل لك خصوصًا هذا
 القول . وليثلام الرد مع الإنكار في الموضعين ، فقد بالغ موسى (عليه السلام) في إنكاره
 الثاني ، فرد عليه العبد الصالح بما يناسبه كي تتأكد حجته عليه (٦) .

وهذا جنى على أن " نُكْرًا " في الإنكار الثاني أشد في الوصف من " إِمْرًا " ففى

-
- (١) الأيتان ٦٧/ - ٦٨ .
 (٢) الآية ٧٠/ .
 (٣) الآية ٦٩/ .
 (٤) الآية ٧١/ .
 (٥) الآية ٧٤/ .
 (٦) يراجع هذا التوجيه في : درة التنزيل ص ٢٨٥ ، الكشاف ج ٢ ص ٤٩٤ أسرار التكرار
 ص ١٣٤ ، مسائل الرازي ص ٢٠٦ ، ملك التأويل ج ٣ ص ٤٢٦ ، كشف الممانسى
 ص ٨٣ ، خاتيم النبي ج ٥ ص ٥٠٥ ، تفسير أبي السعود ، هامش على مفاتيح
 الغيب ج ٦ ص ٥٢٩ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٣٠١ .

الإثارة الأولى ، لأن النكر ما تنكره العقول ولا تعرفه ، ولا يستعمل إلا في الشر . بخلاف
الامر ، فقد قيل : إنه الدائمة ، من أمر الأمور إذا عظم وكثر . وقيل : العجب ، والمعجب
يشتمل في الخير والشر .

والساق يرجع أن النكر أعظم من الامر ، لأن الامر جاء مع خرق السفينة ، وهو شيء
يمكن تداركه بالسند ، أما النكر فجاء مع قتل الغلام ، وهو شيء لا سهيل إلى تداركه .

وقيل : إن الامر أعظم ، على أساس أنه جاء مع تفريق عدد من السفينة ، وهو
أعظم من قتل نفس واحدة . وضُفَّ بأن الفرق لم يقع ، والقيل وقع (١) .

وقد ذكر ابن الأثير هذا المثال في النوع الخامس من الصناعة المعنوية (توكيد
الضمين) شاهدًا على تأكيد المتصل بالمتصل (٢) . وتابعه العلوي في هذا ، وذكر نظيرًا
له : إنك إنك العالم (٣) .

والحق أن هذا ليس من باب تأكيد المتصل بالمتصل ، وإنما هو من ذكر المتعلق
وهذه ، كما نه ابن أبي الحديد (٤) . والفرق بين بين الآية والمثال ، لا يحتاج إلى
تعليل (٥) .

* * *

ومن الأمثلة قوله (تعالى) لرسوله (صلى الله عليه وسلم) في سورة الصافات :
• قَوْلَ غَنَمٍ حَسَّ حِينَ • وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ • (٦) ، وفي موضع آخر من
السورة :

• وَتَوَلَّى غَنَمٌ حَسَّ حِينَ • وَأَبْصَرُ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ • (٧) .

ينظر درة التنزيل ص ٢٨٤ الكشاف ج ٢ ص ٤٩٣ - ٤٩٤ ، أسرار التكرار ص
الفرداء في غريب القرآن " أمر " ص ٢٥ ، " ذكر " ص ٥٥٥ .
المثل السائر ج ٢ ص ١٩٢ ط دار نهضة مصر تحقيق د / أحمد الحوفي د / بدوي
طبانه .

الطراز التضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ج ٢ ص ١٤٦ ط المصنف .

ينظر البلاغة القرآنية ص ٥٤٩ ٦١٥ - ٦١٦

الآيتان / ١٧٤ - ١٧٥ (٨) الآيتان / ١٧٨ - ١٧٩ .

حيث ذكر مفعول الفعل "وأبصر" في الوضع الأول (الضمير " هم " العائد على المشركين في الآيات السابقة) ، وحذف في الوضع الثاني ، مع أن الخطاب في الوضعين للرسول (صلى الله عليه وسلم) والحديث فيهما عن كفار قريش ، والمعنى العام واحد ، وهو أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالاعراض عن مكذبي قريش ، والكف عن قتالهم إلى الحين الذي يعلمه الله (عز وجل) موعداً لانتصاره عليهم ، ثم أمره (صلى الله عليه وسلم) بأن يتربص ما يحل بهم ، ويُنزل بساحتهم في هذا الحين من وسائل التنكيل والتعذيب ، ثم تهديد الله (عز وجل) للكافرين بما يرونه في هذا الحين من تأييده (عز وجل) لرسوله ومن معه من المؤمنين ، وما يُصيبهم من صنوف المصائب واللوان التعذيب .

وتوجه هذا الاختلاف يتوقف على تحديد المراد بالحين في الوضعين . فقد قيل : المراد بالحين في الوضع الأول ، الوقت الذي ينتصر فيه المسلمون على أعدائهم في الدنيا . وهذا الوقت بالنسبة للرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن عاصره من المؤمنين يوم بدر ، أو يوم الفتح . والمراد بالحين في الوضع الثاني ، يوم القيامة .

وعلى ذلك فذكر المفعول به في الوضع الأول الغرض منه تعيين جماعة الكفار المقصودين في هذا السياق ، وهم كفار مكة ، الذين جرى الحديث عنهم ، ومعهم في الآيات السابقة ، من لدن قوله (تعالى) : " فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ " (١) ، أم خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ " (٢) إلى قوله (تعالى) مبشرا عباده المؤمنين : " وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلَ " (٣) ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ " (٤) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ " (٥) ، والمعنى في هاتين الآيتين : أن المرسلين ومن تبعهم من المؤمنين إذا حاربوا أعداء الله بأمر الله فإن الله قد حكم لهم بالظفر والنصر في عاقبة أمورهم ، وإن كان ذلك بعد مدة . ثم توجه الخطاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الآيتين بعد ، بمعنى : أعرض يا محمد عن محاربتهم إلى الحين الذي يعلم الله (عز وجل) أنه يُظفرك بهم ، وأبصرهم في الوقت الذي تُنصر فيه عليهم ، فسوف يصرون قهركم لهم وذلتهم . فذكر الضمير لتعيينهم من بين سائر الكفار مع سائر المرسلين ، الذين شملهم الحكم السابق . وفي ذكره - أيضا - إشعار بالتشقق وقت حلول العذاب الدنيوي بهم على أيدي المؤمنين .

(١) الأيتان / ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) الأيتان / ١٧١ - ١٧٣ .

أما حذفه في الوضع الثاني ، فلتقدم ذكره أولاً حفظاً للنظم القرآني من الحشو
غير الفيد . . . ولشَرَعَ فعل الإِبصار إلى معاني أخرى جاء هذا الحذف دليلاً عليها .
منها : إرادة المَعْمُوم في الوعيد ، بحيث يشمل كفار مكة المقصودين في هذا السياق ،
ويشمل كل من كان على شاكلتهم من الكفار في أي مكان ، وفي أي زمان . . . ومنها : تفخيم
مايراه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا الوقت من صنوف التعذيب للكفار ، أي توقع
يا محمد ما يحلّ بهم نى الأخرى بعد الانتصار عليهم في الدنيا ، وأبصرهم بنفك ، وأنسواع
العذاب التي تُصَبَّ عليهم ، وتُحل النار فيهم ، ثم مآلهم فيها من البقاء والخلود ، —
تبديل الجلود ، وسائر ما أعد الله من عذاب النار ، الذي لا يحيط به الذكر ، ولا يؤدى به
الوصف .

وتفخيم مايراه من الجزاء الأخرى له (صلى الله عليه وسلم) ولمن آمن به ، أي
تَرَقَّب يا محمد ما أقبل لك من تأييدك ونصرتك ، وجزائك الأخرى ، وجزاء من آمن بك
بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وأثر النظم القرآني التعبير بالإبصار في الوضعين إشعاراً بقرب المتوقع ، وتحقيق
وقوعه ، فكأنه (صلى الله عليه وسلم) بمنزلة المعانين ، المدرك بالبصر ، لتعجيل الدنيوى
منه ، وتحقيق وقوع الأخرى ، وتيقنه (١) .

وقيل : المراد بالحين في الوضع الأول يوم بدر . وفي الوضع الثاني يوم الفتح .
وذكر المفعول في الأول لما سبق ذكره في التوجيه السابق ، أما حذفه فلأن ظهور الرسول
(صلى الله عليه وسلم) وانتصاره على الأعداء يوم الفتح ، اقترن به الانعام بتأمينهم ،
والهداية إلى إيمانهم ، فلم يقتصر الإبصار على مجرد التشفّي بهم كما كان في الأول يوم بدر ،
حين حل بهم القتل ، والأسر والهزيمة ، والرب ، وإنما كان فيجبه — أيضاً — مرة لقلبيهم
(صلى الله عليه وسلم) وقرة لعينهم ، حين رأى إسلامهم واستسلامهم ، فحذف المفعول ليعم
الفعل فيشمل الأميين معاً (٢) .

(١) يراجع هذا التوجيه في : درة التنزيل ص ٣٩٥ — ٣٩٦ ، ملك التأويل ج ٣ ص ٥٣٨
٥٣٩ ، كشف المعاني ص ١٠٥ وينظر الكشاف ج ٣ ص ٣٥٧ ، مفتاح الغيب ص ١٦٤
١٦٥ ، تفسير أبي السعود ج ٧ ص ٥٥٦ حيث جاء فيها : أي فهم منه هذا المعنى
باختصار شديد ، على أنه أحد قولين .
(٢) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٣ .

وقيل المراد بالحين في الموضعين واحد ، سواءً فسر بيوم بدر ، أو بيوم الفتح أو بالموت ، أو بيوم القيامة ، ويكون الغرض من تثنية الآيتين في السورة الجالفة في التهديد والتهويل بالنسبة للكفار ، والتأكيد على وعيدهم بعد أن أصرّوا على غناهم لما نزلت الآيتان الأوليان ، واستعجلوا العذاب ، وكانوا يقولون من فرط تكذيبهم : متى هذا العذاب ؟ فرد عليهم الولي (عز وجل) بقوله قبل الآيتين الأخريين : " أَقْبَعَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ جَنَّتِنَا ؟ فَأَنزَلْنَا نَزْلًا بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ " (١) ، ويكون الغرض منها - أيضا - تحلية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إثر تحلية ... ومناسبة لهذه التثنية والغرض منها ، أطلق الفعل عن التقييد بالفعل به ، ليدلّ على أن ما يُصْره الرسول (صلى الله عليه وسلم) من صنوف الحرمة والأصحاب ، وصنوف المساءة لأعدائه ، لا يحيط به الوصف والبيان (٢) .

ولاتعارض بين هذه التوجيهات ، فكلها مقبولة ، وتدل على أغراض متعدّدة لكل من الذكر والخذف في الموضعين .

* * *

ومن الأمثلة قوله (تعالى) حكاية عن عيسى (عليه السلام) في سورة آل عمران :
 " إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعِذُّوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ " (٣) ، وفي سورة مريم :
 " وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعِذُّوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ " (٤) ، وفي سورة الزخرف :
 " إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعِذُّوهُ هَذَا طِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ " (٥) .

حيث ذكر ضمير الفصل في الجملة الأولى من الآية الثالثة ، ولم يذكر في الآيتين الأخريين ، مع أن الآيات كلها فيما أخبر به الولي (عز وجل) عن عيسى (عليه السلام) ومع

(١) الآيتان / ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) ينظر في هذا ، أصرار التكرار ص ١٨١ ، الكشف ج ٣ ص ٣٥٢ ، فاتيح الغيب ج ٧ ص ١٦٤ - ١٦٥ وتفسير أبي السعود ج ٧ ص ٥٥٦ ، تفسير القرطبي ص ٥٥٨٣ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٣٩٢ .

(٣) الآية / ٥١ .

(٤) الآية / ٣٦ .

(٥) الآية / ٦٤ .

أنها متحدة المقصد .

وضوح الفصل يُؤثّر به في الكلام لإفادة التخصيص - تخصيص السند إليه بالسند ، أو العكس ، على خلاف بين البلاغيين - وإفادة التأكيد ، إذا جاء التخصيص في الجملة من طريق آخر ، كما لو كان الطرفان معرفتين ، وللدلالة على أن ما يورد بعده خبره لصفة (١) .

والتأكيد هو الغرض البارز من هذه الأغراض ، سواء جاء مستقلاً ، أو جاء تابعا لغرض التخصيص . وعلى ذلك فالمعنى المتكرر في هذه الآيات جاء على قدر زائد من التأكيد في آية الزخرف ، لاستخدام ضمير الفصل ، فما الداعي إلى زيادة التأكيد فيها دون الآيتين الأخريين ، مع أن الخبر واحد في المواضع الثلاثة عن عيسى (عليه السلام) ؟؟

يؤخذ من كلام الاسكافي ومن تابعه من العلماء أن آية آل عمران جاءت حكاية عن سيدنا عيسى (عليه السلام) بعد ما خست آيات كثيرة في ذكره وابتداء أمره ، من لدن قوله (تعالى) في شأن أمه : " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ " . . . إلى هذه الآية (٢) . . . وقد تناصرت هذه الآيات المتقدمة في ذكره ، ودلت على إحدائه ، وخلقته ، وعلى أنه مربيوب بكثرة الأفعال التي أسندت إليه ، وجعلت آيات له ، وأنه عبد من عباد الله ، وأن الله هو ربه ، ومالكه ، والقائم بحالائه ، وهو الذي أبدعه بمعجزات تدل على صدق نبوته ، وكذب من ادعى أنه ابن الله . . . فاستقام من هذه الآيات معنى وحدانيته (سبحانه) وربوبيته وانفراده بالخلق والإيجاد ، وعبودية الصبح له فأغنى عن التأكيد الزائد على ربوبية الله (عز وجل) في الآية ، بذكر ضمير الفصل .

وكذلك الأمر في الآية الثانية ، فقد وقعت بعد الحديث الفصل ، عن خلقه وابتداء أمره ، وما حدث لأمه ، وله من معجزات ، تهتف بأن الله ربه ، وخالقه ، وأنه عبده ومخلوقه (٣) .

- (١) ينظر تفصيل هذا في : الكشف ج ١ ص ١٤٦ ، شروح التلخيص ج ١ ص ٣٨٥ - ٣٨٩ ، الطول ص ١٠٣ - ١٠٦ ، بغية الإيضاح ج ١ ص ١١٢ .
(٢) الآيات / ٤٢ - ٥٠ .
(٣) الآيات / ١٦ - ٣٥ وغيرها أعراف الصبح (عليه السلام) بالعبودية .

فأنت هذه الإطالة بما صرّفت إليه من العلم بالوهمية لله (سبحانه) وربوبيته له عمن
زيادة التأكيد بضمير الفصل على هذا المعنى في الآية .

أما آية الزخرف فقد وقعت عقب قوله (تعالى) في الحديث عن عيسى (عليه السلام)
• وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا^(١) . ولم يتقدم الآية في هذا الموضع ما يؤكد على معنى عبودية
الصالح لله (عز وجل) وربوبية المولى (عز وجل) له ، ولم تتعرض السورة لشئ مما
ورد مختصلاً في سورتي آل عمران - ومريم - بخصوص خلقه ، وابتداء أمره ، وما حدث له
من معجزات . فلما خلا سياق الآية من ذلك ناسبها زيادة التأكيد على المعنى فيها بذكر
ضمير الفصل ، صرفاً للناس عما تقولوه النصارى ، وادّعوه عن المسيح ، من أنه ابن الله ..
إلى تأكيد عبوديته لله (عز وجل) ، وانفراده (سبحانه) بالربوبية^(٢) .

وهذا تتكافأ الواضع الثلاثة في التأكيد على انفراده (سبحانه) بالالوهية ،
والربوبية ، وعلى بشرية المسيح (عليه السلام) وإبطال بنوته لله (عز وجل) ، حيث
يقوم ضمير الفصل في آية الزخرف مقام الآيات الكثيرة التي تقدمت على آيتي آل عمران ،
ومريم ، وشاركت في التأكيد على هذا المعنى .

والتأكيد الآتي من استخدام ضمير الفصل في آية الزخرف يصح ، مع ملاحظة معنى
القصر في الجملة على وجهين :

الأول : إثبات الربوبية لله (عز وجل) ، ونفي ما عداها ، وهي الأبوة ، كما في زعم
النصارى ، ومن سار على رأيهم من الكفار ، أي أنه هو ربّي ، لا أبى ، فيكون
من قصر السند إليه على السند .

الثاني : إثبات الألوهية له ، لا لغيره ، أي أنه هو خالق ، والقائم به الصالح ، لا غيره
من الآلهة ، فيكون من قصر السند على السند إليه^(٣) .

• قَالَ إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ ... واحترافه بالخلق والحدوث • وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا •

الآية ٦٣ / ١

(٢) يراجع في هذا التوجيه : درة التنزيل ص ٦٨ أسرار التكرار ص ٤٩ ، كشف المعاني

ص ٤٤ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٣) أشار إلى الوجهين الاسكافي في درة التنزيل ص ٦٨ - ٦٩ ، وإلى الأول منهما
الكرمانى في أسرار التكرار ص ٤٩ .

ويذكر ابن الزبير توجيهها آخر لهذا الفرق ، توضيحه : أن آية الزخرف تقدمها تنبيه بوقف المشركين من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الآية " وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ " (١) . وذلك أنه لما نزل قوله (تعالى) في سورة الأنبياء : " إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ " (٢) . تعلق بها الكفار ، وقالوا : قد عُبدت الملائكة ، وعبد المسيح ، وأنت يا محمد تزعم أن عيسى بن مَرْيَمَ مُقَرَّبٌ ، وأن الملائكة عبادٌ مقربون . . . فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار ، فقد رضينا ، وجادلوا بهذا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (عز وجل) قوله : " إِنْ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوُونَ " (٣) لتبرئة الملائكة والمسيح مما تصورونه وجادلوا به زورا وسهتان ، وهم يعرفون الحقيقة ، وهي أن المقصود بما يعبدون من دون الله الأصنام ، لأنه قال : " وَمَاتَعْبُدُونَ " ولم يقل : ومن نعبدون . فلما تقدمت الإشارة إلى هذا الموقف في الآية ، وأبانت الآية التالية لها عن كبريتهم ، وجدلهم بالباطل ، وتحيزهم لآلهتهم ، واعتقادهم في أنها خير من عيسى (٤) . ناسب السياق زيادة التأكيد على ربوبية الله (عز وجل) والوهيئة في الآية التي جلت بعد ، حكاية عن عيسى عليه السلام لما فيه من الإشعار بنقض مزاعم الكفار .

أما آية آل عمران ، وآية مريم ، فلم يتقدم عليها مثل ما تقدم هنا ، وإنما كانت الآيات في الحديث عن عيسى ، وأمه (عليهما السلام) على نحو ما سبق في التوجيه الأول (٥) . وفي الآيات اختلاف آخر يتصل في عطف آية مريم على ما قبلها بواو النسق ، ومجيئ آيتي آل عمران والزخرف على الاستئناف .

ويؤخذ من كلام ابن الزبير في توجيهه أن آيتي آل عمران ، والزخرف ، وردتا في

(١) الآية ————— / ٥٢ .

(٢) الآية ————— / ٩٨ .

(٣) الأنبياء / ١٠١ .

(٤) الآية ————— / ٥٩ .

(٥) ينظر ملاك التأويل ج ٢ ص ١٠٨ وينظر في توضيح الآيات ، الكشاف ج ٣ ص ٤٩٣ ، تفسير القرطبي ص ٥٢٢ - ٥٢٤ ، أسباب النزول ص ٢٠٦ - ٢٥٢ .

مباينهما على لسان سيدنا عيسى (عليه السلام) متصّلتين بكلامه السابق ، بغير فصل ، فلم يحتج الكلام فيها إلى الواو .

أما آية مريم فهي وإن كانت من تمام ما أخبر به عيسى (عليه السلام) عن نفسه بسداً من قوله (تعالى) : " قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا " الخ الآيات (١) . إلا أنه فصل بين هذه الآية وما قبلها بما يؤهم الشروع في قضية أخرى ، قد تؤهم فصل هذه الآية عما قبلها ، وهي من تنمة قول سيدنا عيسى ، فذكر حرف النسق لبحرز الالتحام بين الآية وما قبلها ، حيث يتعذر بدونه معرفة هذا الاتصال (٢) .

على أن ما جاء فاصلاً بين هذه الآية وما قبلها من كلام سيدنا عيسى ، قد جاء في موضعه والسياق في حاجة إليه ، إذ هو من كلام المولى (عز وجل) في صميم القضية المطروحة ، للتعريف بحقيقة عيسى (عليه السلام) وتبرئته مما نسب إليه ، حيث يقول الحق (سبحانه) " ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَخْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (٣) .

* * *

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سورة البقرة :
 " وَتَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً لِلَّذِينَ لِلَّهِ " (٤) ، وفي سورة الأنفال :
 " وَتَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كُلُّهُ لِلَّهِ " (٥) .

حيث ذكر في الثانية لفظ " كل " المؤكدة للدين ، ولم يُذكر في الأولى ، مع أن الأمر في الآيتين واحد بالنسبة للمسلمين ، وهو قتال الكفار حتى لا يكون هناك شرك ، ويخلص الدين لله (عز وجل) فلا يكون للشيطان فيه نصيب .

وسر هذا الاختلاف أن الأولى نزلت في كفار مخصّصين وهم أهل مكة ، الذين

(١) الآيات / ٣٠ - ٣٣ .

(٢) ملك التأويل ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) الآيات / ٣٤ - ٣٥ .

(٤) الآية / ١٩٣ .

(٥) الآية / ٣٩ .

أعدوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وتحرضوا له ، ولعن آمن به ، بالظلم ، والتنكيل ، والطرده ، فأذن الله لرسوله وللمسلمين في قتالهم ، ردًا على مايقومون به من مظالم ، مع عدم الاعتداء عليهم ، حيث يقول (سبحانه) قبل هذه الآية : * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَأَهْلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ . . . (١) .

ويؤكد على تخصيص هذه الآية بكفار مكة قوله (تعالى) في السياق : * وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ * (٢) ، حيث يدل على أن هذا القتال من جانب المسلمين جزاء على فتنه المشركين إياهم ، فهم قد بدأوا المؤمنين أولا بهذه الفتنه ، وهذه الفتنه أشد من قتال المؤمنين إياهم ، وقوله : * وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ * (٣) .

حيث يدل على أن الكلام عن مشركى مكة . . . وكل هذا تقييد للأمر بقوم مخصوصين ، فاقصر النظم على ذكر كلمة * الدين * من غير تأكيد بكل ، والمعنى : حتى يكون الدين حيث هو ، لا فى كل مكان ، لأنه لا يحصل بقتل مشركى مكة الدين فى كل البلاد .

أما الآية الثانية فالأمر فيها عام بقتال كل الكفار ، بدليل قوله (تعالى) فى سياقها : * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ . . . * (٤) ، وليس هذا خاصا بطائفة من الكفار دون طائفة ، فلما جاء بعدها * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ * ، أى لا يكون شرك وكفر ، اقتضى الاستغراق والعموم المفهوم من الآية السابقة تأكيد الدين بكل الفئدة للإحاطة والاستغراق ، لأن المسلمين فى هذه الآية أمروا بإبطال كل كفر قد رواه عليه (٥) .

ولابن جماعة توجيه آخر لهذا الاختلاف ، ذهب فيه إلى أن آية البقرة نزلت فى أول سنة من الهجرة ، فى سرية عبد الله بن جحش ، فى شأن عمرو بن الحضرمي الذي قتلهم وافد ابن عبد الله التميمي فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام ، وصناديد مكة إذ ذاك أحياء ، ولم

(١) الآيتان / ١٩٠ - ١٩١ . (٢) الآية / ١٩١ .

(٣) الآية / ١٩١ . (٤) الآية / ٣٨ .

(٥) ينظر فى هذا التوجيه : درة التنزيل ص ٤٦ - ٤٧ أسرار التكرار ص ٤١ ، مـلاك التأويل ج ٢ ص ٧٩ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٥٣ ، روح المعاني ج ٢ ص ٧٦ ويراجع فى معانى الآيات تفسير الطبرى ج ٣ ص ٥٦١ وما بعدها ، تفسير القرطبي ص ٢٢٢ وما بعدها ، أسباب النزول ص ٣٣ .

يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ رَجَاءٌ فِي إِسْلَامِهِمْ آنَذَاكَ •

وآية الأنفال نزلت بعد وقعة بدر ، وتمثل صنابير مكة ، فكان المسلمون بعد ذلك أرجى
لِلْإِسْلَامِ أَهْلُ مَكَّةَ عَامَةً ، وَغَيْرِهِمْ ، فَأُكِّدَ (مَبْحَاثُهُ) رَجَاءُ هُمْ ذَلِكَ يَقُولُهُ : " وَكَوْنُ الدِّينِ
كُلَّهُ لِلَّهِ " أَيْ لَا يُعْبَدُ سِوَاهُ . (١) .

والأول أوضح ، لتأييد السياق له في الموضوعين .

وفي الآيتين اختلاف آخر من جهة الخاتمة فيهما ، حيث ختمت الأولى بقوله (تعالى)
 " فَإِنْ اتَّبَعُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ " ، والثانية بقوله : " فَإِنْ اتَّبَعُوا فَلَا
 اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " .

وسر هذا الاختلاف أن الأمر في الآية الأولى ورد بقتال قوم مخصوصين للرد على عدوانهم وظلمهم - كما سبق - والمناسب لهؤلاء تحديد الغاية من القتال منسبهم ، فجاءت الخاتمة بالإشارة إلى هذا ، إذ تُفيد أن هؤلاء الكفار إذا انتهوا عن كفرهم فلا عدوان عليهم ، إنما العدوان فقط على من أقام على الضلالة ، واستحل بظلمه قتال المسلمين وقتلهم وتعذيبهم يحرم الله وبيته .

والمقصود بالعدوان الجزاء على ظلمهم ، والعقوبة على اجترأاتهم . وسمى عدواننا على سهيل المشاكلة ، كما في قوله (تعالى) : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا " (٢)

أما الآية الثانية فورد الأمر فيها بقتال عامة الكفار على أن يدخلوا في الدين ، وينبذوا ما سوى الإسلام ، ولما كان تظاهرهم بالإسلام ، ونطقهم بالشهادتين فقط يرفع عنهم القتال وتوكل سرائرهم إلى الله (عز وجل) كما جاء في الحديث الشريف " أُبْرِتْ أَنْ أَتَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِنْ قَالُوا هَاعَصَوْا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ " . . . لما كان الأمر كذلك ختمت الآية بما يشير إلى هذا المعنى ، أي فإن انتهوا عن كفرهم فإن الله بما يعملون بصير ، لا تخفى عليه أعمالهم ، وليس لك أن تُنَقِّبَ عن قلوبهم ، فهو (سبحانه) مطلع على سرائرهم ، يعرف من كان انتهاه عن الكفر لرغبة من رغائب الدنيا ، ومن كان انتهاه عنه للتبصر ، وهو (سبحانه) مجازلهم على أعمالهم . (٣) .

(١) ينظر كيف المعاني ص ٣٨.

(۲) ينظر هذه الملاحظة في الكشاف ج ۱ ص ۳۴۲ ، روح المعاني ج ۲ ص ۷۶ .

(٣) ينظر هذا التوجيه في : *درة التنزيل* ص ٤٦-٤٧ ملاك التأويل ج ٢ ص ٨٠ ، *والحديث بروايات مختلفة في : عمدة القاري* شرح صحيح البخاري - ج ١ ص ١٧٩ وما بعدها

ثم إن قوله (تعالى) : " وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ دَرَجَاتٍ " ليس بداية الحديث عين المشركين ، ولما جاء في الآية خاتمة ، وإنما الكلام متصل في الحديث عنهم قبل ذلك وبعده .

* * *

ومن الأمثلة قوله (تعالى) : في سورة الحج للتدليل على البعث :

" ... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَلِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ " (١)

وفي سورة فصلت :

" ... تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَلِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ " (٢) .

حيث تغير وصف الأرض قبل نزول المطر ، وفتحها بالنبات في الموضعين ،
نوهت في الموضع الأول بالهمود ، وفي الثاني بالخشوع مع أنهما متحدا في الفرض
وسد ل بهما في الموضعين على قدرة الخالق (عز وجل) على البعث ، فما هما إلا سكون
أو خمود ، تعقب الحركة والحياة .

وقد جاء هذا الاختلاف في الوصف استجابة لاختلاف السياق في الموضعين .

فالساق في الأول عن البعث والاحياء ، والإخراج ، كما يلاحظ في قوله (تعالى)
" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ مِنْ مَّخْضَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّتُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُعْرِضَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ
نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمرِ لِكَيْتَلَوَا
مَعْلَمٍ مِّن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا " (٣) . ثم قال (تعالى) ضمن هذه الأمل علم البعث
وترى الأرض هَامِدَةً " فاختار وصف الهمود لأنه المناسب لهذا السياق الذي
نص فيه على مخلوقات حية تخرج من الموت ، أو العدم ، كالنطفة التي تتدرج في مراحلها
المعروفة ، والنبته التي تصور زوجا بهيجا ، وكذلك أرض هَامِدَةٌ ميتة ينزل عليها

(١) الأيسر / ٥٥

(٢) الأيسر / ٣٩

(٣) نفس الأيسر / ٥٥

الماء فتحيا ، إذ تهتز وترى ، وتخرج صنوف النباتات .

أما السياق في الموضع الثاني فمن العبادة ، والخشوع ، والسجود ، كما يلاحظ في قوله (تعالى) قبل هذه الآية : " وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدْ وَاقْبَلْ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " فإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ " (١) ثم قال (تعالى) : " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً " فوصف الأرض بالخشوع لئلا يلام الوصف مع هذا السياق الذي يشيع الحديث فيه عن مخلوقات طبيعية ، عابدة خاشعة ، كالليل والنهار ، والشمس والقمر ، ومخلوقات حية ، تصل الليل بالنهار في العبادة ، كالملائكة ، وجماعات أخرى من بنى الإنسان تستكبر عن العبادة ، فكذلك جاء ضمن هذه المخلوقات الطبيعية العابدة الأرض الخاشعة التي تبدو في اهتزازها وإربائها كاهتزاز العابد ، وتحركه للعبادة ، كما اهتزت وربت في الآية الأخرى اهتزازا وإرباء من نوع آخر ، وهو للإنهات والإخراج ليقتل الحديث عن الأرض بما يناسب السياق ، ولذا زاد في الحديث هناك عن الأرض قوله (تعالى) : " وَأَنهَتِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ " ، واقتصر هنا على ما يحقق الغرض ، ويناسب السياق في تحرك هذه المشاهد للعبادة والخشوع ومنها الأرض (٢) .

وهذا الوصف للأرض هنا ، بالإضافة إلى ما دل عليه في هذا السياق ، دل - أيضا - على قدرة الخالق (سبحانه) على البعث ، ولذلك جاء بهذه الآية في هذا السياق تمهيدا للحديث عن الملحدين الذين يمارون في أمر البعث ، حيث قال (سبحانه) بعدها : " إِنَّا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَمِنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَوْفٌ مِمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " (٣) .

(١) الأيتسان / ٣٧ - ٣٨ .

(٢) يراجع في هذا التوجيه " التصوير الفني " سيد قطب ص ٩٢ - ٩٨ ، ط دار الشروق ، ويراجع في معاني الآيات الكشاف ج ٣ ص ٥ ، ٦ ، ٤٥٤ ، تفسير القرطبي ص ٤٤٠٥ ص ٥٨٠٩ .

(٣) الأيتسان / ٤٠ .

وقد يُقال : إن الحديث في الآية الثانية - أيضا - عن البعث ، بدليل قوله تعالى (في ختامها : " ... إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمْ يُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " ؟

لكن التدقيق في السياقين مرة ثانية ، يبيِّن الفارق الدقيق ، الذي عُلِيَ أمامه اختلاف الوصف في الموضعين . فسياق آية الحج واضح فيه أن الحديث عن مُكرى البعث ، بدليل قوله (تعالى) : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ " بهذا النداء العام الذي يلجأ إليه القرآن غالبا حينما يكون الحديث موجها للمشركون ، أولهم مع سائر المكلفين من آمنوا بالله (عز وجل) وصدقوا برسوله (صلى الله عليه وسلم) . وبدليل قوله بعد هذا النداء : " إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ " ، ما يدل على أن ما جاء بعد ذلك للاحتجاج عليهم ، والتدليل على أن الله (سبحانه) يُحْيِي الموتى ، كما يخرج الحي من الميت في هذه الأمور المشاهدة ، والملوحة في حياة الناس .

كما أن الآيات قبل ذلك في الحديث عن يوم القيامة بأهواله ، كما يلاحظ في مطلع السورة ، نالجو كله عن القيامة ، والبعث والإحياء .

أما سياق آية فصلت فواضح فيه الحديث عن العبادة والخشوع - كما سبق - وقد اندرجت الأرض في هذا السياق مع بقية المخلوقات في هذا المشهد الخاطيع لله (عز وجل) والذي يتطلب من الناس أن يتجهوا بعبادتهم إلى خالق هذه الأشياء ، ولا يخذعوا بعظمتها الدالة على وحدانيته (سبحانه) وقدرته ، فيتجهوا بالعبادة إليها ، وينسون أن الذي خلقهم وصورهم قادر على أن يطمسهن ، ثم أعقب الحديث عن هذا الوصف بالحديث عن البعث ضمنا في الآية ، وتمهيدا لما جاء بعد ذلك من الحديث عن الذين يُلحدون في آياته (سبحانه) .. تخلصا دقيقا من قضية إلى قضية ، يتوارى معه الشعور بالانتقال بين القضيتين ... وهكذا يأتي كل من الوصفين في موضعه على أتم وجه من المناسب !!

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سياق الحديث عن يوم القيامة من سورة النازعات :

• فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ^(١) ومن سورة هجس : • فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ ^(٢) •

حيث ذكر في الآية الأولى " الطَّامَةُ " ، وفي الثانية " الصَّاخَةُ " مع أن المراد بها شيء واحد في الموضعين ، وهو القيامة ، أو النفخة الثانية في الصور التي تنفث على أثرها الموتى إيماناً بهداية اليوم الآخر .

والطامة هي الداهية التي تُطْمُّ على الدواهي أي تعلو وتغلب ، فسميت القيامة بها ، لطمومها على كل هائلة ، أي تسترها وتغطيها لأن شدتها تنمسي عندها كل شدة من شدائد الدنيا ، والصاخة هي الصيحة الشديدة التي تطعمس الأذن فتصمها بشدة وقعها ، سميت بها ، القيامة لأن الناس يصيحون لها فينتهون بشدة كما ينتبه النائم بالصوت الشديد ^(٣) .

وعلى أساس هذا الفرق بين اللفظين في المعنى ، وإن كان المراد بهما في الموضعين واحد - كما سبق - يتضح أن لفظ " الطامة " أروع وأنبأ بأحوال يوم القيامة من لفظ " الصاخة " ، ولذلك اختير في سورة النازعات ليناسب سياقها ، الملاحظ فيه أنه بالنظر لسياق سورة هجس أبلغ في التخويف والإنذار ، فقد بنيت الصورة كلها على هذا ، كما يؤخذ من قوله (سبحانه) قبل هذه الآية : • يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ • قُلُوبٌ يَوْزَنُ وَاجِفَةٌ • أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ • الآيات ^(٤) . وكما يؤخذ من خبر فوهون ، وأخذ نكال الآخرة والأولى ، لما جاء به من الطامة الكبرى في الكفر ، حين قال : • أَنَارَكُمُ الْأَعْلَى • وهي من الكبائر بمنزلة شدة الآخرة بالنسبة لغيرها من شدائد الدنيا ^(٥) .

وكما يؤخذ من وصف (سبحانه) للطامة بالكبرى في نفس الآية زيادة في التخويف

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | الْأَيْسَةُ / ٣٤٠ |
| (٢) | الْأَيْسَةُ / ٣٣٠ |
| (٣) | ينظر في معنى اللفظين : المفردات في غريب القرآن ص ٢٧٦ ، ٣٠٩ ، تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٥ ، ٢٢٠ ، تفسير القرطبي ص ٦٩٩٢ ، ٧٠٦٥ ، تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٦٩ ، ٤٧٣ . |
| (٤) | الْأَيْسَةُ / ٦ - ٩ |
| (٥) | الْأَيْسَةُ / ٦٥ - ٢٦ |

والترهيب ، فهي الطامة التي تُنسى شدتها ما تقدم من شدائد الدنيا ، حتى يهيب
الناس فيها ، كما وصفهم الله (عز وجل) في آخر هذه السورة : **كَانَ يَوْمَ يَوْمُنَا
لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْرَاحًا** (١) .

وكما يؤخذ من قوله (تعالى) : **وَصَلَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى** ، **فَأَمَّا مَنْ طَفَسَ**
وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، **فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى** (٢) ، فالسياق كله تخويف وترهيب
ونخذه ، فناسبه أشد اللفظين موقعا ، وأرهبها في تصوير أهوال القيامة .

أما سورة عس فالملاحظ في سياقها أنها لم تُننَ على هذا الفرض من التخويف
والترهيب ، وإنما بُنيت على قصة هدد الله بن أم مكتوم (٣) ، ثم ورد الحديث فيها عن
القيامة بعد التذكير بقوله (سبحانه) في هذه السورة : **كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ** (٤) ، وبعد
التحريك للاعتبار ، بذكر خلق الإنسان ، ومراحل وجوده من مهده إلى لحدّه (٥) .

ولفت الأنظار إلى طعامه ، وما فيه من دلائل الاعتبار ، والاعتناظ (٦) ، وقد
استدعى الحديث عن نهايته ، الحديث عن اليوم الآخر ، فذكرت بعض أخبار هذا اليوم (٧) ،
فالسورة لم تخلص لفرض التخويف والترهيب كالأولى ، فناسبها أقل اللفظين وقعا في
التعبير من هول يوم القيامة ، وهو لفظ **الصاخة** ، وليوافق ما جاء في الخبر عن
الإنسان من قوله (تعالى) قبل هذه الآية : **ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ** ، **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ** (٨) .
إذ الصاخة هي الناشئة للوتى من القبور ، فكان ذكر هذا اللفظ في هذا السياق أولى
وانسب كما جاء الأول في موضعه أولى وانسب (٩) .

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | الآيَةُ / ٤٦ |
| (٢) | الآيَات / ٣٦ - ٣٩ |
| (٣) | الآيَات / ١ - ١٠ |
| (٤) | الآيَةُ / ١١ (٥) الآيَات / ١٨ - ٢٢ |
| (٦) | الآيَات / ٢١ - ٣٢ |
| (٧) | الآيَات / ٣٣ - ٤٣ (٨) الأَيُّمَان / ٢١ - ٢٢ |
| (٩) | يواجه في هذا التوجيه : درة التنزيل - ٥١٨ - ٥١٩ ، كشف المعاني ص ١٢٣
ملاك التأويل ج ٢ ص ٦٤٠ |

وللكهاني توجيه آخر يبينه على أساس أن الطامة خاصة بالفرع ، والخاصة بالنفخة ، والأول قبل الثاني بالنظر لآحداث يوم القيامة ، تقدم الأول في السورة المقدمة في الترتيب ، وجئ بالثاني في التاليف^(١) .

ولكن الظاهر من كلام أكثر الموجهين لهذا الاختلاف أن المراد بهما في الموضعين يوم القيامة ، كما لاحظنا فيما سبق ، وقد اتخذوا من المدلول اللغوي لكل من اللفظين سهلاً لربطهما بسياقيهما . وحتى لو كان المراد بأحدهما غير المراد بالآخر - كما يذهب الكهاني - فإن السؤال باق عن اختيار كل منهما في موضعه لوقوعهما في الموضعين بعد آية واحدة وهي قوله (تعالى) : " مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ " ^(٢) تعقيباً على ما ذكره من مشاهد كونه ، والوسائل التي تستقر بها حياة الإنسان على ظهر الأرض ؟ وهذا ما يجيب عنه التوجيه الأول - أيضاً - إذ المقصود ذكر شيء يتصل بالقيامة ، إن لم تكن هي في الموضعين ، وقد اختار (سبحانه) من الألفاظ التي تكرر عن هذا اليوم هذين اللفظين المناسبين لسياقيهما ، كما اختار غيرهما في سياقاتها المناسبة لها ، كالزلزلة والواقعة ، والحاقة ، والقارعة . . .

* * *

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سورة الانعام :

" يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ " . . . ^(٣) ، وفي سورة الروم :

" يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ " . . . ^(٤) ، وفي سورة يونس :

" وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ " . . . ^(٥) ، وفي سورة آل عمران :

" نُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ " . . . ^(٦) .

- | | |
|-----|---|
| (١) | أسوار التكرار ص ٢١٤ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٤٩٩ . |
| (٢) | النازعات ٣٣ / عس ٣٢ . |
| (٣) | الأنعام ١٥٠ / |
| (٤) | الأنعام ١٩ / |
| (٥) | الأنعام ٣١ / |
| (٦) | الأنعام ٢٢ / |

حيث تغيّر الفعل باسم الفاعل منه ، في صدر الجملة الثانية من الموضع الأول ، وهو الموضع الوحيد الذي انفرد بهذا التفسير من بين المواضع التي تكررت فيها هاتان الجملتان في القرآن على هذا النحو من الاقتران ، كما نرى في المواضع الثلاثة الأخرى . . . مع أن الفرض العام واحد ، وهو إظهار قدرة الله (عز وجل) التي تتعلق بالشئ وتقيسـه ، كما يؤخذ من مجموع المعنى في الجملتين سواءً جُرّ في صدر الثانية باسم الفاعل ، أو بالفعل . . . إذا فما سر هذا التفسير في آية الأنعام ؟

اكفى الزمخشري بالنظر إلى آية الأنعام معزولة عن الآيات الأخرى التي تكررت فيها هاتان الجملتان ، ورأى أن الاختلاف الذي يقتضى التساؤل والوقوف إنما هو بين الجملتين فقط في نفس الآية ، حيث جُرّ باسم الفاعل في الثانية ، وبالفعل في الأولى ، لأن اسم الفاعل معطوف على نظيره في أول الآية . أما الفعل فوقع موقع الجملة المهيئة لقوله (سبحانه) : " فالحق الحب والنوى " حيث يقول : " فلن قلت : كيف قال (يخرج الميت من الحي) بلفظ اسم الفاعل بعد قوله : (يخرج الحي من الميت) ؟ قلت : عطفه على فالحق الحب والنوى ، لا على الفعل ، ويخرج الحي من الميت مقدم موقع الجملة المهيئة لقوله : (فالحق الحب والنوى) لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الثاميين ، من جنس إخراج الحي من الميت ، لأن النامي في حكم الحيوان " (١) .

وعلى ما ذكره الزمخشري بنى ابن الزبير توجيهه للتفسير الوارد في آية الأنعام لكن بالنظر إلى الآيات الأخرى فذكر باختلاصه ، أن العدول عن الفعل إلى اسم الفاعل منه في آية الأنعام ليتحقق التناسب بين المعطوف والمعطوف عليه ، إذ أن هذا الاسم معطوف على قوله (تعالى) في صدر الآية (فالحق) فناسب الاسم الاسم ، أو بمعنى آخر ناسب الجملة الاسمية الجملة الاسمية التي عطفت عليها ، وكذلك ناسب الاسم ما بعده من قوله (تعالى) في صدر الآية الثانية : " فالحق الإصباح " (٢) فالفعل تغير إلى اسم الاسم لوقعه بين اسمين (فالحق الحب والنوى ، وفالحق الإصباح) وعطف على الأول منهما .

(١) الكشاف / ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) الآية / ١٦ .

وهذا بخلاف الفعل في الجملة الأولى ، فإنه وإن وقع بين اسمين - أيضا - وهما ' فائق ومخرج ' إلا أنه جاء به في جملة هيئة لما قبلها ، كما ذكر الزمخشري ^(١) .

أما الآيات الأخرى التي تكررت فيها هاتان الجملتان ، فلم يرد فيها ما يقتضى هذا العدول ^(٢) .

ولخص ابن جماعة هذا التوجيه حيث يقول : " إن يخرج الحق من الميت مناسب في المعنى لفلق الحب والنوى ، عن الخارج عنهما ، فجاء بالياء كالشرح لـ (يقصد الفعل الجدد بالياء) ثم عطف (مخرج) على (فائق) ، لأن عطف الاسم على الاسم أنسب وأصح ، ولما فيه من المقابلة للجملة المتقدمة ، وماتر المواضع بالياء (يقصد بغير تغيير الفاعل في الجملة المناظرة من الآيات الأخرى) لأن الجملة قبلها فعلية ، فعطف عليها بسفعية " ^(٣) .

والملاحظ في كلام هؤلاء أن محل التغيير الذي يبحث عنه هو اسم الفاعل في صدر الجملة الثانية من آية الأنعام ، سواء بالنظر إلى الفعل في الجملة الأولى - كما فعل الزمخشري - أو بالنظر إليه مع النظر إلى الفعل مقابله في الجملة الثانية فـ في الآيات الأخرى - كما فعل ابن الزبير ، وابن جماعة .

وقد علق ابن المنير على توجيه الزمخشري السابق بما يفهم منه رد هذا التوجيه ، وجعل محل التغيير هو الفعل في صدر الجملة الأولى ، لا اسم الفاعل في صدر الثانية ، وأنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل لاستحضار الصورة الأشهر في القدرة ، إذ يقول : " وقد وردا جميعا (يقصد الفعلين اللذين تغير ثانيهما إلى اسم في آية الأنعام) بصيغة الفعل كغيرها في قوله : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) وقوله : (أَمِنْ بَيْنِكَ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) ، فعطف أحد القسمين على الآخر كغيره دل على

(١) أحال علي نص الزمخشري السابق .

(٢) ملك التأويل ج ٢ ص ١٠١ .

(٣) كشف المعاني ص ٥٦ .

أنهما توأمانا مقتوتان ، وذلك يبعد قطعه عنه في آية الأنعام هذه ، ورده إلى (فالتق الحب والنوى) بقصد اسم الفاعل المعطوف على فالتق ، كما وجهه الزمخشري فالوجه والله أعلم أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل (يقصد الفعل فـ من صدر الأولى) أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله : (فالتق الحب) و (فالتق الاصباح) و (جاعل الليل)^(١) و (يخرج الحي من الميت) إلا أنه عدل من اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده وهو قوله : (يخرج الحي من الميت) لإفادة تصوير إخراج الحي من الميت ، واستحضاره في ذهن السامع وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائها الفعل المضارع ، دون اسم الفاعل والماضي^(٢) ثم هذا القصد إنما يجيء فيما تكون العناية به أقوى ، ولا شك أن إخراج الحي من الميت أشهر في القدرة من عكسه ، وهو - أيضا - أول الحالين ، والنظر أول ما يبدأ فيه ، ثم القسم الآخر ، وهو إخراج الميت من الحي ناشئ عنه ، فكان الأول جديرا بالتصدير ، والتأكيد في النفس ، ولذلك هو مقدم أبدا على القسم الآخر في الذكر على حسب توتيرهما في الواقع ، وسهل عطف الاسم على الفعل ، وحسنه أن اسم الفاعل في معنى الفعل المضارع ، فكل واحد منهما يقدر بالآخر فلا جناح في عطفه عليه^(٣) .

ومع ما ذكره ابن الخيزر في هذا التعليق من سر التعبير بالفعل دون الاسم في الجملة الأولى من آية الأنعام إلا أن تدقيق النظر في بقية كلامه يدل على الأمور التالية :

أولا : أنه أثبت للزمخشري توجيهه لاسم الفاعل ، وأنه محل التغيير ، من حيث يرد دفعه ورده ، إذ جعل ما قاله في هذا التوجيه أصلا لما كان يجب أن يجيء عليه الفعل في الجملة الأولى ، لوقوعه بين أسماء فاعلين ، وهذا تسليم بسر تغيير الفعل إلى الاسم في الجملة الثانية من باب أولى ، كما ذهب الزمخشري .

ثانيا : أنه ذكر آيتين أخريين فقط من الآيات الثلاث التي تشترك مع آية الأنعام في

(١) على قراءة أخرى : انظر الكشف ج ٢ ص ٣٨ ، وهامش أسرار التكرار ص ٧١ ، وتفسير القرطبي ص ٢٤٨١ .

(٢) ذكر بعض الأمثلة المشهورة في هذا من القرآن ، وشعر العرب .

(٣) حاشية ابن المنير على الكشف ج ٢ ص ٢٧ - ٣٨ .

تكرار هاتين الجملتين ، وهما آيتا الروم ، ويونس ، وترك آية آل عمران . ومع انه امتد ليهما على مجيء الجملتين بالفعل في صدريهما أنى وقعتا ماقدما آية الأنعام ، إلا أنه لم يذكر في تعليقه شيئا عن الفرق بين مجيئيهما بالاسم في آية الأنعام - كما جاء فعلا في الجملة الثانية ، وكما كان مقتضى تفسير الظاهر على رأيه في الجملة الأولى - ومجيئهما بالفعل في بقية الآيات ، وهذا ما تضمن فيه إجابة الزمخشري مع أنه لم يتعرض لبقية الآيات . ولذلك اعتمد عليها ابن الزمير في توجيه الفرق بين آية الأنعام ، وبقية الآيات . كما سبق .

ثالثا : لم يفت الزمخشري الحديث عن عدم تغيير الفعل إلى الاسم في الجملة الأولى من آية الأنعام ، بل ذكر السر في ذلك وهو وقوع الجملة جبهة لما قبلها . وما ذكره ابن المنير يمكن أن يضاف إلى هذا ، لكن ذلك لا يعني أن الأصل هو الاسم ثم عدل عنه إلى الفعل ، بدليل أن الآيات الأخرى كلها وردت بالفعل في صدر هاتين الجملتين . ثم إن هذا السر الذي ذكره متحقق في الجملة الأولى ، في كل المواضع ، وليس مختصا فقط بهذا الموضع . أما ما ذكره الزمخشري فهو خاص بهذا الموضع .

وللاستيفاء توجيه آخر يصير فيه على أن الأصل ما جاء في الجملة الثانية - أيضا - كما ذهب ابن المنير ، وأن محل التغيير هو الفعل في الجملة الأولى حيث عدل به من الاسم لوقوعه بين أسماء لاحقة وسابقة في السياق ، إلى الفعل حتى لا يجتمع ثلاثة حروف من حروف العلة ، وذلك إذا قيل : إن الله فالحق الحب والنوى ومخرج الحى من الميت ، كما قيل فيما بعدها : ومخرج الميت من الحى عطفًا على " فالحق " فهنا أى في التقاء الجملة الأولى بما قبلها على هذا التقدير تجتمع ثلاثة حروف علة ، وهى الواو ، والياء ، من كلمة " النوى " والواو العاطفة للاسم " مخرج " ، وهذا ثقل ، فعدل بالفعل إلى الاسم الذى يؤدي معناه منعًا لهذا الاجتماع . ثم أشار إلى أن هاتين الجملتين وردتا في الآيات الأخرى بالفعل فيهما لعدم وقوعهما بين جمل اسمية سابقة ، ولاحقة ، لكنه اقتصر من هذه الآيات على آية الروم ^(١) .

وقد تضمن كلامه في هذا التوجيه ما ذكره الزمخشري وابن الزبير وابن جماعة عن
سر التعبير باسم الفاعل دون الفعل في آية الأنعام .

أما ما ذكره عن سر العدول من الاسم إلى الفعل في الجملة الأولى من نفس الآية ،
فهو تحليل لفظي بعيد ، لأن اجتماع أحرف العلة الثلاثة باق أيضا مع وجود الفعل ،
وهي الواو والياء من " النوى " والياء من " مخرج " ، بل إن الاجتماع هنا أكد ، لجواز
 صحة التقدير الذي ذهب إليه بدون الواو العاطفة : قيل : إن الله فائق الحساب
 والنوى مخرج الحى من الميت فلا تجتمع ثلاثة أحرف من حروف العلة .

وللكهانى توجيه آخر ، نقله عنه الفيروز آبادى ، وخلاصته : أن هاتين الجملتين
في آية الأنعام ، وقعتا بين أسماء فاعلين ، وهى " فائق الحب والنوى " و " فائق الأصباح " ،
وجاعل الليل سكنا ^(١) ، واسم الفاعل يشبه الاسم من وجه فيدخله الألف واللام ،
والتنوين والجو غير ذلك ، ويشبه الفعل من وجه ، فيعمل عمل الفعل ، ضرعى الشبهان
فهى ، وذلك بتصدير الأولى بالفعل ، وتصدير الثانية باسم الفاعل ، وأخر الاسم لأن الواقع
بعده اسمان " فائق ، وجاعل " .

أما الآيات الأخرى فليس فيها ما يقتضى هذا ، إذ أن ما قبلها وما بعدها
أفعال ^(٢) .

وقد تضمن هذا التوجيه - أيضا - ما جاء عن الزمخشري وفصله ابن الزبير وابن
جماعة ، لكن ما ذكره بناء على شبه اسم الفاعل بالاسم من وجه ، وبالفعل من وجه آخر
بعيد ، ثم إن الواقع بعد " مخرج " في الجملة الثانية اسم واحد وهو " فائق " ، أما جاعل
فعل غير القراءة المشهورة الواردة في المصحف " وعلى ذلك فعلة تأخير الاسم فى
الجملة الثانية - كما يذهب - . نرى فيرومبئية على أصل قوى .

وهكذا تتفاير الكلمات فى الآيات المشتبهات استجابة لما تتطلبه السياقات المختلفة التى تردت
بها . وسنتمرن فى الحديث عن الفرق التالى على أمثلة أخرى تميزت بشكل خاص .

(١) على القراءة الأخير التى أشار إليها الزمخشري والقرطبي .

(٢) أسرار التكرار ص ٧١ ، بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ١٩٥ .

اختلاف المقطع

ومن الفروق في المشتبهات اختلاف مقطع الجملة المتكررة في سياق واحد . وأمثلة في هذا النوع من الفروق يمكن أن تندرج تحت النوع السابق ، إذ تتغاير الكلمات في الجمل ، لكنها تتميز بشكل خاص . جعلني أفرد الحديث عنها تحت فرق مستقل فهي جعل متكررة نفس سياق واحد ، متحدة في مطالعها ، مختلفة في مقاطعها ، وكلها في خواتيم الآيات .

من الأمثلة على ذلك قوله (تعالى) في سورة الأنعام :
 * قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
 وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
 وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *
 وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ
 بِالْقِسْطِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ
 أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *
 وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ
 بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * (١)

حيث ختمت الآيات الثلاث بجمل ثلاث ، اتفقت مطالعها في قوله (تعالى) : * ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ * . واختلفت مقاطعها ، فختمت الأولى بقوله : * لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * والثانية ، بقوله : * لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * والثالثة بقوله : * لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * مع أنها جميعها جاءت لتأكيد ما أوصوه الله (عز وجل) في هذه الآيات .

وسر هذا الاختلاف مناسبة كل جملة بما ختمت به نوعية الوصايا المقدمة عليها نفس الآية . بالإضافة إلى ما يؤديه التنوع في مقاطعها من إعطاء معنى جديد يتناسب مع المقصود إجمالاً من هذه الآيات .

تفصيل ذلك : أن الآية الأولى تَهَمَّتْ خمس وصايا تتعلق بأكثر الحقوق وأكبر الأصول التي تُبْنَى عليها عقيدة المسلم . والذي يَحْمِلُ على الالتزام بهذه الوصايا العقل الغالب على الهوى ، حين يُعَوِّد بصاحبه إلى الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها ، وحين يستضيء بأوامر الله (عز وجل) في إداراك قبح مخالفتها . وكان القوم قبل مجيء الإسلام يسيرون على النقيض منها غير مستنكئين ولا عاقلين قبحها . فلهذا ختم الآية بتعليل الإيصاء بالتعقل ، أي : ذلکم وماکم به لعلمکم تستعملون العقل الذي يحببكم نفوسکم عن إرادة التمرد على هذه الأمور ، ولعلمکم تعقلون قبح عكسها فتستنكفون عنها وتركوها . أو على معنى : نفذوا هذه الوصايا على الرجاء منكم للتعقل ، أو متعرضين لأن تعقلوا ، حسبما جاء في تفسير " لعل " في هذه الجملة ، وأماليها المتكررة في القرآن (١)

وفي ختم هذه الجملة بالتعقل عقب الوصايا السابقة إلحاح - أيضا - إلى أن مخالفتها مخالفة لما يقتضيه العقل السوى . فمثلاً الإشراف بالله مع وضوح الأدلة على قدرته (سبحانه) ووحده انتهت يُعَدُّ مخالفة للتعقل الصحيح . وكذلك إهدى البنات ، أو الأولاد - بعمامة - من الإهلاك ، مع وجود الرازق الكريم ، الذي تكفل بالأرزاق لجميع المخلوقات . وكذلك مخالفة ما جاء في بقية الوصايا في الآية . وفيه - أيضا - إلحاح إلى أن التكاليف التي تضمنتها هذه الوصايا ظاهرة جليلة ، يجب تعقلها وتفهمها وتنفيذها .

وفيه مناسبة أخرى من جهة أن التكاليف في الآية أكثرها جاء بصيغة النهي ، وهو نفس معنى المنع والمرء حريص على ما مُنِعَ فكانت الخاتمة بما فيه معنى المنع والحبس أولاً .

أما الآية الثانية فالوصايا فيها تتعلق بالحقوق المالية والمعاملات بين الناس التي تؤثر فيها الشهوات والأهواء ، وذلك ما يُعْمَسُ ويصم فختمت بالتذكير - على سبيل الرجاء - منهم له أو تعليلاً للإيصاء به - لأنه يحرك الضمير ، ويوقظ العقل فينتبه إلى ما هو مُقَدَّم عليه

(١) قيل : إنها في هذه الجمل على بابها من الترجي والتوقع ، لكن ذلك يكون نفس حيز البشر المخاطبين ، أي : افعلوا ذلك على الرجاء منكم للتعقل ، أو التذكير أو التقوى . الخ .

وقيل بمعنى لام كي ، كما وردت في قول الشاعر :

وَقُلْتُ لَنَا كُفُوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا نَكْفُ وَوَقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ

وقيل : بمعنى التعرض للشيء ، أي افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا ، أو تتذكروا

فيرتدع ويلتزم بما جاء في هذه الوصايا ، كما جاء في قوله (تعالى) وصفا للمؤمنين :

" إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ " (١) .

وفيه - أيضا - دعوتهم للتذكر في أنفسهم أن لو كان المُعامل بما جاء في هذه الوصايا هم فيكون الأيتام أولادهم ، أو يكونون هم المشهود عليهم بغير حق - على سبيل المثال - فماذا يصنعون ؟ وما لا يرضونه لأنفسهم لا يرضونه لغيرهم .

ومن أسرار هذه الخاتمة - أيضا - أن العرب كانوا يفعلون عكس ما جاءت التوصية به في هذه الآية قبل الاسلام ويفتخرون بالاتصاف به ، فلما جاءت التوصية بعكس ما كانوا يفعلون ختمت بالتذكر ، ليكبروا على ذكر دائما ان عرض لهم نسيان .

ومن الأسرار - أيضا - أن التكليف الوارد في الآية خفية دقيقة ، لا بد فيها من الاجتهاد والفكر الكبير حتى يتيسر الوقوف على موضع الاعتدال فيها ، وهذا ما يتناسب معه معنى التذكر .

وأما الآية الثالثة ، فإن مخالفة ما جاء فيها باتباع غير صراط الله المستقيم - من الديانات الأخرى ، والأهواء ، مهيئ إلى غضب الله وعقابه في جهنم وبئس المصير ، فتناسب ذلك الختم بالتقوى ، لما فيها من معنى الوقاية من غضب الله وعذابه .

ولأن الصراط المستقيم المأمور باتباعه ، والمنهى عن اتباع غيره هو الجامع للتكاليف ، التمر باتباعها تكون الوقاية من النار ، فكان من المناسب له الختم بالتقوى التي هي ملاك العمل ، وخير الزاد .

وهذا تتناسب مقاطع هذه الآيات مع الغرض منها ، وتتوافق كلُّ منها مع نوعيتها التكليف المتقدمة عليها ، ويتحصَّل من هذه المقاطع جميعها ومن ترتيبها في آياتها

أو تنقلا ... الخ وقيل غير ذلك - انظر تفصيله في تفسير الطبري ج ١ ص ٣٦٤ .
الكشاف ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٣١ ، المفردات في غريب القرآن ص ٤٥١ تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٢٢ ط ٠ دار الكتب ، والبرهان في علوم القرآن ج ٤ ص ٣٩٢ - ٣٩٥ ، الايتان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٢٥ .

على هذا النحو معنى آخر ، وهو أن من غفل وتذكر اتقى ، والمتقون هم المفلحون (١)

* * * * *

ومن الأسئلة قوله (تعالى) في سورة المؤمنين :

” قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ *
قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ *
قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ” (٢)

حيث خُتِمت الأسئلة التي أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتوجيهها للمشركين منكري البعث . في هذه الآيات بجواب واحد ، يعترفون به ولا يختلفون فيه ، وهو ما حكاه القرآن عنهم في قوله ” سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ” ثم أعقب هذا الجواب بجمل ثلاث ، أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) - أيضا - بأن يقولها لهم على سبيل التوبيخ والزجر عقب ما أقروا به ، اختلفت مقاطعها ، فختمت الأولى بقوله ” تَذَكَّرُونَ ” والثانية بقوله ” تَتَّقُونَ ” والثالثة بقوله ” فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ”

ومر هذا الاختلاف مناسبة كل خاتمة لما سبق التقرير به في السؤال المقدم عليها . . .
فالخاتمة الأولى سُحِّقَتْ بتقرير المشركين بأن الله (سبحانه) له ملكية الأرض بما فيها ومن فيها ، وهذا يدل على أنه خالقها وخالقهم ، ومن كان كذلك فإن إعادة الخلق أهون عليه من النشأة الأولى ، كما قال (سبحانه) في آية أخرى : ” وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ” (٣) وهذه النتيجة يُتَوَصَّلُ إليها بالتذكُّر فخص هذا الموضوع بالتذكُّر لأنهم إذا أثبتوا الخلق الأول ، وسلموا به بيقين ، إقرارهم بأن الله مالك الأرض ومن

(١) يراجع هذا التوجيه في : درة التنزيل ص ١٣٧ - ١٣٨ ، أسرار التكرار ص ٧٦ ، ملاك التأويل ج ٢ ص ٢٣٠ ، كشف المعاني ص ٥٩ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، روح المعاني ص ٥٦ - ٥٧ ، الاتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٣٠ .
(٢) الآيات / ٨٤ - ٨٩ .
(٣) الروم / ٢٧ .

فيها وما فيها ، فقد لزمهم التسليم بالخلق الثاني، وهو البعث الذي يمارون فيه هـ ولـ هذا
قيل في توبيخهم وزجرهم هـ " أَفَلَا تَذَكَّرُونَ " بمعنى : إذا أقررت بأن ذلك ملك الله وخلقـه ،
فهلّا اعتبرتم بما في الأرض من الآيات فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً ، قادراً
على إعادة الخلق ؟ وهلا تذكركم بأن ما أودعه الله (سبحانه) في أرضه من أسرار ،
تكرار الإنبات هـ وعودة إخراج الثمرات ، دليل آخر على إحياء الأموات هـ يقتضى منكم الإيمان
بفكرة البعث ؟ مَكَدَ لِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (١)

أما الخاتمة الثانية فسبقت بتقريرهم بأنه (سبحانه) مالك السموات السبع
ورب العرش العظيم، ومن كان كذلك كان أهلاً لأن يطاع ويُتَّقَى هـ لأن خلق هذه الأشياء أكبر
من خلقهم ومن خلق الأرض الحاملة لهم هـ بل إن هذه الأشياء من أكبر مخلوقات الله هـ ومع
ذلك لا تستغنى عنه (سبحانه) في تنظيم أمورها هـ كما يقتضيه الوصف بالربوبية في الآية -
وهذا يعني أنهم أخرج من هذه المخلوقات إلى ربوبية الله (عز وجل) لهم وما تفرضه هذه
الربوبية عليهم من حق الطاعة والولاء والتقوى، حرصاً على ثوابه هـ وتجنباً لعقابه هـ لذا خُصَّ
الموضع بالتقوى فقيل : " أَفَلَا تَتَّقُونَ " أي : إذا كنتم قد أقررت بأنه (سبحانه) رب السموات
السبع ورب العرش العظيم هـ أفلا اتقيتموه، إذ تعترفون بأنكم في قبضته بقتضى هذا الإقرار منكم ؟
وأفلا تخافون عقابه هـ وتحذرون عذابه هـ فلا تشركوا به هـ ولا تُخالفوا الرسول فيما أخبركم عنه ؟
فناسبت الخاتمة ما تقدم عليها.

وأما الخاتمة الثالثة فسبقت بتقريرهم بأن الله (سبحانه) بيده ملكوت كل شيء،
وهو المغيث المانع من عذاب من يشاء هـ ولا يغيث أحداً منه أحد هـ ما شاء الله كان وما لم يشأ
لم يكن هـ وهذا أبين شئ في الدلالة على عظم ملكه وتفرده بالخلق والأمر هـ وهو مبني على
التقريرين السابقين تصعيداً للحاجة معهم هـ ودفعاً لإشراكهم بالله (عز وجل) وإنكارهم
أمر البعث وقد ذكروا فيه بعظيم سلطانه وعلو قهره لجميع الموجودات، وكونها في قبضته هـ
وأنه لا حكم لأحد عليه (تعالى)، لكنهم لما لم تُجَد هذه الأشياء معهم وانصرفوا منها
إلى عبادة غير الله وتكذيب الرسل في كل ما أخبرهم به هـ كانوا كمن فقد عقله واختل نظره

وهذا شأن السحور • فناسب ذلك أن يكون الزجر والتوبيخ في هذه الخاتمة بقوله (سبحانه)
 " فَأَنِّي تُسْحَرُونَ " أى : كيف تُخدعون عن توحيد • (سبحانه) وطاعته فتشركوا معه
 غيره من الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع بعد أن أقررت له (سبحانه) بأنتم
 الملك وبكل الخلق ؟

وكيف تتكبرون أمر البحث مع تسليمكم وإقراركم بما هو أعظم من ذلك • وأد ل على قدرته
 (سبحانه) في الخلق والإعادة ؟

ومن أين يأتىكم ما يغلب على عقولكم فيحوّل السباطل إلى الهأحأ • والقيح عندها
 حسنا ؟ أمن علمكم بأن الله مالك الأرض ومن فيها • أم من علمكم بأنه رب السماوات السبع
 ورب العرش العظيم • أم من علمكم بأن له الملك الأغلب والعز الأغلب • وأنه يمنع ولا يمنع منه •
 ويحس من عقابه ولا يحس منه ؟

ولا شك أن ليس في هذا عند ذوى الفطر السليمة • والعقول الصحيحة ما يهتدى
 إلى الإشراف بالله (عز وجل) ورفض فكرة البحث بل فيها ما يهتدى إلى التوحيد والتصديق
 بما جاء به الرسل • فليت أصحاب العقول المخذوع يتذكرون أو يتقنن حتى يرفع
 الله (سبحانه) الغشاوة من على أبصارهم وأسماعهم ويجنبهم عذابه المهيئ (١)

وهكذا التفت كل خاتمة بما تقدمها على أتم وجه من المناسبة •

* * * *

(١) يراجع في هذا التوجيه : درة التنزيل ص ٣١٩ • ملاك التأويل ج ٣
 ص ٤٨٢ - ٤٨٩ وفي معاني الآيات : الكتاب ج ٣ ص ٢٤٠ تفسير
 القرطبي ص ٤٥٣٦ • تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٥٢ •

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سورة الطلاق :
 وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
 عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا * وَاللَّائِي يَتُسَّخَّرْنَ
 مِنَ السَّائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأُحْمَالِ أَجَلُهُنَّ
 أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَسَخَّرَ
 يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا * (١)

حيث تكرر في هذه الآيات الأمر بالتقوى في أسلوب شرط ، اختلف الجزاء فيه كما هو مبين
 فيها ، فهو في الأولى " يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا " . الخ ، وفي الثالثة " يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ
 يُسْرًا " ، وفي الرابعة ، " يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا " ، مع أن الآيات كلها فيما يتصل
 بأحكام الطلاق والمدة ، ومع أن الأمور به في هذه الجمل واحد ، ونعم ، لا يقتصر فقط على ما
 يتصل بتقواه (سبحانه) في هذه الأحكام ، وإنما هو مطلوب دائم يتعمين على كل مسلم ، وهو
 تقوى الله (عز وجل) .

ومن سر تكراره بوجه عام في هذا الموضع من السورة يقول الإسكافي : " إنما اقتصرنا
 بالطلاق والمدة هذا الوعظ لأن الطلاق ونقص حال متهمدة ، وقطع آمال متأكدة ، والمدة
 باستيفائها يخلص النسب ويصح للزوج الثاني الولد ، ولو لم يكن هذا الحد الذي حده الله
 (تعالى) لكان الفساد متصلاً إلى انقضاء الدنيا فهو (٢) أحق الأشياء بالمراعاة وتأكيده
 المقال فيه والوصاف (٣)

أما عن سر اختلاف الأجوبة عليه فلأن الجواب الأول وقع مباشرة عقب الحديث عن
 الطلاق بما فيه الدعوة إلى المحافظة على إيقاعه في وقته ومحلّه ، وعلى النحو الذي لا يقع به
 إصرار بالمطلقه . . . وهذه الدعوة فيها نوع تقييد على المطلق ، وقد يكون الطلاق لكراهة

- (١) الآيات / ٢ - ٥
 (٢) أي الطلاق ، أو هذا الموضع بما فيه من أحكام تتصل بالطلاق والمدة
 (٣) درة التنزيل ص ٤٨٩ - ٤٩٠

أحد القرينين لصاحبه ، فجاء الأمر بالتقوى في هذا الأسلوب الشرطى نزعياً في اتباع أوامر الله (عز وجل) التى لا تكون إلا لحكمة ، ثم جاء الجزاء على هذا الشرط من جنس ما يتطلع إليه المسلم في مثل هذه الظروف ، ويرغبه في الالتزام بهذه الأحكام المتقدمة ، فقال (سبحانه) : **"وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۝۰۰ الخ ، أى : من يتق الله في تنفيذ أحكام الطلاق كما حددها الشرع الحكيم فإن الله جاعل له من كل ضيق مشعرب بعد حياته الأليفه مخرجاً وييسر له القرينة الصالحة ، كما ييسر لها القرون الصالح ، ويرزق كلا منهما من حيث لا يحسب ۝۰۰**

ولأن الثانى وقع عقب الحديث عن العدة ، المترتبة على الطلاق ، وقد دعت هذه الآية والآيات قبلها في مطلع السورة إلى إحصائها والمحافظة عليها وألا تخرج المعتدة من بيتها قبل انقضائها ۝۰۰ الخ . ما فصلته السنة في ذلك ۝۰۰ وهذه الفترة التى يقضيها الزوج ميسر المطلقة أيام العدة مظنة للفجر وكوب النفس لما ينحمله الزوج من مؤونة الإنفاق عليها ، والمكسب معها وما يحتمل وقوعه من قبح الكلام بينهما ، وإنزال الشر بآحدهما ، فجاء الجواب هنا بما يرفع هذا الفجر ، ويجعل هذه الفترة امتداداً لسيورتها الأولى قبل الطلاق ، وذلك إن اتقيا الله (عز وجل) والتزما بأوامره فقال (سبحانه) **"وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ۝** أى : من يتق الله في صهره أيام العدة على ما يلزمه من نفقه وسكنى ، وما قد يحدث بينهما من آثار الغضب فإن الله (سبحانه) ييسره من أمره ويحلل له من عتده بسبب التقوى .

ولأن الثالث جاء عقب التأكيد على الالتزام بهذه الأحكام ، سواء ما قُدم من مطلع السورة إلى هذه الآية ، وما جاء بعدها من مآنية الدعوة إلى حسن المعاشرة وعدم الضارة ، حيث قال (سبحانه) : **"ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۝** فاقصص ذلك أن يكون الجزاء أفضل الجزاء وأوفاه ، فقال (سبحانه) **"وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ۝** أى : من يتق الله في العمل بما أنزل الله من هذه الأحكام ، ويحافظ على الحقوق الواجبة عليه ما ذكر من الإنفاق على الحوامل حتى يضعن ، وإيتاء أجر المرضعات ، وتسهيل السكنى ، وترك الضرار ، وغير ذلك مما جاء في هذه السورة من أحكام الطلاق والعدة استوجب تكفير السيئات وتعظيم الأجر له نسي

الآخرة (١)

(١) يراجع في هذا التوجيه : درة التنزيل ص ٤١٠ ، ملك التأويل ج ٣ ص ٦١٢ - ٦١٣ ، أسرار التكرار ص ٢٠٥ ، بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ٤٦٩ ، وفي معاني الآيات الكشاف

وهكذا تناهت كل خاتمة مع ما تقدمها ، بالإضافة إلى ما يتحصّل منها جميعاً من معنى عام بعيد عن تخصيص التقوى بإنفاذ أحكام الله في الطلاق والعدّة بمناسبة السياق ، وهو أن من يتق الله يُنَجِّه من كل كرب في الدنيا والآخرة . ومن يتق الله يسهل له أمره ، ويسره عليه ، ويجعل له فرجاً قريباً ، ومخرجاً عاجلاً . ومن يتق الله يذهب عنه المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير ، وإنه إن الآيات القرآنية لا تقتصر في معانيها على ما يرتبط بمناسبة خاصة وإنما يلاحظ فيها العموم بجانب الخصوص .

* * *

اختلاف جهات التعلق بين الألفاظ

ومن الفروق في المشتبهات اختلاف جهات التعلق بين الألفاظ . وأمثلة هذا النوع قليلة بالنسبة للأمثلة على الأنواع السابقة ، منها قوله (تعالى) في سورة الأعراف :

... وَالْدارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * (١)

وفي سورة يوسف :

... وَلِدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * (٢)

حيث تغيّرت جهة التعلق بين لفظي "الدار الآخرة" في الآيتين ، ففي الأولى وصفت الدار بالآخرة ، وفي الثانية أضيفت "الدار" للآخرة ، مع أن الفرض متحد في الجملتين .

وسر هذا الاختلاف أن الأولى سبق بقوله (تعالى) في نفس الآية : " فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوا وَالْمُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ " وفي هذا الجزء بعض أوصاف اليهود المعاصرين للرمول (صلى الله عليه وسلم) كاعتزازهم بالمفسرة

(١) الآية / ١٦٩ .

(٢) الآية / يوسف / ١٠٩ .

وهم مصرون على المعصية ، وتعلقهم بحطام الدنيا ، وارتشائهم على كتمان الحق وإذاعة
غيره وقد ورد فيه تعبيراً عن الدنيا " هَذَا الدُّنْيَا " أى : هذا المنزل الأدنى ،
وهو والدار الدنيا بمعنى واحد . فلما جعل " الدُّنْيَا " وصفاً للمنزل وجاء بعد ذلك
ذكر الدار الآخرة " وأنها خير للمتقين " جعلت الدار " موصوفة " بالآخرة " صفة لها ،
لتوافق ما قبلها من وصف المنزل بالدُنْيَا ، وهو بمعنى الدار الدنيا - كما سبق - وبذلك تجرى
الألفاظ فى السياق الواحد على نسق واحد . وهو نوع من المناسبات يلاحظ بوضوح فى كثير
من أمثال القرآن .

أما الثانية : فسبقت بقوله (تعالى) فى آية أخرى : " فَأَمَّا مَن يُرِيدُ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ
مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " (١) وفيها ذكر للساعة ، وهى الساعة
الآخرة ، أو القيامة . فلما جرى بعد ذلك ذكر للدار الآخرة فى السياق اختبرت علاقة
التضاييف بين اللفظين ليكون المعنى : ولدار الساعة الآخرة خير . وبذلك تتجاوب الأيتان
فى توضيح المعنى المتعلق بالدار الآخرة (٢)

وهذا التقدير على رأى البصريين ، فالدار مضافة لمحذوف ، وهذا المحذوف هو
لفظ " الساعة " الذى جرى ذكره فى السياق ، ولفظ " الآخرة " وصف لهذا المحذوف ، وبقي
على ما هو عليه من الإعراب ليدل على هذا المحذوف ، وعلى رأى غيرهم ، أضيفت الدار إلى " الآخرة "
من باب إضافة الشئ إلى نفسه ، لاختلاف اللفظ (٣) والأول أشهر وعليه سار الزمخشري فى التقدير
الحاق .

وفى الآيتين اختلافان آخران ، الأول : مجئ فعل التقوى فى الأولى مضارعاً ، وفى
الثانية ماضياً . وذلك لأن سياق الأولى فى الحديث عن اليهود المعاصرين للرسول (صلى الله
عليه وسلم) كما سبق ، وفيه ترهيب لهم عما ارتكبه من المعاصى ، كما أن فيه ترغيباً لهم فيما

(١) الآية : ١٠٧

(٢) يراجع درة التنزيل ص ٢٤٥ ، أسرار التكرار ص ١٣ ، كشف المعانى ص ٧٥ بصائر

ذوى التمييز ج ١ ص ٢٦٠

(٣) ينظر الكشف ج ٢ ص ٣٤٧ تفسير القرطبي ص ٣٥٠٤

عند الله إذا صدقوا ما في كتاب الله (عز وجل) - كما يؤخذ من الجملة موضع الدراسة -
والترهيب والترهيب لا يتعلقان إلا بالمستقبل ، فلذلك قال : " لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفْلاَ تَعْقِلُونَ " .

أما سياق الثانية ففيه دعوة عامة للنظر إلى منازل ، الأم الذين أهلكوا في أزمنة أنبيائهم ،
وهي خاتمة على عروشها ، ليعتبروا بأحوالهم ، ويعلموا أن الدار الآخرة خير لمن آمن منهم
واتقى ، حيث قال (سبحانه) قبل هذه الجملة في نفس الآية :
" وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَنْظُرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ " . فاقترضت المناسبة هنا اختيار الفعل في الزمن الماضي
لينفق مع المتحدث عنهم ، الأمور بالنظر في آثارهم ، فهم وإن كانوا قد انتهوا جميعا ، ولا
وجود لمؤمنهم ولا لكافرهم إلا أن العاقبة الحسنى للذين آمنوا منهم في الآخرة حتى يعتبر
بذلك المعاصرون ولذلك قال (سبحانه) في هذا الموضع : " وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
أَفْلاَ تَعْقِلُونَ " (١)

الثاني دخول اللام المؤكدة على لفظ الدار في آية يوسف وعدم دخولها عليه في
آية الأعراف من توجيهاً يقول الإسكافي : " قوله (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ) جاء بعد قوله : (فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) ، ومعناه فيعلموا كيف حال من قبلهم ، وأن الدار الآخرة خير لهم ،
فاللام هي التي تدخل على المبتدأ فتعلق الفعل ، والفعل هو فيعلموا الدار الآخرة خير ، كما
تقول : علمت لزيد أفضل من عمرو . . . وأما قوله : (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ) فلم تقدم ما يقتضيه
اللام ، بل قوله : (أَلَمْ يَنْظُرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) ، لأنهم لما نظروا
مآفئ الدار الآخرة خيراً ، من غير أن يتقدم ما يجرى التوكيد والقسم الذي يلتقي باللام " (٢)

❦ ❦ ❦

(١) ينظر . درة التنزيل ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢) درة التنزيل ص ٢٤٦ .

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سورة آل عمران :
 . . . وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)

وفي سورة الأنفال :

..... وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * (۲) حيث اختلف

الإخبار في هذين العرضين عن الله (عز وجل) بصفتي العزة والحكمة ، فجاء مجسّد
الصفة في الأول ، وخبراً ثانياً مستأنفاً في الثاني ، مع اتحاد المقصد فوهما

وفى توجيه هذا الاختلاف يقول ابن الزيمر : " آية الانفال تقدم فيها (يقصد في سياقها)

أوعاد جليلة ٥ قوله (تعالى) : (وَإِذْ يَخِذُكُمُ اللَّهُ إِخْذَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنْهَذَا لَكُمْ) (٣) ، ثم قال : (وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) (٤) ثم قال : (لِإِحْصَاءِ الْحَقِّ وَيُطِيلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) (٥) . . . فهذه أوعاد عليه ٥ لم يتقدم إفصاح بعنونها في آية آل عمران ٥ فنامها تأكيد الوصفين العظيمين ٥ من قدرته (تعالى) على كل شيء ٥ وحكمته في أفعاله ٥ فقال : (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

ولما لم يقع في آية آل عمران إفصاح بما في آية الأنفال ، وردت الصفتان تابعتين

دون تاکید (۶)

وابن الزبير في هذا التوجيه اعتمد على اختلاف السياق في الموضعين ، وقد أشار في (٥)

تعدیه للحديث عن هاتين الآيتين ، انهما في قوم بأعيانهم ، وهم أهل بدر (رضى الله عنهم)

والمفسرون يتفقون على أن آية الأنفال في سياق آيات تتحدث عما حدث في يوم بدر (٨)

أما آية آل عمران فمتصلة بقوله : (تعالى) : **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُطَاعَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ** . . . (٩) وقد اختلف المفسرون فيها ، ف قيل إنها متصلة بالآية قبلها وهي قوله (تعالى) : **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ يُبَدِّلُ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ تَقَاتِرُونَ** اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٠)

- | | | | |
|-----|------------------------|----------------------------------|----------------------|
| (١) | الآية / ١٢٦ | (٢) الآية / ١٠ | (٧) السابق ج ٢ ص ١١٢ |
| (٣) | الآية / ٧ | (٨) ينظر الكشاف ج ٢ ص ١٤٥، تفسير | |
| (٤) | الآية / ٧ | القرطبي ص ٢٨٠٧، تفسير ابن كثير | |
| (٥) | الآية / ٨ | ج ٢ ص ٨، أسباب النزول | |
| (٦) | ملاك التأويل ج ٢ ص ١١٣ | ص ١٥٥ | |
| | | (٩) الآية / ١٢٤ | |

وتكون هذه الآيات كلها بما فيها الآية التي معنا فيما يتصل بيوم بدر *

وقيل إنها متصلة بقوله (تعالى) قبل ذلك في السياق : * وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
نُبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * (١) وهي الآية الخاصة بوقعة أحد - على
رأى الجمهور - (٢) ، وعلى ذلك تكون الآية التي معنا ... ضمن الآيات التي تتحدث عن وقعة أحد *

وقد رجح ابن كثير الرأي الأول حيث يقول معلقا على قوله (تعالى) في سورة الأنفال
(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدَّتُكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَرَدِّفِينَ ١٠٠) الآيتان (٣)
* وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران ، فالظاهر أن ذلك يوم بدر
كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر والله اعلم * (٤)

وعلى الرأي الثاني القائل بأن آية آل عمران ضمن الآيات النازلة في وقعة أحد ، صار
الامكان ، واعتمد على ذلك في توجيه الاختلاف بين الآيتين ووافقه في هذا الكرمانى ، وابن جماعة
والفيروز آبادى ، فذكروا ما خلاصته : أن آية آل عمران في غزوة أحد ، وآية الأنفال في غزوة
بدر ، وعلى ذلك فآية الأنفال أسبق نزولا ، فبين الله (عز وجل) فيها المعنى المقصود
من أن النصر من عند واحد ، لا بفضل قوة ولا عدد ، ولا هو من قبيل الملائكة بَيَّنَّ
ذلك بلفظ جعله كالعلة لكون النصر بيده واحد ، وذلك في قوله * إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو الْبَأْسِ
حَكِيمٌ * أى : يضع النصر في موضعه ، فَفَصَّلَ ذلك في خبرين على الأصل الواجب في توفية
كل معنى حقه من البيان .

ثم أحال في الثانية - آية آل عمران - وهي التالية في النزول على الأولى بتعريف
اللفظين كأنه قيل : إنما النصر من عند الله العزيز الحكيم الذي تقدم إعلامكم بأن النصر

(١) الآية / ١٢١ .

(٢) ينظر تفسير الطبري ج ٢ ص ١٦١ ، ١٧٩ - ١٨١ الكشاف ج ١ ص ٤٦١
تفسير القرطبي ١٤٢٦ ، ١٤٣٧ .

(٣) الآيتان ٩ - ١٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠١ .

من عنده ، فناسب ذلك التعريف بعد التذكير والاختصار بعد البسط (١)

وهذا التوجيه يعتمد على ما جاء في أسباب النزول. وهو بالنسبة لآية آل عمران مطنون ، وليس قطعياً ، فقد رجح ابن كثير أنها في وقعة بدر ، وذكر ابن الزبير أنها كذلك في وقعة بدر ، فربطه بأسباب النزول يجعله ضعيفاً ، وعلى فرض صحة هذا الربط فهو بعيد ، ثم إن آية آل عمران متقدمة ترتيباً حسب ترتيب السور في المصحف ، مما يجعلها أحوج إلى توفيق الخبير ، بناءً على أن مراعاة الترتيب في المصحف أقوى من مراعاة ترتيب النزول - كما سبق التنبيه عليه - (٢) ، لأن القرآن بهذا الترتيب نزل من اللوح المحفوظ (٣) ولذلك قامت دراسات كثيرة حول توضيح تناسب بين السور بعضها ببعض .

وما جاء في هذا التوجيه - أيضاً - من أن آية آل عمران حُسن فيها الاختصار بجري بيان الصفتين على لفظ الجلالة بعد البسط الملاحظ في آية الأنفال ، عكسها هو ملاحظ في الآيتين ، إذ أن آية آل عمران تزيد في ألفاظها عن آية الأنفال فيما قبل هذه الجملة ، وذلك بذكر الجار والمجرور " لَكُمْ " فيها .

وعلى ذلك فما ذكره ابن الزبير أولى بالقبول ، لأنه يعتمد فقط على الاختلاف بين الساقين ، بصرف النظر عما إذا كانت الآيات في الموضعين ، في وقعة بدر ، أو بعضها في أهل بدر ، والبعض الآخر في وقعة أحد ، وإن سار في توجيهه على أنها في الموضعين عن أهل بدر .

وفي الآيتين اختلافان آخران ، حيث يقول الحق (سبحانه) في صدر الآية الأولى : " وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ " . وفي صدر الثانية : " وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ " ، بحذف الجار والمجرور " لَكُمْ " من الثانية ، وذكرها في الأولى .

(١) ينظر : دره التزئيل ص ٧٢ ، أسرار التكرار ص ٥١ ، كشف المعاني ص ٤٥ ،

بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) ينظر ص من هذا البحث

(٣) ينظر في التأكيد على هذا أسرار التكرار ص ٢٢ ، البرهان في علوم القرآن ج ١

ص ٣٧ - ٣٩ ، الاتقان ج ١ ص ٨٢ - ٨٤ ، النشأ العظمى

وتقديم الجار والمجرور " به " على " قلوبكم " في الثانية ، وتأخيرها في الأولى .

وسر الأول أن آية آل عمران تقدمها قوله (تعالى) : " وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا " (١) فاختلط الإخبار عن الطائفتين ... المسلمين وأعدائهم ، فحررت البشارة في هذه الآية لمن هي لهم منها . فجاء ضمير الخطاب متصلاً بلام الجر ، المقضية للاستحقاق ، فقيل : " بَشُرَى لَّكُمْ " . بخلاف آية الأنفال ، فلم يقدمها ذكر لغير المؤمنين ، فلم تحتاج إلى ضمير الخطاب مع ما اتصل به ، بل تقدم ما يعنى عن ذلك ، ويشير إلى تخصيصهم بالبشارة ، وذلك في قوله (تعالى) : " وَإِذْ يَهْدِيكُمُ اللَّهُ إِلَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَآ لَكُمْ " (٢) وقوله (تعالى) : " إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ " (٣) فأغنى ذكر ضمير الخطاب فيهما عن إعادته بعد في هذه الآية (٤)

وسر الثاني أن الاهتمام منصب في آية آل عمران على البشارة وثبتت القلوب ، فقدّمت " القلوب " على الجار والمجرور ، دلالة على ذلك ، كما خصّصت البشارة بالمخاطبين وهم المؤمنون ، ولمجرى الكلام على نسق واحد في الجملتين المتجاورتين ، حيث آخر الجار والمجرور فيها . فقيل : " وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بَشُرَى لَّكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ " .

أما في آية الأنفال فالاهتمام منصب على الإمداد بالملائكة وهو ما يعود إليه ضمير المجرور ، فقدّم الجار والمجرور لذلك (٥)

* * *

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سورة المائدة :
 " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " (٦) وفي سورة الفتح
 " ... وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " (٧)

(١) الآية / ١٢٥ (٢) الآية / ٧

(٣) الآية / ٩

(٤) ينظر درة التنزيل ص ٧١ - ٧٢ ، أسرار التكرار ص ٥١ ، بصائر ذوي التمييز ج ١

ص ١٦٦ ، ملال التأويل ج ٢ ص ١١٢

حيث قطع الفعل " وَعَدَ " عن نصب مفعوله الثاني ، وما عطف عليه في الأولى ، وجس بهما في جملة مستقلة تضمنت معناه موضحه ، على حين تعدى إلى مفعوله الثاني وما عطف عليه في الثانية ، فانثصا به . . . مع أن الوعد مُتَّحِدٌ في الموضمين ، وكذلك الموعودون ، وهم الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات . . . وقد تبع هذا التفسير ، تغيير آخر له أثره في توضيح مر التفسير الأول ، وهو ذكر الجار والمجرور " لهم " في الأولى ، والجار والمجرور " منهم " في الثانية .

ومر هذين التفسيرين مراعاة السياق في الموضمين ، من ناحية أن الأولى وقعت عقب خطاب المؤمنين ، بقوله (تعالى) فيما قبل هذه الآية : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ . . . الآية " (١) وقوله : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ آبَا الْقِسْطِ . . . الآية " (٢) وبينهما قولهم (تعالى) " وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْلَ مَا لَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ قَلْبُكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ مَسْمِنًا وَأَطَعْنَا . . . الآية " (٣) وهذه الآيات في خطاب المؤمنين وإرشادهم ، ولم يقع في أثنائها ذكر أحد من مواهم فلما جاءت هذه الآية بوعد الله (عز وجل) لهم لم تَنْفَجْ إلى ذكر الجار والمجرور منهم ، الذي جاء في الآية الثانية ، والذي يدل على تخصيص المؤمنين بهذا الوعد ، دون مواهم لأن السياق في هذه الآية - كما سبق - خاص بالمؤمنين ، وليس فيه إشارة لغيرهم ، فأطلق الوعد فيها ، ولم يُشَدَّ ، لأنه لا ينصرف إلا إليهم . ولما كان الخطاب في هذا السياق خاصاً بالمؤمنين وحدهم ، كما يلاحظ في تخصيصهم بهذا النداء الإيماني في قوله (سبحانه) : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " ويتعلق بدعوتهم إلى أحكام تخصهم ، عُذِلَ بالمفعول به الثاني للفعل " وَعَدَ " من المفرد إلى الجملة ، ليكون ذلك أبلغ في استحقاقهم ما وَعِدُوا به ، من المغفرة والأجر العظيم .

ولأن الحكم هنا عام ، غير خاص بمُعَيَّنِينَ ، فكانه تَصَنَّنَ معنى : من عمل بما جاء

(١) الآية / ٦

(٢) الآية / ٨

(٣) الآية / ٧

في هذه الأحكام فله مغفرة وأجر عظيم ، فقيل : " لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " بذكر اللام الجارة الدالة على الاستحقاق ، متصلة بالضمير العائد على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتفسير إعراب " مغفرة وما عطف عليها من النصب إلى الرفع على الابتداء ، إذ الجملة مبتدأ وخبر ، ووقعت موقع المفعول الثاني " لوعده " (١) .

أما الثانية ، فقد ختم بها المثليون الذين ضربوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) والذين معه من الصحابة في بدء أمر الإسلام ، وترقيته في الزيادة إلى أن قوى واستحكم (٢) ويدخل في زمرة الذين كانوا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا الوقت من كانوا معه بظاهر الإيمان ولم تكن قلوبهم ، وهم المنافقون . . . فقد شمل الكل عموم قوله (تعالى) : " والذين معه " فلما ختمت الآية بهذا الوجد احتج إلى الجار والمجرور " منهم " لتخصيص الوجد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات فقط ، وإخراج المنافقين من دائرته ، فقيل : " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ " ثم تعدى فعل الوجد إلى مفعوله الثاني على الأصل ، فقيل : " . . . مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " بمنصب مغفرة وما عطف عليها ، ولم يعدل به إلى الجملة ، حيث لا مبالغة في هذا السياق نظراً لظاهر لفظ " مع " في أول الآية ، الذي يدل على اشتراك المؤمنين مع غيرهم من المنافقين في تألف أشخاصهم حول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإن اختلفت قلوبهم . ويدل على هذا قول المنافقين للمؤمنين يوم القيامة ، كما حكى القرآن : " أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ " (٣) وجواب المؤمنين عليهم بقولهم : " قَالُوا بَلَىٰ " (٤) أي كنتم معنا ، ولكن لم تكونوا مخلصين ، كما يؤخذ من بقية الجواب : " وَلَكُمْ مَغْفِرَةٌ أَنْفُسُكُمْ وَتَرْبُصَتُمْ وَارْتَبَتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَكَمُ بِاللَّهِ الْفُرُورُ " (٥)

(١) هناك أقوال كثيرة في بيان موقع هذه الجملة وإعرابها ، وعلى أي قول منها فالمعنى

لا يختلف . ينظر من التفاسير : الكشف ج ١ ص ٥٩٩ ، تفسير القرطبي ص ٢١٠٦ . ومن كتب التشابه : درة التنزيل ص ٨٩ ، أسرار التكرار ص ٦٠ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٨١ .

(٢) ينظر توضيح هذين المثليين في الكشف ج ٣ ص ٥٥١ .

(٣) (٤) (٥) الحديد / ١٤ ، وينظر هذا التوجيه في ملك التأويل ج ٢ ص ١٥٧ - ١٥٨ . كشف المعاني ص ٥٥ .

ومن هذا التوجيه يتبين أن الوعد في آية المائدة أقوى وأبلغ في الاحتشاق منه في آية الفتح بناءً على ما ذكر من أن سياق الأولى عن الذين آمنوا ، وسياق الثانية يشترك مع الذين آمنوا فيه المنافقون على وجه الاحتمال . كما يتبين أن معنى " من " التبعيض ، ليستقيم هذا التوجيه .

وهناك توجيه آخر ذهب إليه الامكان خلاصته : أن الوعد في آية الفتح اقصري وأبلغ في الاحتشاق منه في آية المائدة . وذلك لأن الحديث فيها عن الصحابة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فصرح فيه بالمغفرة ، يقتضى تعدى الفعل " وعد " إلى مفعوله الثانى . ومعنى " من " في الآية إما لبيان الجنس (١) ، كما في قوله : (تعالى) " فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ " (٢) وإما أن التقيد بها للتخدير ، لأنهم وإن علم الله منهم الثببات على ما هم عليه من العمل الصالح ، فإنه لا يخلوهم من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، فالمعنى : كادوا على ما أنتم عليه فإن من دام منكم عليه فقد وعده الله مغفرة وأجرا عظيما .

أما ايتا المائدة فهي خطاب لقوم حشهم على توخى العدل فيما يحكمون به ، وهو أعم من الحديث الذى جاء في آية الفتح عن الصحابة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فلذا أخرج عن وعده إياهم فقط ، فقال : " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " ، ثم أتى بخبر ثانٍ ، فقال : " لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " ، على معنى : إن قاموا بذلك ولم يخطئوا بالسيئات فجز منهم هذا . ولم يعلق المغفرة بوعده فيعززة إليها (٣)

(١) اختار الزمخشري هذا المعنى ، الكشاف ج ٣ ص ٥٥١ . واختاره القرطبي أيضا . وذكر معه وجهين آخرين : تخصيص أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) بوعده المغفرة تفضيلا لهم أو تأكيد الكلام ، والمعنى : وعدهم الله كلهم مغفرة وأجرا عظيما . وأجاء على قول العربى : قطعت من الثوب قميصا ، يريد : قطعت الثوب كله قميصا ، ومنه في القرآن " وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ " الإسراء ٨٢ / ومعناه : وننزل القرآن شفاء ، لأن كل خوف منه يشفى . وليس الشفاء مختصا ببعضه . ومن بعضه . تفسير القرطبي ٦١١٦

(٢) الحج ٣٠ /

(٣) دره التنزيل ص ٨٩ - ٩٠

والتوجيه الأول أوضح ، وأقرب ، وذلك لأن ذكر اللام الجارة الدالة على الاستحقاق والملك في الجملة الواقعة موقع المفعول الثاني ، في آية المائدة ، يتفق مع ما جاء في هذا التوجيه من القول بالمبالغة في الوعد ، ثم إن قطع فعل الوعد عن هذا المفعول يدل على أن الموعود به كبير ، وما جاء في هذه الجملة بيان لبعضه ، وهذا - أيضا - يقوى إرادته المبالغة في استحقاق الوعد .

وما ذكره الاستاذ في أن الخطاب في الآية لقوم حشهم على توخي العدل فيما يحكمون به ، فيه نظر ، لأن النداء عام بصفة الإيمان ، وقد تكرر قبل ذلك في آية سابقة ، مما يعني أن الحديث موجه لكافة المؤمنين الذين يستجيبون لله وللرسول إذا دعاهم . ولأن آية الفتح انتشرت بالحديث عن الذين مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بغير صفة الإيمان ، حيث قال (مبطان) : " مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ " ، ولم يقل : والذين آمنوا معه . وهذا يقتضي التوجيه الأول لأن المعية يُحتمل فيها الاشتراك بظاهر الإيمان فقط ، كما كان المنافقون يفعلون . . . وهذا هو الأساس الذي بُنى عليه بقية التوجيه من مجيء " مِنْهُمْ " لتخصيص الوعد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وعدم المبالغة في الوعد ، نظرا لهذه المعية . وما ذكره الاستاذ في أن الوعد فيها أبلغ من رجوعه بدليل ما تقدم في آية المائدة .

وللكرمانى توجيه آخر للاختلاف بين الآيتين اقتصر فيه على ملاحظة تغيير الإعراب في كلمة " مغفرة " وما عطف عليها في الموضعين ، وذهب إلى أن ذلك لموافقة فواصل الآية (١) وهذا التوجيه يمكن قبوله تبعاً لما جاء في التوجيه الأول ، على أن يكون غرضاً لفظياً ، بمعنى الغرض المعنوي ، أو اقتضاء الغرض المنوي . أما أن يكون وجهاً مستقلاً كما ذكره الكرمانى فمبني .

وهكذا تتفاير الألفاظ وتنسب لواقعها ، وتتقدم وتتأخر ، وت حذف وتذكر ، وتختلف جهات التعلق بينها استجابة للسياقات المختلفة التي تتكرر فيها الجملة من الآيات المشابهة ، كما رأينا في الأمثلة السابقة على الفروق التي قصصها هذا الفصل فيما يتعلق بتركيب الجملة في هذه الآيات .

الفصل الثالث

نزل في النظم على مستوى العمل

يحتوى هذا الفصل على مجموعة ثلاثة من فروق الصياغة فى المشتبهات • تتعلق
هذه المجموعة بأحوال الجمل فى هذه الآيات • وعلاقاتها ببعضها ببعض من جهة • ومما
تقدم عليها أو تأخر عنها من الجمل فى الآيات غير المشتبهات • من جهة أخرى •

بين الفصل والوصل

العلم بمواضع الوصل والفصل بين الجمل — كما يقول الشيخ عبد القاهر — من
أسرار البلاغة • وما لا يتأتى لتعام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص • والأقوام طبعوا على
البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة من ذوق الكلام هم به أفراد • • • وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك
أنهم جعلوه حداً للبلاغة • فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل — من
الوصل • • • ذلك لفروضه ودقة عمله وأنه لا يكمل لأحرار الفصيلة فيه أحد إلا كمل لسائر
معانى البلاغة (١)

ومن أدق مواقعها فى القرآن ما نراه فى الآيات المشتبهات من تكرار بعضها مقترنه بالمعطف
فى موضع • وخالفته منه فى موضع آخر للطائفت وأسرار • تحتاج إلى تدبر وتأن فى استخراجها •
والأمثلة على ذلك كثيرة • لم أتقيد فى اختيار بعضها بما ذكره أكثر البلاغيين فى
دراساتهم لهذا الموضوع الهام • من تقيد البحث فيه بالجمل التى لا محل لها من الإعراب •
وبالوإضافة خاصة من بين حروف المعطف • وإنما اخترت منها نماذج متعددة لكل ما ورد مفصلاً

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٠ •

(٢) أول من قيد البحث فى موضوع الفصل والوصل بهذه القيد بين • عبد القاهر الجرجاني •
وتابعه فى هذا كثير من البلاغيين • وذهب السكاكى إلى أن كلا من الفصل والوصل
يأتى فى عطف الجمل والمفردات • وفى المعطف بالوإضافة وغيره من حروف المعطف • والنقول
عليه فى ذلك هو الجهة الجامعة — بغية الإيضاح ج ٢ ص ٦٢
ويذكر المرحوم الشيخ سليمان نوار أن الأسس التقليدية للفصل والوصل قد تهدمت وحطمتها

فى موضع وموصولا فى موضع آخر ه سواء كانت الجمل لها محل من الاعراب أو ليس لها محل من الاعراب ، وسواء كان الواصل الواو أو غيرها من حروف العطف ، مادام فى العطف أو فى عدمه مربلاغى . وراعى فى اختيارها أن تكون مثلة لصور هذا الاختلاف بالنظر إلى موقعه فى الآيات (١)

من هذه الأمثلة قوله (تعالى) فى سياق الحديث عن بنى إسرائيل فى سورة البقرة :
 "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
 وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ" (٢) وفى سورة الأعراف :
 "وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
 وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ" (٣) وفى سورة إبراهيم :
 "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِذْ كُورُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
 سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ" (٤)

حيث فصلت " جملة " يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ " عما قبلها فى آية البقرة ، وكذلك الجملة
 المقابلة لها فى آية الأعراف " يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ " ، ووصلت بالواو فى آية إبراهيم ، مع اتحاد
 الغرض فى الآيات الثلاث وهو تعداد بعض نعم الله (عز وجل) على بنى إسرائيل ، لإنجاء
 لهم من تعذيب آل فرعون المتعمد الذى بلغ مداه بتذبيح الأبناء واستحيا النساء .

المعلم منذ قرون وأزمان ه فلا ضير عليك أن تغير عنوان هذا البحث فتسميه - مثلا -
 الربط بين الجمل والمفردات ، ووجوهه ، أو نحو ذلك من العناوين الواضحة فى الربط ،

والتي تعتمد على المعنى والغرض أكثر مما تعتمد على الأسلوب - كلمات فى الفصل
 والوصل ط ٢ ص ٥ وما بعدها ، ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤ م .

(١) كقوله فى أوائل الآيات أو فى الجمل الداخلية أو فى جمل الخواتيم .

(٢) الآية / ٤٩ (٣) الآية / ١٤١ .

(٤) الآية / ٦ .

والمعنى العام لا يختلف كثيراً بذكر الواو وحذفها ، حتى إن القرطبي بعد أن أشار إلى المعنى بها والمعنى بدونها ، ذكر ما يفهم منه أن الأصل الفصل كما جاء في أبيه البقرة والأعراف ، وأن الواو في آية إبراهيم زائدة ، حيث يقول : " قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة ، بدليل سورة البقرة ، والواو قد تزداد كما قال : فلما أجزنا ساحه الحق وانتحي * أي قد انتحي . وقال الآخر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكمية في المزدحم

أراد : إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكمية ، وهو كثير " (١)

وهذا القول مردود من ناحيتين ، الأولى أنه يخالف ما أجمع عليه كثير من المفسرين من أن المعنى بها يختلف عن المعنى بدونها ، وما حاول المنحذون في المشتبهات الانطلاق منه إلى بيان سر ارتباط كل آية بسياقها .

الثانية : أنه يزج بنا في دائرة الخلاف حول القول بالزيادة في كتاب الله (تعالى) وهو وصف يجب تنزيهه عن النظم الكريم حتى لا يؤهم المصاحف بفكرة الإعجاز ، وإن كان بعض العلماء وجَّه هذا القول بما لا يتناقض معها (٢)

أما عن المعنى بالواو والمعنى بدونها فيؤخذ مما ذكره في هذا الموضع ، ومما ذكره غيره من المفسرين حول هذه الآيات أن طرح الواو في آية البقرة والأعراف يدل على أن ثمانية الجملتين بيِّنٌ للأولى منهما ، فيكون تدبيح الأولاد أو تفتيلهم هو نفسه العذاب .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٨٥ ط ٢ دار الكتب .

(٢) يراجع في هذا الخلاف : تفسير الطبري ج ١ ص ٤٣٩ - ٤٤٠ ، ج ٢ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ ، الهرمان في علوم القرآن ج ١ ص ٣٠٥ ، ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٨ ، ج ٣ ص ٧٠ - ٧٣ ، والمثل السائر ج ٣ ص ١٤ ، حوالة كلية اللغة العربية بالقاهرة ، العدد الأول ١٤٠٣ / ١٩٨٣ م مقال الدكتور / مصطفى النحاس عن حروف الزيادة في القرآن ص ٩٨ - ١١٧

وذكرها في آية إبراهيم يعني التفاضل بين الجملتين ، ليكون تدبير الأولاد جنسا آخر من العذاب غير الأول ، حُصِيَ بِالذِّكْرِ لأنه أوفى على جنس العذاب ، وأشد صورته ، لعظم وقعه عند الأبوين ، أي أنهم كانوا يحذرون بصنوف العذاب غير التدبير والاستحياء ، ثم بتدبير الأبناء واستحياء النساء . (١)

وأما عن سر تخصيص كل آية بموضعها وهبوطها ، بيانه المتحدثون في المشتبهات ، فيؤخذ من حديث أكثرهم أن في هذا الاختلاف تحقيقا للتناسب بين كل آية منها وسياقها الذي وردت فيه ، من جهة أن آيتي البقرة والأعراف ، الخير فيها منسوب إلى الله (عز وجل) حيث ترجع (سبحانه) فيهما بالحديث إلى بني إسرائيل - أي الموجودين من أبنائهم والمراد من سلف من آبائهم لأن الموجودين هم أبناء من نجاهم الله من فرعون وآله - فأخبر عن نفسه بإنجائه لهم من تعذيب فرعون وقومه . ونسبة الخير إليه (سبحانه) يناسبها الفصل بين الجملتين ، لأن العذاب بكل صورته حينئذ يكون مندرجا تحت نعمة الإنجاء ، فلا حاجة إلى تعداد . وإنما ذكرت بعض صورته على سبيل البيان ، حتى يكون بنو إسرائيل على ذكر من قدر هذه النعمة . ولأن في عدم تعداد المحن على بني إسرائيل تكريما في الخطاب يناسب صدوره مباشرة منه (سبحانه) لهم .

وهذا بخلاف الرارده في آية إبراهيم ، فالخير فيها عن موسى (عليه السلام) ومقالته لقومه التي يذكرهم فيها بنعمة الله (عز وجل) عليهم ، واستجابة لما أمره به في آية سابقة حين قال : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٢) والتذكير بأيام الله يعني تعداد نعمه وأياديه عليهم . . . فلما ذكرهم بنعمة الإنجاء من تعذيب فرعون وقومه في هذا السياق ،

(١) يراجع في هذا : تفسير الطبري ج ١٦ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ ، الكشاف ج ١ ص ٢٧٩ ، ج ٢ ص ٣٦٨ ، تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٨١ - ٣٨٢ ، تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩ ، وينظر المطول ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) الآية / .

مناسب ذلك تعداد ألوان الحسن التي نجاهم الله (عز وجل) منها ليتحقق معنى التذكير
بأيام الله ، فجئنا بالواو بين الجملتين ليسر هذا المعنى ، وهو الإنجاء من كل ألوان
العذاب ثم من أفظعها وأشدّها وقعا (١) .

ولابن الزبير توجيه آخر ، يقول فيه : * إن سورة إبراهيم مبنية على الإجمال
والإيجاز فيما تضمنته من قصص الرسل وغير ذلك ، ولم يقصد فيها بسط - كما في غيرها -
ما ينبغي على الاستيفاء . وكلا المرتكبين مقصود ومعتد للعرب .

يرى بالخطب الطوال وثارة روى الملاحظ خيفة الرقاة

وعلى ذلك جرى خطابهم في الكتاب العزيز ، وتأمل المقصدين ، فقد ورد في
سورة الأعراف وسورة هود قصص نوح وعباد صالح ولوط وموسى (عليهم السلام) . فتأمل
ما بين ورود هذه القصص الخمس في هاتين السورتين ، وورودها خستها في سورة
القمر وكيف مدت أطناب الكلام في السورتين الأولىين ، ثم أوجزت في سورة القمر أبلغ
إيجاز وأوفاه بالقصود ١٢

فلما كان مبنى سورة إبراهيم (عليه السلام) على الإيجاز فيما تضمنت من هذه
القصص افتتاحا واختتاماً بقوله (تعالى) : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَشُعُوبَ . . . إلى قوله . . . فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) (٢) وما بعد هذه الآية
. . . ثم إنه انضم في هذه السورة إلى قصد الإيجاز تخطيط الوعيد ، فلبنائها على هذين

(١) : راجع في هذا التوجيه : درة التنزيل ص ١٣ - ١٤ . وقد انصهر
الحديث فيه على آيتي البقرة وإبراهيم ، أسرار التكرار ص ٢٧ ،
كشف المعاني ص ٣١ ، تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩ ، البرهان في علوم
القرآن ج ١ ص ١٢٠ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٤٢ ، الإتيان في علوم
القرآن ج ٢ ص ١٤٧ .

(٢) : الآية / ٨

الغرضين ورد فيها قوله (تعالى) : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. إلى قوله .. يَسْؤُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) فأشار قوله (سبحانه) (يَسْؤُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) إلى جملة ما امتحنوا به من فرعون وآله من استخذامهم وإنزالهم بالأعمال الشاقة ، وامتهانهم واستحياء نسائهم لذلك وذبح الذكور ، فلما وقعت الإشارة إلى هذه الجملة ، ما كانوا يمتحنونهم به جرد منها ، وعُيِّنَ بالذكر أشدها وأعظمها امتحانا ، فجاء به معطوفاً ، لأنه مغاير لما تقدمه ، فقيل (وَيَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) فُعِيِّنَ من الجملة هذا . وخُصِّصَ بالذكر تعريفاً بمكانه وشدة الأمر فيه ، وهو ما أجمل أولاً وشمله الكلام المتقدم .

وأما اعراب آية البقرة ، فيمكن في قوله (تعالى) : (يُذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) أن يُحْصَلَ على البدل أو الاستئناف وهو الأولى ، وكأنه على تقدير سؤال كأن قد قيل : وما ذاك ؟ فقيل : يذبحون أبناءكم . ولا إشكال في الأخرى * (١)

والملاحظ على ما جاء في هذا التوجيه أن إرجاع الوصل في آية إبراهيم لمناسبة ما بُنِيت عليه المسورة من تغليظ الوعيد ، يلتقى بما جاء في التوجيه السابق عن هذه الآية ، لأن تعداد المحن على بني إسرائيل من جانب سيدنا موسى (عليه السلام) يُشعر بهذا المعنى - أيضا - ولا يختلف معه . أما إرجاعه لمناسبة ما بُنِيت عليه المسورة من إجمال وإيجاز فوجه بعيد ، لأن الإجمال يقتضي حذف الحرف ، لا ذكره . وما ذكره عن آية البقرة والأعراف لم يتبين منه سر تخصصها بالفصل ، كما جاء في التوجيه السابق .

وفي الآيات اختلافان آخران غير الاختلاف بالفصل والوصل . الأول : اختيار الفعل " يُذْبَحُونَ " في آية البقرة وإبراهيم ، والفعل " يَقْتُلُونَ " في آية الأعراف .

وقد أشار ابن جماعة وتابعه السيوطي إلى أن ذلك من تنويع الألفاظ المسمَّى

بالتفنُّن (٢) . وهو توجيه ضعيف سيئ الرد عليه في مواضع كثيرة .

(١) ملاك التأويل ج ٢ ص ٣٩ - ٤٠

(٢) كشف المعاني ص ٣١ ، والاتقان ج ٢ ص ١٤٧

قال ابن الزبير في توجيه ذلك : " إن الذبيح منى * عن القتل وصفته *
وأما اسم القتل فلا يفهم غير إعدام الحياة بتناول من غير المقتول في الغالب ، فَعَمِيَّـرٌ
أولاً بما يؤنى المقصود من الإخبار بالقتل وصفته مع إحراز الإيجاز ، إذ لو ذكر القتل ، وأتبع
بالصفة ، لما كان إيجازاً ، فَعَمِدِلٌ إلى ما يحصل عنه المقصود ، فقيل (يَذْبَحُونَ) ، وعَمِيَّـرٌ
نسوة الأعراف بالقتل ، لأنه أوجز من لفظ (يَذْبَحُونَ) لأجل التضعيف ، إذ لفظ (يَذْبَحُونَ)
أنقل لتضعيفه وقد حصلت صفة القتل في سورة البقرة فأحرز الإيجاز في الكل . وجاء على ما يجب
ويناسب والله أعلم * (١)

والملاحظ على هذا التوجيه أن ابن الزبير لم يُشَيِّن فيه لم ينتقل القرآن ثانية من التعبير
بالقتل في آية الأعراف إلى التعبير بالذبح في آية إبراهيم مادام القتل أوجز إلا أن الذبيح
اختير في البقرة على أساس أنها الموضع الأول الذي جاءت فيه هذه القصة فأشير مع القتل
إلى صفته ؟

ثم إن ما ذكره من أن " يَقْتُلُونَ " أوجز من " يَذْبَحُونَ " لثقل الثاني
بالتضعيف دون الأول ، فيه خلط بين الثقل والتخفيف الناشئين من التضعيف وعدمه ، وبين
الإيجاز والاطناب اللذين يقصد هما ، ويجعل عدم التضعيف طريقاً لتحقيق الأول منهما
مع أن ذلك ليس بشرط .

وعلى فرض التسليم بما قاله فإن هناك اعتراضاً آخر وهو أن لقراءة المشهورة المدونة
في المصحف الذي بين أيدينا (قراءة حفص عن عاصم) ورد فيها الفعلان بالتضعيف
" يَذْبَحُونَ " و" يَقْتُلُونَ " . وعلى ذلك فلا مجال للقول بأن أحدهما أوجز من الآخر . وبجانب
هذه القراءة وردت قراءة أخرى للفعلين بخير التضعيف " يَذْبَحُونَ " و" يَقْتُلُونَ " (٢) وعلى ذلك

- (١) ملاك التأهيل ج ٢ ص ٣٨ .
(٢) أشار إلى هذه القراءة الزمخشري في الكشاف ج ١ ص ٢٧٩ ، ج ٢ ص ١١١ والقرطبي
في تفسيره ج ١ ص ٣٨٦ ويرجح قراءة الجمهور بالتضعيف لأن الذبيح تكرر من
آل فرعون ببني إسرائيل .

- أيضا - فلا مجال للحكم بأن أحدهما أوجز أو أخف من الآخر . أما أن يُختار الفعل في قراءة غير مشهورة في وضع ، ويقارن بالفعل الآخر في القراءة المشهورة فهو البُعد في التوجيه .

على أن في كلامه ما يُغني عن هذا الاضطراب ، وما يمكن الوصول منه إلى التوجيه الصحيح ، ذلك أنه ذكر في الفرق بين الفعلين أن الذبح مُنبئ عن القتل وصفته ، وهذا يجعله مطلوباً في المواضع الثلاثة لأنه على المراد من بشاعة التعذيب الذي أحاط ببني إسرائيل من فرعون وآله ، ونَجَّاهم الله (عروج) منه ، فجاء في آية البقرة وإبراهيم على الأصل ، وكان التقضى . - أيضا - أن يُؤتى به في آية الأعراف ، لكن عدل عنه إلى فعل " التقتيل " لمناسبة أخرى في سياقها ، وهي تجاوب هذه الآية مع مقالة فرعون لآله في آية سابقة مُؤخداً بني إسرائيل : " قَالَ سَنَقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ " (١) فقد اشتمل هذه الآية على وعد فرعون لبني إسرائيل بتقتيل الأبناء واستحياء النساء ، والآية - موضع الحديث - تذكر بنعمة الله (عروج) على بني إسرائيل التي تتضمن النجاة من هذا الوعد ، فناسب ذلك اختيار فعل " يُقْتَلُونَ " فيها ليبتجاوب مع نظيره في هذا الوعد ويُذكر به ، مع العلم بصفة هذا القتل الفظيع ما ورد في الآيتين الأخريين .

وقد أشار الزركشي إلى هذا في عبارة مقتضية ، حيث يقول معلقاً على آية الأعراف : " ولأجل مطابقة السابق جاء في الأعراف (يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَهُمْ) ليُطابِقَ سَنَقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ " (٢) .

الثاني : تضعيف الفعل " نَجَّيْنَاكُمْ " في آية البقرة ، وعدم تضعيفه في آية الأعراف .

وسر هذا - أخذاً من كلام ابن الزبير - أن آية البقرة في سياق تعداد النعم والألاء

(١) الآية - ١٢٧

(٢) البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٢

على بنى إسرائيل وتذكيرهم بها ليزدجروا عن المخالفة والعناد... يَدُلُّ على ذلك قوله
(تعالى) فى آيتين سابقين على هذه الآية : " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ " (١) وتصريحه (سبحانه) فى هذا السياق ببعض هذه النعم كإنجائهم من
آل فرعون، وفرق البحر بهم، وإغراق عدوهم ، وعفوه عنهم بعد عبادة العجل ، وتوحيته عليهم
ومسحهم بعد موتهم عند طلب الرؤية ، وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم... إلى
غير ذلك مما جاء فى هذا السياق (٢) . فلما كان الموضع موضع تعداد وتذكير بأوان النعم
ناسب التضعيف فى الفعل ليدل على التكرار .

أما سياق آية الأعراف فلم يركز على هذا الغرض بقدر ما ركز على أنبأهم وتعذيبهم وعرض بعض
موتكباتهم الحقاء ، فناسب ذلك الفعل بغير التضعيف فرقاً بين السياقين (٣) .

وقبل أن أترك الحديث عن هذه الآيات أنبأ إلى أن سر الاختلاف بالفصل والوصل فيها
لم يتوقف على كون الجمل موضع الاختلاف لها منحل من الإعراب أو ليس محل . فجملة " يَسْؤُونَكَ
سُوءَ الْعَذَابِ " قيل : إنها مستأنفة وعلى ذلك تكون هذه الجمل من أمثلة الفصل والوصل الاصطلاحي
على رأى الشيخ عبد القاهر والخطيب . وقيل إنها جملة حالية (٤) فلا تكون حينئذ من
أمثلة الفصل والوصل إلا على رأى . السكاكى . وسواء أخذنا بهذا الرأى أو ذاك فالمصلحة واحدة ،
وهى أن وراء العطف وتركه سرا بلاغاً جاء النظم من أجله على ما جاء عليه فى كل موضع
وهو ما سبق بيانه .

✽ ✽ ✽

ومن الأمثلة قوله (تعالى) من قصة سيدنا نوح (عليه السلام) فى سورة الأعراف :

" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ " (٥)

(٢) الآيات / ٤٩ - ٦٠

(٤) ينظر الكشف ج ٢ ص ١

(٢) الآيتان / ٤٠ و ٤٢

(٣) ملاك التأويل ج ٢ ص ٣٢ - ٣٨

(٥) الآية / ٥٩

وفى سورة هود :

• وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * (١) وفى سورة المؤمنون :

• وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * (١)

حيث فصلت الجملة الأولى من هذه الآيات عما قبلها فى الأعراف، ووصلت فى هود والمؤمنون، مع أن المضمون واحد وهو الحديث عن إرسال سيدنا نوح (عليه السلام) إلى قومه، وتبليغهم رسالة الرسالة من الترتيب فى الدعوة إلى الله، وإنذار من لم يستجب لهذا الدعوة بعدذاب اليوم الآخر.

وسر هذا الاختلاف أن آية الأعراف فصلت الجملة فيها عما قبلها لفقدان الجهة الجامعة، أو الخاصة الخاصة بين الآية وما قبلها، التى تسوِّغ هذا العطف وتُجسِّمه - كما يفهم من كلام الإسكافى والكرمانى وغيرهما من العلماء الذين اتفقا معهما فى توجيه هذا الاختلاف - فالآيات السابقة على هذه الآية، ولم يرد فيها حديث عن إرسال الأنبياء إلى أقوامهم، وموقف أقوامهم منهم، ولا شئ يتصل بهذا المعنى. وإنما تحدثت الآيات وبخاصة السابقة على هذه الآية مباشرة، مما اختص به (سبحانه) من أحداث خلقه، والبدائع من فعله، وكقوله (سبحانه) : **إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ سَخِرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * (٣)** ففيها وما جاء بعدها إلى الآية المذكورة (٤) ذكر الشمس والقمر والرياح والنبات والأمطار والسهل من الأرض الطيب والحزن منها الصلب، ولم يرد فيها حديث عن بعثة نبي ومخالفة من جاءهم بالدعوة... فجاء الحديث عن إرسال سيدنا نوح (عليه السلام) إلى قومه فى هذه الآية، ثم ما تلاها من الحديث عن أنبياء الله وقصصهم مع أممهم كالأجنبي عن الأول، فلم يعطف عليه، وإنما استأنف بـ **يَسِّرْ خَيْرًا جَدِيدًا (٥)**

وهذا النوع من الفصل يعرف عند البلاغيين بكمال الانقطاع (١) ، والاستثناف المذكور هنا غير الاستثناف البياني المعروف في صورة شبه كمال الاتصال ، لإحدى صور الفصل بين الجمل

ومما تجدر الإشارة إليه أن فقدان هذه المناسبة الخاصة لا يعنى تفكك الآيات ، وعدم ترابطها ، وإنما يعنى فقدان الجهة التي تسوع المصطف فقط ، وهي هنا الحديث عن أنبياء الله (عز وجل) ورسله ، أما فيما عدا ذلك فالكلام متواصل ومترايط في إطار النظم المعجزة ، الذي على أساسه أخذت كل آية موقعها في السور الثلاث ، كما أن التناوب العام متوفر بين هذه الآية وما قبلها في السياق ، ويمكن الإشارة إلى هذا التناوب أو الخيط الدقيق الذي يربط هذه الآية بما قبلها بأن الله (عز وجل) لما بين في الآيات السابقة على هذه الآية أنسه خالق السماوات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ختم ذلك بقوله : **كَذَلِكَ نَصُفُّ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** (٢) ، وتصريف الآيات يعنى - فيما يعنى - تكرارها ، وترديد لها للعظة والاعتبار ، وذكر أقاصيص الأمم السابقة وأحوالهم مع أنبيائهم من أبرز ألوان التصريف للآيات في القرآن ، حيث تتكرر القصص لتجدد العظة والاعتبار منها في كل سياق ، ولتدل بتفسير أسلوب الحكاية فيها مع اتحاد المحكى على كثير من الأسرار البيانية التي تقف شاهداً على الإعجاز القرآنى .

وعلى هذا فالكلام متصل ، وما هذا الاستثناف إلا للانتقال من فكرة إلى فكرة أو من حديث إلى حديث في إطار الغرض العام ، والمقاصد الأساسية للمورة الكريمة .

أما آية هوفقد تقدمها ذكر رسالة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ودعوته حيث افتتحت المورة بقوله (تعالى) : **آلر ٥ كِبَابُ أَحْكَمَتِ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ٥** **أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ بِهِ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** (٣)

(١) الصورة الثانية : ألا يكون بين الجملتين جامع والجامع هو المناسبة الخاصة ، ولا يعنى فقدان الجهة الجامعة تفكك الكلام وتنافر جملته - ينظر بغية الإيضاح ج ٢ ص ٢٠ دالات التراكيب ص ٣٥٣ د . محمد أبو موسى ط ١ دار المعلم ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م (٣) الأيتان ١ / ٢

ثم استمرت الآيات في الحديث عن دعوتهم وتحذير المشركين من التوليى وما يحق به إن وقع منهم . وفي تحذيرهم للإتيان بعشر سور مثل القرآن في البلاغة وعلو النظم وإن كان ما يأتيون به مفترى لوكون أسهل عليهم (١) ثم ألمحت الآيات بعد ذلك إلى من أخبار سيدنا موسى (عليه السلام) حيث تعرض لذكر كتابه في قوله تعالى : " أَنْسُ كَان عَلَى سَنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَتَلَاَهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً " الآية (٢) ثم عادت الآيات لتنتهي بوصف حال من آمن بالله ورسوله ، وأخبت إلى وصف حال من أفرى على الله قديرا ، وحصل على خسران نفسه ، وشوه بهما ، كما جاء في قوله (تعالى) : " مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْي وَالْأَصْمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ " (٣) ثم انتقلت الآيات إلى قصص الأنبياء المذكورين في هذه السورة بدءا بقصة سيدنا نوح (عليه السلام) ، فعطفته على ما تقدمها لوجود المناسبة . كما سبق في الحديث عن دعوة الرسل (صلى الله عليه وسلم) والتلميح بمسئ من أخبار سيدنا موسى (عليه السلام) ثم المثل الأخير لفرق الإيمان والكفر ، وهو الشبه البارز في كل قصص الأنبياء بعد ذلك (٤)

والعطف هنا ليس من عطف الجملة على الجملة ، حيث يمنع ذلك اختلاف الجملتين خبرا وإنشاء ، لفظا ومعنى ، وهما " أَفَلَا تَذَكَّرُونَ " ولَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا " ولأننا هو من باب عطف القصة على القصة . أو مضمون كلام على مضمون كلام آخر ، والمناسبة واضحة بين المتعاطفين كما تقدم .

وهذه الواو يسميها النحاة واو الاستئناف أو القطع والابتداء ، وهذا أحد معانيها في الكلام . وسميت بهذا الاسم لأنها تأتيهم أن ما بعدها من المفردات معطوف على ما قبلها . (٥) وهي

- (١) الآيات / ٣ - ١٤
- (٢) الآية / ١٧
- (٣) الآية / ٧٤
- (٤) راجع : سورة التنزيل ص ١٤٩ - ١٥٠ ، أسرار التكرار ص ٨٢ ، ملك التأهيل ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥١ بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢١ ، كشف المعاني ص ٦١
- (٥) ينظر هذا المعنى للواو مع غيره من معانيها في البرهان في علم القرآن ج ٤ ص ٤٣٧ والافتحان ج ١ ص ٢٣٣

الروا التي تأتي لعطف القصة على القصة، أو مضمون كلام على مضمون كلام آخر، كما يذهب الدكتور / محمد أبو موسى في محاولة منه للجمع والتصديق بين رأى ابن هشام - من قال بهذا - وبين رأى البلاغيين (١) .

وأما آية المؤمنين فالمناسبة السوِّفة للعطف على ما تقدمها متحققة من وجوه منها: قوله (تعالى) في الآية السابقة عليها : " وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تُصَلُّونَ " وهذا بعد ذكرنا ضمناً لميدنا نوح (عليه السلام) لأنه أول من صنع هذه الفلك ، وهمس التي نجي الله (تبارك وتعالى) عليها من جعله أصل الخلق بعد حادث الطوفان .

ومنها : مناسبة هذه الآية لآيتين سبقتا في السياق وانفتحتا بنفس افتتاحها الذي يتأتى منه القسم " وَلَقَدْ " ، ومنها قوله (تعالى) : " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَامٍ مِّنْ طِينٍ " ، وقوله (تعالى) : " وَلَقَدْ خَلَقْنَا فِئَكُم مِّنْ طَرَائِقِهَا كَمَا عَنِ الْخَلْقِ عَافِينَ " (٢) .

ومنها : أن الآيات قبلها في ذكر إيجاد الخلق ، وانتقالهم مُخَلَّبين في أطوار مكنتين بتوالي إنعاش (عز وجل) ، وجاء ذكر إرسال الرسل في هذا السياق منسجماً على ما تقدمه ، على أساس أنه من بين نعم الله على الخلق ، ولذلك ذكر أولهم إرسالاً بعد آدم (عليه السلام) ، ليناسب ما يؤيدونه من النعم الأولية في الخلق والإيجاد ، كما أنه لم يرد ذكر للعذاب في هذا السياق إلا بالآية الوجيز (٣) .

لهذه الوجوه ماغ العطف بالروا هنا كما ماغ في آية هود ، والروا هنا كالروا هناك .

■ ■ ■

- (١) ينظر دلائل التراكيب ص ٢٤٨ وقد امتد في محاولته التي ما ذكره السيد الشريف من كلام صاحب الكشف تعليقاً على كلام للزمخشري في عطف القصة على القصة . وذلك في حاشيته على المطول - المطول ص ٢٦٣ .
- (٢) يراجع : دره التنزيل ص ١٥٠ ، أسرار التكرار ص ٨٢ ، ملك التأويل ج ٢ ص ٢٥١ ، كشف المعاني ص ٦١ بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢١٠ .

ومن الأمثلة قوله (تعالى) : في سورة آل عمران :
 • أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهم وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَنَحْنُ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * (١) وفي سورة المنكرات :
 • وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرًّا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا نَحْنُ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * (٢)

حيث خُتت الآيتان بجملة واحدة • مدح بها الجزاء في الموضعين، ووصلت بها قبلها
 في الأولى، ووصلت في الثانية •

وسر هذا الاختلاف أن الجزاء المدح في الأولى جاء مُفَصَّلًا في جُلِّ معطوف بعضها
 على بعض • والمعطف يفتن بالتغاير • فكان كل نوع ما ورد في هذه الجُمل مستقلًّا بنفسه •
 من مخوف نوبهم • وإدانة نعمهم في جنات تجري من تحتها الأنهار • يقول الإمكاني : " والخبر
 إذا جاء بعد خبر في مثل هذا المكان الذي تُفصل فيه المواهب المُرفَّع فيها فحقه أن يُعطف
 على ما قبله بالواو " (٣)

كما أن صفات المتقين المستحقين لهذا الجزاء في هذا السياق وردت مُنَوَّقةً بعضها
 على بعض بما يُشعر بكمال كل صفة وتسامها فيهم (٤) ، فلما مدح الجزاء هنا في هذه
 الآية التي بُنيت على تداخل الأخبار وتغايرها بمقتضى المعطف عُطِفَ هذا المدح على ما قبله
 ليمر النظم على نسق واحد وكان هذا التشريف والتكريم للمتقين نوع مستقل من الجزاء غدير ما تقدم

(١) الآية / ١٢٦ •

(٢) الآية / ٥٨ •

(٣) د. ر. التنزيل ص ٧٣ ، ٣٥٥ • وتابعه ابن الزبير في هذا ملاك التأويل ج ٢ ص ١٧

(٤) حيث يقول (سبحانه) : " وَمَا رَغَّبَا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ " - الآيات / ١٣٣ - ١٣٥ •

أما الثانية فالكلام فيها مَدْعٍ على جملة واحدة، هي تهوية المؤمنين
 غُرْفًا في الجنة، ولم يُفصل فيها الجزء لهم على نحو ما جاء مُفصلاً معطوفاً بمعنى على
 بعض في الأولى، كما أنها لم تسبق بحدث مفصل عن صفات المؤمنين، كما جاء في
 سياق الأولى، وإنما جاءت الآية مكونة من ابتداء وخبر، وجملة المدح يُحتمل أن تكون
 في موضع خبر من تمام الجملة الأم... يقول الاستكافي: قوله: (وَالَّذِينَ آمَنُوا) مبتدأ
 وقوله (لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) في موضع خبره، وهذا الخبر يتصل به مفعولان الأول (هُنَّ) والثاني
 (غُرْفًا) و (غُرْفًا) تنكرة موصولة بقوله (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) وقوله (خَالِدِينَ فِيهَا)
 حال من التوبة، فلما جعلت هذه الأشياء كلها في دمج كلام واحد، وهو جملة ابتداء وخبر،
 واحتل قوله: (نَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) أن يجيء بالواو وأن يجيء من دونها واختير مجيئها
 بخبرها ولو لم يسمه ما تقدم من عقد بخبر، لا على سبيل عطف ونسق، ويحتمل أن يكون في موضع
 خبر مبتدأ فكانه قال: ذلك نعم أجر العاملين، ويكون قوله: ذلك إشارة إلى ما ذكر الله
 (تعالى) من إمكانهم الجنة، فيجربى بلا واو مجزى ما هو تمام الكلام الأول، وقوله (تعالى):
 (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رِضَاكَ الْجَنَّةُ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
 الْكَبِيرُ) (١) فقوله: (ذَلِكَ) وإن انقطع عن الأول في اللفظ فإنه يتصل به من طريق المعنى
 وكأنه قال: لهم ما يشاءون عند ربي، أشار إليه بأنه الفضل الكبير. وقوله: (نَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)
 أي ذلك نعم أجر العاملين، أشار إليه بالتفصيل على أجر العاملين (٢)

ويقول ابن الزمخشري: "ولما لم يفصل الجزء في سورة المنكوت، ولم يقع فيه عطف جاءت
 جملة المدح غير معطوفة لمناسب النظم" (٣)

- (١) النوري / ٢٢
 (٢) درة التبريد ص ٧٤ ٠٣٥٥
 (٣) ملك التأويل ج ٢ ص ١١٧ ٠

ولابن جاءه تعليق موجز لخص فيه ما ذكره كل من الإسماعيلي وابن الزهر حيث يقول :
 لما تقدم عطف الأوصاف المقدمة وهي قوله : (... لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ ۝ وَالْكَاطِبِينَ
 الْمُهَيْظَ ۝ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا وَلَمْ يُبْصَرُوا ، وَجَزَاءُكُمْ مَفْضَرَةٌ
 وجنات وخلود) ناسب ذلك العطف بالواو المؤنثة بالتعدد والتفخيم . ولم يتقدم مثله في المنكبات
 نبيات بضم واو وكان تمام الجملة " (١)

أما الكرمان فقد ذكر كلاما مختصرا أعارفيه إلى أن الواو في آية آل عمران زائدة
 لأن اتصال الجملة بما قبلها أكثر من غيرها حيث يقول :

" (وَنَحْمُ أَجْرَ الْعَامِلِينَ) بزيادة الواو ، لأن الاتصال بما قبلها أكثر من غيرها
 (يقصد آية المنكبات) وتقديره : ونحم أجر العاملين الموفرة والجنات والخلود " (٢)

ولقد لسجاً محققا للكتاب إلى ما ذكره الإسماعيلي في هذا الموضع لموضع غوامض
 هذا الاختصار في هامش الصفحة . وهذه الظاهرة تتكرر كثيرا في كتاب الكرمان كما سبق
 الإشارة في القسم الأول (٣) :

وما جاء في هاتين الآيتين مثال لما وقع من الاختلاف بالفصل والوصل في خواتيم
 الآيات ، أي جل الفواصل . والذي يمتنع هذه الجمل يرى فيها كثيرا من ظواهر النظم
 الجديدة بالدراسة المستقلة . فكثيرا ما تتكرر هذه الجمل مفصولة في موضع وموصولة في موضع
 آخر . كما أن حرف الوصل يختلف فرة يكون " الواو " مرة " الفاء " مرة " ثم " (٤) ، وكل
 ذلك في حدود ظاهرة واحدة فقط ، وهي ظاهرة الفصل والوصل . وقد سبق الإشارة فيما تقدم
 إلى بعض هذه الظواهر ، وستأتي أيضا الإشارة إلى ظواهر أخرى في موضعها .

■ ■ ■

(١) كيف المعاني ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) أبيات التكرار ص ٥٢ ونقله الفيروز آبادي في بعض أشعر ذوي التمييز
 ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ينظر ص ٦٣ من هذا البحث

(٤) مترد أشلة على ذلك من خلال الحديث عن لرواق أخرى .

ومن الأمثلة على الاختلاف بالمطف وعدمه بغير الواو قوله (تعالى)

في سورة الزمر :

" قُلْ يَا قَوْمِ اعْلَمُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " (١) وفي سورة الأنعام :

" قُلْ يَا قَوْمِ اعْلَمُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " (٢) وفي سورة هود :

" وَيَا قَوْمِ اعْلَمُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " (٣) .

حيث تطفئ جلة " سَوْفَ تَعْلَمُونَ " على ما قبلها بالفاء في الأولين ولم تطفئ في الثالثة ،

مع انحاء المقصد فيها جميعا ، وهو تهديد المخاطبين وتوعدهم سيملة بصفة في العاقبة (٤)

وحول هذا الاختلاف يقول الزمخشري : " فإن قلت : أي فرقتين إدخال الفاء ونزعها

في (سوف تعلمون) ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضع الوصل ، ونزعها

وصل خفي . فقد يرى بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا

علنا نحن على مكانتنا ؟ رحلت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ، فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستئناف ،

للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ، وهو بسبب

من علم البيان تتكاثر محاسنه " (٥)

وفي هذا الكلام يلاحظ استخدام الزمخشري لمصطلحي الفصل والوصل مع أن الوصل

هنا بغير الواو ، التي خصصها بحث الفصل والوصل بها . وهذا يؤكد ما سرت عليه من

أن العبارة بها وراء الفصل والوصل من أسرار ، سواء كان الوصل بالواو ، أو بغيرها

من حروف المطف ، سواء كانت الجمل لها محل من الإعراب أو ليس لها محل

من الإعراب .

ويلاحظ في هذا الكلام - أيضا - أن الزمخشري جعل من هذا الاختلاف التفنن في

-
- (١) الآية / ٢٩ (٢) الآية / ١٣٥ (٣) الآية / ١٢
 (٤) ينظر معنى الآيات في الكشاف ج ٢ ص ٢٨٩ ، ج ٢ ص ٢٩٩ وفي تفسير
 القرطبي ص ٢٥٢٥ ، ٣٢٢٠ .
 (٥) الكشاف ج ٢ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

البلاغة • كما هي عادة البلغاء • وهو تحليل ضعيف • لا أدري كيف قال به • وكسره
نـ أكثر من موضع • وهو من هو تفوقاً ومعرفةً بأمرار النظم الكريم ١٩

وحيثما تدقق النظر في كلامه مرة أخرى نجد أن هذا التحليل يتناقض مع قوله بمسند •
بأن أقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف • إذ أن مقتضى ذلك اختلاف المعنى بالفصل
والوصل بين الجمل • وإلا ما كان أحد المواضع أبلغ من الآخرين • ثم إنه لم يبين
الداعي لاستخدام الأبلغ من الوصلين في موضعه • اكتفاءً بالتحليل السابق •

وما ذهب إليه من أن أقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف • ذهب إلى عكسه
الاسكافي والكرواني وابن جماعة وابن الزبير والفيروز آبادي • حيث يرون أن الوصل
بالفاء أكد في آيتي الزمر والأنعام • وأن المقام يقتضي هذا التأكيد القوي • لأن الآيتين
انفصلتا بأمر من الله (عز وجل) لرسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يقول لكفار العرب على
سبيل التهديد والوعيد (اَعْلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) • أي اعلوا على طريقتهن وجهتهن أو على تمككنهم •
فسوف تعلمون أنكم أماتتم إلى أنفسكم • والعمل بالمأمور به في قوله " اَعْلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ " سبب
للجزء الملوّح به في قوله : " فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " • فالفاء متمقلة بقوله : " اَعْلُوا " والتقديم
اعلوا فسوف تعلمون • إني عامل سوف أعلم • وحذفت الجملة الأخوية • للعلم بها
ما تقدم • والآيات الفتح بالأوامر من الله (سبحانه) مثل " قُلْ " كما جاء في الآيتين
يَقْوَى فيها تقديم معنى الشرط • وينسحب هذا على كل ما تضمنته من جمل • فلما ورد في
الآيتين هذا الأمر • وجاء الجواب عليه في قوله : " فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " لوحظ الشرط بقدر
بعده • أو الذي تضمنته الجملة ونابت مثابه فاقترن الجواب بالفاء •

أما آية هود فهي حكاية ما قاله سيدنا شعيب (عليه السلام) لقومه لما
تجاهلوا عليه • وقالوا : " يَا شُعَيْبُ مَا نَفَعُ كَثِيرًا مَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَكِن لَّا
رَهْطُكَ لَرَجَّصْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ " (١)

قال لهم ضمن رده عليهم : " وَاقِفُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ... الآية ... " فلما اختلف السباق ، وجاءت هذه الآية إخباراً من الله (سبحانه) عن قول شعيب لقومه ، وليس أمراً منه (سبحانه) إليه ، ضَعُفَ فيها تقدير معنى الشرط فلم تدخل الفاء في جملة " سَوْفَ تَعْلَمُونَ " ثم إن هذه الآية وإن جاء فيها أمر شعيب لقومه بقوله " اَعْلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ " ، كما جاء في الآيتين الأخريين إلا أنه في هذا الإخبار ضَعُفَ الِإِيجَازُ (صلى الله عليه وسلم) ، وليس على سهيل الأمر من الله (عز وجل) كما يلاحظ في فواتح الآي .

ويحصل أن تكون جملة " سَوْفَ تَعْلَمُونَ " في هذه الآية وصفا لقوله " إِنِّي عَامِلٌ " لأن معنيا في هذا السياق يرد على قوله الذين تجاهلوا عليه ، وأظهروا أنهم لا يعرفون ما يقوله ، فقال : " إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ عَلَى " وتعرفونه بعد ما أنكرتموه حتى لا تقولوا : إنا لا نثق أكثر ما تقول . وعلى هذا المعنى لا يصح دخول الفاء على أساس أن جملة " سَوْفَ تَعْلَمُونَ " مكان الوصف لقوله " عَامِلٌ " (١)

وفي الآيات اختلاف آخر من جهة التعبير عن الجزاء فيها بعد قوله : " فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " فقد جاء في آية الأنعام : " ... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ " ، وجاء في الزمر : " ... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ " وجاء في هود : " ... سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتُجِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ " .

وهذا الاختلاف راجع لاختلاف موافات الآيات ومناسبة كل آية بما جاء فيها لسباقها ، فالجزء المذكور في آية الأنعام مصروف للمؤمنين كما يفهم من قوله (تعالى) :

(١) راجع هذا التوجيه في سورة التنبه من ١٣٣ ، أسرار التكرار من ٧٤ - ٧٥ ، ملاك التأهيل ج ٢ من ٢٢٧ ، كشف الممانى من ٥٢ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ من ١١٨ ، يلاحظ أن ما جاء فيه بالنسبة لآية هود يلزم عليه قطع " تعلمون " عما بعده ، وعلى ذلك تكون " من " في الجملة التالية " مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ " استغناءً عن " سَوْفَ تَعْلَمُونَ " ، وهذا أحد وجهين ذكرهما الزمخشري الثاني : أن تكون " من " موصولة والعامل

«مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» والعاقبة إذا أطلقت يفهم منها أنها عاقبة المتقين ، كما جاء في قوله (تعالى) في موضع آخر : «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (١) . وهذا لا يمنع التصرُّف بعاقبة الكافرين ، العاقبة لزوما لعاقبة المتقين ، واللوغ بها في قوله (تعالى) : «إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ» . ولعل صرفه للمؤمنين في هذه الآية ليرودها بمعد قوله (تعالى) في هذا السياق : «لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يُسَيِّئُونَ» (٢) . لأن المعنى : «فصوف تعلمون من تكون له هذه الدار» .

والجزء المذكور في آية الزمر مصروف للكافرين ، كما يفهم من قوله (تعالى) : «مَنْ يَأْتِهِ عَذَابُهُمْ خِزْيَةً وَمِنْ عَذَابٍ مُقِيمٍ» ، حيث أفصح عن نوعين من العذاب للكافرين ، كما جاء في تفسير الزمخشري أي عذاب مخزله يوم يدر ، وعذاب دائم ، وهو عذاب النار (٣) . أو التعذيب مطلقا في الدنيا بالذل والسهانة ، وفي الآخرة بالعذاب الدائم ، كما جاء في تفسير القرطبي (٤) .

ولعل صرفه للكافرين في هذه الآية ليرودها في سياق مجادلهم والحديث عن ألهمهم ، كما يدل قوله (تعالى) : «وَلَيْسَ مَأْلَتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَ سِنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» (٥) ، وقوله قبل هذه الآية في تهديدهم : «الْيَكْسَى اللَّهُ يَمْزِيزُ ذِي انْتِقَامٍ» (٦) .

أما الجزء المذكور في آية هور فقد ذكر الزمخشري أن الجزء مصروف فيها للكفار

- | | |
|-----|-----------------------------|
| (١) | الأعراف : ١٢٨ هـ القصص / ٨٣ |
| (٢) | الآية / ١٣٢ |
| (٣) | التصانيف ج ٢ ص ٤٠٠ |
| (٤) | تفسير القرطبي ص ٥٧٠ |
| (٥) | الآية / ٢٨ |
| (٦) | الآية / ٢٧ |

من قسور معصية ه وله (عليه السلام) أَخَذًا من قوله (سبطه) : " مَنْ يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ " ، حيث يقول في تعليقه على هذه الآية : " فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ
ذَكَرَ عَلَيْهِمْ عَلَى مَكَاتِهِمْ وَعَلَى مَكَاتِهِ ه ثُمَّ أَتْبَعَهُ ذَكَرَ عَاقِبَةُ الْعَامِلِينَ مِنْهُمْ وَهُمْ ه
فَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يَقُولَ : مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ه وَمَنْ هُوَ صَادِقٌ وَحَتَّى يَنْصَرَفَ " من
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ " إِلَى الْجَاهِدِينَ ه وَمَنْ هُوَ صَادِقٌ إِلَى النَّبِيِّ الْبَعِثُوكُمُ الْوَهْمَ ؟ قُلْتَ :
الْقِيَاسُ مَا ذَكَرْتَ ه وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا يَدْعُوهُ كَاذِبًا قَالَ : وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ه بِمَعْنَى مَنْ زَعَمَ
وَدَعَاكُمْ ه تَجْهَلُوا لَهُمْ " (١)

وصف الجزاء إلى الطائفتين - الكفار من قوم شعوب والمؤمنين منهم مثلون
في معصية (عليه السلام) - مناسب لهذه المناسبة لسباق القصص في هذه السورة ، الذي
يَتَّبِعُ فِيهِ بِصُورَةٍ مَلْحُوظَةٍ عَاقِبَةُ الطَّائِفَتَيْنِ بِالْفَتْحَةِ لِكُلِّ رَسُولٍ مَعَ قَوْمِهِ .

وبحسب ما ذكره الزمخشري في تعليقه على هذه الآية علقاب ابن المنير عليه بما
يفهم منه أن الجزاء مصروف للكفار صراحة في الجلتين ، من باب عطف الصفة على الصفة ،
والمصروف واحد ، ومصرف ضمنا لمعصية (عليه السلام) حيث يقول :
" . . . الظاهر والله أعلم أن الكلامين جميعا لهم ه فالأول وهو قوله : (مَنْ يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ) ضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به وهو الكذب ه ويكون من نسياب
عطف الصفة على الصفة ه والمصروف واحد ه كما تقول لمن تهدهده : متعلم من بهان ومن
يعاقب ه وإنما يعنى المخاطب في الكلامين ه فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم لم يخل
ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو ه لأن أحد الفريقين إذا كان مهبطا فالآخر هو الحق
قطعا ه فذكره لأحدى العاقبتين صريحا يفهم ذكر الأخرى تعريضا . . . "

-
- (١) الكشاف ج ٢ ص ٢٩٠ .
(٢) طعنة ابن المنير على الكشاف " الانصاف فيها تضمنه
الكشاف من الاعتزال ج ٢ ص ٢٩٠ .

والخطب سهل • فما ذهب إليه الزمخشري من عودة الجزاء على سيدنا شعيب
(عليه السلام) صراحة رآه ابن المنور بطريق التعريض ... بيد أن ما ذكره الزمخشري
يتفوق سياق القصص في السورة الكريمة • واهتمام الحديث فيها عن عاقبة الطائفتين •



ومما الاختلاف فيه بالمعطف بالفاء وترك هذا المعطف وإن كان التشابه في
نسق الجمل لا في ما تحويه من معان • ما جاء من أجوبة عقب الأمثلة المحكية في
القرآن • نجتمع ما في القرآن من أسئلة وقع عقبها الجواب بضمير الفاء إلا في موضع واحد اقترن
الجواب فيه بالفاء • وهو قوله (تعالى) في سورة طه : " هَيَّا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْ أَجَلٍ نَقُفِّلُ
بَيْنَهُمَا رِسًا نَحْنُفَّا " (١) •

وذلك لأن الأجوبة التي لم تقترن بالفاء وقعت عقب أسئلة حدثت بالفعل ووجهت إلى
الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المؤمنين ومن المشركين • قوله (تعالى) : " هَيَّا لَنُكَفِّرَنَّ
مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ بَيْنَ الْأَقْرَبِينَ " (٢) • " هَيَّا لَنُكَفِّرَنَّ مَاذَا
أَحِلَّ لَهُمْ قُلْ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ " (٣) • " هَيَّا لَنُكَفِّرَنَّ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا
عَلِمَهَا عِندَ رَبِّي " (٤) • وتغير هذه الآيات كثيرًا وكلها تضمنت أسئلة صدرت بالفعل • أما
السؤال المحكي في آية طه • والجواب عليه فقد نزل بها الوحي من السماء
قبل أن يصدر السؤال عن أحد • وذلك لعله (سبحانه) أنهم يسألون هذا السؤال •
فأجابهم قبل أن يسألوا • فنضمن الكلام معنى الشرط • كأنه قيل : إن سئلت عن الجبال
فقل ينفخها ري نسفا • (٦) •

(١) الآية / ١٠٥

(٢) الآية / ٢١٥

(٣) المائدة / ٤ (٤) الاعراف / ١٨٢ •

(٥) انظر البقرة / ١٨٩ • ٢١٢ • ٢١٩ • ٢٢٠ • ٢٢٢ • الأنفال / ١ •

الأمراء / ٨٥ • الكهف / ٨٣ • النازعات / ٤٢ •

(٦) ينظر في هذا التوجيه : أسرار التكرار ص ٤١ • بعائثر ذوى التمييز ج ١ ص ١٥٢ تفسير

محصل أن يكون اقتران الجواب بالفاء فيها، لتمييزه عن الأجوبة السابقة، من جهة تعلقه بما يحدث في اليوم الآخر من أهوال، لأن السؤال عن حال الجبال يوم القيامة، بخلاف الأسئلة السابقة، فهي متعلقة بالأمور الدنيوية، سواء كانت داخلية في أمور العبادات أو متعلقة بأمر غيبي كالروح في آية الإسراء أو مجرد العلم بوقت الساعة الذي هو نهاية الحياة الدنيا كما في آيتي الأعراف والنازعات.

❧ ❧ ❧ ❧

الاختلاف بحروف العطف

التي يتفرع من هذا الفرق امتداد للحديث عن الفرق السابقة، حيث يركز على الجمل المعطوفة على الآيات المشتبهات من ناحية اختلافها بحروف العطف، ولهذا الاختلاف صور متعددة بالنظر إلى الحروف المتغايرة في هذه الآيات منها،

مجيء الجملتين في موضع بالفاء، وفي موضع آخر بالواو، كما في قوله (تعالى) من

سورة التوبة:

« فَلَا تُصِيبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » (١)

« وَلَا تُصِيبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » (٢)

حيث عطف الآية الأولى على ما قبلها بالفاء، والثانية بالواو، مع أن المخاطب فيهما واحد

وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخصوص المناققين .

ومر ذلك اختلاف السياق في الموضعين ، وإن كان الحديث فيها عن المناققين ، وسرد أحوالهم . فسياق الأولى بين الله (عز وجل) فيه أقوال المناققين وارتكوبه من موثبات ، وذلك في آيات عديدة . فلما تم التعريف بأحوالهم إلى ما قبل هذه الآية في قوله (تعالى) : **وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ** (١) . بنى عليه نهيه (صلى الله عليه وسلم) فيها عن الإعجاب بما لديهم من أموال ومنهم حتى لا يفتربظاها أمرهم ، فكان الكلام في قوة الشرط والجزاء ، فدخلت الفاء . . بقول ابن الزهر : **لما وصف (تعالى) أقوال المناققين في كفرهم ومنى موتكياتهم وقور ما هم عليه ، وعرف بأحوالهم في آيات إلى قوله (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ . . الآية) قال لنبيه (عليه السلام) : (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ . . الآية) وكان الكلام في قوة أن لو قيل : إذا عرفت أحوالهم فلا تفترب بما لديهم فتظن أن ما كانهم فيه من خضاهم لياء من مال ولد احمان عجلناه لهم . . (أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ تَحَاتُّلٍ وَمِنْهُمْ)** **نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ** (٢) . (إِنَّمَا نُطِلُّ لَهُمْ زِينَةً وَإِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابُ سَهِيمٍ) (٣) . والكلام في قوة الشرط والجزاء ، فكان موضع الفاء . (٤)

وبوضع الإسكان في وجه الاحمال بين هذه الآية وما قبلها ، القضى للفاء ، فيقول في توجيه آخر : **قبل الفاء قوله (تعالى) : (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)** . فأخبر عن المناققين بما يقصدونه بأفعالهم التي يؤقمونها في حالهم ، واستقبالهم على معنى أن يكسأول عن الصلاة ، وتكرهوا الصدقات ، فإن الله ليس يجازيهم بما ينسروهم من أموالهم وأولادهم ، بل يدخل ذلك عذاباً لهم مدة بقائهم بما ينالهم من النقص في الأموال ، ما أباح منه للمسلمين بالقتال ، وما يصيبهم في الأولاد من السبي

- | | |
|-----|------------------------|
| (١) | الآية : ٥٤ |
| (٢) | المؤمنون / ٥٥ - ٥٦ |
| (٣) | ال عمران / ١٢٨ |
| (٤) | ملاك التأويل ج ٢ ص ٢٠٤ |

والاستعداد ، ثم عند الفراق يكون الألم على قدر محبة الأحاب ، هذا سوى —
الانقلاب ، وما أعد لهم من العذاب لوجوب التائب ، فلما كان الفعل الذي قبل الفاء بمعنى
الشرط ، صار ما بعدها من موطن الجزاء ، فَخُصَّتْ بالفاء لذلك (١)

وتابع في هذا الترتيب القرآن ، ملخصاً كلامه ، مقدراً صلة الجلة بما قبلها
بقوله : " أَى إِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ فَذَلِكَ نَأْذُرُكُمْ " (٢) لأن الفاء تتضمن معنى الجزاء
والفعل قبلها مستعمل (٣)

وتابع فيه — آيات — من جملة مقدراً هذه الصلة بقوله : " إِنْ اتَّخَفُوا
بِهَذِهِ الصَّغَاتِ مِنَ الْكُفْلِ فِي السَّلَامِ ، وَكَرَاهِيَةِ التَّنَاقُتِ فَلَا تَعْجِزْكُمْ أَمْوَالُهُمْ .. الْآيَةُ " (٤)
وُضِعَتْ مَعْنَى آخَرٍ فِي اخْتِلَافِ التَّسْلِيمِ وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْأَحْبَاءِ
مِنَ الثَّقَلَيْنِ (٥)

وتابع الأوصى إلى معنى آخر في بيان هذه الصلة القتضية ذكر الفاء ، حيث
يقول : " بِسْمِ اللَّهِ لَتَأْتِيَ التَّقْرِيبُ قَرَارُكَ (تعالي) قَبْلَ : (لَا يَنْقُوتُونَ إِلَّا وَهُمْ
كَارَهُونَ) ، وَأَنْ سَطَحَكَ لَا يَنْقُوتُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارَهُونَ لِلانْفِاقِ ، فَهُمْ مُجِبُونَ بِكَرَةِ الْأَسْوَالِ
وَالْأَوَّلَةِ ، فَتُجِبُ عَنِ الْإِعْجَابِ التَّشْقِيقُ " (٦)

وتابع في هذا الترتيب في أركان التبررات فكلمها مقارنة وتعدو في إطار شدة
الصلة بين هذه الآية وما قبلها من بيئات مختلفة

(١) في الترتيب من ١٤٨ إلى ١٤٩

(٢) (٣) أصرار التكرار ، ونقل هذا الكلام الفيض آبادي في بصائر ذوي
التمييز ج ١ ص ٦٣٢

(٤) (٥) كيف المعاني ص ٦٨

(٦) روح المعاني ج ١٠ ص ١٥٩

أما سياق الآية الثانية فجاءت فيه هذه الآية مَنْ مَّقْتُلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
 على الآية السابقة عليها لاجتماعها في نهيه (صلى الله عليه وسلم) عن فعل أشنع
 تتصل بالمناقضين ، فكان الوضع للواو • كما يرى ابن الزبير ، إذ يقول : • أما قوله في الآية الأخرى
 (وَلَا تُصِيبْكَ أَمْْرًا لَّهُمْ • •) فنضيق على قوله : (وَلَا تُصِلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
 عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمَاتُوا وَهُمْ فَايَقُونَ) (١) • • • وكل هذا نهى له (صلى
 الله عليه وسلم) أن يفعله • وليس كالأول في أن ذكر (من) (٢) موتكياتهم ما بُسني
 نهيه (صلى الله عليه وسلم) عليه فترسوسه معنى شرط وجزاء • فلا مدخل للفاء هنا ولا هي
 موصفها • (٣)

ولأن الآية السابقة عليها فيها أفعال ماضية لا تحتل معنى الشرط • فجاء بالواو
 لمصطف الآية بعدها عليها • لبطان المعنى يقتضى للفاء • كما يذهب الإسكافي إذ يقول :
 • أما الآية التي • خلفها الواو فإن قبلها أفعال ماضية • كقوله : (إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَأَمَاتُوا وَهُمْ فَايَقُونَ) وهذه الأفعال بضمها وانقطاعها لا تكون شرطاً فتعقب بالفاء
 التي تدل على الجزاء ، فمصطف الآية بعدها على ما قبلها الواو لبطان المعنى الذي يقتضى
 الفاء • ألا ترى أنه قال : (وَأَمَاتُوا وَهُمْ فَايَقُونَ) ولا يشترط فصل من قد مات فيعقب بذكر
 الجزاء • فذلك اختلافنا في الفاء والواو • (٤)

وقد تابع الإسكافي في هذا كل من الكرمانى والفريز آبادى (٥) وكذلك ابن جماعة (٦)
 مع إشارته بأن الآية الثانية في الحديث عين مات من المناقضين • (٧)

(١) الآية ٨٤ /

(٢) (صسن) ماقطف من النص وقد رتبها لتصح العبارة

(٣) ملاك التأويل ج ٢ ص ٢٠٤ ، وتابعه الألوسى في هذا ملخصاً إذ يقول • وجىء

بالواو هنا لمناسبة عطف نهى على ما قبله روح المعانى ج ١٠ ص ١٥٥ •

(٤) درة التنزيل ص ١٩٩ •

(٥) أسرار التكرار ص ٩٧ • وينقولان في بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٣٢ •

(٦) (٧٥٦) كيف المعانى ص ٦٨ •

وفي الآيتين اختلافات أخرى غير هذا الاختلاف يوضح الحديث عنهما

ماورد في توجيهه :

— فقد كرت " لا " الناهية في الأولى ولم تكرر في الثانية .

ولاشك أن المعنى بها غير المصنوع منها فمعها يزداد التأكيد في النهي عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم ويكون النهي مخصصاً على كل واحد منهما على حدة ، أما بدونها فنصب النهي عليهما مجتمعين ، كما يكون التأكيد دون الأول ... يقول الألوسي :
 " وقول هنا (١) (وَأُولَادُهُمْ) دون (لا) لأنه نهى عن الإعجاب بهما مجتمعين فهناك
 بزيادة (لا) (٢) لأنه نهى عن كل واحد واحد ، فدل مجيئ الآيتين على النهي
 عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين " (٣) .

وفي كلام الألوسي هذا نجد الإشارة إلى سر من أسرار تكرار الآية مع هذا التنوع في قوله : " فدل مجيئ الآيتين على النهي عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين " وهذا كاف في إيضاح الفرق بين الآيتين من ناحية ذكر " لا " وحذفها ، لكن يبقى السؤال عن سر اختيار ذكرها في الأولى وحذفها من الثانية ، ولم يكن العكس ؟

وهذا ما نجد الجواب عليه عند الإحكافي والكرمانى وابن جماعة وابن الزبير، وخلاصته :
 أن سياق الأولى تدفع فيه من دواعي تأكيد المعنى ما لا يتوفر في سياق الثانية ، فقد طال فيه الحديث عن أقوال المنافقين ، وقبح متركاتهم ، واستنصها ، وأكد الكلام في الآية السابقة عليهما بالإيجاب والنفي وهو الغاية في باب التأكيد (٤) ، وتعلقت بها هذه الآية تعلق الجزاء بالشروط ، كما سبق ، فاقضى كل هذا تأكيد معنى النهي بتكرار " لا " مع " أولادهم " كما أكد صدر الجلفة بدخول الفاء تحقيقاً لقوة اتصالها بها قبلها .

أما سياق الثانية فلم يوجد فيه شيء من هذه الدواعي فسقطت " لا " حيث لا قصد

(١) الإشارة إلى الآية الثانية .

(٢) يقصد الزيادة لمعنى وغرض .

(٣) روح المعاني ج ١٠ ص ١٥٦

(٤) ...

وفي الآيتين اختلافات أخرى غير هذا الاختلاف يوضح الحديث عنها

ماورد في توجيهه :

- فقد كرت " لا " الناهية في الأولى ولم تكرر في الثانية .

ولاشك أن المعنى بها غير المعنى في غيرها فمعها يزداد التأكيد في النهي عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم ويكون النهي مضمناً على كل واحد منهما على حدة ، أما بدونها فنصب النهي عليهم مضمناً ، كما يكون التأكيد دون الأول ... يقول الألوسي :
" وقيل هنا (١) (وأولادهم) دون (لا) لأنه نهى عن الإعجاب بهما مجتمعين وهناك بزيادة (لا) (٢) لأن نهى عن كل واحد واحد ، فدل مجموع الآيتين على النهي عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين " (٣) .

وفي كلام الألوسي هذا نجد الإشارة إلى سر من أسرار تكرار الآية مع هذا التنوع في قوله : " فدل مجموع الآيتين على النهي عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين " وهذا كاف في إيضاح الفرق بين الآيتين من ناحية ذكر " لا " وحذفها . لكن يبقى السؤال عن سر اختيار ذكرها في الأولى وحذفها من الثانية ، ولم لم يكن العكس ؟

وهذا ما نجد الجواب عليه عند الامكاني والكرمانى وابن جماعة وابن الزبير، خلاصته :
أن سياق الأولى تتوفر فيه من دواعي تأكيد المعنى ما لم يتوفر في سياق الثانية ، فقد طال منه الحديث عن أقوال المنافقين ، وقبح متكباتهم ، وأشنعها ، وأكد الكلام في الآية السابقة عليها بالإعجاب والنفي وهو الفأية في باب التأكيد (٤) ، وتعلقت بها هذه الآية تعلق الجزاء بالشرط - كما سبق - فاشتق كل هذا تأكيد معنى النهي بتكرار " لا " مع " أولادهم " كما أكد صدر الجلة بدخول الفاء تحقيداً لقوة اتصالها بما قبلها .

أما سياق الثانية فلم يوجد فيه شيء من هذه الدواعي فسقطت " لا " حيث لا قصد

(١) الإشارة إلى الآية الثانية .

(٢) يقصد الزيادة لمعنى وفرض .

(٣) روح المعاني ج ١٠ ص ١٥٦ .

إلى تأكيد النهي فرقاً بين المضعفين • بالإضافة إلى ما ترتب على حذفه من إرادة النهي عن الإعجاب بالأموال والأولاد مجتمعين كما عرفنا في كلام الألويس (١)

يمكن أن يضاف إلى ما ذكره من ظواهر التأكيد في سياق الأولى التي لم تظهر في سياق الثانية، ما نجده في قوله (تعالى) قبل الأولى : " وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقُولَ مِنْهُمْ تَغْفِرْ لَنَا وَإِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ " . وقبل الثانية : " وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَهْمُ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ " . حيث كثر حرف الجر " إلى " مع لفظ (الرسول) في الأولى • ولم يكرر معه في الثانية تأكيداً للمعنى - أيضاً - في الأولى التي جاءت في سياق ملء بالمؤكدات دون الثانية •

ولعل هذا التأكيد في الأولى - أيضاً - لأنها في سياق الحديث عن الأحياء من المنافقين • فكانت العناية بالتأكيد على ما ارتكبه كما كانت العناية بالتأكيد في النهي عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم بخلاف الثانية فهي فومن مات منهم والحديث عنهم لا يحتاج إلى هذه الزيادة في تأكيد المعنى •

• ووصل فعل الإرادة في الأولى باللام ، فقيل " إِنَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ " وفي الثانية بأن فقيل " إِنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ " .

وسر ذلك - أخذاً من كلام الامكافى والكرمان وابن جماعة - أن الأولى في سياق الحديث عن الأحياء من المنافقين - كما سبق - فناسب ذلك حذف مفعول الإرادة ، ووصل الفعل بلام الصيغة أو التعليل • إذ يصير التقدير : إِنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ من الأموال والأولاد ، ليعذبهم بها في الحياة الدنيا بما يحوسبهم من ذلك أو انفاقه كرهاً • أو غير ذلك •

(١) ينظر : درة التزئيل ص ١٩٩ ، أسرار التكرار ص ٩٢ ، كشف المعاني ص ٦٨ ، ملاك التأويل ج ١ ص ٣٠٤ ، بحائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٣٢

أما الثانية فالحدث فيها من قوم مذهب ماتوا وانقضوا - كما سبق - فتاسب ذلك تعلق فعل الإرادة بتعذيبهم ، لا بحذف قدره ، إذ لا معنى لتقديره في هذا السياق ، وتقدير الكلام : إنما يريد الله في حال إنعائه عليهم تعذيبهم بها في الدنيا.. يقول الإسكافي : "تفرق بين الخبرين إذ كان أحدهما خبراً عن قوم معرضين لزيادة إنعام الله عليهم ، والآخر خبراً عن اعطمت أعمالهم وبلغت نعمة الله عليهم غاية لا مزيد فيها لهم ، والله يريد تعذيبهم بذلك بعد كفرهم ومقامهم على نفاقهم" (١)

وضيف ابن الزبير وجهاً آخر خلاصته : أن التعبير باللام في الأولى من غير " أن " يدل على عدم التراخي في الجزاء ، وهذا في غاية التناسب للتأكيد الذي بنيت عليه هذه الآية .

أما التعبير " بأن " في الثانية فيقتضى تراخياً في الجزاء ، وهذا - أيضاً - مناسب للآية الثانية التي لم تكرر فيها المؤككات ولا في سياقها . (٢)

ويؤيد ابن الزبير على ما يمكن أن يعتض عليه به ، من أن لام كي تُقدّر بعدها " أن " على قول الجمهور وهذا يجعل الآيتين متساويتين فيقول : " ليس المعنى مع تقديرها هو المعنى مع ظهورها ، بل بظهورها ، حتى لا يكون في تقديرها . وقد نرى سبباً على ذلك في باب الجواب بالفاء عن كتابه ، وأنه كلام العرب مفتحة أن قوله : " ليعذبهم " ليس كقولنا : " أن يعذبهم " فيما يعطيه ظهور " أن " من التراخي " (٣)

وعلى تقدير " أن " في الأولى تشبهاً مع رأي الجمهور تكون اللام زائدة في هذه الآية بالنسبة للآية الثانية ، وقد لاحظ ذلك الألوسي ، وراى أن وجودها في الأولى مناسب للتأكيد فيها ، حيث يقول : " وأما إذا قلنا : إن اللام فيها تتقدم زائدة ، فالتغاير يحصل أن يكون

(١) درة التنزيل ص ٢٠٠ وراجع اسرار الكشكاش ص ٩٧ ، كشف المعاني ص ٦٨

بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٣٢ .

(٢) ملاك التأويل ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٣) ملاك التأويل ج ٢ ص ٣٠٥ وراجع الكتاب لسببه ج ٣ ص ٦٥ ، ٦٦

لأن التأكيد هناك (١) لتقديم ما يصلح سبباً للتعذيب بالأموال أو وقع منه هنا لعدم عدم ذلك (٢)

— وذكر الموصوف وصفه في الأولى فقيل: " إِنَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فَنَسَىٰ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا " ، واقتصر على الموصوف فقط في الثانية ه فقيل: " إِنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا " .

وذلك راجع إلى أن الدنيا في الموضوع علم على الحياة الأولى ه فذكرت مع الحياة في الآية الأولى مناسبة للتأكيد الجارى فيها وفي سياقها ، واكتفى قطبها في الثانية بمجازاة لعدم التأكيد فيها (٢) وحذف الموصوف في الثانية بالإضافة إلى هذا الفرق يشعر بأن حياتهم لختمتها لا نستحق أن تسمى حياة لأن القصصيين في هذا السياق قد ماتوا على النفاق والكفر (٣)

واقتصر الزمخشري (رحمه الله) في هاتين الآيتين على الغرض من التكرار فهما إذ يقول: " وَقَدْ أُعِدَّ قَوْلُهُ : (وَلَا تَعْجَبْكَ) لأن تجدد النزول له شأن في تحريم ما نزل له وتأكده ه وإرادة أن يكون عريالاً من المخاطب ه لا ينساء ولا يسهو عنه وأن يعتقد أن العمل به مهم ، يفتقر إلى فضل عناية به ه لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين ، فأشبه الشيء الذي أهتم صاحبه ، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه ه وإنما أعيد هذا المعنى لقوم فيها يجب أن يحذر منه " (٤)

على أن له توجهات دقيقة لهذا الاختلاف في موضع آخره يمكن أن يكون مثلاً

- | | |
|-----|--|
| (١) | يقصد الآية الأولى ه |
| (٢) | ينظروا روح المعاني ج ١٠ ص ١٥٦ ه |
| (٢) | ينظروا التنزيل ص ٢٠٠ ه استمرار التكرار ص ١٨ ه كشف المعاني ص ٦٨ ه |
| (٣) | راجع روح المعاني ج ١٠ ص ١٥٦ ه |
| (٤) | الكشاف ج ٢ ص ٢٠٧ ه |

لهذه الصورة : وذلك فيما تكرر من الآيات عقب قصص الأنبياء في سورة هود، قوله (تعالى) في قصة هود (عليه السلام) :

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ وَآلَهُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ قَلِيلٍ » (١)

وفي قصة شعيب (عليه السلام) :

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ شُعَيْبًا وَآلَهُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَتَافَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ بِجَانِسِينَ » (٢) وفي قصة صالح (عليه السلام)

« فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ صَالِحًا وَآلَهُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَتَقْوَى الْعَزِيزُ » (٣) وفي قصة لوط (عليه السلام) :

« فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مُّنْعَدٍ » (٤)

فقد تشابهت أركان هذه الآيات ، وتشابهت مقاصدها ، إذ هي في الحديث عن نهاية الصراع بين الكافرين والمؤمنين ، على حين اختلفت الحروف الواصلة لها بما قبلها ، فهو في الأوليين الواو ، وفي الآخرين الفاء .

يقول الزمخشري معلقاً : « فإن قلت : ما بال ساقتي قصة عاد ، وقصة ثمود جاءتا بالواو ، والساقتان الوسيطتان بالفاء ؟ » (٥) قلت : قد وقعت الوسيطتان بعد ذكر الوعد وذلك قوله : (إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَصْحَابُ) (٦) ذلك وعد غير مكذوب (٧) فجاء بالفاء ، الذي هو للتسوية ، كما تقول : وعد فلان فلان . فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت ، وأما الأخريان فلم يكما بتلك المثابة ، وإنما وقعتا مبتدأتين ، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما ، كما تعطف قصة ثمود على قصة عاد . » (٨)

وما ذكره الزمخشري في هذا التعليل قريب مما ذكره الإمكاني وتابعه فيه الكرمانس

(١)	الآية / ٥٨	(٢)	الآية / ٩٤
(٣)	الآية / ٦٦	(٤)	الآية / ٨٢
(٥)	يقعد ساقتي قصة صالح وقصة لوط	(٦)	الآية / ٨١
(٧)	الآية / ٦٥	(٨)	الكشاف ج ٢ ص ٢٩٠

وخلصه : أن العذاب في قصتي هوروشعوب تأخر عن وقت الوعد • بدليل قوله (تعالى)
 في قصة هود قبل هذه الآية : " فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ " (١) وقوله في قصة شعيب قبل
 هذه الآية - أيضا - " يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ نَكَاتِكُمْ إِنَِّّي عَلَىٰ سَوَاءٍ مَّا تَعْمَلُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ
 يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ " (٢) وليس في الآيتين تخويف بقرب ما أوعدوا
 به ، فجن بالواري انتقالا من خبر عن الزميمة إلى الحكاية عن فعل الله (سبحانه) •

أما العذاب في قصتي صالح ولوط ، فقد وقع عقب الوعد مباشرة - كما جاء في
 كلام الزمخشري - فكان الموضع للفاء • (٣)
 * * *

ومن الصور مجيء الجملة بالواو في موضع ، وبشر في موضع آخر ، كما في قوله
 (تعالى) في سورة التوبة :

"... وَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ
 بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " (٤)

وقوله في موضع آخر من السورة :

"... فَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " (٥)

وهي مخطوطة بجملة " تَوَلَّوْا إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ " على ما قبلها بشر في الأولى ،
 والواو في الثانية مع اقترانها بالموافاة •

ومر هذا الاختلاف كما يرى الإسكافي والكوماني وابن الزبير وابن جماعة ، أن الآية

- | | | | |
|-----|---|-----|------------|
| (١) | الآية / ٥٢ | (٢) | الآية / ٩٣ |
| (٣) | ينظر سورة التين ٢٣٤ - ٢٣٥ • أسرار التكرار ص ١٠٨ ، مصائر
ذوي التميز ج ١ ص ٢٥١ | | |
| (٤) | الآية / ٩٤ | | |
| (٥) | الآية / ١٠٥ | | |

الاولى في خطاب المناقنين بدلول قوله (تعالى) قبلها في صدر الآية : " يَمْتَدُّونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدُوا قَدْ نَبَأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ " . ومعنى " وَمَسِيرَى اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَوْكُلُهُ " : أنه (سبحانه) يعلم حقيقة علمكم ، وأنه عن غير صحة اعتقاد منكم ، وأن اعتذاركم قول بلسانكم لا يطابق ما تنطوى عليه قلوبكم ، وأنه سيظهر أعمالكم هذه للناس في الدنيا . ثم تَوَدَّهم (سبحانه) بما جاء في الجملة التالية المعطوفة بشئ ، أى انكم ستعودون إلى الله ، عالم الفيض والشهادة في الآخرة ، لخيركم بما كنتم تعملون وسيجزىكم عليه . وفي هذا الوعد كنم من الله (عز وجل) حيث لم يؤاخذهم في الدنيا ، وأمونا بالوضابطا لأعمالهم ، وحققنا دمائهم لذلك . لكت (سبحانه) لم يهملهم وإنما أخر عذابهم ليوم تشخص فيه الأبرار .

ولما كان الحكم عليهم في الآخرة حينما يؤدون إليه (سبحانه) بخلاف ما يتناسب مع ظاهر أعمالهم في الدنيا ، ليجد ما بين هذا الظاهر ، الذى يقتضى أحسن الجزاء ، وبين ما سيجزون به حقيقة على ما كانوا يخشون اختيرت " ثُمَّ " للمطابق بين الجلتين ، لتشعر بهذا البعد بين الجزاء الذى ينتظرهم في الآخرة على حقيقة أعمالهم ، وبين العمل الدنيوى الذى ظاهره المصالح والتقوى وباطنه الكفر والحد .

ولتفهم - أيضا - ما بيننا الله (عز وجل) لهم في الدنيا حتى يأخذهم في الآخرة أخذ عزيز عقدر ، كما يدل التراخي المفهم من " ثُمَّ " لأن جزاء المناقنين على ما قسم مؤخر إلى قسم ، يرجعونهم إلى الله (عز وجل) .

أما الآية الثانية فالخطاب فيها للمؤمنين ، بدلول قوله (تعالى) قبلها : " خذْ مِنْ إِلَيْهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (١)

وقوله : " أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " (٢) ثم صدرت هذه الآية بما فيه بحث على عمل الخير ،

وذلك في قوله (سبحانه) : " وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ " ولما كان الخطاب في هذه الآية للمؤمنين ، وفيها حث على عمل الخير ، جاءت جملة " تُرَدُّونَ إِلَى عَالَمٍ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ " . . . " رسداً لهم يشاكل أفعالهم ومطابق أفعالهم ، من حسن الثواب ، وجمال الجزاء ، ولا يتخذ عنها بُعد جزاء المنافقين عن ظاهر أفعالهم التي يراؤون بها ويعلم الله حقيقتها ، فكان الموضع للور والشجرة مع اليمين بقر الثواب حتى كأنه نازل مع هذا الأمر بالعمل الصالح ، وذلك لأن المؤمنين يثابون على أفعالهم الصالحة في الدنيا والآخرة ، لقوله (سبحانه) : " فَلَنَسْجِرَنَّ لَهُمْ سِجْرًا طَيِّبًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (١)

وفي الآيتين اختلافان آخران : الأول : ذكر المؤمنين في الثانية وعدم ذكرهم في الأولى . وهذا راجع إلى ما سبق بيانه من اختلاف المتحدث عنهم في الموضعين ، فلما كان الحديث في الأولى عن المنافقين ، لم يذكر المؤمنين ، لأن أعمال المنافقين لا يعلم حقيقتها إلا الله (عز وجل) ، ثم رسوله (صلى الله عليه وسلم) بإطلاع الله إياه عليهما ، كما يؤخذ من قوله (سبحانه) في الآية : " قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ " وما كل مؤمن يعلمها .

ولما كان الحديث في الثانية عن المؤمنين ، وأفعالهم ظاهرة فيما بينهم من صلاة وزكاة وحج ، وسائر أعمال البر ، ذكر المؤمنين ، لأن هذه الأعمال مما يراه المؤمنون فيعلمون بها ، كما رأوا المؤمنين . (٢)

الثاني : اختلافهما بالفاء والواو في جملة " سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ " (٣) . ولعل الإتيان بالواو في الأولى ، لأن الجملة منصوقة على ما قبلها في قوله " قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ " ، وهما معا في سياق الرد على المنافقين وتوعدهم على ما يضرهم من أفعالهم ، وذلك

(١) النحل / ٩٧ . ويراجع هذا التوجيه في سورة التين من ٢٠٣ - ٢٠٤ . امرار

التكرار من ١٠٠ . كشف المعاني ص ٦٩ . ملك التأويل ج ٢ ص ٢٠٦

بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٣٦ .

(٢) المراجع السابقة .

(٣) لم نتحدث المراجع السابقة عن توجيه هذا الاختلاف

يعلمها من الله (عز وجل) وأظهرها للناس في الدنيا وتأخير الجزاء علمها في الآخرة .

كما أن الاتيان بالفاء في الثانية لوقوعها في جواب الأمر الموجه للمؤمنين ، وكأنها تشعر بقرب الجزاء ، وتؤكد وقوعه عقب امتثالهم لهذا الأمر مباشرة .

★ ★ ★

ومن الصور مجيء الجملة في موضع بثم ، وفي موضع آخر بالفاء ، كما في قوله (تعالى)

في سورة الأنعام :

" قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ " (١) وفي سورة النمل :

" قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ " (٢)

حيث عطف الأمر بالنظر على الأمر بالسور في الأولى بـ"ثم" وفي الثانية بالفاء . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة جمعت بين هذين الأمرين مع اختلاف بآلهتها وخواتيمها ، فيما بينها من ناحية وفيما بينها مجتمعة وبين هاتين الآيتين من ناحية أخرى (٣) . والملاحظ في هذه الآيات جميعها

(١) الآية / ١١

(٢) الآية / ٦٩

(٣) تراجع هذه الآيات في :
 - آل عمران / ١٣٧ قوله (سبحانه) : " قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ "
 - النمل / ١٣٦ قوله (سبحانه) : " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا .. إِلَى قَوْلِهِ ..
 فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ "

- المنكوت / ٢٠ قوله (سبحانه) : " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ إِلَهُ بَنِيهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَةُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "
 - الروم / ٤٢ قوله (سبحانه) : " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ تُشْرِكُونَ "
 - الروم / ١ قوله (سبحانه) : " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... الآية "
 - غافر / ٢١ قوله (سبحانه) : " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ... الآية "
 - غافر / ٨٢ قوله (سبحانه) : " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... الآية "

...

...

...

...

- على الرغم من اختلافها - أن الأمر بالنظر يُعطى على الأمر بالسور فيها بالفاء هـ على نحو ما جاء في آية النمل السابقة هـ وعلى ذلك تكون آية الأنعام هي الآية الوحيدة التي انفردت بمعطى النظر على السور ثم من بين الآيات الكثيرة التي جمعت بينهما •

وحينما ننظر إلى هذا الاختلاف بدءاً على ضوء معنى الحرفين "ثم والفاء" نجد أن النظر والسور الأمر بهما هـ بينهما مهلة متراخية في الآية الأولى، كان كل واحد منهما مأموراً به على حدة هـ على حين نجد النظر على السور مباشرة في الثانية هـ كان الأول (السور) سبيل الثاني هـ وأن الثاني منهما هو المقصود •

وانطلاقاً من هذا حاول المفسرون ومن غنوا به راحة الشبهات توجيه الفرق بين الآيتين، لأن المقصد العام فيهما متحد هـ وهو السور في الأرض للاعتبار بآثار الهالكين فسي الأسم السابقة هـ والقصودون بالأمرين في الموضعين هـ بل في كل الآيات التي جمعت بين هذين الأمرين هم كشاركة ومن لف لفهم في كل زمان ومكان .. وفي هذا يقول الزمخشري: "فإن قلت: أي فرق بين قوله (فانظروا) وبين قوله (ثم انظروا) ؟ قلت: جمع - النظر مسيهاً عن السور في قوله: (فانظروا)، فكأنه قيل: سيرا لأجل النظر هـ ولا تسيرا سيرا الغافلين • وأما قوله: (سرو في الأرض ثم انظروا) فمعناه إباحة السور في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك يتم لتباعد ما بين الواجب والباح" (١)

وهذا التوجيه لم يبين سر وقوع كل آية في موضعها، إذ من المحتمل جداً أن تقع كل واحدة منهما موقع الأخرى هـ وهذا ما يلباه السياق في كل سورة • ثم إن تفسيره السير المراد في آية الأنعام بالسور الباح مافيه نظر، ولا يفهم إلا على وجه بعيد هـ ولذا اعتذر عليه ابن المنور فقال: "وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسور في المكانين واحداً، لئلا

يوسف / ١٠٦ قوله (سبحانه) "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا .. إلى قوله .. أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَمَنْظُورًا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" ..
- فاطر / ٤٤ قوله (سبحانه) "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَمَنْظُورًا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. الآية"
.. الآية .. فَتَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

ذلك سببا في النظر ، فحيث دخلت الفاء فلاظهار السببية ، وحيث دخلت ثم فالتبعية على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير ، وشأن بين المقصود والوسيلة (١) .

وهذا الاعتراض لم يأت - أيضا - بهذا السر وإنما نجد السر عند الإسكافي ومن طبعه . إذ يدون أن سياق آية الأنعام جاء فيه ما يقتضي ذكر ثم في هذه الآية ، دون الفاء ، وذلك لتقديم قوله (تعالى) : **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ نَرٍ مَكَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ** **وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ تَدَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا** **مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** . ففي هذه الآية دليل على أن الهالكين طوائف كثيرة ، وأم متعمدة ، ثم أعقبهم الله بأم كثيرة - أيضا - . فلما جاء الأمر بالسير في هذه الآية كان دعوة للمخاطبين إلى تتبع أخبار هؤلاء بالسير في البلاد ، ومشاهدة الآثار ، ونازل أهل الفساد ، على كثرتها ليروا الآثار في ديار بعد ديار ، وهذا ما يحتاج إلى زمان مستد ، ومدة طويلة ، تمنع النظر من ملاصقة السير ، فجاء بضم ل بعد ما بين السير بغرض استقرار آثار الهالكين في أزمنة مستدة وبين التفكير والاعتبار بعواقبهم .

وهذا المصنى الذي اقتضى ذكر ثم في هذه الآية غير ملاحظ في سياق الآية الثانية ، وفي سياقات الآيات الأخرى التي جمعت بين الأمرين ، فجاء الأمر بالنظر مخطوفا على الأمر بالسير فيها بالفاء للدلالة على أن السير لأجله وأنه الغاية منه ، والمقصود في السياق أي أن الغرض منصب على الاعتبار بطريق السير في الأرض ، ولم تقع الإشارة في هذه السياقات إلى الاعتبار بخير ذلك . (٢)

ولابن الزهر توجه آخر لآية الأنعام يذهب فيه إلى أن السير مقصود به أمران : السير للاعتبار بخلق السماوات والأرض وما فيها ما ورد له ذكر في فاتحة سورة الكريمة .

(١) الانصاف على هامش الكشف ج ٢ ص ٢٠٨ ، وقريب من هذا ما جاء في تفسير أبي السعود إذ يقول : **ثم** لإيالة ما بين السير والنظر من التفات في مراتب الوجود ، فإن وجوب السير ليس إلا لمكانه وسيلة إلى النظر والعطف بالفاء دليل على هذا المعنى . هامش تفسير الرازي ج ٤ ص ١٣٠ .

(٢) ينظر درة التنزيل ص ١١٢ ، أسرار التكرار ص ٦٥ كشف المعاني ص ١٠٠ بهائير ذي التمييز ج ١ ص ١٩٠ .

والسير للاعتبار بآثارها لكونها، وهذا الذي اقتضى "ثم" للفرق ما بين السور المتنوعة هنا، والسير المقصود منه النظر في آثارها لكونها نقاط في الآيات الأخرى، يقول في ذلك: "وأما آية الأنعام فإنما افتتحت بذكر خلق السماوات والأرض وجنل الظلمات والنور، وإنما ذكر هذا من الخلق الأكبر لمعتبر بذلك صفاته أعظم معتبر وأوسع، قال الله (تعالى): (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) (١) فكان الآية في قوة أن لو قيل: سموا في الأرض فاعبدوا بخلقها، وكف دحاها، وذلكها لسكانها، وجعل فيها رؤس أن تعبد بكم، وفجر فيها الأنهار، إلى عجائبها أودع فيها، وكيف جعل السماء فوقها مقفا محفوظا بغير عدد، وزينها بالنجوم لتبتدوا بها في الظلمات، وجعل الشمس والقمر حسانا وضياء موزنه للسماء، وكف دحاها آية الليل لصلحة العباد، وجعل آية النهار مبصرة إلى ما لا يحصى من منافعها وعجائبها لمن منح الاعتبار، قال (تعالى): "إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُهِنِينَ" (٢) ثم انظروا عاقبة من كذب، ونهه فلم يعتبر، فعطف هذا بضم القصرية مهلة الزمان، حيث يراد ذلك، وتفخيم الأمر وتفاوت الضمير فيه، وتجريد الأمر لكل من الضمير ما قبلها وما بعدها، فلم يمس موضع تعقيب بالفاء، إذ لم يرد أن يكون سورهم لسجود الاعتبار لمن كذب فأخذ بتكذيبه فقط، بل الضمير ما ذكرناه ومهدناه، وفي كل منهما أشق دلالة (٣)

أما في الآية الثانية، والآيات الأخرى فتابع الإسكافي فيما تعرفنا عليه في التوجيه السابق (٤).

قد أورد الألويسي في تفسيره التوجيه السابق للإسكافي ومن تابعه فيه دون نسبه إلى أحد، ثم قال بعد إيراده: "ولا يخلو عن دقة" (٥) ثم أورد توجيهاً آخر يرد وأنسبه استعراج له، يقول فيه: "واختار غير واحد أن السور مخط هنا وهناك، ولكنه أمر متأكد يعطف النظر عليه بالفاء ثارة نظراً إلى آخره، وبهم نظراً إلى أوله، وكذا شأن كل متد" (٦)

(٢) الجاثية / ٣

(١) غافر / ٥٢

(٣) و (٤) ملك التاهل ج ٢ ص ١١٠ - ١١١

(٥) و (٦) روح المعاني ج ٧ ص ١٠٣ - ١٠٤

لكن هذا التوجيه مع فروضه • ومع أن ما جاء فيه قريب من القول بالثقلين،
لم يُمكن من اختيار كل آية من الآيتين، أو الآيات الأخرى في موقعها • وهذا ما جعلنا
نمود ثانياً إلى توجيه الإمكان وإضافة ابن الزبير لمعرفة من اختيار الوصل بشم في الأنعام
والفاء في الفصل باقي السور الأخرى •

وأورد صاحب النار ما ذكره الألوسي بتعليقاته ثم عقب بقوله • ولعل من يتأمل
ما وجهنا به الكلام في تفسير الآية • قبل النظر في هذه النكت كلها يرى أنه هو المتبادر من النظم
بغير تكلف، وأنه يشبه أن يكون مستتباً من مجموع تلك النكت • مع زيادة عليها تقتضيها حال المخاطبين
بالأمور الموهنة • وهم كفار مكة الساندون • الكهنة والأسفار للتجارة • الغافلون عن
شئون الأمم والاعتبار بما قبله الماض وأحوال المعاصرين • (١) وهو كلام عظيم، لم يظهر منه
شئ واضح يُمكن من تخصيص كل آية بما جاء فيها • ثم إن المخاطبين في هذه الآية وهم كفار
مكة الساندون كما يقول، هم - أيضاً - المخاطبون في الآية الثانية ونسب كل الآيات
إلى جمعيت يرون شدة من الأمرين •

وفي الآيتين اختلاف آخر من جهة الخاتمة حيثما اختلفت صفة السابقين المأمور بالنظر
في عقابهم، فوُصِفوا في الأولى بالتكذيب وفي الثانية بالإجرام •

وسر هذا الاختلاف مراعاة السياق غير الموضعين، يقول ابن الزبير :

• لما تقدم آية الأنعام قوله (تعالى) : **قَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ** • (٢) والإشارة إلى
أصناف المكذبين، من المخاطبين وغيرهم، ثم أشير إليهم بعد في قوله (**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا**
مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ • الآية • وكلهم إنما أهلكوا بعرضه وتقاضيه المؤديين إلى تكذيبه، أحمل في
الحديث عن عقابهم إلى صفة التكذيب المسبب عن ذلك • فقيل : **ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ**
الْمُكَذِّبِينَ)، والتم هذا بقوله : (**قَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ**) على أنه مناسبة وأوضحها •

(١) تفسير النار ج ٧ ص ٣٢٢

(٢) الآية / •

وأما آية النمل فنزلة على ما تقدم من قوله (تعالى) : " بَلْ آدَارُكُ عَلَيْهِمْ " في الآخرة بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ يَنْهَاجُونَ (١) وإنكارهم العودة بقولهم : (إذا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا إِنَّا كُنَّا نُخْرَجُونَ) لقد وعدنا هذا نحن وآبائنا من قبل أن هذا إلا أساطير الأولين (٢) ، وذلك بعد ما ذكرنا بسط لهم من واضح الدلالات وقدم لهم من الشواهد البينة من لدن قوله (تعالى) : (أَمْ نَعْلَمُ الْمَسَالِكَ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ خَدَاقَ زَاةً بِهَيْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْهَتُوا شَجَرَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ " (٣) . الآيات إلى ... الآية المتكلم فيها ، فذكروا بما يشاهدونه ويعلمون أن الهتهم لا تفعل ذلك ، فكان صرتهم بعد هذا إيرادا وتعليليا عن الاعتبار بما ذكروا به ، فقبل لهم : سجدوا في الأرض فانظروا عواقب أمثالكم من النعام من النظر ، ولم يقع قبل تفصير صريح وتكذيب ، وقد بسط من الاعتبار في هذه الآية ما لم يسطر قبل آية الأنعام ، فورد التعقيب هنا بوسمهم - أغنى الحال عليهم بالاجترام فقيل : (فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) ضامبا لما تقدم من اجترامهم مع الخروج ، وتلبية التذكير وإراءة البراهين (٤) .

==

- (١) الآية / ٦٦
 (٢) الآيات ٦٧ - ٦٨
 (٣) الآية / ٦٠ ثم الآيات ما بعدها إلى ٦٥ .
 (٤) ملاح التأويل ج ٢ ص ١٨١ - ١٩٠

بين التقدير والتأخير

تحدثت في الفصل السابق عن صور كثيرة من صور الاختلاف بالتقدير والتأخير بين أجزاء الجملة في الآيات المشتهيات . وفي هذا الفصل أتحدث عن صورة أخرى من صور هذا الاختلاف ، وهي صورة الاختلاف بالتقدير والتأخير بين الجمل في الآيات ، لا بين أجزاء الجملة الواحدة .

والتقدير والتأخير بين الجمل على الرغم من شيعته في كثير من الآيات القرآنية ، وبخاصة المشتهيات لم يحظ باهتمام البلاغيين ، فقد وقفوا في دراستهم لهذا الموضوع عند الجملة ، ولم يتجاوزوها إلى الجمل ، موزعين حد يشهم عنها على أحوال السند إليه والسند والمتعلقات ، وقلما يتعرضون في سياق حد يشهم عن هذه الأحوال لبعض الآيات التي تصلح أمثلة للتقدير والتأخير بين الجمل .

ومن أمثلة الاختلاف بينهما في المشتهيات قوله (تعالى) في سورة البقرة :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ يُدْوِ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) وفي سورة آل عمران :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَوْرٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢)

وفي سورة المائدة :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٣)

وفي سورة الفتح :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَوْرًا رَحِيمًا ﴾ (٤)

وفي موضع آخر من سورة المائدة :

” أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) .

حيث تقدمت جملة ” يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ” على جملة ” يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ” في آيات البقرة وآل عمران والفتح والمائدة في الموضع الأول ، وتأخرت عنها في آية المائدة الثانية . وقد انفردت هذه الآية بتقديم الحديث عن العذاب على الحديث عن المغفرة من بين الآيات التي جمعت بينهما في القرآن كله . وسر ذلك أنها سبقت بذكر خبر المحاربين والمارقين وما يُجْزَوْنَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ، وما يُوعَدُونَ بِهِ مِنَ مَغْفِرَتِهِ (سبحانه) ، إن تابوا إليه وأطاعوا ، وذلك في قوله (سبحانه) : ” إِنَّا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِنِهَايَةِ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ” (٢) ، وإلا الذين تابوا من قبل أن تُقَدِّرُوا عَلَيْهِمْ فَاصْلَحُوا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ” (٣) ، وقوله (سبحانه) عن المارقين : ” وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ” فَتَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ” (٤) . فلما جاءت تعقيبا على هذا ، والخطاب فيها للرسول (صلى الله عليه وسلم) أو لكل أحد يصلح له ، ومعناها : أن الأمر كله له (سبحانه) فهو مالك السماوات والأرض ومن فيهن ، يفضي بها شاء على من شاء ، فيعذب من أراد تعذيبه ويغفر لمن أراد أن يغفر له ، لا ينازعه في ذلك منازع ، فقدم فيها الحديث عن العذاب وأخبر الحديث عن المغفرة موافقة للترتيب السابق في الحديث عن المحاربين والمارقين ، حيث تقدم الحديث عن تعذيبهم على الحديث عن الوعد بالمغفرة لمن تاب منهم .

(١) الآية / ٤٠

(٢) الأيتان / ٣٣ - ٣٤

(٣) الأيتان / ٣٨ - ٣٩

ولأن المراد بالتعذيب في سياقها التعذيب الديني ، وهو الجبن فسي الحدود المشار إليها في الآيات السابقة ، والمراد بالمغفرة التجاوز عن حق الله (تعالى) ، وهذا يكون في الآخرة فقدم التعذيب على المغفرة بناءً على الترتيب في الوجوه .

ولأن المقام يغلب عليه الوعيد ، لأن فيه تفصيل أحوال المحاربين والساقيين وجزائهم فنامبه تقديم ما به الصق ، وهو التعذيب الزاجر عن ارتكاب المحظورات . (١) .

وذكر الألوصى وجهاً آخر مفاده : أن المقصود في هذه الآية وصفه (تعالى) بالقدرة ، والقدرة في تعذيب من يشاء أبين وأظهر من القدرة في المغفرة لـه . (٢) .

ويبدو أنه اعتمد في هذا الوجه على ما جاء في خاتمة الآية من قوله (سبحانه) : " وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " . وهذا القول تكرره أيضا - في آية البقرة - وعلى ذلك فلا تختص آية المائدة بهذا الوجه ، ويبعد أن يفتربه تقديم العذاب على المغفرة فيها .

أما تقديم المغفرة على العذاب في الآيات الأخرى فمع كونه جاء على الأصل ، لظاهر الحديث " سبقت رحمتي غضبي " إلا أن تدقيق النظر في سياقاتها يدل على مناسبتها

(١) يراجع في هذه التوجيهات : الكشف ج ١ ص ٦١٢ ، الانصاف فيما تضمنه الكشف

من الاعتزال - على هامش الكشف ج ١ ص ٦١٣ ، أسرار التكرار ص ٤٥ - ٤٦

ملاك التأويل ج ٢ ص ٩٣ - ٩٤ ، كشف المعاني ص ٤٢ ، بصائر ذوي

التبليغ ج ١ ص ١٥٥ روح المعاني ج ٦ ص ١٢٥ عمير النار ج ٦ ص ٣٨٣

(٢) روح المعاني ج ٦ ص ١٢٥ .

لهذه السياقات من جهة أخرى ، فالقصود بما جاء في هذه الآيات التوفيق في المصارعة إلى طلب المغفرة ، والإشارة إلى سعة مغفرته ورحمته (سبحانه) ، ولم يتقدم عليها في مواضعها شيء كما لم تقدم على آية المائدة السابقة ، وإنما سبقت بما يفهم منه قوة الرجاء لمن أحسن وأنا ، كقوله (سبحانه) في آية البقرة قبل هاتين الجملتين : **وَإِنْ تَبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْا بِحَاثِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ** ، والخطاب في الآية للمؤمنين .

وقوله (سبحانه) قبل آية آل عمران : **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ^(١) والحديث فيها عن أنزول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة أحد ، ومعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن يدعو عليهم ، فنزلت منوّهة بأن منهم من سيُعلم وكان الأمر كذلك ، حيث أسلم كثيرون منهم خالد بن الوليد ، وهمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وغيرهم . وجاء في خاتمة الآية - أيضا - دالا على قوة الرجاء في مغفرته (سبحانه) قوله : **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** .

وقوله (سبحانه) في آية المائدة قبل هاتين الجملتين : **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ** ، ففيه تنبيه لأهل الكتاب بأنهم إن أسلموا وأنابوا إلى ربهم رجوا عفوه ومغفرته .

وقوله (سبحانه) قبل آية الفتح : **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أُنْفِيَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ** ^(٢) ، ولم يخرج الكلام إلى غير هذا ، من تعريف النسيء (صلى الله عليه وسلم) بمكانته العالية عند ربه (عز وجل) وما منحته

(١) الآية / ١٢٨ ويراجع في المعنى تفسير القرطبي ص ١٤٤

(٢) الآية / ١٠

من فضل ومن الإخبار بحال المُخْلِفين من الأعراب وما جرى في ظنهم (١). وكل ذلك تثبيت للمؤمنين ، ومُنْبِي بما يُعقبهم الاستجابة لله ولرسوله . ثم أتبع بما جاء في الآية (سبحانه) المالك لكل ، والمتصرف فيهم بما يشاء ، ومعناه في السياق أن فعل المخلفين من الأعراب غير خارج عما أراد ، وقد رُء ، وأن مخالفتهم لا تضره (تعالى) ، وأنها صادرة عن قضائه ، وأن يبدئه (سبحانه) بسوطة بالمغفرة لمن يتوب إليه . ولذا أختتم بقوله : وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . فافتضى الحال هنا كما في آيات البقرة وآل عمران والمائدة تقديم المغفرة على المُنْذَاب (٢).

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سورة يونس :

• وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ • (٣) وفي سورة الفرقان :

• وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ • (٤)

حيث تقدم الحديث عن الضر على الحديث عن النفع في الآية الأولى ، وتأخر عنه في الثانية . وهاتان الآيتان من بين آيات كثيرة في القرآن تضمنت الحديث عنهما بتقديم الضرارة ، وتقديم النفع تارة أخرى ، وبالتعبير عنها بلفظ الفعل كما في هاتين الآيتين بلفظ الاسم كما في آيات أخرى (٥) .

(١) في الآيات / ١١ - ١٣

(٢) يراجع في هذا التوجيه : أسرار التكرار ص ٤٦ ، ملك التأويل ج ٢ ص ٩٤ ، كشف

المعاني ص ٤٢ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٥٥

(٣) الآية / ١٨

(٤) الآية / ٥٥

(٥) الآيات بلفظ الفعل في : يونس / ١٠٦ (وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ) الأنبياء / ٦٦ (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ) ، الأنعام / ٢١ (قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا) ، الحج / ١٢ (يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ) البقرة / ١٠٢ (وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ) ، الشعراء / ٢٣ (أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ) ، بلفظ الاسم في : المائدة / ٢٦ (قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) ، الأعراف / ١٨٨ (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) يونس / ٤٩ (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) البعد / ١٦ (قُلْ أَفَاتَخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) طه / ٨٩ (وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) الفرقان / ٢

وقد تَبَيَّنَتْ كُلُّ الْآيَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا فوجدتها سبع عشرة آية ، تقدم
النفع على الضر - سواءً بلفظ الاسم أو بلفظ الفعل - فسي ثمان منها ، وتقدم الضر
على النفع في تسعة (١) . وعلى ذلك يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير بينهما يكاد
يكون متكافئاً ، حيث لا فرق إلا في موضع واحد تقدم فيه الضر على النفع زيادة على
المواضع الثمانية التي تقدم فيها النفع على الضر .

ولكلٍّ منهما حين يُقَدَّم على الآخر وجهه ، بَقَضَ النظر عما يتطلبه السياق ،
فوجه تقديم الضر على النفع : أن العبادة إنما تُقَام للمعبود (عز وجل) خوفاً من
عقابه - أولاً - وطمعاً ورجاءً في ثوابه - ثانياً - كما يقول (سبحانه) في صفة العابد بين
المخلصين : "يَا عِبَادِي هُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا" (٢) .

ووجه تقديم النفع على الضر : أن اجتلاب النفع أشرف من استدفاع الضر ،
وهو رتبة فوقه ، فمن فاته كمال ذلك طلب دفع الضر .

أما وجه تقدم التقديم منهما بالنظر إلى السياقات الواقعة فيها ، فهذا ما أقف
معه من خلال الآيتين السابقتين ، اللتين جاء الاختلاف فيهما بين جملتين فعليتين ،
اشتتملتا على الضر والنفع ، وتقدمت إحداهما في موضع والأخرى في موضع آخر .

فتقدم الضر على النفع في الأولى جاء مثلاً لما قبله في السياق من قوله (تعالى)
مُخَاطَباً رَسُولَهُ (صلى الله عليه وسلم) بخصوص الرد على الكفار الذين طَلَبُوا مِنْهُ
(صلى الله عليه وسلم) أَنْ يُغَيِّرَ الْقُرْآنَ أَوْ يَرُدَّهُ : "قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي
نَفْسٍ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ بِإِذْنِ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ" (٣) ، كان المعنى :
ويعبدون من دون الله ما لا يخالفون ضراً في معصيته ولا يرجون نفعاً في عبادته .

(١) يمكن أن يُضاف إليها موضع آخر قريب منها ، وهو قوله (تعالى) في سورة الجن / ٢١ (قُلْ
إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(٢) المجيدة : ١٦

(٣) الآية / ١٥

ومشاكلاً - أيضا - لما جاء في قوله (تعالى) : "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَاَنَا لِحَبِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ" (١) حيث
تقدم لقط الضر على ما يفهم منه النفع في قوله "كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ" .

ومشاكلاً - أيضا - لما جاء بعد ذلك في موضع آخر من السورة من قوله
(سبحانه) : " قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَعْمِلُوا لِنَفْسِكُمْ إِنَّهُ كَانَ لَبِيبًا " (٢) .

وتقدم النفع على الضر في الثانية جاء مناسباً - أيضا - للسياق ،
من جهة أن الآيات قبل هذه الآية تتحدث عن نعم الله (عز وجل) التي فيها
منافع للمخلوق ، من قوله : " أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ
جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا " . . . إلى هذه الآية (٣) فناسب الحديث عن هذه المنافع
تقدم الحديث عن النفع فيها .

ومن جهة أن الآيتين السابقتين عليها تقدم فيهما الأفضل والأكثر
نفعاً ، كتقدم الماء العذب وهو الأفضل على الماء المالح وهو دون الأول فضلا ونفعاً ،
في قوله (سبحانه) : " وَهُوَ الَّذِي مَخَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ
بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا " (٤) وتقدم صلة النسب على صلة الصهر ، لأن الأولى أقرب ،
في قوله (سبحانه) : " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا " (٥)
والمعنى في الآية على ضوء هذا التناسب : يتكلفون المشقة بعبادة ما لا يرجونه لنفع
ولا يخشونه لضُرِّ (٦) .

(٢) الآية / ٤٩

(٤) الآية / ٥٣

(١) الآية / ١٢

(٣) الآيات / ٤٥ - ٥٥

(٥) الآية : ٥٤

(٦) يراجع في هذا التوجيه : درة التزويل ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، أسرار التكرار ص ٩٢ ، ملك
التأويل ج ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، كشف المعاني ص ٦٥ ، ٦٦ البرهان في علوم القرآن
ج ١ ص ١٢٢ ، نظم الدرر ج ٤ ص ١٦٢ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٢٢ ، فتح
الرحمن ص ١٢٨

اتحاد أوائل الآيات واختلاف خواتيمها

ومن الفروق في المشتبهات اتحاد الجمل في أوائلها واختلاف جمل الخواتيم . وهو شبيه بما تقدم الحديث عنه تحت عنوان (اختلاف المقطع) (١) ففيهما اختلاف عقب اتحاد ، لكنهما هناك في جملة واحدة تكررت في موضع واحد . أما هنا ففي جمل كاملة مختلفة عقب أخرى متحدة ، تكررت في مواضع متباعدة . وهما هناك في أجزاء من آيات ، وهما في آيات كاملة غالباً .

من الأمثلة على ذلك قوله (تعالى) في سورة النحل :

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٢) وفي سورة إبراهيم
... وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣) .

حيث اتحدت الآيتان في قوله (سبحانه) : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ومعناه : أن نعمه (عز وجل) كثيرة ، لا تستطيعون حصرها ، ولا تطيقون عدّها ، فضلاً عن القيام بحققها من أراء الشكر عليها . واختلفتا بما جاء في الجملتين الخاتمتين ، فصرف المعنى في خاتمة الأولى إلى وصفه (عز وجل) بالمغفرة والرحمة ومعناها في هذا السياق : أنه (سبحانه) يتجاوز عن تقصير العباد في أداء شكر النعمة ، ولا يقطعها عنهم بتعريضهم ، ولا يعاجلهم بالعقوبة على كفرانها . وصرف المعنى في خاتمة الثانية إلى وصف الإنسان بالمبالغة في الظلم والكفر ، أي : يظلم النعمة بإغفال شكرها ، وهو شديد الكفران لها ، أو أنه ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع ، كما قال (سبحانه) في موضع آخر : إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذْ أَمَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا أَمَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٤) .

(٢) الآية / ١٨

(١) ينظر الفصل السابق ص

(٣) الآية / ٣٤

(٤) الآيات / ١٩ - ٢١ من سورة المعارج ، وينظر في معنى الآيتين السابقتين : الكشف

ج ٢ ص ٣٢٩ ، ٤٠٥ ، نظم الدرر ج ٣ ص ٣٣٣ .

وسر هذا الاختلاف أن سياق الأولى في وصف النعم (عز وجل) وإثبات ألوهيته ، وتحقيق صفاته ، وتفصيل نعمه على عباده ، التي عد منها بضعا وعشرين نعمة من لدن قوله : **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** إلى قوله **مُنَبِّهًا** وموقفًا من الغفلة والنسيان بعد هذه الدلائل الواضحة : **أَمْ مَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** (١) ، فناسبه ضرب الوصف في خاتمتها إليه (سبحانه) ليخفق مع أوصافه السابقة في هذا السياق ، ويقتن بنعمه الكثيرة التي لا ينعمها عن الناس ، ولا يحاسبهم على تفصيلهم نحوها (٢) .

ولأن هذه السورة بدأت بالشهي عن استعجال العذاب ، لأن رحمته (عز وجل) أسبق من غضبه ، ومن الرحمة إمهال الناس وامتاعهم بالمنافع ، فالتقدير : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ، ولكن ربه (عز وجل) لا يعاجله بالعقوبة لأنه غفور رحيم (٣) .

أما سياق الثانية ففي وصف الإنسان وما جبل عليه ، يدل على ذلك قوله (سبحانه) : **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** (٤) وقوله : **وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** (٥) وقوله مشيرًا إلى بعض نعمه على هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرًا ، وجعلوا له أندادًا : **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَبِّيبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَأَتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَاءٍ سَائِطَانُ مُّشْرِكُونَ** (٦) .

(١) الآيات ٥-١٢ (٢) يراجع ملاك التأويل ج ٣ ص ٣٢٨ ، البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٨٦

(٣) يراجع نظم الدرر ج ٣ ص ٣٣٣ (٤) الآية ٢٨ (٥) الآية ٣٠

(٦) الآيات ٣٢-٣٤

ولما كان السياق في وصف الإنسان وما جُبل عليه من ركة النعم الكثيرة المتواليه بالصدور والإعراض والتبديل وجعل الأنداد لله ، ناسبه أن تجسّن صفاته الآيه بوصفه المتفق مع هذه الأوصاف له ، وهو البالغه في الظلم والكفر لنعم الله (عز وجل) (١) .

ولأن هذه السورة بُدئت بآيات الناصر في الظلم إلا من أُخرج بإذن به إلى صراط العزيز الحميد ، وأكثر ما جاء فيها بياناً لأحوال الكفرة ، وأن أكثر الخلق هالك ، ممرض عما يأتيه من نعمة الهداية على أيدي الرسل الدعاء إلى من له جميع النعم للحواء الطيبة بسعادة الدارين ، فناسبها هذه الآيات وصف الإنسان بصفاته الداعية لهذا الإعراض ، المتشعبة في هلاكه (٢) .

ويتحصل من الآيتين معاً معنى عام ، بصرف النظر عما يتطلبه السياق في السورتين . كأنه يقول (سبحانه) : إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها ، فصل لك عند أخذها صفان : كونك ظلوماً ، وكونك كفاراً ، ولي عند إعطائها صفان ، وهما : أنى غفور رحيم ، أقابل ظلمك بغفرانى وكفرك برحتى ، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ، ولا أجازى جفاءك إلا بالوفاء* (٣)

(١) يراجع : ملاك التأويل ج ٣ ص ٣٢٨ البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٨ لا يخفى في علوم القرآن ج ٢ ص

(٢) يراجع نظم الدرر ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٣) نسب الزركش والسيوطي هذا المعنى لا بن المنير في تفسيره الكبير ، واسم هذا التفسير كما ذكره محقق كتاب البرهان (البحر الكبير في نخب التفسير) ومنه قطعه تشتمل على الجزء الثالث في دار الكتب المصرية رقم ٦١ تفسير ينظر البرهان ج ١ ص ٨٦ ، الاتفاق ج ٢ ص ١٣١ .

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سورة الفتح :
 ... وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ، وفي موضع

آخر من السورة :

• وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٢) •

حيث اختلفت جملة الفاصلة في الموضعين ، مع اتحاد العابق عليها فبى
 قوله (سبحانه) : وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ والمعنى : أن الله (عز وجل)
 يملك من فى السماوات والأرض من الملائكة والانس ، فإذا أراد تسلطهم على
 الكفار ، لينتقم منهم فعل • وقيل : لله ، أى هم عبيد له • وقيل : لطاعة
 الله جنود السماوات والأرض ، أى خلقوا لذلك ، ومنها استعمالهم فى نصرته دينه •

ومن الاختلاف أن الأولى ختمت بوصف المولى (عز وجل) بصفى العلم
 والحكمة ، لأن المتقدم عليها فى نفس الآية قوله (سبحانه) : هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ
 السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرُدَّ أَدْوَائَهُمْ وَإِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ (٣) ، وهو نوع
 من التعريف بإنعامه (عز وجل) ورحمته بالمؤمنين ، يناسبه الوصف بالعلم
 الذى يدل فى هذا السياق على أنه (سبحانه) عليهم بمن يرحمه ، وبمن
 يستحق الرحمة من خلقه ، كما قال (سبحانه) فى موضع آخر : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ
 إِنَّ يَدَ أَمْرِكُمْ أَزْوَاجٌ بِمَا يَشَاءُ يُعَذِّبُكُمْ (٤) وكما قال : هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥)
 كما يناسبه الوصف بالحكمة التى تدل فى هذا السياق على أن رحمة (سبحانه)
 بالمؤمنين ، لا تخرج عن نطاق حكمته ، وأنه يفعل ما يشاء طبقا لما تقتضيه
 الحكمة •

- | | |
|--|------------------|
| (١) الآية / ٤ | (٢) الآية / ٧ |
| (٣) الآية / ٤ | (٤) الاسراء / ٥٤ |
| (٥) فى سورة مختلفة : الأنعام / ١٧ ، النحل / ١٢٥ ، القصص / ٥٦ ، القلم / ٧ | |

ومن جهة أخرى فإن التعقيب بهذه بين الوصفين الجليلين في الآية -
مناسب لما جاء في فاتحة هذه السورة ، وما تلاه إلى الآية المذكورة ، حيث
التبشير بفتح مكة - بنا على أن المورقبات عند ما رجع النبي (صلى الله عليه وسلم)
من المدينة قبل فتح مكة ، وهو أوضح ما قيل في سبب النزول - وحيث
التبشير والتكريم بأن الله (تبارك وتعالى) قد غفر لرسوله (صلى الله عليه وسلم)
ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبإتمام النعمة عليه في الجنة ، أو بالنبوة والحكمة ،
أو بفتح مكة والطائف وخير . أو بخضوع سن استكبر ، وطاعة من تجبر - من
الشرك من - كما جاء في تفسير الآية - والتبشير بتثبته على الهدى والصراط
الستقيم ، ثم بالنصر المؤزر الذي يتسم بالعزة والمنعة .

وتوضح هذه المناسبة : أن الوصف بالعلم والحكمة يدل في هذا السياق
بالنظر إلى المعاني المتقدمة على أنه (سبحانه) يعلم بكل شيء قبل
أن يوجد ، وأن الحكمة لا تفارق هذا المعلوم ، وأنه (سبحانه) مُشَرِّر
بما لم يُعجله في حينه ، لما تقتضيه الحكمة من تأخير .

ومن جهة ثالثة فإن ختم الآية بهذه بين الوصفين له صلة قديمة
بهوقف المسلمين من قصة هذه السورة ، وسبب نزولها ، حين أبدوا صدهم
في بادئ الأمر لما لم يدخلوا مكة ، ولا قوا من عنيت الكفار ما لا قوا ، إذ يُشير أن
إلى أنه (سبحانه) عليهم بما يترتب على هذا الصدد من الفتح وصلاح الأحوال
حكمهم بما دبَّره للرسول (صلى الله عليه وسلم) من كتاب الصلح بينه وبين
قريش فإنه كان سبب الفتح .

وختمت الآية الثانية بوصف (سبحانه) بالعزة والحكمة لأن المتقدم عليها
قوله (تعالى) : لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سُبْحَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ . وَغَضِبَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَمَا أَتَ مَصْرًا * (١)

وفى هاتين الآيتين المتقدمتين بيان لما أعدّه الله للمؤمنين من النعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار ، وتكثير سيئاتهم ، وما أعدّه للمنافقين والمشركون من تعذيب ، وإخباره بفضبه (سبحانه) عليهم ، ولعنته لهم ، وتوعدهم بجهنم في الآخرة . فالموضع موضع قهر وغلبة ، ولما كرر قوله (تعالى) : **وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ناسبه التعقيب بوصف الله (عز وجل) بصفة العز . التي تدل في هذا السياق على قدرته فيما فعل ، وأنه لا مغالب له ، وأن الكل تحت قهره ، **يَفْعَلُ فِيهِمْ مَا يَشَاءُ** ، وصفة الحكمة التي تدل - أيضا - في هذا السياق على أنه (عز وجل) مع عزته في ملكه ، وقدرته على عاده ، حكيم في أفعاله ، فلا يفعل إلا ما تقتضيه حكيمته ، ومن هذه الأفعال الحكيم إكرام المؤمن ، وتعذيب المنافق .

يُنَظَرُ هَذَا الْمَوْضِعُ قَوْلُهُ (تعالى) في موضع آخر من السورة : **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا مَا جَاءُوكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** (١) حيث خُتِمت الآية بصفتي العزيمة والحكمة ، لأن الموضع - أيضا - موضع قهر وغلبة ، فالحديث عن أهل البيعة والمغانم التي سيظفرون بها من الأعداء بشيئنة وقدرته وقهره (سبحانه) (٢) والمتبوع لميقات الآي التي وردت فيها هاتان الصفتان في القرآن كله يجد أنها جميعا تدور حول الغلبة والقهر ، كما في قوله (تعالى) : **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** (٣) ، **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٤) ، **وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلَمَاءُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٥) ، **لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٦) . . . إلى غير ذلك من الآيات التي لا تتأبى على طالبيها .

- (١) الآية ١٩ (٢) يراجع هذا التوجيه في : درة التنزيل ص ٤٤١-٤٤٢ ، أمرار التكرار ص ١٩٤ ، ملك التأويل ج ٣ ص ٥٧٧-٥٧٨ ، كشف المعاني ص ١٤٤ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٤٣٢ ، وينظر في توضيح معاني الآيات الكتاب ج ٢ ص ٥٤١ ، تفسير القرطبي ص ٦٠٨٣ ، وينظر أسباب النزول ص ٣٥٥ ، ص ٣٥٦ (٣) آل عمران / ١٢٦ (٤) الأنفال / ١٠ (٥) التوبة / ٤٠ (٦) الأنفال / ٦٣

ومن الأمثلة قوله (تعالى) في سورة النساء :
 " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ
 بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا " (١) ، وفي وضع آخر من السورة :
 " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ
 بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا " (٢) .

حيث اختلفت خاتمة الايتين ، مع اتحاد المتقدم ، وذلك راجع إلى
 اختلاف السياق في الموضعين ، وإن كانت الايتان في سورة واحدة ، وتحدثان عن
 فكرة واحدة ، فالآية الأولى ، وقعت في سياق الحديث عن أهل الكتاب وذكر
 اعتدائهم ، واقتراءاتهم على الله بتحويل ما فيه دلالة على صحة نبوة سيدنا محمد
 (صلى الله عليه وسلم) - مما أوتوه من الكتاب - وإذاعة ما يدعو إلى ترك
 الإيمان به ، من لدن قوله (تعالى) قبلها : " لَمْ تَرَأِ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا
 نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَمُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ " (٣) ، إلى الآية
 المذكورة ، وما بعدها (٤) . . . فلما وقعت الآية في هذا السياق ، وفيها تلويح
 بعظيم ما ارتكبوه ، وهو الشرك بالله (عز وجل) الذي لا يغفر أبداً ،
 ناسب وصف من أشرك في خاتمتها بالافتراء ، الذي هو أخص صفات من كذب من أهل
 الكتاب . ولأنه الطريق إلى شركهم لأنهم افتروا على الله ما ليس في كتابهم ، بتحويل
 الكلم عن مواضعه . ولذا جاء بعدها قوله (تعالى) في سياق الحديث عنهم : " أَلَمْ
 تَرِ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكُونَ مِّنْ يَّشَاءُ وَلَا يَطْلُمُونَ قِتِيلًا * انظُرْ كَيْفَ
 يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا " (٥) . ووصفهم بالشرك منظور فيه إلى قبول
 اليهود : عزير بن الله ، وقول النصارى : المسيح بن الله ، كما حكى القرآن عنهم على
 موضع آخر (٦) .

- (٢) الآية / ١١٦
 (٤) الآيات / ٤٤ - ٥٥
 (٦) التوبة / ٣٠

- (١) الآية / ٤٨
 (٣) الآية / ٤٤
 (٥) الايتان / ٤٨ - ٤٩

أما الآية الثانية ففي سبيل الحق عن مُركبي العرب بدلول قوله
 (تعالى) قبلها : **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غُيُورَ**
سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۚ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١) ۝ وعن الذي من
 آمنوا بأنفواهم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم المناقشون الذين تظاهروا بالإسلام ،
 وتضحهم أفعالهم التي لا تنطبق مع الظاهر ، كطعمه بن أبيرق الذي نزلت
 في شأنه آيات عديدة قيل هذه الآية من لدن قوله (تعالى) مخاطباً
 رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) : **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ**
بَيْنَ النَّاسِ يَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (٢) ۝ إلى الآية المذكورة (٣) . وكان
 طعمه مرق دُرْعاً من جارية له ، وكانت الدرع في جراب به دقيق ، فجمع
 ينتشر من خرق فيه حتى انتهى طعمه إلى الدار ، ثم خبأها عند رجل يهودي
 والتجست الدرع عنده فحلف ما أخذهما ، وما له بها علم ، فلما تتبع الباحثون عنها
 انبر الدقيق انتهوا إلى دار اليهودي فآخذوه ، فقال لهم : إن طعمه دفعها
 إليه ، وشهد له أناس من اليهود ، فانطلق قسم طعمه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
 وطلبوا منه أن يُجادل عن صاحبهم حتى لا يفتضح أمره ، فهم رسول الله
 (صلى الله عليه وسلم) بأن يفعل ، وكان هواه معهم ، وأن يعاقب اليهودي
 فنزلت هذه الآيات (٤) .

-
- (١) الآية / ١١٥
 (٢) الآية / ١٠٥
 (٣) الآيات / ١٠٦ - ١١٤
 (٤) ينظر أماني النزول للواحد ص ١٢٠ ، وتفسير الكشاف ج ١ ص ٥٦١ ،
 وهو أشهر ما قيل في سبب نزول الآيات . وهناك أقوال أخرى تراجع
 في : تفسير القرطبي ص ١١٤٥ ، تفسير المنار ج ٥ ص ٤١٨ - ٤٢٠

والمشركون ، والمنافقون ، لم يتعلقوا بما يهديهم ، وليس لهم كتاب آخر غير ما جاء به الإسلام . يمكن أن يرجعوا إليه فيما يتشككون ، ولذا لما تكبر قوله (تعالى) : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ " . الآية ، ناسب وصف المشركين فيها بالضلال البعيد ، لأنهم بهذا المسلك البغيض قد بغدوا عن الرشاد ، وظلوا . أَتَمَّ الضلال . وهذا الوصف الصق بهم هنا لانهم ضلوا مع وضوح الحجة وسطوع البرهان ، فكان ضلالهم بعيداً . ولقوله (تعالى) في الحديث عنهم قبل : " وَمَا يُخْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ " . ولذا جاء تعقياً على هذه الآية قوله (سبحانه) : في الحديث عنهم : " إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِنَّا وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ " . أي وما يعبدون من دون الله ، وما ينسبون لقضاء حوائجهم إلا أصناماً كاللات والعزى ، والاشيطاناً مريداً ، أي خبيثاً من الجن والإنس .

كما أن الوصف بالافتراء الصق بأهل الكتاب هناك ، لما حكاه القرآن عنهم من افتراءات . وبهذا تلتقى كل خاتمة بسياقها على أسم وجه من المناسبة (٢) .

وعن سر تكرار هذه الآية في الموضع الثاني بعد تقدم ذكرها في سياق الحديث عن أهل الكتاب يذكر الاسكافي ما خلاصه : أن هذا التكرار يدل على أن المتقدمين وإن كانوا من أهل الكتاب إلا أنهم في ملكهم ، وجرائهم كهؤلاء المشركين في عهد الرمول (صلى الله عليه وسلم) الذين لا كتاب لهم ، فكفر هؤلاء الكتابيين ككفر هؤلاء المشركين ، وسبيلهم كسبيلهم . ولما ذكرت هذه الآية مع المتقدمين بما فيها من الدلالة على عظم الكفر ، وهو الشرك أعيد ذكرها هنا بهذا المعنى توسعاً لمنف آخر من الكفار .

(١) الآية / ١١٧

(٢) يراجع هذا التوجيه في : درة التنزيل ص ٨٠ ، أسرار التكرار ص ٥٥ ، ملك التأويل ج ٢ ص ١٣٦ ، كشف المعاني ص ٤٧ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٧٤ ، البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٨٧ ، الإيقان ج ٢ ص ١٢١ ، روح المعاني ج ٥ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

لم يدخلوا في جملة من تقدم ذكرهم ، ليُعلم أنهم وإن خالفوهم
دينًا ، فقد وافقوههم كفرًا (١) .

واقصر الزمخشري على أن هذا التكرار جئ به لتوكيد المعنى (٢) .

وينقل صاحب تفسير المنار عن أستاذ الإمام في هذا قوله : * والآيات
التي قبل هذه الآية تفيد أن السياق هنا كما لسياق هناك فأعادها لذلك
القصده ، وهو بيان أن مشاققة الرسول ومخالفته إنما تكون بالخروج عن التوحيد
والتوحيدي في الشرك ، لأن التوحيد روح الدين وقوامه ، فالمناسبة هنا تقتضي أن
يماد هذا المعنى ، وهي إعادة تنادي البلاغة بطلبها ، ولا تُعد من التكرار الذي
قالوا : إنه يناقض البلاغة ، فإن هذا إنما يتحقق إذا كان المخاطبون قد فهموا
منك معنى تمام الفهم ، كما تريد ، ثم ذكرته لهم بعبارة لا تزيدهم فائدة ولا تأثيرًا
جديدًا ، ولا تمكننا للمعنى . وأما ما يفيد شيئًا من هذا الذي ذكرناه
فهو الذي تقتضيه البلاغة (٣) .

ثم يعلق على هذا الكلام برأى آخر في هذا التكرار ، خلاصته
أنه من قبيل ذكر الشاعر لمعنى من المعاني في قصيدتين ، يمدح
في كل واحدة منهما رجلاً غير الذي يمدحه في الأخرى ، ثم يقول :
* وعلى هذا لا يتجه قول جمهور المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم :
إن هذا التكرار للتأكيد . والتأكيد تكاثرهم في تعويل كل تكرار . وإنما
نقول هذا على تقدير كون التكرار المحض متقدماً ومُخلاً بالبلاغة . وقد علمت أنه
ليس كذلك بل هو ركن البلاغة الركين ، الذي لا يبلغ المتكلم مراده من التفسير دون (٤) .
ولا مانع مع الأخذ بكل هذه الآراء في توضيح مغزى التكرار لهذه الآية ، مع ملاحظة أنها في كل
موضع جاءت مناسبة لسياقها .

(١) درة التنزيل ص ٧٩ — ٨٠ (٢) الكشف ج ١ ص ٦٤٤

(٣) تفسير المنار ج ٥ ص ٤١٨ (٤) السابق ج ٥ ص ٤٢٠ .

اتحاد خواتم الآيات واختلاف أوائلها

تكثر في خواتم الآيات الجمل المشتقة على صفات الله (عز وجل) ، كما تكثر الجمل المتضمنة الدعوة إلى التذكير والتعقل والتفكير والتقوى والشكر . . الخ ما سبق الحديث عنه في القسم الأول (١) .

والمتتبع لمواقع هذه الجمل في القرآن من ناحية ارتباطها بما قبلها، وتكرارها في سياقات متعددة ، وتكرار بعضها بفرق في الصياغة يجد كثيرا من لطائف القرآن وأسراره .

وهو باب جليل من أبواب اندراسات البلاغة القرآنية ، لم يأخذ حقه من الدراسات المتقضية ، ليت الباحثين يلجونه !!

وأقف هنا مع ظاهرة من ظواهر النظم في هذه الجمل ، أدت إلى هذا الفرق في المشتبهات ، وهي تكرار الجملة الواحدة في مواضع كثيرة من القرآن ، حيث يترتب على ذلك اتفاق مجموعة من الآيات في خاتمة واحدة ، والحديث فيها قسبيلا هذه الخاتمة مختلف (٢) .

وما من شك في أن وراء هذا الاتفاق غرضا مشتركا بين هذه الآيات وإن اختلفت أوائلها وتباعدت مواقعها ، وهو ما يظهر بالتأمل الدقيق في سياقات هذه الآيات .

فالجمل الداعية إلى التعقل مثل قوله (تعالى) : " أفلا تعقلون " يلاحظ وقوعها في سياق إنكار فعل غير مناسب في العقل .

(١) . راجع ص ٩٧ من هذا البحث .

(٢) هذا الفرق عكس الفرق السابق .

قوله (تعالى) في الحديث مع اليهود : " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِإِيمَانٍ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (١) لأن الذي يأمر الناس بالإيمان ولا يفعله ليس بمعاقل ، وهذا المسلك لا يجيزه عقل سوى (٢) .

وقوله (تعالى) في الحديث عنهم أوعن المنافقين : " وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضِهمْ إِلَى بَعْضِهِمْ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (٣) " لأن من دلّ عدوه على عورة نفسه ، واعطاه سلاحه ليقتله به فهو جد يرئأ أن يكون مقلب العقول " (٤) .

وقوله (تعالى) مخاطبا رسوله (صلى الله عليه وسلم) بخصوص المشركين الذين طلبوا منه ما لا يجيزه عقل صحيح ، وهو الإتيان بغير القرآن أو تدينه : " قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّ لَهُ مِنْ تَلَقَّأْسِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِمَّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (٥) لأن مخالفة الدليل الواضح البين وهو القرآن الذي عجزوا عن الإتيان بمثله ، وذكروا إليه ما ينكره كل عقل سليم ، دليل على خبل العقل . وإنكاره إنكار لما تقتضيه العقول السليمة .

وكذلك قوله (سبحانه) حكاية عن سيدنا نوح (عليه السلام) : " يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (٦) .

وحكاية عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) : " قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (٧) .

(١) البقرة / ٤٤ (٢) راجع في هذه المناسبة البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٨٤

(٣) البقرة / ٧٦ ، ويراجع تفسير القرطبي ص ٣٩٨ ، تفسير ابن كثير ج ١ ص ١١٥

(٤) راجع البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٨٣ (٥) يونس / ١٥ - ١٦

(٦) هود / ٥١ (٧) الأنبياء / ٦٦ - ٦٧

وفي سياق الحديث عن البعث موضحاً المشركين بدليله : **وَهُوَ الَّذِي يَخْيِي وَيُيْمِتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١)** . والمناسبة واضحة في ختم هذه الآيات بالدعوة إلى التعقل .

* * *

والجمل التي فيها الدعوة إلى الشكر ، مثل قوله (تعالى) : **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** . أو **لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** . أو **أَفَلَا يَشْكُرُونَ** . يلاحظ وقوعها في سياق امتنان الحق (تبارك وتعالى) ببعض النعم على خلقه ، وتذكيرهم بما يجب عليهم نحوها .

لقوله (تعالى) عقب الحديث عن الرخص والتيسيرات في فريضة الصوم : **... مَا يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢)**

وعقب الحديث عن الرخص والتيسيرات في فريضة الصلاة : **... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣)** .

وقوله (تعالى) في التذكير بنصره للمؤمنين يوم بدر : **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤)** .

وفي الحديث عن نعمة على الخلق : **وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِجَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥)**

(٢) البقرة / ١٨٥

(٤) آل عمران / ١٢٣

(١) المؤمنون / ٨٠

(٣) المائدة / ٦

(٥) النحل / ١٤

• وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَدَ لَكُمْ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١) ، وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا
مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ مَوجِرَاتٍ فِيهَا مِنْ
الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَولَا يَشْكُرُونَ (٢) ، * أَوْ لَمْ يَسْئَلُوا
أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِيَنَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا
رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا سَنَاقِعٌ وَمَشَارِبٌ أَولَا يَشْكُرُونَ (٣) •

* * *

والجمل التي فيها دعوة إلى السمع مثل قوله (تعالى) : * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * أو * أَولَا تَسْمَعُونَ * - والمراد سماع العظة والتدبر الهادي إلى
الإيمان واليقين - يلاحظ وقوعها في آيات تتحدث عن النوم ، أو عن ظروفه الطبيعية
وهو الليل ، أو شيء له صلة بهما •

كما في قوله (تعالى) في سورة النجم : * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ
مِنْ قَضَائِهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * (٤)

وقوله في سورة يونس : * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * (٥)

وفي سورة القصص : * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ مَرَدًّا إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَّا تَسْمَعُونَ * (٦)

(٢) بين / ٣٣ - ٣٥

(٤) الآية / ٢٣

(٦) الآية / ٧١

(١) النحل / ٧٨

(٣) بين / ٧١ - ٧٣

(٥) الآية / ٦٢

وفي سورة النحل : " وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَرَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ " (١)

وفي سورة السجدة : " أَوَلَمْ يَسْأَلْهُمْ كَيْفَ أَخْلَقْنَا قَوْمَهُمْ مِنَ الْقُنُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَمَّا لَا يَسْمَعُونَ " (٢)

ففي الآية الأولى حديث عن النَّوْم ، وهو نعمة كبرى من نعم الله (عز وجل) على الإنسان وسائر الحيوان . وفي الآية الثالثة حديث عن الليل ، وهو محل النوم ، ولعل اختيار الفاصلة فيها بما فيه دعوة إلى السمع لما بين السمع والنوم من علاقة تدل على عجائب قدرته (عز وجل) ، إذ السمع هو وسيلة الاستدعاء الوحيدة من بين حواس الإنسان حينما يكون المرء نائماً ، فكل الحواس عند النوم تكون معطلة ما عدا هذه الحاسة .

ولا يؤثر على هذه المناسبة الخفية ما ورد في آيتي يونس والروم من الحديث فيها عن النهار — أيضاً — بجانب الحديث عن الليل ، لأن الخاتمة رُوي فيها أدل الأمرين على القدرة ، وهو الليل وما فيه من نوم .

أما الايتان الرابعة والخامسة فالمناسبة فيها خفية ، فالآية النحل مع أن الحديث فيها لا يمت للنوم ولا لطرفة بصلة إلا أنها وردت في سياق الرد على منكري البعث ، وهو الأمر الذي اختلف فيه المشركون ، كما أشارت الآية السابقة عليها " وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (٣) ، فكان ختمها بهذه الفاصلة يشير إلى أن هؤلاء المنكرين للبعث كالنوم ، في حاجة إلى التوقف ليقفوا على حقيقة ما لا يستحق أن ينكر لوضوح الأدلة عليه ، وأبينها هذا الماء النازل من السماء حينما يختلط بالأرض ، فتحيا به بعد موتها .

(١) الآية / ٦٥

(٢) الآية / ٢٦

(٣) الآية ٦٤ ، وينظر في المعنى الكشاف ج ٢ ص ٤١٦ .

كما تُشير إلى أنه إذا كان السمع ينقل الإنسان من النوم إلى اليقظة ، فإن سماع العظة والتدبر ينقل الإنسان من حالة الإنكار إلى حالة الإيمان القسوى .

والأمرك ذلك في آية السجدة ، فالحديث فيها عن أخبار القرون الأولى وآثار السابقين التي لم يعتبر بها مشركو قريش . وكأن ختمها بهذه الفاصلة - أيضا - يُشير إلى أن من يسمع هذه الأخبار ، ويرى آثارها ماثلة في حياته ، ثم لا يعتبر بها ولا يهتدى فهو كالنائم الذي يحتاج إلى توقظ حتى يقف على حقائق الأشياء .

الحديث عن النوم - إذا - أوعن طرفه ، أو بناه المعنى عليه من جهة ما هو الخيط الجامع لهذه الآيات التي انتهت بجمل تحمل مضمونا واحدا ، على الرغم من تباعد ها ، ووقوعها في سور مختلفة .

ولا يتعارض هذا مع مجئ الخواتيم في هذه الآيات - على ما جاءت عليه - لوجوه أخرى من المناسبات ، بالنظر إلى كل منها في سياقها .

فالخاتمة في آية الروم لما كان الحديث قبلها عن الليل والنهار ، وهما من مظاهر رحمته (عز وجل) بالخلائق ، وقد نصَّ على ذلك في عدة آيات كقوله (سبحانه) : " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنۡ يَّحۡسُبُونَ ۚ آيَةُ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا النُّجُومَ قَنَاطِرَ مَّوْجٍ ۖ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۚ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١) " ، " اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ۚ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (٢) " ، " وَإِنۡ يۡرَىٰ ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوۡمٍ يَّسۡمَعُونَ ۚ (٣) " ، " وَمِنۡ رَّحِمَتِي جَعَلُ لَّكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنۡ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمۡ تَشْكُرُونَ (٤) " أي لتسكنوا في الليل

ولتبتغوا من فضله بالتهاجر (١) .

والخاتمة في آية يونس تشاكل ما جاء في السياق قبلها من قوله (تعالى) في الحديث عن المشركين : " وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَمَّا أَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ " (٢) فالصلة قائمة بين حكاية استماعهم في هذه الآية ، الذي لم يُجَد عليهم بشئ ، وبين السماع الذي يُطالبون به في الخاتمة ، وهو سماع العظة والتدبير (٣) .

والخاتمة في آية القصص تناسب ما قبلها - أيضا - من جهة أن الذي يصلح لليل إذا صار الزمن كله ليلاً في تقدير الله (تعالى) هو الاستماع ، ولذا قيل : " أَوَلَا تَسْمَعُونَ " ، كما خُتِمت الآية المجاورة لها بقوله : " أَوَلَا تُحْصِرُونَ " (٤) مراعاة لما يصير إليه النهار في تقدير الله ، إذ يصير الزمن كله نهاراً ، والمناسب للنهار هو الإبصار ، وآية النهار مُصَوِّرة (٥) .

والخاتمة في آية النحل اختصت بها آيتها دون ما جاورها من آيات كثيرة تتحدث عن نعم الله (عز وجل) مثلها ، لأنها وردت في موضعها توبيخاً لمن أنكر البعث واحتبَّعد الحياة الثانية " كأنه قيل له : إن ذلك قبل التدبير مقدر في أول العقل ، حتى إن من يسمعه يعترف به ، وهو أن الأرض الميتة يسقيها الله بماء السماء ، فتعود حيوياً بنباتها ، فكذلك لا يستنكر أن يحيى الخليفة بعد موته - " (٦) .

- (١) يراجع في الحديث عن هذه المناسبة : درة للتنزيل ص ٣٧٠ ، وأسرار التكرار ص ١٦٨ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٥٢٠ .
 (٢) الآية ٤٢ (٣) يراجع أسرار التكرار ص ١٠٤ بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٣٦٨ .
 (٤) الآية ٧٢ (٥) يراجع في هذه المناسبة : درة التنزيل ص ٣٤٦ ، الكشاف ج ٣ ص ١٨٩ ، البهرمان في علوم القرآن ج ١ ص ٨٢ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٣٥٢ .
 (٦) فكرة التنزيل ص ٢٦٢ .

ولا يخفى أن البعث من السمعيات ، وهذا وجه آخر لمناسبة ختم الآية بالدعوة إلى الاعتبار بطريق السمع .

والخاتمة في آية السجدة مناسبة - أيضا - لما قبلها من جهة أن الموعظة السوقية قبلها في الآية ما يؤخذ بطريق السماع ، وهي الاعتبار بأخبار القرون الأولى ، ولذا قال (سبحانه) في أول الآية : " أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ " لأن هذا هو السبب لما يؤخذ بالسماع ، بخلاف ما جاء في الآية المجاورة لها من قوله (تعالى) : " أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ الْمَاءِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنَخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ لَا تَعْلَمُونَ " (١) ، فقد ختمت بالدعوة إلى الإيثار ، لأن الموعظة السوقية فيها ما يشاهد ويرى ، ولذا افتتحت بقوله (تعالى) : " أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ الْمَاءِ " (٢)

* * *

والجمل التي فيها حديث عن صفتي العزة والحكمة لله (عز وجل) ، مثل قوله (تعالى) : " وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (٣) ، أو " إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا " ، أو غير ذلك ، يلاحظ وقوعها في مواضع القهر والغلبة والافتقار ، كما رأينا في بعض أمثلة الفري السابق (٤) ، وكما في قوله (تعالى) : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا " (٥) ، وقوله : " وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (٦) ، وقوله : " وَهُوَ الَّذِي يَنْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (٧)

(١) الآية ٢٧ / (٢) يراجع في هذه المناسبة : أبرهان في علوم القرآن ج ١

ص ٨٠ الاتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٢٩

(٣) في آيات كثيرة ، وكذا الجمل الأخرى

(٤) راجع ص

(٥) النساء / ٥٦

(٦) الجاثية / ٣٧

(٧) الروم / ١٧

وقوله (تعالى) : " فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (١) ، ويرى بمناسبة هذه الآية — وفيه دلالة على مناسبة الفاصلة — أن أعرابيا سمع قارئاً يتلوها بخاتمة أخرى ، فيقول : فإن زللتم ممن بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم ، ولم يكن بقوا القرآن ، فقال : " إِنْ كَانَ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ فَلَا يَقُولُ كَذَا ، الْحَكِيمُ لَا يَذْكُرُ الْغُفْرَانَ عِنْدَ الزَّلَلِ لِأَنَّهُ إِغْوَاءٌ عَلَيْهِ " (٢) ، وقوله (تعالى) " حِكَايَةٌ عَنْ عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَام) : " إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (٣) ، والمناسبة في هذا الموضع خفية ، كما تظفر في مواضع أخرى . (٤)

يقول الزركشي : " فَإِنْ قَوْلُهُ (وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ) يُوْهِمُ أَنَّ الْفَاصِلَةَ (الْغُفْرَانُ — الرَّحِيمُ) وَكَذَا نَقَلْتُ عَنْ مَصْحُفِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، وَبِهَا قَرَأَ ابْنُ شَنِبُودَ ، وَلَكِنْ إِذَا أَنْعَمَ النَّظَرُ عَلِيمٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَا عَلَيْهِ التَّلَاوُفُ ، لِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ إِلَّا مَنْ لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ حُكْمَهُ ، فَهُوَ الْعَزِيزُ ، لِأَنَّ الْعَزِيزَ فِي صِفَاتِ اللَّهِ هُوَ الْغَالِبُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : عَزَّهُ يَعِزُّهُ عِزًّا إِذَا غَلِبَهُ . وَوَجِبَ أَنْ يُوَصَّفَ بِالْحَكِيمِ — أَيْضًا — لِأَنَّ الْحَكِيمَ مَنْ يَضَعُ الشَّيْءَ فِي مَحَلِّهِ ، وَاللَّهُ (تَعَالَى) كَذَلِكَ . إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَخْفَى وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي بَعْضِ أَعْمَالِهِ ، فَيَتَوَهَّمُ الضَّعْفُ ، أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْحِكْمَةِ ، فَكَانَ فِي الْوَصْفِ بِالْحَكِيمِ احْتِرَاسٌ حَسَنٌ ، أَيْ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ مَعَ اسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ فَلَا مَعْتَرِضَ عَلَيْكَ لِأَحَدٍ فِي ذَلِكَ ، وَالْحِكْمَةُ فِيمَا فَعَلْتَهُ " (٥)

ويقول ابن الزبير : " الْآيَةُ كَهَيْئَةِ عَلَى التَّسْلِيمِ لِلَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) وَأَنَّهُ الْعَالِمُ لِلْكَلِّ ، يَفْعَلُ فِيهِمْ مَا شَاءَ ، فَلَوْ وَرَدَ هُنَا وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ لَكَانَ تَعْرِيفًا بِطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ وَلَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ . وَإِنَّمَا قِيلَ عَلَى لِسَانِ عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَام) تَهْنِئَةً وَتَعْلِيمًا لِلَّهِ (مَبْحَاهُ) وَلَيْسَ مَوْضِعُ طَلَبِ مَغْفِرَةٍ لَهُمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَقْصُّلٌ مِنْ حَالِهِمْ وَتَسْلِيمٌ لِلَّهِ فِيهِمْ " (٦)

(١) البقرة ٢٠٩ / ٣
(٢) انظر أمثلة على ذلك في البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٣٨٩
(٣) المائدة ١١٨
(٤) ينظر الاتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٢٩
(٥) السابق ص ٨٩
(٦) ملاك التأويل ج ٢ ص ١٨١

ويقول القرطبي : " ولو قال : فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه ، وذلك مستحيل ، فالتقدير : إن تُبْقِهِمْ على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تهديهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريد ، الحكيم فيما تفعله ، تفضل من تشاء وتهدي من تشاء " (١) .

وينقل عن أبي بكر الأنباري في هذا ما خلاصة : لو قيل : فإنك أنت الغفور الرحيم ، لكان مُشاكلاً للشرط الثاني فقط ، ولا يكون له تعلق بالشرط الأول . وأما " فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " فإنها تشاكل الشرطين ، إذ تلخصه إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم في الأمرين كليهما . من التعذيب والغفران ، فكان العزيز الحكيم الحق بهذا المكان لعمومه فإنه يجمع الشرطين . ولم يصلح الغفور الرحيم ، إذ لم يحتل من العموم مكانا احتله العزيز الحكيم ، وما شهد بتعظيم الله (تعالى) وعد له والثناء عليه فسر الآية كلها . (٢)

وقد وردت هذه الآية في كتب البلاغة مثلاً لما خفيت فيه المناسبة - تشابه الأطراف ، المندرج تحت مراعاة النظم ، في علم البديع (٣) - ووجه المعنى فيها بما سبق عند الزركشي .

وبذلك تتأكد المناسبة - من خلال هذه الأمثلة - بين هاتين الصفتين حيثما وقعتا وبين ما يلاحظ في مواقعهما من معاني القدرة والاستيلاء والقهر والغلبة المشوبة بحكمته (سبحانه) فيما يفعل . وسبق الحديث في موضع آخر عن سرائر اقترانها ، وتقدير الأولى منهما دائماً على الثانية . (٤)

ودراسة المناسبات بين هذه الجمل وما قبلها من جهة ، وبين الآيات المشتملة عليها بعضها مع بعض من جهة أخرى باب واسع - كما أشرت سابقاً - يحتاج إلى بحوث كثيرة ، ودراسة مستفيضة ، ليست هذه الأمثلة هنا وفي بعض المواضع السابقة إلا نماذج منها .

(٢) تفسير القرطبي ص ٢٣٧٥

(١) تفسير القرطبي ص ٢٣٧٥

(٣) انظر على سبيل المثال : المطول ص ٤٢٠ ، بغية الايضاح ج ٤ ص ١٨١ -

بين الزيادة والنقصان

ومن الفروق في المشتبهات زيادة جملة في آية عن الآية المشتبهة بها في موضع آخر . وهذا الفرق ملاحظ فيه النظر إلى ظاهر الآيتين - المشتبهتين فقط ، أما الأصل فلا زيادة في الأولى ولا نقصان في الثانية بالنظر إلى السياق في الموضعين وأمثله قليل بالنظر إلى أمثلة الفروق السابقة في هذا الفصل .

منها قوله (تعالى) في سورة التغابن :

... وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا لَبَدًا لَئِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١) وفي سورة الطلاق :

... وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا لَبَدًا لَئِكَ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (٢) .

حيث اختصت الآية الأولى بجملة " يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ " ، زيادة عن الثانية ، مع أن هذه الجملة ، وما تلاها من جمل في الآية وما يقابل هذه الجمل في الآية الثانية ، في سياق الجزاء على شرط واحد في الآيتين ، وهو الوارد في قوله (تعالى) " وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا " .

وسر هذا الاختلاف مناسبة السياق في الموضعين ، من جهة أن الأولى سبقت بالحدِيث عن مرتكبات وسيئات كثيرة للكفار كإنكارهم الهداية من البشر ، أخذاً من قوله (سبحانه) عن الكفار في الأمم السابقة ، " فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا فَكْفُرُوا تَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٣) " ، وإنكارهم البعث ، أخذاً من قوله (سبحانه) عن الكفار المعاصرين للرسول (صلى الله عليه وسلم) : " زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْطُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعْطُنَّ ثُمَّ لَتُنْبَأُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٤) " .

فاقتضى ذلك أن يأتى الجزاء بما فيه الوعد بمحو هذه السيئات ،
فذكرت هذه الجملة في جزاء من يؤمن منهم ويعمل صالحا .

أما الثانية فلم تُسبق بخبر عن كفار سيئات ، فيوعدوا بتكفيرها إذا
أتلمعوا عنها وتابوا منها وعملوا الصالحات مكانها ، فتناسبها عدم ذكر
الجملة ، فرقا بين السابقين (١) .

ومن جهة أن السياق في الأولى يشعر بأن المؤمنين الواعدين فيها ليس من
شروطهم استغفار أعمال الطاعات ، مما يجعل كل مؤمن غيرهم حين يسمع
قوله (تعالى) في سياق الحديث عنهم " لَتَنبُوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ " مشفقا عن قصيره خائفا
من سيئاته ، متطلما إلى معرفة النهاية من الأعمال ، فجاء الجواب في الآية
على هذا التفصيل المطنن ، بتكفير السيئات ثم بدخول الجنة والخلود فيها .

أما سياق الثانية ففيه إشارة إلى النمط الأعلى من المؤمنين ~~المؤمنين~~
أعمال الطاعات ، فلما جاء الحديث فيها عن لم يبلغ حالهم من المؤمنين ،
رُوعى في الجزاء على إيمانهم عدم ذكر ما يشعر بعصيانهم لوقوعهم في صفة
ذوى الفضل والإحسان . . . هم القوم لا يشقى عليهم

يفصل ابن الزبير هذه الجهة فيقول : " لما تقدم قوله (تعالى) في
سورة التغابن ، مخبرا عن المكذبين (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُعْمَلُوا) ، وقوله
على لسان نبيه (عليه السلام) : (قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعْمَلَنَّ ثُمَّ لَتَنبُوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ " ثم
قال (تعالى) : (فَأَنبِئُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُمَّا تَعْمَلُونَ حَبِيرًا) .

(١) يراجع : درة التفسير ص ٤٨٨ ، أصرار التكرار ص ٢٠٥ ، بصائر ذوى التمييز

وتبين أنه (تعالى) لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء
من أعمال المكلفين ، وأن النبأ به كل أعمالهم من غير فوات شيء ثم ذكر (تعالى)
جمعهم ليوم الجمع ، ثم أنشأ المؤمنين فقال : (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا)
وفي قوله (وَيَعْمَلْ صَالِحًا) إشارة إلى أن المؤمن الموعود ين هنا ليس ممن
شروطهم استيفاء أعمال الطاعات ، إذ يحز التنكير في قوله ويعمل صالحا، ويشعر
بهذا المعنى ، وما لم تكن العصمة فالتقصير حاصل ، ولا انفكاك عن مجترحات ،
وقد سمع المؤمن (لَتَنْبَهُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ) فأشقى عن تقصيرة وهناه ، وتوقع
مخوف سيئاته ، وتشوف إلى تعرفه غصيل الحال في النبأ به من الأعمال ، ليعلم
المآل ، فجوب على الكمال بكيفية ما به يقابل أعماله ، فقيل : (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْذِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) إذ لا بد من محتاج إلى تكفيره
إذا كانت الملازمة وسبقت السعادة . ثم قال : (وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ) ، فهذا وجه زيادة قوله (تعالى) : (وَيُكَفِّرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) في هذه
الآية . ويشهد لهذا الفهم قوله (تعالى) : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ) (١) . . . إلى غيرها من الآيات .

وأما آية الطلاق ، فلا داعي فيها لزيادة قوله (وَيُكَفِّرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) بسبب
سياقها يستدعي ألا يكون ذلك فيها ، لأن قبلها (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)
والأمر بالتقوى يعم ولا يخص ، ثم قال (تعالى) : (قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ
ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ،
فأشار إلى النمط الأعلى من المؤمنين المستوفين أعمال الطاعات ، أشار إلى
ذلك لفظ (الصَّالِحَاتِ) بالالف واللام ،

ثم قال لا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ أى من الظلمات كلها إلى النور
التام . وهذه حال المؤمنين المخلصين المحسنين من المستجبين . ثم
تدارك (تعالى) من لم يبلغ حال هؤلاء من المؤمنين ، ولحق بهم نفس
النجاة ، فقال : وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، فناسب حال المتقدمين من ذوى الاحسان ألا يقع إفصاح
يشعر بعصيان ، هم القوم لا يشقى جليسهم ، فوقع الاكتفاء بإيما قوله
(وَيَعْمَلْ صَالِحًا) وقوله (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ) وقوله (قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا) فجاء
كل من الآيتين على ما يليئم وبناسبه . ولم يكن ليلائم ورود العكس (١)

ويمكن إضافة جهة ثالثة ، وهى أن آية الطلاق سبقت آية أخرى
ذكرت فيها هذه الجملة ، فى سياق الحديث عن جزاء المتقين ، وهى قوله
(تعالى) : " ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ
وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا " (٢) ، فأغنى ذكرها فيها عن إعادتها ثانياً فى نفس السورة .

أما آية التغابن فلم تُسبق بما سبقت به آية الطلاق ، فقد ذكرت فيها
هذه الجملة ابتداءً لحاجة المعنى إليها .

وفى الآيتين اختلاف آخر من جهة الخاتمة ، فقد خُتمت الأولى
بقوله (تعالى) : " ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ " . ولعل ذلك لورود الحديث فى
أولها عن يوم الجمع ، وما يُشير به فى النفوس من وجل وفرق ، بالإضافة إلى
ما سبقت به مثيراً - أيضاً - للفرغ والرهبة من قوله (سبحانه) : " قُلْ يَلَسَ
وَرَبِّى لَتَعْمُنَنَّ ثُمَّ لَتَنْبُوْنَ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ " وقوله : " وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ " إذ أن التعقيب على الجزاء بها فيه تأنيس وملاطفة وسط هذه المخاوف

والأهـوال !!

(١) ملاك التأويل ج ٣ ص ٦١٠ - ٦١١

(٢) الآية / ٥

ولمقابلته ذم مقام الكفار في الآية التالية لها ، حيث يقول (سبحانه)
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ
مَصِيرٌ (١)

وختمت الثانية بقوله (تعالى) : " قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا ، وَلَعَلَّ
لَكَ لَشَيْعٍ لَفْظٌ " الرزق " في السورة ، فقد سبق في قوله (تعالى) : " وَمَنْ يَتَّقِ
اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا " ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (٢) ، وفي قوله (تعالى)
لِيُنْفِقُ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُغْنِقْ ، مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ (٣) ، وكأنها
شير إلى أن الإيمان بالله (عز وجل) والعمل الصالح في هذه الحياة
الجزء عليه في الآخرة هو أحسن الرزق ، وهو الرزق الذي ينبغي
أن يشغل به المرء في حياته لا بما سواه من أرزاق تتعلق بمشاع الحياة وزخرفها
فانسى فالعاقبة عند ربك للمتقين .

* * *

ومن الأسئلة قوله (تعالى) في سورة المائدة :
" وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى
رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْجَبِينُ (٤) " وفي سورة التغابن :
" وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْجَبِينُ (٥) " ،
حيث اختصت الأولى بزيادة قوله " واحذروا " ، وقوله " فاعلموا " عن الثانية ، مع
تحاد ما تضمنته من الأمر بطاعة الله ، وطاعة رسوله ، والتحذير من التكب
من ذلك والتولي .

(٢) الأيتان / ٢ - ٣
(٤) الآية / ١٢

(١) الآية / ١٠
(٣) الآية / ٧
(٥) الأيتان / ١٠ - ١١

والمر في ذلك أن الأولى وردت عقب الأمر باجتنب الخمر وما ذكر
 معها ، وعلى هذا الأمر ، وفي قوله (تعالى) : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**
إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَعُ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ * **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ**
وَيَصَدَّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وعن الصلاة فهل أنتم مُنْتَهُونَ (١) ، فناسب هذا
 السياق الإتيان فيها بغاية التحذير والتشديد تأكيداً للنهي السابق ، فزيد
 قوله **وَاحْذَرُوا** وقوله **فَاعْلَمُوا** .

أما الثانية فلم يرد قبلها ما يعتد على التأكيد بهذه الزيادة ، لأن
 الذي قبلها قوله (تعالى) : **مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ**
بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ سَبِيلَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢) ، ولم يرد في سياقها نهى عن
 محرمات كالوارد في سياق الأولى (٣) .

(١) الآيتان / ٩٠ - ٩١

(٢) الآية / ١١

(٣) راجع في هذه الترجمة ملاك التأويل ج ٢ ص ١٧٩

سورة النجم

الحمد لله في الأولى والآخرة :

بسم

فقد ذكرت في المقدمة أهم نقاط البحث وأبرز نتائجه ، ما يجعل إعادة القول فيها من التكرار السل . وما تركته من نتائج يصعب صياغته صياغة كلية ، إذ يستلزم على الدراسة في هذا البحث الطابع التطبيقي .

واكتفى هنا بالإشارة إلى موضوعات جديدة بالدراسة ، تعرفت عليها في مسيرة هذا البحث ، منها :

- دراسة المشتبهات دراسة موضوعية ، مثل .
- أ - المشتبهات من الآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر بأحواله وأحواله .
- ب - المشتبهات من الآيات التي تتحدث عن المعاصرين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومواقفهم من الدعوة .
- دراسة ظواهر النظم في جمل الفواصل المشتعلة على صفات الله (عز وجل) وأسمائه .
- بالإضافة إلى المخطوطات التي تحتاج إلى تحقيق ودراسة ، وقد تحدثت عنها بالتفصيل في الفصل الثاني من القسم الأول .

وفي ختام حديثي ، وقبل أن أضع القلم ، أتوجه إلى الله العليّ القدير ، الذي هداني لهذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يعفو عما نصرت فيه ، أن يجعله ثقلًا في ميزان الحسنات يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، ولا ينفع المرء إلا ندمت يسداً .

• رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَتُكْرِمَكَ الْعِزُّ أُنْعِمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دِينِي إِنَّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ •

(الأحزاب / ١٥)

المعاصر والمراجع بعد القرآن الكريم

- الإيمان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي - مصطفى الحلبي سنة ١٢٩٨ هـ - سنة ١٩٧٨ م
- أثر النحلة في البحث البلاغي : د / عبد القادر حسين ، ط دار نهضة مصر .
- أثر القرآن في تطور البلاغة حتى نهاية القرن الخامس الهجري : د / كامل الخولي -
- دار الأنوار ط ١ سنة ١٣٨١ هـ - سنة ١٩٦٢ م .
- أثر القرآن في تطور النقد العربي : د / محمد زغلول سلام - ط دار المعارف سنة ١٩٦٨ م .
- إرشاد الرحمن لأسباب النزول والنسخ والمتشابه وتجويد القرآن : ابن عطية الأجهوري
- مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم (١٥٢) ١١٤٧ .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : أبو السعود العمادي - هامر على -
- الغدير الكبير "مفاتيح الغيب" للفخر الرازي . المطبعة الحسينية المصرية
- أساس البلاغة : الزمخشري - تحقيق : الاستاذ / عبد الرحيم محمود - دار المعرفة للطباعة
- والنشر - بيروت سنة ١٣٩٩ هـ - سنة ١٩٧٩ م .
- أسباب النزول : أبو الحسن الواحدي - دار الشباب للطباعة سنة ١٣٨٨ هـ - سنة ١٩٦٨ م .
- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم : مقاتل بن سليمان البلخي - تحقيق د / عبد الله شحاتة
- وطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٣٩٥ هـ - سنة ١٩٧٥ م .
- إعجاز القرآن : أبو بكر الباقلاني - تحقيق : السيد صفور - ط دار المعارف سنة ١٩٦٣ م .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ط سنة ١٣٩٣ هـ - سنة ١٩٧٣ م
- نشر دار الكتاب العربي - بيروت .
- إعجاز القرآن : الأستاذ عبد الكريم الخطيب - نشر دار الفكر العربي . ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .
- الأمالسي : أبو علي القاسمي ج ٢ - ط دار الكتب سنة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م .
- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال : ابن المنير الأسكندري - هامر على غدير الكشاف
- للمزمخشري - مطبعة مصطفى الحلبي - الطبعة الأخيرة سنة ١٣٩٢ هـ - سنة ١٩٧٢ م
- البحر المحيط : أبو حيان - طبع ونشر مكتبة النصر الحديثة بالرياض .
- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية - نشر دار الكتاب العربي . بيروت .
- بديع القرآن : ابن أبي الإصبع تحقيق : د / حفني شرف - مطبعة الرسالة ط ١ سنة ١٣٧٧ م .
- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - مطبعة
- عمى الحلبي ط ١ سنة ١٣٧٦ هـ - سنة ١٩٥٧ م .

- البرهان في مشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان : محمود بن حمزة الكرمانى - تحقيق :
عبد القادر عطا بعنوان " أسرار التكرار في القرآن " - ط ٢ دار الاعتصام سنة ١٣٩٦ هـ -
- البرهان في مشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان : محمود بن حمزة الكرمانى - تحقيق :
منصور محمد منصور الحفناوى - رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة القاهرة تحت رقم ١٥٣٤
سنة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مجد الدين الفيروز ابادى - تحقيق : محمد عيسى
النجار - مطابع شركة الإعلانات الشرقية سنة ١٣٨٣ هـ - من كتب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعدي على كتاب الإيضاح للخطيب القزويني ج ٤ المطبعة
النوادية - نشر مكتبة الآداب .
- البلاغة تطور وتاريخ : د / شوقي ضيف - دار المعارف ط ٥ .
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : د / محمد أبو موسى - طبع ونشر دار الفكر العربي .
- بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : د / عبد الفتاح لا شين - طبع ونشر دار الفكر العربي .
- البلاغة العربية في دور نشأتها : د / سيد نوفل - نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ م .
- بيان إعجاز القرآن : الخطابي - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تحقيق : د / محمد زغلول
سلام ، محمد خلف الله أحد - دار المعارف سنة ١٩٧٦ م .
- البيان والتهين : الجاحظ - تحقيق : عبد السلام هارون ط ٢ نشر مكتبة الخانجي بـ -
البيان العربي : د / بدوى طبانة - طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية ط ٤
- تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان - نقل د / السيد يعقوب بكر ، د / رمضان عبد التواب
دار المعارف سنة ١٩٧٥ م .
- تأويل مشكل القرآن : ابن قتية - شرح : السيد أحمد صقر - طبع في الحلبي .
- تحرير التحرير : ابن أبي الإصبع - تحقيق : د / حفنى شرف ط القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ .
- تحفة القارئ لكتاب الباري : أحمد الدردير مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٠٧ مجاميع تومسور .
- التصوير الفني في القرآن : سيد قطب - دار الشروق . بيروت .
- التعبير الفني في القرآن الكريم : د / بكرى شيخ أمين - دار الشروق سنة ١٣٩٦ هـ - سنة ١٩٧٦ م .
- التفسير الكبير " مفاتيح الغيب " : فخر الدين الرازى - المطبعة الحسينية المصرية .
- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير - طبع في الحلبي .
- تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا - ط دار المنار سنة ١٣٦٧ هـ

التكوير بين الخير والتأثير : د / عز الدين السيد - دار الطباعة المحمدية بالأزهر - ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ - سنة ١٩٧٨ م .

جامع البيان عن تأويل آي القرآن : أبو جعفر الطبري - تحقيق : محمد محمود شاكر - أحمد محمد شاكر - دار المداين بمصر ط ٢ سنة ١٩٦٩ .

الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله القرطبي - ج ١ ط ٣ دار القلم سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م . وياقنى التفسير ط دار الشعب .

حاشية الدسوقي : الدسوقي - مطبعة السعادة بمصر ط ٢ سنة ١٣٤٢ هـ .

حقائق وأباطيل حول إعجاز القرآن : د / على البدرى حسين - دار الطباعة المحمدية - ط ١ سنة ١٤٠٢ هـ سنة ١٩٨٢ - نشر دار الكتاب الجامعية .

حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة - العدد الأول ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ .

حول إعجاز القرآن : د / على العمارى - دار الثقافة العربية للطباعة سنة ١٣٨٣ هـ - سنة ١٩٦٣ م . من سلسلة الثقافة الإسلامية ٤٤ .

الحيوان : الجاحظ - تحقيق : عبد السلام هارون طبعة مصطفى الحلبي ١ سنة ١٣٥٩ / ١٩٤٠ .

الخصائص : أبو الفتح ابن جنى - تحقيق : محمد على النجار - ط دار الكتب سنة ١٣٧٦ / ١٩٥٦ .

خصائص التراكم : د / محمد أبو موسى - دار التضامن للطباعة - ط ٢ سنة ١٤٠٠ هـ .

خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم : د / محمد رجب البيومى - الشركة المصرية للطباعة والنشر

سنة ١٣٩١ هـ - سنة ١٩٧١ م - من سلسلة البحوث الإسلامية ٤٢ .

درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز : الخطيب الإسكافى

دار الأفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩ م .

الدر الكامنة فى أعيان الحاج الثامنة : ابن حجر العسقلانى - تحقيق : محمد سيد جاد الحق - مطبعة الدنسى .

دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى - تحقيق : د / محمد عبد المنعم خفاجى - مطبعة

الفيحاء ط ١ - سنة ١٣٨٩ هـ - سنة ١٩٦٩ م نشر مكتبة القاهرة .

رسائل الجاحظ : الجاحظ - تحقيق : عبد السلام هارون - ط ١ سنة ١٣٩٩ - سنة ١٩٧٩ م .

نشر مكتبة الخانجي .

روح المعانى : محمود شكرى الألوسى - دار إحياء التراث العربى - بيروت .

رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : محيى الدين أبو زكريا النووى - مطبعة المشهد الحسينى .

السيرة النبوية : ابن هشام - تحقيق : د / أحمد حجازي السقا - طبع ونشر دار التـرك

العريس سنة ١٣٩٩ هـ - سنة ١٩٧٩ م .

: ابن العماد الحنبلى - مكتبة القدس - ١٣٥٠ هـ.

مذرات الذهب

الصاحبی : ابن فارس - تحقیق : السید صفیر - مطبعہ عیسیٰ الحلوی

الصناعتين : أبو هلال العسكري - تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم .

مطلبه عيسى البابى الحلبي •

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة العلوي ط المتفـهـم

عبد القاهر الجرجاني : د / أحمد بدوي - المؤسس المصري العام للتأليف والنشر ، - من

سلسلة أعلام العرب ٨ - مطابع كوستاسوما سوشركاه .

عبد القاهر الجرجاني، بلاغة ونقد، د / أحمد مطلوب - نشر وكالة المطبوعات بالكوييت

ط ۱ منہ ۱۲۹۳ھ - منہ ۱۹۷۳م .

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : بهاء الدين السبكي - مطبعة السعادة بـ

ط ۲ سنه ۱۲۴۲ هـ .

العدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد

ط ٤ بیروت منہ ١٩٧٢ م

عدة القارى شرح صحيح البخارى : بدر الدين العيني - الطباعة النهرية لمحمد منير الدمشقى •

فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن : زكريا الأنصاري - رسالة ماجستير مخطوطة بكنية أصول

الدين بالقاهرة للباحث/ عبد السمیع حسین سنه ٢٩ - ١٩٨٠ م

الفخر الرازي والبلاء العربية : رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة

للدكتور / محمد جلال الذهبی سنه ۱۳۹۴ھ - سنه ۱۹۷۴م

الفهرست : ابن النديم - المطبعة الرحمانية بمصر .

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن : منسوب لابن قيم الجوزية - مكتبة المتنبى .

القاموس المحيط : مجد الدين الفيروز آبادي مطبعة السعادة بـ **بـ**

القضاء والقدر وإعجاز القرآن : الشيخ محمد متولى الشعراوى - الشركة المصرية للطباعة

والنشر - دار الشروق *

الكتاب : سهويه - تحقيق : عبد السلام هارون - مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سنہ ۱۳۹۵ھ - سنہ ۱۹۷۵ء

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري تحقيق : محمد الصادق قماوى - مطبعة مصطفى الحلبي - الطبعة الأخيرة سنة ١٣٩٢ هـ سنة ١٩٧٢ م .
- كشف المعاني في التشابه من المثاني : محمد ابن جماعة - مخطوط ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣١٨١٨ ب) .
- كشف الظنون : حاجي خليفة - ط ١ ر س ع ا د ت سنة ١٣١٠ هـ .
- كشف الكشاف : سراج الدين الفارسي - تحقيق : محمد محمود عبد الله السلمان، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة - سنة .
- لسان العرب : ابن منظور - الدار المصرية للتأليف والترجمة - مطابع مونتاتوما س .
- لواء الإسلام : العدد ١ للسنة العشرين رجب سنة ١٣٨٦ .
- اللواء الإسلامى : العدد ٦ للسنة الأولى سنة ١٤٠٢ هـ .
- متشابه القرآن على حروف المعجم : أحمد بن يزيد القرطبي - مخطوط ومنه نسخة مصورة بالميكروفيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٢١٣ تفسير .
- متشابه القرآن د راسه موضوعيه : د / عدنان زرزور - ط ١ نشر وتوزيع دار الفن بد مشق .
- متشابه النظم في قصص القرآن الكريم، مقارنة وتحليل : د / عبد الفتى الراجحي رسالة مخطوطة بكلية أصول الدين بالقاهرة رقم ٧٦ .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ابن الأثير - تحقيق : د / أحمد الحوفي - ط ١ .
- د / بدوى طبانة - ط ١ دار النهضة مصر .
- مختار الصحاح : محمد بن أبى بكر الرازى - المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ / ١٩٢٥ م .
- مسائل الرازى وأجوبتها من غرائب أى التنزيل : محمد بن عبد القادر الرازى - تحقيق : إبراهيم عطوه عوض - طبع ونشر مصطفى الحلبي سنة ١٣٨١ هـ - سنة ١٩٦١ م .
- مشتبهات القرآن العظيم : على بن حمزة الكسائى - مخطوط ومنه نسخة مصورة بالميكروفيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية تحت رقم ٢٤٠ تفسير .
- المصباح المنير : أحمد محمد الفيومى - تحقيق : د / عبد العظيم الشناوى ط ١ دار المعارف .
- المطول : سعد الدين التتازانى - مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠ هـ .
- المجم الفهري لألفاظ القرآن الكريم : محمد قواد عبد الباقي - مؤسسه جمال للنشر . بيروت .
- معجزة القرآن : الشيخ محمد متولى الشعراوى - كتاب اليوم عن مؤسسه أخبار اليوم، العدد ١٥٤ سنة ١٣٩٩ هـ - سنة ١٩٧٩ م .

- المعجزة الكبرى القرآن : الشيخ محمد أبو زهرة - ط دار وهدان - نشر دار الفكر العربي
معجم البلدان : ياقوت دار بيروت للطباعة والنشر .
- المغنى في أبواب التوحيد والعدل : القاضي عبد الجبار - نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مفتاح العلوم : السكاكي - مطبعة مصطفى الحلبي ط ١ سنة ١٣٥٦ هـ - سنة ١٩٣٧ م .
- المفردات في غريب القرآن - تحقيق : محمد سيد كيلاني - ط مصطفى الحلبي سنة ١٣٨١ / ١٩٦١
مقاييس اللغة : ابن فارس - مطبعة عيسى الحلبي - ط ١ سنة ١٣٨٦ هـ .
- ملك التأويل القاطع بذوى الالحاد والتعطيل في توجيه المنشابه اللفظ من آي التنزيه
ابن الزبير الأندلسي - تحقيق : د / محمود كامل - رسالة دكتوراه مخطوطة بجامعة عين شمس
تحت رقم ١١ / ٢ م ك بالمكتبة المركزية .
- الملل والنحل : الشهرستاني - هامش على كتاب الفصل لابن حزم ط محمد علي صبيح ١٣٨٤ / ١٩٦٤
مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني - مطبعة عيسى الحلبي ط ٣ سنة ١٣٧٢ هـ
مناهج بلاغية : د / أحمد مطلوب - نشر وكالة المطبوعات الكويت ط ١ سنة ١٣٩٣ / ١٩٧٣ م .
- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب : أمين الخولي - ط دار المعرفة سنة ١٩٦١ م .
- من بلاغة القرآن : د / أحمد بدوي - دار نهضة مصر للطباعة والنشر .
- نتائج الفكرة السهلة - تحقيق : د / محمد البنا - رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية
بالقاهرة تحت رقم ١٢٧ .
- نظرات في القرآن : الشيخ محمد الغزالي - مطبعة حسان بالقاهرة .
- نظرات في البلاغة والإسناد : د / محمد عبد الرحمن الكردي - مطبعة الشعادة .
- نظريه العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد الغربي الحديث : د / محمد نايل - دار الطباعة
المحدية بالأزهر .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين البقاعي مخطوط دار الكتب المصرية / ٢١٣ تغيير .
- النظم القرآني في كشف الزمخشري : د / دويش الجندی - دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٦٩ م .
- النكت في إعجاز القرآن : الروماني - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق د / محمد زغلول سلام
محمد خلف الله أحمد . دار المعارف بمصر .
- هداية المرتاب في التشابه : علم الدين السخاوي - مخطوط بالأزهر تحت رقم (٥٥٨) حلیم
- بالإضافة إلى مراجع أخرى ، ندر النقل منها ، اكتفيت بذكرها في مواضعها من هوامش البحث .

دليل البحث

— المقدمة ... ص ١ - ز

القسم الأول دراسة عامة حول المشتبهات ص ١ - ١١٣

الفصل الأول مشتبه النظم مفهوماً وتحديداً ص ١ - ٤٨

أولاً : المشتبه والفرق بينه وبين المتشابه ص ٢ - ١٣ .

المشتبه والمتشابه أصلهما واحد ويأتيان لإفادة معنى واحد عند الإطلاق ص ٢ - ٣ .

أصل دلالة التشابه ص ٣ - ٤ . أصل دلالة الاشتباه ص ٤ - ٦ . التأكيد على

الفرق بينهما ص ٦ - ٨ . مجيئهما بمعنى واحد عند التقييد بحرف الجر ص ٨ - ٩

الحكم والمتشابه في آيه آل عمران وآيات أخرى ص ٩ - ١٠ . أنواع المتشابه ص ١١ .

تحديد معنى المشتبه في هذا البحث ص ١١ - ١٣ .

ثانياً: النظم ص ١٤ - ٤٨ .

الإشارة إلى وجوه الإعجاز المختلفة ص ١٤ . القول بالإعجاز البياني أمبق الأقوال وأوضحها

ص ١٥ - ١٦ . تردد مصطلح " نظم " في المؤلفات القديمة حول الإعجاز ص ١٧ - ١٨ .

عند الجاحظ ص ٨ - ٢١ . عند ابن قتيبة ص ٢٣ - ٢٦ . مؤلفات مفقودة تحدثت عن

النظم في القرن الرابع الهجري ص ٢٦ - ٢٧ . عند الرمانى ص ٢٨ - ٣٠ . عند الخطابي

ص ٣٢ - ٣٦ . عند الباقلاني ص ٣٦ - ٤٠ . عند القاضي عبد الجبار ص ٤١ - ٤٣ .

عند عبد التاهر الجرجاني ص ٤٣ - ٤٧ . الشواهد القرآنية التي طبق عليها فكرة

النظم دون الشواهد الشعرية في الكم ص ٤٧ . أهمية الدراسة في هذا البحث بالنسبة

لدراسات البلاغة القرآنية ص ٤٨ .

الفصل الثاني المشتبهات في دراسات السابقين ص ٤٩ - ٧٧ .

المتشابه المعنوي حظى بالنصيب الأكبر من المؤلفات في المتشابه عموماً ص ٥٠ . المؤلفات

في المتشابه اللفظي بالمعنى الذي سارت عليه الدراسة ، وحديث المراجع عنها ص ٥٠ .

أسباب دفعته للحديث عنها ص ٥٠ - ٥١ .

متشابه القرآن لمقاتل بن سليمان البلخي ، والخلاف حول هذا الكتاب ص ٥١ - ٥٢ .

مناقشة آراء الباحثين ص ٥٢ - ٥٣ . التأكيد على أن هذا الكتاب ليس من كتب المتشابه

ص ٥٣ - ٥٤ . متشابه القرآن ، لحزمه ، متشابه القرآن لنافع ص ٥٤ . استنتاج أنهما

في المتشابه اللفظي ص ٥٤ - ٥٥ . مشتبهات القرآن العظيم للكشاني ص ٥٥ . منهج

الكتاب ص ٥٥ - ٥٦ . أثر الزركشي به وعدم إشارته إليه ص ٥٦ .

- متشابه القرآن لخلف بن هشام ص ٥٢ استنتاج أنه في التشابه اللفظي ص ٥٧ .
 درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي ص ٥٧ . أقدم كتب التشابه اللفظي التي عُنيت
 بالتحليل البلاغي للفروق ص ٥٧ . منهج الكتاب ص ٥٧ - ٥٨ . إشارة العلماء إليه
 وتأثيرهم به ص ٥٨ - ٥٩ . خلاص العلماء حول عنوانه ونسبته إليهم ص ٥٩ . مناقشة
 الآراء المختلفة وتأكيد نسبة الكتاب إليه بعنوان الصحيح ص ٦٠ - ٦٢ . البرهان فسي
 بتشابه القرآن للكرماني ص ٦٢ . تحقيق الكتاب بعنوان آخر ص ٦٢ . تحقيق آخر
 بعنوان الصحيح ص ٦٢ . منهج الكتاب ص ٦٣ . مقارنة بين درة التنزيل وبين البرهان
 ص ٦٤ . متشابه القرآن على حروف المعجم للقرطبي ص ٦٥ . منهج الكتاب ص ٦٥ .
 أمثلة توضح المنهج ص ٦٥ - ٦٦ . هداية المرتاب في التشابه للمخاوي ص ٦٦ .
 منظومات أخرى في التشابه ص ٦٧ . ملك التأويل لابن الزبير ص ٦٧ . الكتاب أبسط
 كتب التشابه اللفظي ص ٦٧ . إشارات العلماء إليه ص ٦٧ . منهج الكتاب ص ٦٨ .
 مقارنة بينه وبين درة التنزيل ص ٦٩ . كشف المعاني لابن جماعة ص ٦٩ . منهج الكتاب
 ص ٧٠ . بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ص ٧١ . منهج الكتاب ص ٧١ . حديثه عن
 المشتبهات منقول من كتاب البرهان للكرماني ص ٧٢ . فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في
 القرآن للشيخ زكريا الأنصاري ص ٧٢ . منهج الكتاب ص ٧٣ . مطابقة عنوان الكتاب
 للموضوعات والقضايا التي درستها المؤلف ص ٧٣ . إرشاد الرحمن . . لابن عطية الأجهوري
 ص ٧٣ . منهج الكتاب ص ٧٣ . مؤلفات أخرى تحدثت عن المشتبهات ص ٧٤ .
 ملاحظات عن المؤلفات في التشابه ص ٧٤ - ٧٦ . موقف البحث من الدراسة في هذه
 المؤلفات ص ٧٦ . دراسة معاصرة للمشتبهات وموقف البحث منها ص ٧٧ .
 الفصل الثالث المشتبهات وظاهرة التكرار في القرآن الكريم ص ٧٨ - ١١٣ .
 التكرار في كلام العرب وفي القرآن ص ٧٩ - ٨٨ .
 التكرار عادة بيانية قديمة ص ٧٩ . التكرار من طرائق التعبير عند العرب التي جازاهم
 فيها القرآن الكريم ص ٧٩ . شبهات الملحدين قديما والمستشرقين حديثا حول هذه
 الظاهرة ص ٨٠ . ردود السلف ودفاعهم ص ٨٠ - ٨١ . من حديث الجاحظ عن التكرار
 في القرآن ص ٨١ . من حديث ابن قتبية ص ٨١ . من حديث الخطابي ص ٨٢ . من
 حديث ابن فارس ص ٨٢ - ٨٣ . من حديث ابن جني ص ٨٣ . أمثلة من التكرار عند
 العرب ذكرها أبو علي الفارسي ص ٨٣ . أمثلة أخرى ذكرها الشريف المرتضى وعلق عليها
 ص ٨٤ . من حديث أبي هلال العسكري ص ٨٤ - ٨٥ . من حديث ابن رقيق ص ٨٥ - ٨٦ .
 ما يميز به التكرار بوجه عام في القرآن عنه في كلام العرب ص ٨٦ - ٨٧ .

أنواع التكرار في القرآن ص ٨٨ - ١٠٠ .
تكرار حرف ص ٨٨ - ٩١ . تكرار كلمة في صور مختلفة من فنون البديع وغيرها ص ٩١ - ٩٤ .
تكرار موضوع ص ٩٤ - ٩٦ . تكرار آية كاملة أو جزء من آية ص ٩٧ - ٩٨ . الشبهات
تدرج تحت النوع الأخير من هذه الأنواع ص ٩٨ . هذه الآيات متحدة المعاني من وجه
مختلف من وجه ص ٩٨ - ٩٩ . كلام لعبد القاهر والبلاغيين يؤيد هذا ص ٩٩ - ١٠٠ .

مواقع التكرار في القرآن ١٠١ - ١٠٤ .
التكرار ظاهرة شائعة في كثير من موضوعات القرآن ص ١٠١ . كلام لأبي هلال العسكري في
نقله عن الجاهل يدل على ارتباط هذه الظاهرة بطائفة المخاطب ص ١٠١ . تحسيس
الرافعي لهذا الكلام ، واستدلالة على صحته بغير ما استدل به أبو هلال ص ١٠١ - ١٠٢ .
مناقشة هذا الكلام ص ١٠٢ - ١٠٣ .

الأغراض العامة للتكرار في القرآن ص ١٠٤ - ١٠٩ .
التقرير ص ١٠٤ - ١٠٥ . التأكيد ص ١٠٦ - ١٠٧ . تجديد العهد بمعاني القرآن
ص ١٠٧ - ١٠٩ . أغراض أخرى ذكرها الزركشي ص ١٠٩ - ١١١ . من علامات الإعجاز
في أسلوب التكرار ص ١١١ - ١١٣ .

القسم الثاني الشبهات في ضوء نظرية النظم ص ١١٤ - ٣٨٢ .
تهيد ص ١١٥ - ١٢١ .

الفصل الأول : فوق في النظم على مستوى الكلمة ص ١٢٠ - ٢٠٩ .
بين التعريف والتكبير : ص ١٢١ ، تقديم ومناقشة أحد الباحثين بخصيص المعاني التي
تفيدها الفكرة ص ١٢١ - ١٢٢ . من الأمثلة لصور مختلفة بالنظر إلى أجزاء الجملة ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .
بين أداتي تعريف وتعريف واحد ص ١٤٣ . من الأمثلة ص ١٤٣ - ١٤٧ .
بين الإظهار والإضمار ص ١٤٧ . من الأمثلة ص ١٤٧ - ١٥٠ .
بين الأفراد والجمع ص ١٥٠ - من الأمثلة ص ١٥٢ - ١٥٨ .
بين الأفراد والتثنية والجمع ص ١٥٨ . من الأمثلة من ص ١٥٨ - ١٦٥ .
بين جمع القلة وجمع الكثرة ص ١٦٥ . من الأمثلة ص ١٦٥ - ١٧٧ .
بين التذكير والتأنيث ص ١٧٧ . من الأمثلة ص ١٧٧ - ١٨٠ .
بين اسم الفاعل واسم التفضيل ص ١٨٠ . من الأمثلة ص ١٨٠ - ١٨٢ .
بين الماضي والمضارع ص ١٨٢ . من الأمثلة ص ١٨٢ - ١٨٦ .
بين التذكير والتأنيث في الفعل ص ١٨٦ : من الأمثلة ص ١٨٦ - ١٨٩ .

- بين ورود الفعل على الأصل ووروده على صيغة الافتعال ص ١٩٠ • من الأمثلة ١٩٠ - ١٩٥
 بين تعدية الفعل بالهزة وتعديته بالتضعيف ص ١٩٥ • من الأمثلة ١٩٥ - ١٩٨ •
 بين البناء للفاعل والبناء للمفعول ص ١٩٨ • من الأمثلة ١٩٨ - ١٠١ •
 بين البناء للواحد والبناء للجمع ص ٢٠٢ • من الأمثلة ٢٠٢ - ٢٠٤ •
 بين ورود الفعل على أصله ووروده مخففا ص ٢٠٥ • من الأمثلة ٢٠٥ - ٢٠٧ •
 بين ورود الحذف على أصله ووروده مخففا ص ٢٠٧ • من الأمثلة ٢٠٧ - ٢٠٩ •

- الفصل الثاني : فروق في النظم على مستوى الجملة ص ٢١٠ - ٢١٣ •
 بين التقديم والتأخير ص ٢١١ • من الأمثلة لصور مختلفة ص ٢١١ - ٢١٨ •
 أمثلة لصور أخرى لها طابع خاص ص ٢١٨ - ٢٣٥ •
 بين الحذف والذكر ص ٢٢٦ - • من الأمثلة لصور مختلفة : ص ٢٢٦ - ٢٥٥ •
 التبادل بين الكلمات ص ٢٥٦ • من الأمثلة لصور مختلفة ص ٢٥٦ - ٢٩٤ •
 اختلاى المقطع ص ٢٩٥ • من الأمثلة ص ٢٩٥ - ٢٠٣ •
 اختلاى جهات التعلق بين الألفاظ ص ٣٠٣ • من الأمثلة ص ٣٠٣ - ٣١٣ •

- الفصل الثالث : فروق في النظم على مستوى الجمل ص ٣١٤ •
 بين الفصل والوصل ص ٣١٥ • تقديم ص ٣١٥ - ٣١٦ • من الأمثلة لصور مختلفة ص ٣١٦ - ٣٠ •
 من الأمثلة للفصل والوصل بغير الواو ص ٣٣١ - ٣٣٦ •
 الاختلاى بحروف العطف ص ٣٣٧ • من الأمثلة لصور مختلفة ص ٣٣٧ - ٣٥٤ •
 بين التقديم والتأخير ص ٣٥٥ - • من الأمثلة ص ٣٥٥ - ٣٦٢ •
 اتحاد أوائل الآيات واختلاى خواتيمها ص ٣٦٢ • من الأمثلة ص ٣٦٢ - ٣٧١ •
 اتحاد خواتيم الآيات واختلاى أوائلها ص ٣٧٢ • من الأمثلة ص ٣٧٢ - ٣٨١ •
 بين الزيادة والنقصان ص ٣٨٢ • من الأمثلة ص ٣٨٢ - ٣٨٧ •
 الخاتمة ص ٣٨٨ •
 أهم المراجع والمصادر ص ٣٨٩ إلى ٣٩٤